محمد ربيع

عُطارد

رواية

التنوير

محمد ربيع

عُطارد

الكتاب: عُطارد
المؤلف: محمد ربيع

عدد الصفحات: 304 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-61-0

رقم الناشر: 14/431-69

الطبعة الأولى: 2015

الناشر:



دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني – هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة–وسط البلد –19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)–الدور 8–شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

محمد ربيع

عُطارد



مدخل

خطُّ الدم هذا يذكِّرني بأشياءَ كثيرة.

هو مرسومٌ على الحائط، ليس عموديًّا بل يميلُ بزاوية صغيرة، وينتهي أعلاه بمنحنى حادٍّ ليعودَ طرفُه إلى الأرض، ونقاطٌ صغيرةٌ تتدلَّى منسابةً من طرف المنحنى وقوسه. يذكِّرني بالريشة الحُرَّة في ذيل النعامة، وبخطّ الماء الصاعد من مركز النافورة، وبمسار جمرات الألعاب النارية المنطلِقة في السماء.

الجزَّارُ كان محترفًا حقًّا، ضرب قائمتَي العجل الأماميّتين ضربةً واحدة بسكينه الضخمة، طرحه أرضًا، ثم مرَّر السكين نفسها على رقبته قاطعًا الحنجرة الوَردية ووعاءً دمويًا، لينبثق الدم خطًّا صافيًا يماثلُ تمامًا خطّ ماء النافورة. تحرَّك الخطّ ساقطًا بفعل الجاذبية، أفقيًا بفعل ضغط القلب، ليلاقيَ الحائطَ على بعد سنتيمترات قليلة فارتسم عليه، مسجِّلًا الشكلَ الكلاسيكيَّ لخطّ السائل الطائر. هذا الشكل الذي كان سيضيع إلى الأبد، تمّ الحفاظ عليه مرسومًا على الحائط.

أكل الكثيرون لحم العجل المذبوح، يُقال إنَّ بعض الناس يعتبرون اللّحم الطازج محرِّكًا للطاقة الجنسية، وتبدو الطقوس كلُّها مثيرةً حقًّا؛ الذبحُ، ورائحةُ الدم المختلِطة برائحة الروَث، وسلخُ العجل، ثم تعليقُ الذبيحة وتقطيعُها، ومشهدُ العشرات الواقفين في انتظار قطعة لحم، ومشهدُ الأطفال على الجانب وهم يأكلون قطعًا من الكبد النيء الذي لا

يزال ساخنًا طريًا، وتعجُّل الواحد وهو يُمسك بالكيس البلاستيك الممتلئ باللحم وهو يرحل مبتسمًا، وجلستِي متابعًا كلَّ هذا مرتديًا ثوبًا أبيض، مسترخيًا من عناء شهور طويلة.

عطلة عيد الأضحى فرصةٌ طيِّبةٌ لتحطيم النظام الغذائيّ وللاسترخاء والتعرُّف على ما يحدث في الريف، وأيضًا لفَهم العَلاقة بين اللحم والجنس.

في المساء، تجمَّع الكثير من الفقراء. أَتوا ليأكلوا من المائدة الضخمة المُعدَّة لهم. جلسوا على الأرض متحلِّقين حول مفرشٍ أبيضَ ناصع، وأطباق فارغة ذات أشكال متعدِّدة موضوعةٍ أمامهم، ثم طاف عاملٌ لدى أهلِ البيت عليهم، يغرف من قِدرٍ ضخم يحمله زميلُه قطعتين من اللحم لكلِّ واحد، يُخرجهما بيده العارية، ولاَ ينحني ليضعَهما في الطبق، بل ينتظر أن يرفعَ الواحد منهم طبقَه إليه فيتركَ القطعتين لتسقطا فيه. ويبدأ الأكل فورًا، لحمًا مسلوقًا مع قِطَعِ دُهنٍ كثيرة، لحمًا رماديًّا ودهنًا أبيض، كلُّ هذا بدا لي مقزِّزا، لكنَّ الآكلينَ كانوا مستمتعين للغاية.

على الحائط أمامي ارتسم خطّ دم يطابقُ ما شاهدته قبل أيّام، يوم العيد في بيت العائلة.

هذه المرَّة انبثقَ من وريد شابّ في السادسةَ عشرةَ. بين السرير والحائط، في الفرجة الضيِّقة التي لا يتعدَّى عرضُها خمسين سنتيمترًا، انحشرت جثته بوضع شديد الغرابة؛ الرأس مائلة والفم مضغوط لكنّه فاغرٌ والذراعان مرفوعتان لأعلى، بينما الكفّان نصف منقبضين، والأغرب أنّ الساقين كانتا مرفوعتين لأعلى أيضًا، الركبتان قرب الوجه، إحداهما مكسورة والساق تتدلَّى منها ببؤس ملتصقة بجانب الجثمان. على الحائط الآخر ارتسم خطُّ دمه واضحًا للعين. بدا لي أنّ أصحابَ البيت قد أعادوا طلاء الحوائط مؤخّرًا، لونها السكريّ متجانسٌ وواضح بلا شوائبَ ولا آثارٍ لبصمات أصابع أو احتكاكِ أثاث، حائط ذو لون واحد يصلح كخلفِية للرسم أو الكتابة. وخطُّ الدم يُظهر لونه أكثر وأكثر.

كنتُ وحيدًا؛ باندفاع أهوجَ ذهبتُ إلى حيث العنوان المبلَّغ عنه، وجدتُ ضبّاط النجدة وقد سبقوني إلى هناك، وقف بعضهم في ارتباكٍ شديدٍ في صالة البيت، وبعضُهم خارج الشقّة على السلم، لم يدخل أحدهم إلى الغرف، فقط نظروا من خلال الأبواب المفتوحة إلى ما فيها، وكانوا حريصين حقًا على عدم لمس أيِّ شيء، لم يكن هذا لحرصهم على نظافة مسرح الجريمة كما تقتضي القواعد، بل لأنَّهم كانوا خائفين. عرفتُ ذلك حينما نظرتُ في عين أوّلهم، أعلم تمامًا منظر عيني ضابط الشرطة الخائف، منظر لا يمكن وصفه، فقط نعرفه ونتبادله في ما بيننا، نعترف بخوفنا بلا كلام، نوزِّع المسؤولية على الحاضرين من أهل الثقة بتلك النظرة. وقفت في الموقف ذاته مرَّات عديدة، وتعرَّضت للخوف نفسه، ووزَّعت المسؤولية على الزملاء مستخدمًا النظرة نفسها، وتحمَّلتُ المسؤولية وحيدًا في أحيانٍ قليلة، وأعرفُ حجم الضغط الناتج عنها. لذلك حاولت رسم النظرة المطمئنة حينما دخلتُ، كنتُ لا أعرف ما حدث في الشقّة بالضبط، قيل لي إنّ الأب قتل عائلته، وأعددتُ نفسي لدمٍ كثير، لكنّ نظرةَ الضابط أوحت لي بما هو أكبر من ذلك، لوهلة انتقل جزءٌ من خوف الضابط إليَّ، وبدا لي أنَّ الخوف سيقيم طويلًا هنا.

كان صاحبُ البيت قاعدًا أمام التلفزيون في الصالة، يغطّي كتفَيه ببطانية خفيفة، ويحدِّق في شاشة التلفزيون، ويبدو أنَّه يأكل من طبق يحمله بين يديه، ورجلٌ طاعنٌ في السنِّ يجلس على كرسي وثير، كفّاه في حجره ورأسه تستندُ إلى ظهر الكرسي. من نظرة واحدة عرفتُ أنه ميِّتٌ منذ ساعات، كان الرجل يتابعُ فيلمًا قديمًا في التلفزيون، إسماعيل ياسين يرقصُ في بارٍ شعبي، يغنِّي للخمرة، ويشاركُه الجمهورُ الغناء. الرجل يأكل بالمِلعقة من الطبق بِنَهم، كانت الرائحة قاتلة، عفنٌ وخراءٌ ولحمٌ مطبوخ وقيء، ولمحتُ الخراء متجمِّدًا على الكرسي تحت الميت، وعلى الأرض قرب قدَميه، والآخر قد فرغ من الطعام ووضع الطبق إلى جانبه وتابع مشاهدة الفيلم. حينها تأكَّدتُ أنّ خوف الزميل كان ردَّ فِعلٍ ساذَجًا على ما رأى.

أخبرني الزميلُ أنّ هناك أربعَ جثث؛ الفتى في الغرفة الأولى، وأختَه الكبيرةَ في الغرفة الثانية، والأمَّ وولدًا صغيرًا في الغرفة الثالثة. ماتوا بضربات ساطورٍ منزليّ، وجَّهها الأبُ، القاعدُ أمام التلفزيون. تخشُّبُ الجثث ورائحةُ النتانة أوحيا بأنّه قتلهم منذُ يومين أو ثلاثة تقريبًا.

كانت الفوضى عارمة في المطبخ، قدورٌ، وأوعية مُلقاة على الأرض وفوق الطاولة، ورائحةٌ منتّنة، وبقعُ قيءٍ متجمِّدٍ على الأرض، وخراءٌ في كلّ مكان.

في الغرفة الأولى تسمَّرتُ أمام جثّة الفتى العالقة بين السرير والحائط، وبعد دقيقة أدركتُ أنّي أفقدُ الوعي ببطء، أفقدُه وأنا أعي ذلك، تحرَّكتُ مندفعًا خارج الغرفة وخارج الشقّة، كانت الشقّة في الطابق الأخير فصعدتُ السلم حتّى وصلتُ إلى السطح، هناك تحت النجوم المخنوقة بالهواء الملوَّث تقيَّأتُ.

كان الغثيانُ قد تملَّكني تمامًا، ولم أتمكّن من الوقوف فجلستُ على الأرض المتَّسِخة محاولًا السيطرةَ على معدتي، هيئةُ الفتى الغريبة، وجسدُه المتخشِّب ووجهُه المواجِه الحائطَ، كلّ هذه صارت صورًا ماثلة في ذهني لا تروح، وكأنّها حُفرت في ذاكرتي إلى الأبد. واستدعت، بكلِّ أسفٍ، صورَ كلِّ جثمانٍ رأيتُه منذ أن عملت في هذه المهنة؛ الوجوهَ البائسةَ والأفواهَ الفاغرةَ، والأعينَ نصفَ المنغلقة مستسلمةً للموت. حاولتُ استنشاقَ هواءٍ نظيف غيرِ ذلك المُحمَّل بالنَّتانة في الشقّة، ملأتُ رئتيَّ به لأقصى درجة. كانت غشاوة رمادية تحجب النجومَ والقمر عنّي، ونظرتُ في السماء، ورأيتُ بين النجوم ابنتيَّ وزوجتي، ورأيتُ أسماءهنّ مكتوبةً تحت صورهنّ في الصحف. الزوجة عبير عبد الحقّ 37 سنة، والطفلة فريدة 11 سنة، والطفلة سالي 4 سنوات. ورأيت صورتي معهنّ، النقيب أحمد عطارد. كان الخبر بلا عنوان وبلا تفاصيل، فقط خطوطٌ سوداء في موضع الكتابة تحت الصور، غيرُ واضحةٍ ولا أفهم منها شيئًا. لكنّي كنت أعرف أنّ هذا خبر قتلي لهنّ، ولم أعلم أبدًا لِمَ كنت واثقًا إلى هذا الحدِّ أنّي

سأقتلُهم قريبًا، وأنّي سوف أُغيِّر مصيرَهم إلى مصيرٍ أفضلَ ولو كان موتًا. ثم رأيتُ أنّي سأقتل الكثيرين، وأنَّ عددًا هائلًا من الناس سيُقتلون لكنّي لن أشترك في قتلهم، ورأيتُ أنَّ الناس ستقتلُ أبناءها وستأكل لحومهم، ورأيتُ أنَّ الرجل القاعدَ يأكل الطعامَ، ويتفرَّج على التلفزيون قد حطَّم آخرَ الأختام وأطلق العِنان لكلّ ما سيحدث. رأيتُ كلَّ هذا ولم أفهم أيَّ شيء. رأيتُه قبل أن أدخل باقي الغرف، وقبل أن أرى باقي الجثث، وقبل أن أرى ما سجَّله الرجلُ على كاميرا تليفونه.

أثبتتِ التحقيقاتُ والاعترافات أنَّ الأبَ قتلَ عائلتَه بالساطور، ثمّ انتظر عِدّةَ ساعاتٍ رَيثما يحضِّرُ لما بعد ذلك، أعدَّ سكينًا صغيرًا، وقدورَ طهيٍ متعدِّدة، وقطَّع بصلًا، وقشَّر ثومًا، وعصر مقدارًا كبيرًا من الطماطم. ثمّ، بسكينه الصغير الحادّة، قطّع شفاههم وأنوفهم وآذانهم، واقتلع أعينَهم، ثم قطع أجزاءً صغيرة من السواعد والأفخاذ، واستأصل ثديَي زوجته، ووضع الأعين في قِدرٍ صغيرة، والآذان والشِّفاه في قِدرٍ أكبر، وقطع اللحم في قدر ثالث، والثديين وضعهما في وعاءٍ من الفُخّار، وأضاف ما قطَّعه من بصلٍ، وثوم، وطماطم إلى القدور، وطبخ كلَّ هذا في مطبخه. تصاعدت رائحة الطعام تشيرُ إلى طبخ لحم عيد الأضحى فلم يرتَبِ الجيرانُ في شيء، وردَّ الرجل على اتصالات الأهل متقبِّلًا تهانيهم، بل واتّصل ببعضهم مهنِّئًا إيَّاهم بالعيد، وعندما سألوه عن العائلة، قال إنّ أولاده خرجوا وزوجته تستحم.

لكنّ الأب كان حريصًا على رضا الجَدّ الذي رأيتُه ميتًا بجانبه. أخبرنا الأبُ أنّه سجَّل مشاهد كثيرة على كاميرا التليفون وعلى كاميرا فيديو. كنَّا قد أفرغنا كلَّ التسجيلات قبل أن يعترف بهذا، وضممنا كلَّ شيء إلى ملفّ القضية. بدا الأمرُ سهلًا جدًّا بوجود التسجيلات العديدة. كانت قضيةً نظيفة بلا أيّة تعقيدات، قضيةً كانفيها حكمُ إعدام الأب مضمونًا. ولولا التفاصيلُ الخاصّة بالأكل، لكانت قضيةً كلاسيكيةً عاديّة.

كان معظم ما حدث مسجَّلًا بالكاميرات، وجدنا تسجيلًا للأب

وهو يقطع قسمًا من فخذ زوجته، وتسجيلًا آخرَ وهو يقطع، في طقوس استعراضية، ثدييها. وتسجيلًا وهو يقطع ببطء وهدوء أنوفًا وآذانًا وأعينًا. عدا الابن الأكبر، فقد تركه كاملًا. قال الأب إنّ الفتى قاومه كثيرًا، ومات وهو يعاني، لذلك لم يستحقّ التقطيع. ثم تسجيلًا آخرَ وهو يضع كلَّ نوع من اللحم في قِدر، ثم يضيف الخضر والإضافات الأخرى ويقلّب كلّ شيء. وتسجيلًا طويلًا للوعاء المَعدِنيّ وغطائه الزجاجي واللحم ينضج على مَهَلٍ فيه، وكان أطول تسجيل في المجموعة كلِّها.

لكنَّ أفظع الصور كانت لأبيه، للجَدّ الميّتِ غارقًا في أوساخه على الكرسيِّ الوثير.

استقرّت الكاميرا على الحامل الثلاثي، بدت هذه المجموعة من التسجيلات أنقى، وأوضح من الأولى المأخوذة بكاميرا التليفون، احتلَّ الأبُ والجَدّ الكادر كاملًا، وظهر الأب وهو يحاول إطعامَ الجَدّ من طبق في يده. كان يُمسكُ الطبق بيسراه ويقرِّبه من الجَدّ، ويرفع مِلعقةً تحوي القليلَ من اللحم. نظر إليه الجَدّ غاضبًا، وضرب الطبق بكفِّه، وصرخ في وجه الرجل، لم نفهم ما قاله من فرط غضبه. في تلك اللحظة من التحقيقات كان كلُّ شيءٍ واضحًا تمامًا، لكنّنا كنّا بحاجة إلى تفسير أو توضيح أو حتّى إشارة إلى دوافع الحادث. وأتت حكاية الجَدّ الغاضب لتُذهل الجميع. تبيَّنَ أنّ الجَدّ لا يتحرَّك، سِنُّه أقعدَه، وأنّه كان يعلم بما يفعله ابنُه لكنّه لا يملك أيَّ حيلة لمنعه. كان يعلم بأنّه يقطِّع لحوم أحفاده واحدًا تلوَ الآخر، ولا بدَّ أنّه علم بأنّه طبخ اللحم. ويبدو أنّ أقصى ما استطاع عمله هو ضرب الطبق بكفّه ليطيرَ ساقطًا بعيدًا عن الاثنين. هذا كلّ ما استطاع فعله.

في التسجيلات التالية كان الأب يحاول إقناع الجَدّ بالأكل، كان يدفعُه إليه دفعًا، كان يهمسُ له بكلام لم نسمعه. ولم نتصوّر ما يُمكن أن يُقال ليقنع واحدٌ أباه بأكل لحوم أحفاده. كان ردُّ الجَدّ منفعلًا جدًّا في البداية، كان يصرخ: «أنتَ كاذب... لا تقل هذا...». كان الأب يردُّ عليه في هدوء وهمس، والجَدّ يتحوَّل من الغضب إلى الأسى، ومن الصراخ إلى البكاء

ثم النحيب. كان كلَّما كلَّمه الرجل، زاد نحيبه، وانتهى التسجيل والجَدّ يهمس: «كفاية... كفاية...».

كان التسجيل التالي بعد عدّة ساعات، وكان قد مرَّ على جريمة القتل يومٌ كامل، والأب والجَدّ في موضعهما السابق نفسِه، والجَدّ يحاول إجبار نفسِه على الأكل من طبق يمسكه الأب، كان يُمسك بالملعقة ويقرِّبُها من فِيه، وهو يقول: «هذا أفضلُ لهم... حسن... لكنّي لا أقدر... صعب... أَكلُهم صعب... قتلُهم صعب...». ثم أخذ ينهنه كالأطفال، وتناول أوّل مِلعقة.

كان الجَدُّ يبكي بين كلّ ملعقة وأخرى، كان يأكل وهو يقول: «هذا أفضل... أبٌ صالحٌ وجَدّ صالح... سيذهبون إلى الجنّة بالتأكيد... لن يعودوا إلينا...». ثم أنهى أوّلَ طبقٍ وصمَتَ بعد ذلك، لكنّه استمرّ في الأكل بطريقة آليّة غريبة، أنهى خمسة أطباقٍ في أقلَّ من نصف الساعة. وانتهى التسجيل وهو يضع الطبق الفارغ في يد الأب.

بعد التشريح عَلِمْنا أنّه مات بسبب تسمّم حادّ، وأنّه أخرج طوفانًا من الإسهال والقيء قبل أن يموت، ولا بدّ أنَّ الأبَ رآه وهو يموت من دون أن يتحرَّك، كان الاثنان في مَهمَّةٍ انتحارية لأكلِ القتلى، الجَدُّ مات من فوره والأبُ استمرَّ يأكل حتّى بعد أن دخلْنا الشقّة. كان الأب يأكل ثم يقوم ليتبرَّز في أيّ مكان. خلال خمسة أيام، لم يهتمّ بنظافة جسده أو بنظافة المكان. عَلمْنا بعد ذلك، من تقرير الطبيب الشرعي، أنّ الاثنين استهلكا أكثر من خمسين كيلوجرامًا من اللحم.

في اليوم السادس، اتّصل أحدُ الجيران بشرطة النجدة بعد أن أزعجته الرائحة العَفِنة الخارجة من شقّة الجار. فتح الرجل الباب للضبّاط المتحفِّزين بهدوء، ثم عاد ليجلسَ أمام التلفزيون، مكمِلًا الطبقَ الأخيرَ من الوليمة التي استمرَّت طوال أيّام العيد.

كلُّنا نعلمُ. القاتلُ لا يُمسُّ، بل يُعامل بلطف كبير، الضبّاط والعساكرُ والمساجينُ يعاملونه معاملة الميِّت، خصوصًا إذا أتى معترِفًا، ولم يحتَدّ

أو يصرخ في وجه واحد منا، هذا رجلٌ يمشي نحو المشنقة بإرادة كاملة، لنتركه يمشي.

خلال المحاكمة، لم يسأله القاضي أسئلة كثيرة، بخلاف سؤاله المتكرِّر إن كان قد قتل عائلته أم لا؟ اعترف الرجل في الجلسة الأولى بما قام به، وكرَّر الاعتراف أكثر من خمسين مرَّة خلال الجلسات التالية، غِلظة القاضي وسؤاله الفجُّ المتكرِّر لم يتماشيا مع تفاصيل القضية مطلقًا؛ فتح الرجل باب شقّته بنفسه، واستسلم لرجال الشرطة، لم يبدِ أدنى مقاومة، اعترف أمام النيابة، واعترف أمام القاضي. ولم أعرف ما سبب سؤال القاضي المتكرِّر في كلّ جلسة: «هل قتلتهم؟». وعندما طلب منه القاضي كتابة اعترافه، قدّم اعترافًا مكتوبًا بخطِّ يده، خطُّه كبيرٌ وواضح، الكلماتُ بلا أخطاءٍ أو شطب. ربَّما كان فخورًا باعترافه هذا. وفي تفصيلة وحيدة لم يقف عندها الجميعُ كثيرًا، قال الرجل إنَّه قتل عائلته؛ لأنَّه خسر أموالًا كثيرة في البورصة، ولا سبب غير ذلك.

لكنَّ أداءه لم يحمل أيَّ حزن، بل لم يحمل أيَّ شعور. كان كالميِّت الحيِّ طوال جلسات محاكمته، لا يستمع إلى ما يدور حوله، بدا هجوم وكيل النيابة مضحكًا والاعتراف مسجلٌ أمام شهود عديدين، ومكرَّرٌ عدَّة مرّاتٍ. وبدا كلام الدفاع أكثر إضحاكًا. كلّ شيء مضحكٌ في تلك المحاكمة، حتّى القاضي الذي أصرّ على سماع الاعتراف أكثرَ من خمسين مرَّة، والذي طلب اعترافًا مكتوبًا، والذي أخرج الرجل من قفص الاتهام في الجلسة الأخيرة، وأعطاه ورقة الاعتراف، وسأله إن كان هذا اعترافه فأجاب: «نعم»، ثم سأله إن كان هذا خطَّ يده فأجاب: «نعم». وسأله، للمرَّة الأخيرة، إن كان قد قتل عائلته فأجاب: «نعم». إصرار هذا القاضي بدا مضحكًا.

وحدَه الرجل لم يبدُ مضحكًا، لكنّي لم أعرف أبدًا بما أصفُه.

تعجَّب الناسُ، كلُّهم تعاطفوا مع القاتل، قاتلُ أسرته هذا رجلٌ من الطبقة المتوسِّطة، ميسورُ الحال، يعمل في وظيفة مرموقة، لا يتعاطى

المخدَّرات، يدخِّن السجائر فقط، يملك شقّة كبيرة في حيٍّ راقٍ، ويملك سيَّارتين، وأبناؤه يدرُسُون في مدارسَ أجنبية، وابنتُه الكبرى تخرَّجت من جامعة خاصَّة بتفوّق. هذا المثل الأعلى للطبقة المتوسِّطة السعيدة، الرجل ذو المستقبل المؤمَّن، يحسدُه الكثيرون على حياته المستقِرَّة وعائلته الجميلة. مع ذلك، لم يتساءل واحدٌ من المتعجِّبين عن سبب ما حدث، لم يحلِّل علماء النفس والاجتماع ما حدث، بالطبع كانت حجّة الخسارة في البورصة واهيةً جدًّا، أضعف من أن تقدّمها النيابة كدافع للجريمة، ولولا أنّ الرجل أرفقها باعترافٍ تفصيليٍّ بما فعل، لكان مصيرُها الزبالة. تلقّفتِ الأفواهُ في برامج التلفزيون حكايته، لكنَّ أحدًا لم يسأل عن السبب الحقيقي، وأتبعوا فقرةَ الحديث عن الرجل بأغانٍ وتحقيقات عن عروض أزياء، وحوارت سياسية عديدة. حتّى أنا لم ألتفت يومًا إلى السبب الحقيقي مع علمي بأنّ خسارة البورصة سببٌ زائف.

كنتُ أتابع القضية باهتمام بالغ، أحضر كلَّ الجلسات في انتظار مفاجأةٍ أو تغييرٍ دراميٍّ في مَجريات الأحداث. كنتُ أحدِّق في وجه الرجل القاعد في قفص الاتهام، باحثًا عن صورة كاملة لوجهه في ذاكرتي، لم أكن أتذكَّرُ إلّا قفاه وكتفَيه والبطانية تغطيهما، ولم أنجح في اختزان صورة له إلّا تلك. حتَّى خلال التحقيقات، وهو جالسٌ أمامي وإلى جانبي، أراه بوضوح وليس بيني وبينه سوى مكتبي، كلُّ هذه الصور راحت تمامًا ولم تثبت في ذاكرتي إلّا صورتُه وهو جالسٌ أمام التلفزيون.

كنت ذاهبًا إلى المحكمة في إحدى جلسات المحاكمة الأخيرة حينما تعطَّلت سيّارتي، واضطررتُ لإيقاف تاكسي كي يوصّلني إلى مقرِّ المحكمة، وصلتُ متأخِّرًا، كانت الجلسة قد بدأت بالفعل، ولا أذكرُ أكان هذا دور وكيل النيابة أم دور الدفاع؟ كانت المحاكمة قد انتهت، وما بقي مجرَّد شكليّات يهتمُّ بها القضاء المصري كأيِّ قضاء، كي يُنهيَ الأمرَ في صورة أنيقة، مؤبَّدٌ أنيق، إعدامٌ مهيب، كان كلُّهم يعلم أنّ القاضي سيرسل، في إحدى الجلسات، أوراقَ المتّهم إلى المُفتي. ولن يغيِّرَ رأيَ المُفتي

قناعة القاضي، ثم في الجلسة التالية سيحكم القاضي بإعدام المتّهم.

أجّلتُ دخولي رَيثَما أنتهي من سيجارة سريعة، وكوب شاي صغير، ارتشفتُ رشفةً من الكوب، ووجدتُه مرًّا دونَ سكّر، فطلبت سكّرًا من الساعي، الذي اعتذر مبتسمًا، وأتاني بالسكّر مع مِلعقة صغيرة، قلَّبتُ الشايَ، وانشغلت لدقيقة بتليفوني. كنت قد تأخّرت كثيرًا، وفكّرتُ أن جلسة المحاكمة في منتصفِها الآن، عندما عاودت الإمساك بكوب الشاي، عازمًا على إنهائه بعدّة رشفات فقط. وجدت خنفساء سوداء تطفو في الكوب؛ جعران ميّت.

تعلّقت عيناي بالحشرة الساكنة وتذكَّرتُ أنّ الكوب كان خاليًا منها، ربَّما سقطت هنا في أثناء انشغالي بالتليفون، وماتت غرقًا أو من شدَّة سخونة الشاي. وهكذا ألقيت ما في الكوب على الأرض، كانت أوراق الشاي المفرومة تتحرَّك مع السائل الأحمر على رخام الأرضية، والجعران الذي تدحرج إلى مسافة بعيدة راح يتحرّك. لم يكن الجعران ميّتًا إذن.

طلبت من الساعي ما هو جاهز، قهوةً، شايًا، أيّ شيء. وأخبرني أنّ أحدهم طلب قهوة ثمّ مشى مبتعدًا. قال لي إنّ القهوة جاهزة الآن، وكأنّها قد صُنعت خصِّيصًا لي.

صبَّ الساعي القهوة بهدوء، وأمسكَ بالطبق الصغير عليه الفنجان فتناولته منه. وتبرَّع بالكلام: «هذا فنجان قهوة مخلوطة بالأمل.. الأملُ مهمٌ.. الرجل قاتلُ عائلتِه فقدَه.. ولهذا قتلهم..».

في ختام تلك الجلسة، رأيتُ الرجل يمشي خارجًا من القفص، شعرُه مصفّف وملابسه بيضاء نظيفة، كان يمشي مشيته المعتادة منذ أن رأيته أوَّل مرَّة، لكنِّي اليوم فقط لاحظت ما يميِّز مشيته بالفعل، كان يمشي فاقدًا كلَّ أمل.

2025 م

1

تبادلنا تدخين السيجارة، أنهيناها نحن الخمسة في أقلّ من دقيقة، نصيب كلّ واحد نَفَسَين فقط، انتهت بسرعة وأشعلنا واحدةً أخرى. الحشيش كالمعتاد نظيفٌ تمامًا، غيرُ مخلوط بأشياءَ أخرى، لم تترك قطعة الحشيش أثرًا في الورق أثناء تقطيعها وفركها، تفتّت بين أصابعي بسهولة، رائحتها نفّاذة، تمامًا كما وصف لي الزميلُ في مكافحة المخدّرات الحشيشَ النظيفَ في الثمانينات. حكى لي ما كان يحدث عادةً في أثناء مداهمة القوّة الأمنية لأماكن تخزين الحشيش، كنّا، أنا وهو، جالسَين باسترخاء في كمين في شارع قصر العيني، السيّارات قليلة جدًّا، ومرَّ بجانبنا رجلٌ يُشعل سيجارةَ حشيش عرفناها من رائحتها، ضحك الزميل وقال: «كنّا نعرف أنّ المبنى يحوي مخزنًا للحشيش بمجرّد التوقُّف أمامه، نمشي في الشارع لتضربنا الرائحة المتسلّلة من الأبواب والنوافذ، حتّى إذا وصلنا إلى البيت عرفناه على الفور. ومهما فعل الخازن أو التاجر، فلم يتمكّن أحدُهم قطّ من حجب الرائحة. كنّا نبتسم وتهدأ أعصابنا حينما نشمُّ الرائحة القوية، وما يتبقّى بعد ذلك مجهودٌ يقوم به الجنود والأمناء، يبحثون عن غرف وخزائنَ خفِيّة، يبحثون في البدروم، وربّما اضطرّوا لحفر أجزاء منه لإخراج الحشيش، نعم، لم يكن التراب المهال على الحشيش يمنع انبعاث الرائحة. بعد ذلك اضطرَّ التجّار لخلطه بأشياءَ كثيرة أرخص؛ ليزيد ربحُهم أوّلًا، ولتختفيَ الرائحة ثانيًا».

أنا لا أعرفهم، هؤلاء الأربعة، تورَّطتُ معهم ولا مفرَّ من مشاركتهم قطعةَ الحشيش، كنَّا نتمركزُ في إحدى غرف الطابق قبل الأخير من برج القاهرة، بعد ساعات سننهي تمركزًا استمرّ مدَّة طويلة في البرج؛ سنتين كاملتين. كنَّا مركز مراقبة متقدِّم، عين المقاومة التي تراقب القاهرة الشرقية، أداة إعدام واغتيال وقنص، كنَّا ذراع المقاومة الطويلة، وكنتُ أنا، العقيد أحمد عطارد، قائد القوّة الذي استمرّ صامدًا كلّ هذه المدّة. حتّى عندما انهار الضبَّاط واحدًا تلو الآخر من شدّة الضغط النفسي، حتّى عندما انتحر ثلاثة منهم في يوم واحد، لم تتحرَّك شعرة في رأسي، وأرسلتُ إلى قيادة المقاومة أطلب قنّاصين آخرين وقوّة لتستلم الجثث. وحينما كانت القوّة تتحرَّك من القاهرة الغربية قادمة إلى البرج كنت أكتب تقريري الخاصّ بانتحار الزملاء، وأُرجع الانتحار إلى ضغوط العمل، وإلى النجاح الباهر في قنص الأهداف، وإلى انعدام التربية النفسية للضبّاط، وإلى الوَحدة والعزلة، وإلى أشياءَ أخرى كثيرة.

بعد ذلك كنتُ أُسرِّح الضبّاط بعد مرور ثلاثة أشهرٍ أو أربعة على بقائهم في البرج، وبهذا حافظت على مستوى متوسِّط الكفاءة لمركزنا هنا، وحافظتُ بالتأكيد على أرواح الضبّاط. كنتُ قد أدركت أنَّ كلّ مَن يبقى في البرج يسير في طريق الانهيار العصبيّ ببطء، وكلّ ما ذكرته في التقرير كان سببًا حقيقيًّا للانهيار، في النهاية ومهما كان الضابط مؤمِنًا بأهمّية عمله، فإنَّ قتلَ إنسانٍ لا يعرفه أمرٌ هائل، أنا قنَّاص وأعرف ذلك، وأعرف أنّ صور القتلى تبقى ماثلةً في الذهن مدَّة طويلة. وأنّ الذاكرة الانتقائية تختار صورًا بعينها للاحتفاظ بها إلى الأبد. حتّى ذاكرتي، أنا القنَّاص المحترف، تحتفظُ بصور لأشخاص قنصتُهم ولا أعرف مَن هم، ولا أذكر أين كنتُ أو أينَ كانوا، ولا أذكر متى حدث هذا أو كيف أتاني الأمر بقنصهم. وهناك بالطبع صورة الجثث الثلاثة المتكوِّمة بعضها فوق بعضٍ والمأخوذة في إطار المِنظار الدائري، هذه ثابتة في ذهني لن تُمحى مطلقًا إلى أن أموت،

فكيف بقنّاصة هُواة كهؤلاء. لولا الحماسة النابعة من الروح الوطنية، لما كان لمجموعة البرج أيُّ نجاح.

كان اسمُنا الرسميُّ «مجموعة البرج» وهو ما لن يجده أحد مكتوبًا في وثيقة أبدًا، ثم انتشر اسم «الدبابير» بين الناس، وتحوَّل إلى اسمٍ حَرَكيٍّ لنا، في الحقيقة لم يعرف أحدٌ بوجودنا على الإطلاق، لكنّ الناسَ علموا أنّ هناك الكثيرَ من القنّاصة منتشرين في الشوارع وعلى أسطح المنازل والمباني العالية، كان أثرُنا واضحًا، ضابط يسيرٍ في الشارع فيسقط دونَ مُقدِّمات، جندي يجلس على مقهى ثم يتناثر مخُّه فوق طاولاتِ القاعدين بقربه. وهكذا خلط الناس بين مجموعة البرج والقنَّاصة المنتشرين في كلِّ أحياء القاهرة الشرقية، كنَّا جميعًا دبابيرَ بالنسبة إليهم. وبالتأكيد لم يخطر في بال أحدٍ أنّنا نتمركز هنا في برج القاهرة، أبعد نقطة عن كلّ شيء، نستخدم أقصى مدى للبندقية وللمنظار، لا أحدَ يرانا ولا أحدَ يسمعنا، ومع كواتم الصوت كنَّا ملائكةَ موتٍ.

في البداية ظننتُ أنّ البرج يحوي ستةَ عشرَ طابقًا فعلًا، لكن مع مرور الوقت وكثرة الصعود والهبوط في المصعد يُدرك الواحد أنّ مساحة البرج محدودة جدًّا، هذا هيكلٌ هائلُ الحجم ولا يحوي إلا طابقين فقط، مع ذلك يسمُّونهما الطابق الخامسَ عشرَ والسادسَ عشرَ. وفوق هذا الأخير شرفةٌ ضيِّقةٌ جدًّا في منتصفها العمود الهائل الحجم، يظهر للناظر من أماكنَ كثيرة في المدينة.

صعدتُ إلى الطابق السادسَ عشرَ، حيث الشرفةُ الدائرية الضخمة تطلُّ على القاهرة كلِّها، كنتُ أتطلَّعُ إلى القاهرة الشرقية على ارتفاع مئة وثمانين مترًا تقريبًا. ظهرت المباني الشهيرة وكأنّها أقوى من الناس ومن الزمن، أقوى من أيِّ شيء، حتّى لو كان الواحد معماريًّا متسامحًا مع الطرز الحديثة فسيرى قبحًا تمّ التعوّد عليه بطول المعاشرة، وربّما كان قبحُها هذا هو سبب بقائها هكذا حيّةً على الرغم من موت الكثيرين. مبنى ماسبيرو

مثلًا لا يجوز أن يستمرَّ هكذا، هو رجلٌ بمؤخِّرة ضخمة وردفَين هائلين، يتربَّع على الأرض بينما ينتصب رأسه وصدره في الهواء نحيفين جدًّا، بوذا مستنير في حالة انتصاب، بوذا مشوَّه. وإلى الشَّمال مبنى وزارة الخارجية، رجلٌ أوربِّي طويلِ القامة يرتدي عمامة شرقية، يفخر بها ويرتفع فوق الجميع، وخلفه كتلٌ عديدةٌ متشابكةٌ من المباني الصغيرة، لا يضمُّها طراز معماري أو نسق أو حتّى مقاييس موحَّدة، وتقطعها شوارعُ غيرُ مستقيمة، يتغيَّر عرضُها كلّ مئة مترٍ، كانت منطقة بولاق أبو العلا فوضويةً تليق بشغب طفليّ ثار منذ سنوات في المنطقة نفسها. ومبنى المتحف المصري مجموعة من الكسالى الهرِمين، قاعدون على الأرض يتبادلون حديثًا بصوت خفيض، ساكنون منذ دهور طويلة، لا يتحرَّكون إلا لشرب الشاي ويختبئون من أعين الجميع كارهين تاريخهم الزائف. وركام مبنى فندق هيلتون النيل المهجور الذي تهدَّم مع بداية الاحتلال سائح أمريكي سكران سقط على الأرض ولا يدرك شيئًا ممّا حوله، جاء إلى القاهرة ليبحث عن الجمال في قطع الخراء المحيطة به، بحث كثيرًا ولم يجد شيئًا، ومع ذلك لا يعترف بأنّها قطعة خراء لا تحوي جمالًا أبدًا، بل يلومُ نفسَه؛ لأنّه لم يجد الجوهرة المدفونة في الخراء. ومبنى فندق هيلتون رمسيس عاهرة هائلة الحجم، تطلّ على النيل وترحِّب بالجميع لكن لا أحدَ يقترب منها، وكالعاهرات تمامًا يُعرفنٍ من أحذيتهنّ القديمة المهترئة المتّسخة، وكأنّهن اتّفقنَ على أن تكونَ كلّ أحذيتِهنّ كذلك، فوضى الشارع والباعة عند فندق هيلتون رمسيس هي حذاؤه القديم. وتقاطع كوبري قصر النيل مع الكورنيش متاهة غيرُ مفهومة، ونسخةُ أكثر تعقيدًا من رفيقه تقاطع كوبري 6 أكتوبر مع الكورنيش، ثم فندق سميراميس؛ رجلٌ وزوجته وطفلهما، والرَجل قد تبوَّل تحت قدميه ولا يزال واقفًا مكانه، لا يتحرَّك مبتعدًا عن بقعة البول ولا يسمح لعائلته بالحركة. ومجمَّع التحرير يظهر جانبه الأيسر حاملًا كلّ أسباب أمراض المصريين، لا يريني إلا جانبًا منه لأنّه يعلمُ أنّي

أهابُ صدرَه ورأسَه وبطنَه والانبعاج الواسع فيه. وقبله مبنى الجامعة العربية المتهدِّم، الركام المجيد، الأطلال الشامخة، كشف تهدّمه أخيرًا عن ميدان التحرير بالكامل، كان هو الحاجز الوحيد بيننا وبينه. انهار بعد يوم واحد من انهيار مبنى فندق هيلتون النيل، لكن على العكس من مبنى الفندق الذي مال وسقط على جانبه دون أن يتحطّم، انهار مبنى جامعة الدول العربية بالكامل، تاركًا كومةً عاليةً من الركام.

لا شيء سوى الفوضى، أبحثُ عن نظام وسط كلّ هذا، لكن يبدو أنّ مَن بنى القاهرة لم ينظر لها من بعيد، لم ينظرِ إلى الصورة كاملة، بل تأمَّل المبانيَ منفردةً يحيط بها الفراغ، وصمَّم كلَّ مبنى على انفراد، دونَ أن يشغلَ باله بما يحيطه من مبانٍ أخرى. ورآها بعين الماشي على الأرض لا بعين الطائر في السماء، أراد أن يبهرَ الناس في عصر ما قبل الكاميرات المحمولة جوًّا، وفعل مثله من جاء بعده وأكمل البناء، وفعل مثلهما كلّ مَن جاء بعدهما. هل سأعيش لأراها تُهدم؟

كنتُ رفيقَ هذا المشهد سنتين كاملتين، واليوم أتركه.

في البداية، قسَّمنا مساحة المطعم القديم في الطابق الخامسَ عشرَ إلى عدَّة غُرف، استخدمنا ألواحًا خشبية خفيفة كفواصلَ، وتركنا السلَّم المُفضي إلى الطابق الأخير من البرج مفتوحًا للجميع، كي يتمكَّن أيّ من الضبّاط من الصعود إلى هناك في حالات الطوارئ. يحتلّ كلَّ غرفة قنَّاصٌ، فيها يعيش وينام، وفي موعد ورديّته يصعد إلى الطابق الأخير ليتابع ما يحدث في القاهرة الشرقية. ومع مرور الوقت كان عدد الضبّاط يقلّ ويزيد بحسب الوضع المحيط بنا، وبحسب حاجة القاهرة الشرقية إلى مجموعة البرج، مهمّتنا: «الحفاظ على ما حولنا». كنتُ دائمًا سعيدًا بالتوصيف المطّاط لمَهمّتنا. كالعادة، التوصيفات المطّاطة تلك تمنحنا حرِّيَّة التصرُّف في المواقف الحَرِجَة، ولو أنّ طبيعة عملنا تتعدَّى الحدودَ المعتادة لتصلَ إلى القتل الصريح. عملي محضُ اجتهاد، لا خطّة جاهزة لأطبِّقها، فقط

أتفاعل مع ما يحدث، ولا أنتظر سوى الأوامرِ التي تكون محدَّدة جدًّا، أمرٍ باغتيال فلان الذي سيمرُّ بطريق الكورنيش، أمرٍ باغتيال خمسة من ضبّاط الاحتلال، عشوائيّا، خلال الشهر القادم، أو حتّى أوامر باغتيال ضبّاط الشرطة المصرية والمواطنين المَدَنيّين المتعاونين مع الاحتلال، وبالطبع مهمّتنا الدائمة، التحديق عبرَ المناظير إلى القاهرة الشرقية لرصد أيّ تحرُّك مريب. كما ذكرتُ، كنّا مركزًا للاغتيالات ومركز مراقبة متقدِّم.

غبارٌ كثيفٌ غطّى القاهرة، خليطٌ من عوادم السيّارات والضباب الذي لا أعرف سببه، وربّما دخان حريقِ مخَلّفات زراعية يأتينا من القرى والمدن المحيطة بنا، كلّ هذا يتجمَّع كلَّ عدّة أسابيع ليكوِّن ستارًا يحجب مبانيَ القاهرة البعيدة عن كلّ عين في السماء، ستارًا كالذي أخلقه كي يحميَني من الفضول، وكقناعي الذي أرتديه حينما أصوِّب على الأهداف.

مع كلّ صباح يُمسك كلٌّ واحد بندقيّته ويضبط مِنظاره، ويتّخذ موقعه بطريقته المفضّلة، قاعدًا على الأرض تستند بندقيّته إلى ركبته، أو إلى حامل ذي ذراعين رفيعتين. بينما أصعد أنا إلى الطابق الأخير، حيث الشرفة التي تستدير مع استدارة مبنى البرج، لتكشفَ القاهرة كلّها، أدور دَورَتين لأرى كلَّ المباني والشوارع واضحةً أمامي بلا سواترَ من حجر أو زجاج. القاهرة الشرقيّة بمبانيها الشهيرة تحت الاحتلال، والقاهرة الغربيّة بمبانيها المجهولة محرَّرة وتحت سيطرة المصريين تمامًا. قليلٌ منها تهدَّم جرَّاء القصف. كنتُ كلّما صعدتُ إلى الشرفة، زالت الحُجُب، وأصبحتِ القاهرة مكانًا أكثر انفتاحًا.

أنا أعلاهم رتبة، قائدُ التشكيل الذي يحمل بندقية مثلهم تمامًا، لا أتلقّى الأوامر من قائدٍ آخر، وإنّما حرِّيَّة التصرّف متاحة لي حسبما يقتضي الموقف، إلَّا في حالات معدودة كلّ شهر، لذلك لا أنظر من خلال منظاري كثيرًا، فقط أرفع البندقية كلَّما مللتُ النظر إلى الصورة كاملة، لأرى أجزاء صغيرة من خلال المنظار. لم يطلق أيّ منّا رَصاصة واحدة منذ ما يقرب من

شهر، استقرَّتِ الأمورُ وعادتِ الحياةُ، وكأنّ شيئًا لم يكن. وفي الأسبوع الماضي أتتني رسالةٌ تحوي أمرًا بإخلاء الموقع اليوم. وأخذنا نعدُّ العُدّة طوال الأسبوع، حتّى إنّنا لم نقف في أماكن المراقبة بجدّيتنا المعتادة، كنّا نقضي أيّامنا الأخيرة في البرج قبل الرحيل. إلى أين، ما المَهمّة القادمة؟ لا أعلم.

اقتربتُ من حافّة الشرفة واستندتُ إلى السور الحديدي الذي يرتفع فوق قامتي، أواجه القاهرة الشرقية. من مِنظار البندقية رأيتُ القوارب الحربيّة الخمسة تصطفُّ أمامي مباشرة، أستطيع أن أرى البحّارة يتحرَّكون فوق السطح، كسالى وكأنّ لا شيء يَعنيهم، وكأنّهم ليسوا في ورطة مثلنا تمامًا، الفرقة الصغيرة في منتصف مجرى النيل ليست فرقة حراسة، بل هي استعراض صارخ للقوَّة، يراها المارّ على الكورنيش. ولا يعبر أحدٌ على كوبري أكتوبر إلّا ويثبِّتُ عينيه عليهم. هم لا يحدثون أيّ ضررٍ حقيقي الآن كما فعلوا في الأيّام الأولى، هم أيضًا لا يمنعون أيّ ضرر، ولم يفكّر واحد من المصريّين في مهاجمتهم. هؤلاء أصنامُ المحتلّ الصامدة. هم لا يعلمون أين موقعنا لكنّهم يعلمون أنّنا نراهم، أنّنا نراقبهم، نتابعهم من خلال مناظيرنا، يعلمون أنّنا قمنا بتنفيذ ضربات موجعة لزملائهم. قد نكون في البرج، في مبنى من مباني الزمالك العديدة، أو حتّى على الشاطئ الغربيّ للنيل، أو ربّما فوق سطح مبنى من مباني القاهرة الشرقيّة التي يحتلونها، نحن أشباحٌ بالنسبة لهم.

هذه المرّة الأولى التي أقف فيها منتصبًا تمامًا في نور الشمس مواجهًا القاهرة الشرقيّة، نحن بعيدون عن أيِّ عين بشرية، لكنّنا لسنا بعيدين عن عين تبحث عنّا بمنظار. لم نكن نقف لنحدِّق بلا مناظير في المدينة إلا ليلًا، عدسات المناظير قد تعكس النور، ومهمّات الاغتيال كانت تُنجز في دقائقَ قليلة، غيرِ كافية لكشف مكاننا. بينما مهمّة المراقبة كانت تتمّ من خلال الطابق السفلي، حيث كان المطعم الدوّار قبل الاحتلال. الزجاج المحيط

بالطابق يكسر شعاع النور، ويحمي عدسات مناظيرنا من الأعين. أتذكَّر مدى التعقيد الذي وصلنا إليه في الأسابيع الأخيرة، كنتُ أطوِّر النظام كلّ يوم بغرض الحفاظ على مكاننا سِرِّيًا عَصِيًّا على الكشف، وهو ما حدث فعلًا.

أذكر يومي الأوّل هنا، وصلتُ ليلًا إلى البرج، وتجوّلتُ قليلًا أمام مدخله الفخم ناظرًا إلى النَّسر الهائل الحجم فوقه. ثم دخلت المصعد، ولم أستغرق إلّا ثوانٍ قليلةً حتّى وصلتُ إلى الطابق الخامسَ عشرَ. ثم صعدتُ إلى الطابق الأخير وتطلَّعتُ بلهفة عبر الزجاج إلى القوارب الخمسة في النيل، ملأتني الحماسة، وأخرجت منظاري وتفحَّصتُ كلّ قارب. كنتُ أكسر الكثير من القواعد بأفعالي تلك، وأعرِّض الموقع المختار بل المَهمّة كلّها إلى الخطر. في اليوم التالي ومع وصول الرسول يحمل الطعام والرسالة الأولى، أعطيته رسالة أطلب فيها الإذن بتدمير القوارب الخمسة. ولا بدّ أنّ ما كتبته كان انفعاليًّا لأقصى حدّ، فقد أتاني في اليوم التالي أحدُ ضبّاط المقاومة برتبة عميد، وتكلَّم معي كثيرًا عن أهمّية الموقع وأهمّية الحفاظ عليه بعيدًا عن الأعين. قال لي إنّ جزيرة الزمالك خالية بالكامل. لا سكّانَ فيها ولا مواطنين، هجرها الناس منذ مدّة خوفًا من القصف العنيف الذي أشعل الشوارع والحدائق الواسعة، لم يتبقَّ فيها إلّا عددٌ قليل من أفراد المقاومة، وكَشْفُ مكان البرج سهلٌ للغاية؛ تكفي رَصاصة تنطلق في توقيت خاطئ، أو انعكاس ضوء على عدسة المِنظار، أو ظهور واحد منّا في الشرفة واضحًا للعِيان. قال لي إنّ أحدًا لن يتخيَّلَ أن تسيطرَ المقاومةُ على برج القاهرة وتحتفظ به كنقطة مراقبة وقنص متقدِّمة. طلب منِّي الاستعدادَ لمَهمَّات بالغة الصعوبة، وقال إنّ عليَّ الحفاظ على موقعي، بالذكاء وليس بالتهوّر.

مشيتُ في الشرفة حتّى وصلتُ إلى الجهة الأخرى، الجزء المطلّ على القاهرة الغربية، الجزءِ الشجاع الذي لم يستطع المحتلّ دخوله قطُّ. حسنًا،

المحتلّ لم يحاول الدخول قطّ، مع ذلك الجيزة حصينة ولا يمكن لمحتلٍّ أن يدخلَها. كان هذا الجزءُ مهملًا تمامًا، لم نحاول مراقبةَ ما يحدث فيه قطّ، لم نحاول قنص أحدٍ يمشي هناك. بالطبع لم تكن الجهة الغربيّة من البرج صالحةً للظهور كالشرقيّة تمامًا، مَن يدري، فقد يكون هناك جواسيسُ في المنطقة المحرَّرة أيضًا.

ارتسمت نقطة ضوء حمراء على حائط الشرفة، تذبذبت بشدّة في كلّ الاتجاهات، مصدر شعاع الليزر بعيد جدًّا يضربه الهواءُ، لكنّه يقترب وسيكون هنا بعد دقيقة أو أقلّ. صارت يدي ثابتة بعد عدّة طلقات، أذكر أنّ أوّل نقطة ليزر رأيتها من خلال مِنظاري كانت ترتجف بشدّة أيضًا، وبعد أيّام من التدريب صرت أمسك البندقية كأنّني أحمل طفلًا رضيعًا، وصارت النقطة أكثر ثباتًا على الهدف. وربّما لم تعد النقطة الحمراء المعتادة علامة على دقّة تصويبي كما هو المعتاد، بل أصبحت إشارة للهدف نفسه، تُعلمه بقرب إصابته برصاصتي. لم أعد بحاجة إلى شعاع الليزر المنطلق موازيًا لماسورة البندقية مستقرًّا في مكان الإصابة بالتحديد. مع ذلك حافظت على استخدامه كإشارة أخيرة للهدف. أخذت النقطة الحمراء على الجدار تستقرُّ رويدًا رويدًا، نظرت إلى الأفق باحثًا عن مصدرها، لكنّه كان لا يزال بعيدًا جدًّا، وكلّ ما رأيته أثرُ الشعاع يأتي مهتزًّا اهتزازاتٍ طفيفة. بعد دقيقة كان مصدر الشعاع يقترب متهاديًا ويستقرّ على أرضية الشرفة أمامي.

هذا درون جديد، لم أرَ مثله من قبل! فتحت حجيرة الرسائل وتناولت المظروف الصغير الموضوع بعناية في داخلها. مرسل الرسائل حالم حقًّا، يرسل إليَّ بخطابات ورقية صغيرة محمولة على ماكينة طائرة تنفردُ بعقل خاصّ بها. هذا درون ذو خمس مراوح صغيرة، أخفّ وأصغر من الآخر ذي المراوح الأربع الذي كان يوصِّل الرسائل طوال المدّة السابقة، وبالإضافة إلى مدفع الليزر الصغير وحجيرة الرسائل والكاميرا التي تستقرّ تحت بطن الدرون، تحت قبّة زجاجية صغيرة تسمح بدوران الكاميرا في

كلّ الاتجاهات. بالإضافة إلى كلّ هذا، هناك ماسورة دقيقة تظهر على يمين الكاميرا، فهمت من فوري أنّها جزء من سلاح ناريّ، وبقليل من التفحُّص اكتشفت أنّها تتّصل بمخزن يحوي أربع طلقاتٍ من عيار 9 ملم. لدينا الآن درون يحوي سلاحًا يطلق النار، وكاميرا تجسُّس، وحجيرة رسائل. هذه أداة مدمجة، تقتل وتوصل الرسائل وتتجسَّس.

تركتُ الدرون على الأرضية، وبعد ثوانٍ عادت مراوح الدرون إلى الدوران مصدرة أزيزًا منخفضًا، كلُعبة أطفال لا ضرر منها، تأرّجح فوق أرضية الشرفة قليلًا، ثم طار خارج نطاق الشرفة مبتعدًا عن البرج، صارت هذه الآلات رفيقَنا الصامت بعد عِدَّة شهور من الاستقرار في البرج.

فتحت المظروف لأجد خمس ورقات صغيرة، ورقة باسم كلّ واحد منًّا، فتحتُ الورقة التي تحمل اسمي، مكتوب فيها أنّي سأتحرَّك بعد ساعة، سأكون آخر مَن يغادر البرج، عليَّ التأكّد من استلام الجميع لأوامرهم، وعليَّ التأكّد من مغادرتهم البرجَ. ثم عليَّ التوجّه إلى القاهرة الشرقية، في تقاطع شارعَي رمسيس و26 يوليو، في تمام الساعة العاشرة صباحًا، سألتقي أحدَ أفراد المقاومة الذي سيدُلّني على الطريق بعد ذلك.

عدتُ إلى الطابق السفلي، وزّعت الأوراق على أصحابها، ودَّعتهم، وطلبتُ منهم المغادرة فورًا.

المكان خالٍ إلّا منّي، وسيصبح خاليًا تمامًا بعد دقائق.

حملتُ بندقيتي في حقيبتها ونزلتُ إلى الطابق الأرضي، مع حقيبة تحوي ملابسَ قليلة وقناعي، وعلبَ سجائر، ومالًا قليلًا؛ جنيهاتٍ معدودةً، أمسكتُ بها في راحتي وأنا أتذكّر الملمس المعدِني الصُّلب البارد. ولا شيء غير ذلك، لا سلاح ولا بطاقة شخصية. لا شيء.

اخترت مكانًا بالقرب من أكبر شجرة أمام البرج، حفرت بجانبها حفرة مستطيلة صغيرة، ثم وضعتُ فيها حقيبة بندقية القنص، الحقيبة كافية لعزل البندقية عن الرطوبة والتراب لمدة طويلة، ثم ردمت ما تبقى من الحفرة

بالتراب. البرج مكاني الآمن، ولا بد أني سأعود إليه يومًا، ويوم أعود يجب أن أجد سلاحي جاهزًا.

لم تكن هناك ممرَّاتٌ عديدة بين الزمالك والقاهرة الشرقية، فقط الكباري بين طرفي المدينة، هناك كوبري قصر النيل وكوبري 6 أكتوبر وكوبري 15 مايو. هذه الكباري كانت الممرّات الوحيدة في ظلّ بقاء القوارب الحربيّة في النيل، وانعدام فرص التنقُّل بين الضِّفتَين عن طريقه. بالطبع كانت هناك نقاطُ تفتيشٍ عند كلّ كوبري، كنت أرى يوميًّا تجمهر العابرين من القاهرة الغربيّة إلى القاهرة الشرقيّة وبالعكس، يقفون صباحًا في طابور طويل ينتظرون السماح لهم بالمرور، من خلال منظاري كانت نقطة التفتيش الواقعة على كوبري أكتوبر مثيرةً للسخرية، يضيِّق الضبّاط وأمناء الشرطة الطريقَ قليلًا عن طريق الحواجز، يسمحون بمرور سيّارتين فقط، وعدد محدود من الناس من خلال بوّابة كشف المعادن. لا شيء جادّ في العملية برُمَّتها، كنت أرى الضابط قائد الكمين يجلس مسترخيًا تمامًا بجانب سيّارة الشرطة، والناس من حوله ينظرون إلى الأمام، إلى ما بعد نقاط التفتيش، يأملون في الوصول إلى القاهرة الشرقية، أو الغربية، في موعدهم. الناس هنا لا يزالون حريصين على عملهم. حتّى أنا حريص عليه، أطيع الأوامر وأستمع إلى شكاوَى الجميع وأنقلها بأمانة إلى القيادة أملًا في تحسُّن الأوضاع، وزوال الاحتلال.

أمشي بلا أحمالٍ تقريبًا، فقط حقيبتي الخفيفة وملابسي القليلة، أمشي خفيفًا لا تكاد قدماي تلمسان الأرض، للحظة شعرت بالراحة، بل وربّما ابتسمت، وحاولت تذكُّر آخر مرَّة أحسست فيها بالأمان، لكنّها كانت لحظة بعيدة جدًّا، غائمة لا أكاد أذكرها. مشيت شمالًا، موازيًا للنيل حيث سأجد مطلع كوبري أكتوبر بعد قليل.

انتشرتِ النباتات هنا، الجزيرة كلُّها صارت حديقة عشوائية، لا أعرف كيف انتشر كلّ هذا بلا ريّ أو عناية، أشجار ونباتات غير مشذَّبة، زهور

كثيرة وفروع وسيقان أخذت تشقّ بلاط الأرصفة والأسفلت، لا يشوّهها منظر السيّارات المحطّمة والمحترقة الملقاة في كلّ مكان، تكمل كلّ هذه التفاصيل المشهد، سيّارات البشر مجد من حديد انتهى إلى الأبد وحلّ محلَّه مجدُ النباتات، المجدُ لما استمرّ حيًّا بعد القصف والحرق والتدمير، لما قاوم الفناء، وأصرَّ على النموّ مرَّة أخرى. طيور كثيرة بنت أعشاشها هنا، وكأنّنا كنَّا نمنعها من الحياة والاستقرار. في النهاية، حياتُنا المدنِيّة كمواطنين وسيرنا على هذه الأرض كانا عقبة في مسارِ حياة النباتات والطيور، بينما كان القصف رفيقًا بها فتعايشت مع الدّانات الساقطة ورَصاصات الطرفَينِ المتقاتلَين.

وصلتُ أخيرًا إلى مطلع كوبري 6 اكتوبر، ثمّ مشيتُ قليلًا حتّى وصلتُ إلى انعطافة الكوبري فوق النيل، هناك رأيتُ الكوّة الدائرية في جسم الكوبري، مدخل نفق يمتدّ بطول الكوبري وتعلوه السيّارات العابرة للنيل. صعدت السلّم الخشب المستند إلى الكوبري تحت الكوّة مباشرة، وقبل أن أعبر إلى الظلام تطلّعت إلى الجزيرة الهادئة تمامًا خلفي، ربّما كنت آخر إنسان عليها الآن، وربّما كنتُ آخر مَن يعبر تلك الكوّة إلى بطن الكوبري.

عبرتُ إلى الظلام الكامل، وشعرتُ بأشخاص يقفون حولي صامتين ينتظرون كلمة منّي، ثم أشعل أحدهم مصباحًا كهربيًّا في يده. كان نور الغسق يأتي خفيفًا من الكوّة خلفي، ويُظهر هياكل أربعةِ أشخاصٍ أو خمسة.

2

ما زلتُ أذكرُ أوّل يوم، كان هذا منذ ثلاث سنواتٍ وستّة شهورٍ، بالتحديدِ في الثالث من مارس عام 2023.

كنتُ في إجارة، أمشي في شارع شريف في وسط البلد، باحثًا عن أيّ مقهى. كان الشارع مُزدحمًا كعادته، الساعة تقتربُ من الثانية ظهرًا وهي ساعة الذّروة في منطقة وسط البلد.

دون مُقدِّمات، رأيت مبنى البنك الأهلي ينهار، وكمّية هائلة من الغبار والركام ترتفع في السماء لتحجب الأنظار، وتسدّ الحلوق. بعدها سينسى الجميع تمامًا انهيار مبنى البنك الأهلي، وسنعرفُ أنّه انهار من تلقاء نفسِه، لا بسبب صاروخ أو دانة مدفع.

خلال الساعات الثلاث التالية، ستمرُّ في السماء طائرات حربيّة عديدة، ستقصف أهدافًا بعينها؛ البنك المركزي، ووزارة التعليم، ووزارة الصحّة، ومبنى نقابة الأطباء، ومبنى تابع للتلفزيون في حيّ المقطم، ومبنى القمر الصناعي في المعادي، ومباني الأوبرا في الزمالك، ومباني ومصانع ومخازن عسكرية عديدة في كلّ أنحاء الجمهورية. سنعرف كلَّ هذا لاحقًا.

قُطعت الاتصالات كلّها، عدنا إلى أوائل القرن العشرين فجأة، لا إنترنت، لا تليفونات محمولة، ولا تليفونات أرضية، ولا تلفزيون. لم يبقَ إلّا الراديو، أذاع راديو صوت العرب برامجه المعتادة، وبثَّ الموسيقى الهادئة بعد انقطاع نشراته الإخبارية المعتادة كلّ ساعة.

بعد ثلاث ساعاتٍ من القصف المختار بعناية، سمعنا خبرًا في الراديو، إذاعة الـ «بي بي سي» تعلن أنَّ: القوّاتِ المسلّحةَ لجمهورية فرسان مالطا قد ألحقت هزائم بالغة بالقوّات المسلّحة المصرية، وأنّ جمهورية مصر العربيّة أصبحت تحت سيطرة الجيشين الرابع والخامس لفرسان مالطا. تمَّ إلغاء الدستور المصري، وإحلال دستور جمهورية فرسان مالطا بدلًا منه، وحلّ مجلسي الشعب والشورى، وحلّ المجلس العسكري المصري، ومجلس الأمومة والطفولة المصري، ومجلس الحرِّيّات المَدَنيّة المصري، ومجلس حقوق الإنسان المصري، ومجلس الدعم الفنِّي للإجراءات الوقائية المصري، وإلغاء المحكمة الدستورية المصرية، وتعطيل العمل بالمحاكم المصرية كافّة، وضمّ جهاز المخابرات العامّة المصرية إلى الجيش الرابع لفرسان مالطة، وعزل الرئيس المصري، وفصل رئيس الوزراء الحالي وحلّ الحكومة. وأخيرًا، تجميد عمل فروع القوّات المسلّحة المصرية كافّة.

في التاسعة مساءً سنسمع من الراديو خبرًا يعلن اسمَ الحاكم العسكري لمصر، الفيلدمارشال بول- بيير جينفيف. وسيكون أوّل قراراته هو تعيين الدكتور خليفة صدقي رئيسًا للوزراء، وتكليفه تشكيلَ الحكومة الجديدة.

في صباح اليوم التالي، الرابع من مارس 2023، ستتصدّر جميع الصحف المصرية عناوين متشابهة، سيصبح أشهرها مانشيت الأهرام: «الدكتور صدقي يُكلَّف بتشكيل الحكومة الجديدة وأنباء عن إلغاء وزارة الإعلام».

وخلال الأسبوع التالي، وبينما رئيس الحكومة الجديد عاكفٌ على اختيار وزرائه، «لتواجه الحكومة ما يترصَّد مصر من مخاطرَ ومشاكل» قام 450 ألف جنديٍّ وضابطٍ من جيشي فرسان مالطا بالدخول إلى الأراضي المصرية عبر فرعي النيل عند مدينتي رشيد ودمياط، لتغطِّيَ تلك القوّاتُ الدلتا بالكامل، وعبر قناة السويس لتحتلّ مدينتي السويس وبورسعيد. استقرَّت عدّة ألوية مدرّعة في دمياط ورشيد والمنصورة ودمنهور وطنطا والمحلّة الكبرى والإسماعيلية والزقازيق ومنوف وأخيرًا القاهرة. اقتصر الأمر على الدلتا فقط، ولم يتحرَّك جندي مالطي واحد جنوب القاهرة، وكان الصعيد مهملًا تمامًا.

وهكذا، انتشرت دوريّات الاحتلال في كلّ تلك المدن، كانت مهمّتهم الحفاظَ على الأمن بعد انسحاب ضبّاط الشرطة وهزيمة الجيش. قيل عن هذا الاحتلال إنّه كان أنجح عملية عسكرية في التاريخ، تمّ تدمير معدّات الجيش المصري وقواعده بالكامل خلال الأسبوع الأوّل من انتشار القوّات المالطية، وأصبح الجنود والضباط بلا قيادات أو أسلحة أو أجهزة اتصال، فعاد أغلبيّتُهم إلى بيوتهم بلا أيِّ أمل في المقاومة. في نهاية الأسبوع الأوّل ومع اكتمال انتشار وحدات جيشي فرسان مالطا في جميع مدن الدلتا والقاهرة، أعلن رئيس الوزراء أنّ: «مصر تلتزم الاتفاقاتِ الدُّوَلية كافّةَ، وتلتزم استمرارَ دعم الموادّ الغذائية والمحروقات، وتلتزم دفعَ رواتب العاملين في القطاع الحكومي، بما فيهم موظفي وزارة الدفاع، وتتطلّع إلى مستقبل ناجح سيبهر العالم في ظلّ التطوّرات الدُّوَلية الجديدة».

لم يقاوم المصريون المُحتلَّ هذه المرّة، وعندما عادت الاتصالات بعد أسبوع من الانقطاع، تواردت أنباء عن مقتل عشرين مواطنًا في أثناء انتشار قوّات فرسان مالطا، وهو رقم صغير جدًّا إذا ما تمَّت مقارنتُه بما يحدث عادةً في الحروب، بينما لم يكن هناك أيُّ معلومات عن خسائر الجيش، أو عن الحكومة المقالة، أو عن الرئيس السابق. انتشرت صورٌ ومعلوماتٌ عديدة عن جيشي فرسان مالطا، وعن الفيلدمارشال بول- بيير جينفيف. عادتِ الحياة إلى طبيعتها بسرعة كبيرة.

وكشاهدٍ على القوّة البحرية الهائلة، وقدرة زوارق فرسان مالطا وقواربهم على الحركة والمناورة واحتلال مجرى النيل، استقرَّت خمسُ قواربَ حربيّةٍ خفيفةٍ في مجرى النيل، في المنطقة الواقعة بين جزيرة الزمالك والقاهرة الشرقيّة. كانت الزوارق تبدو كأقزامٍ أمام المباني العملاقة المطلّة على الكورنيش، لكنّ الجميع كان يدرك مدى كفاءة تلك الأقزام.

كنتُ أعيش في حيّ الدقّي في ذلك الوقت، بينما كنتُ أخدمُ في قسم قصر النيل في حيّ جاردن سيتي. انقطعتُ عن العمل كما فعل كلّ رجال الشرطة في القاهرة الشرقيّة. وبدا أنّ القاهرة الغربيّة وما بعدها مناطقُ لا تمثّل أهمّيةً لدى جيشي فرسان مالطا.

وخلال تلك المُدّة لم تُقرأ كلمة «احتلال» في أيّ من الصحف. بل لم تُسمع قطّ.

كان الأمر شديد الغموض، أعني تقبّل المصريين للمحتلّ وانعدام مقاومتهم له، تناسى الجميع الحكاية برُمّتها واستمرُّوا في حياتهم المعتادة، قاموا بالتعاون مع دوريّات جيشي فرسان مالطا المرورية في المدن المحتلّة، واحترموا الانتظار لدقائقَ قليلة في طوابير ليتمَّ التأكُّد من سلامة تراخيص السيّارات والاطّلاع على بطاقات الهُويّة، وبعد شهرين أعلن الحاكم العسكري عودة المحاكم المصرية إلى العمل، الأمر الذي

قوبل باستحسانٍ هائل، ورأى الناس أنّ الأمر بعودة المحاكم إلى العمل هو اعترافٌ مالطي بشموخ القضاء المصري الشامخ دومًا. تعاملت النيابة مع جيشي فرسان مالطا كما كانوا يتعاملون مع جهاز الشرطة المصرية، كسلطة ضبط وإحضار ومحافظين على الأمن، وأيضًا تعامل القضاء مع الجيشين بالصفة نفسها. بدا أنّ جيشي فرسان مالطا أكفأ منّا كثيرًا، والحقيقة أنّ أداء الداخلية كان قد استقرّ عند القاع منذ مدّة طويلة، والناس أنفسُهم كانوا قد ملّوا الشكوى، وتقبّلوا جرائم السرقة والاختطاف بصدر رحب، ومع مرور الوقت لم يعد هناك ما يُمكن سرقته، أو من يصبح اختطافه مربحًا. ربّما لذلك كانت مهمّة جيشي فرسان مالطا سهلة للغاية.

بعد مرور تسعة شهورٍ من الهدوء تمّ تعيين اللّواء محمّد أحمد عبد الله وزيرًا للداخلية، كان اللواء عبد الله يشغل منصب مساعد وزير الداخلية السابق لقطاع السجون. وفي خطاب له، بعد حلف اليمين أمام الفيلدمارشال بول- بيير جينفيف، أعلن أنّه يستدعي جميع العاملين في وزارة الداخلية إلى العمل مرَّة أخرى، طالبًا منهم حُسنَ التصرُّف وتقديم مصلحة المواطنين على كلّ مصلحة. كان خطابه عاطفيًا جدًّا.

بدأَت على الفور حملةٌ نشطة في كلّ وسائل الإعلام تطالب رجال الداخلية بالعودة إلى أماكنهم لخدمة الوطن والمواطنين. الصحف نفسُها التي لم تذكر كلمة «الاحتلال» قطّ خلال المدّة الماضية أيّدت قرار الوزير الجديد. كُتب كلام كثير عن «هيبة الدولة» التي غابت بسبب إضراب رجال الداخلية عن العمل. وعن مسؤوليتنا تجاه الوطن الذي نحيا فيه، وعن رفع العبءِ عن جيشي فرسان مالطا الذَين يعانيان كثيرًا كي يحافظا على الأمن الداخلي بينما مهمَّتهما الحقيقية هي الحفاظ على الحدود المصرية من الأعداء الخارجيين. وظهرت دعوى تطالب بأن يكون عيد الشرطة القادم، يوم 25 يناير من عام 2024، هو يوم عودة الشرطة إلى العمل مرَّة أخرى. أُطلق على الحملة «الشرطة تعود في عيدها».

لكنّ الحملة لم تخرج خارج نطاق الصحف والبرامج التلفزيونية، خلا الشارع من أيّ مظاهر داعية إلى عودة الشرطة، بل خلا من أيّ اهتمام بما يحدث.

وبالفعل، في يوم 25 يناير 2024 قام جنود جيشَي فرسان مالطا بتسليم أقسام الشرطة ومباني مديريات الأمن ومبنى الوزارة إلى موظّفي الداخلية مرَّة أخرى.

كانت تلك الأيّام مفترق طرقٍ بالنسبة إليّ، كنتُ بين اختيارَين واضحَين؛ العودة إلى العمل تحت إمرة المحتلّ، أو الاستمرار في موقفي الرافض لذلك. كنتُ حتّى ذلك اليوم أتسلَّم مرتّبي بشكل طبيعي، وبالطبع كان ترك العمل سيسبّبُ ضررًا ماديًّا ضخمًا، فضابط الشرطة، عادة، بلا دخل سوى مرتبه، وكنتُ فعلًا بلا دخل آخر.

في ذلك الوقت كانت الأمور مستقرّة كثيرًا، بالطبع امتلأت القاهرة بنقاط التفتيش التي أقامها جنود فرسان مالطا، كانوا يتحدَّثون العربية بلهجة تونسية، وإنجليزية بلهجات عديدة، وكانوا والسكّانُ يتفاهمون بشكلٍ أو بآخر. كنتُ أرى أنّنا في قاع الحفرة؛ رضينا بمجموعة من المرتزِقة كمحتلّين، بلا أيّ أملٍ في الخلاص منهم، أقلّ من نصف مليون من جنسيّات أصلية مختلفة، كلّهم حصلوا على جنسية جمهورية فرسان مالطا، ونحن نستضيفهم بكلّ وداعة في بلادنا.

لم تكن هناك أرض تحمل اسم «جمهورية فرسان مالطا»، تاريخ مواطني الجمهورية يعود إلى بقايا فرسان الحملات الصليبية، سيطروا على جزيرة مالطا بعض الوقت، فاكتسبوا اسمَهم الشهير، وبعد ذلك طُردوا منها وأصبح وضعُهم محيرًا جدًّا، إلى أن اتّخذوا في روما مقرًّا للجمهورية. هذه دولة بلا مواطنين، هناك عشرون ألف منتسبٍ للدولة، وأربعمئة ألف عضوٍ. وقبل مارس 2023 صار جميعُ الأعضاءِ والمنتسبون، فجأةً، مواطنين في جمهورية فرسان مالطا، كلّهم موظّفون وضبّاط

وجنود سابقون في جيوش دول عديدة، كان جيشًا كبيرًا، متعدِّدَ الأقسام ومتنوِّعًا، وقرَّر القادة أنّ مصر أرض مناسبة ليستقرَّ الجميع فيها، واتّجه الجميعُ من كلِّ دول العالم مسافرين عن طريق البحر ليستقرُّوا في سفن حربيّة وحاملات طائرات قرب الساحل الشمالي لمصر. وربّما شجَّعتهم حكوماتُ دول العالم المختلفة للخلاص من جَعجَعة المصريين الفارغة والسذاجة التي تُدار بها العَلاقات الدُّوَلية طوال السنوات الماضية. كانت جمهورية فرسان مالطا دولة بلا نظام سياسي أو إداري، فقط جيشان هائلا الحجم، قويّا التدريب، متنوِّعا الأعراق والجنسيّات، قراصنة على البرّ إن أردتُ أن أصفهم وصفًا دقيقًا، بلا أرضٍ وبالتالي فالوطنية لا وجودَ لها في عقولهم، واختارُوا أن يتركُوا بلدانهم خلفهم وأن يستقرُّوا هنا. فكَّرتُ كثيرًا في ما حدث، وأيقنتُ أنّهم كانوا يعلمون أنّنا لن نقاوم، وبالطبع كانوا يعلمون أنّهم سيتمكَّنون من هزيمة الجيش المصري بالكامل. ما بقي بعد ذلك كان نزهةً في أرضٍ خصيبة يشغلُها اللون الأخضر والناس.

رفضتُ العمل، كنتُ أرى أنَّ هناك شيئًا ما غيرَ مفهوم يحدث حولي، هناك جنون هادئ أصاب المصريين وجعلهم يقبلون بكلّ ما حدث خلال الشهور الماضية، وكنتُ أرى أنّ رجال الشرطة أصابهم الجنون نفسُه، راحوا ضحيَّته كما راح باقي المصريين من قبلهم. وقرَّرتُ أنّي سأبحث عن أيّ عمل، لكنّي لن أعمل أبدًا تحت قيادة المحتلّ. في الوقت الذي عاد فيه أغلب زملائي ومعارفي إلى وظائفهم ومقرَّاتهم ورتبِهم، كان الرافضون للعمل مثلي قلّةً لا تكاد تُذكر، وربّما لم نتعدَّ الألفَ ضابط.

كنتُ في أسوأ حالٍ عندما حدث أول تفجير لمدرَّعة مالطية في شارع رمسيس. بعد ساعةٍ من التفجير، أعلنت المقاومة المصرية أنَّ هذه أوّل عملية لها، ولنِ تكون الأخيرة. حينها علمتُ أنّي لستُ وحدي.

تسارعت وتيرةُ الأحداث بعد ذلك؛ قامتِ المقاومة بعمليّات اغتيال لجنود الاحتلال، وعمليّات تفجير لمدرَّعاتهم ودبَّاباتهم، وقصفت نقاط

تمركزِهم بالهَاوِن، وأطلقت صواريخ على طائراتهم. خلال أسبوع واحد قُتل أكثرُ من مئة ضابطٍ وجنديٍّ مالطي.

وفي نهاية الأسبوع، اتّصل بي زميلٌ قديمٌ يطلب مقابلتي، كان طلبه وديًّا ولم يبدُ على صوته في التليفون أيُّ حماس أو انفعال. وفي أثناء جلوسنا على القهوة وسط الناس طلب منّي الرائد كريم بهاء الدين الانضمامَ للمقاومة، هكذا، بكلّ بساطة، وفورًا أبديتُ ترحيبي وسعادتي. ما قاله كريم بعد ذلك كان مبهجًا حقًّا.

المقاومة مكوّنة من ضبّاط شرطة سابقين فقط، هناك عددٌ قليلٌ جدًّا من ضباط الجيش، وهؤلاء لا يطَّلعون على كلّ شيء ويُعتبرون أعضاءً من الدرجة الثانية، ولا يتمُّ تكليفُهم إلا بالمَهمّات الانتحارية أو الخَطِرة جدًّا. هناك أيضًا عددٌ أقلُّ من المواطنين العاديّين، تدفعهم الحماسةُ الوطنية إلى ارتكاب أفعالٍ حمقاءَ لكنَّها فعَّالة، راغبين في التخلُّص من الاحتلال. وهؤلاء لم يقوموا إلَّا بعمليات التجسُّس، ونقلِ المعلومات، لا يعرفون أعضاء المقاومة من ضبّاط الشرطة، لا يعرفونَ أسماءَ القادة أو أماكن الاجتماعات، لا يحملون سلاحًا، ومن يرغب في التطوُّع منهم، فكلّ ما يُقدّم له سلاحٌ أبيضُ وعليه التعامل به مع العدوّ المحتلّ. كانت المقاومة المصرية، بشكلها هذا، جنّتَنا؛ نموذج مثاليّ لذكاء جهاز الشرطة المصري وتفاني رجاله في خدمة الوطن، وحرصهم على عدم إدخال أيّ غريب وسطهم، حتّى لو كان وطنيًّا حقًّا وكارهًا الاحتلالَ، كالمواطنين العاديّين. كلُّنا كنَّا نعرفُ أسبابَ انفرادِنا بالمواقع المهمّة في المقاومة، وهي عديدة لا يمكن حصرُها؛ على سبيل المثال لأنّ المواطنين ضعفاءُ في الأصل، ينحازون إلى أُسرِهم الصغيرة، ومُتعِهم التافهة، هم غيرُ مُدرَّبين على استخدام السلاح أو على العمل في مجموعات أو تحمّل المسؤولية، وحتّى لو كان المواطن مدرَّبًا على كلّ ما سبق، كضبَّاط الجيش مثلًا، فسينقصه حتمًا القدرةُ على التصرُّف في الأوقات الحرجة. قال كريم إنّ

ضبّاط الجيش السابقين اكتسبوا جرأةً انتحارية لا حدودَ لها، وقال إنّ تلك الجرأة سببُها هزيمتُهم المُنكَرة، ورغبتُهم في التكفير عن خطيئتهم في حقّ البلد، قال إنّ عذابَهم مقيمٌ ودائم، وهم على الاستعداد للانتحار ببساطة من أجل جرح أحد جنود الاحتلال. كان هذا مناسبًا جدًّا، وفكَّرتُ أنّنا مع زوال الاحتلال، ولا أعلم متى سيحدثُ هذا، سنكون قد تخلَّصنا من رجال الجيش السابقين تمامًا، في النهاية، مَن يرغب في سيطرة الجيش مرَّة أخرى على البلاد؟

كانت المقاومة لنا فقط، شركة ضخمة يديرُها خيرةُ ضبّاط الشرطة، غرضُها الأساسي والوحيد طردُ المحتلّ. والحقيقة أنّي لم أكن لأهتمَّ على الإطلاق بضبّاط الجيش، هؤلاء انتهَوا تمامًا مع أوّل يومٍ من الاحتلال، ولن تقومَ لهم قائمةٌ إلّا إذا سمحنا بذلك. كان يعنيني – حقًّا – السذَّجُ من المواطنين العاديّين، عرفتُ من الزميلِ أنّ هؤلاءِ كانوا يُقادون إلى حتفِهم دون أيِّ اهتمام. ولم أتعاطف معهم إلّا عندما رأيتُ الأغلبية الساحقة من المواطنين يعيشون في رضًا تامٍّ تحت الاحتلال. قلتُ في نفسي إنّ هناك من لا يزال يهتمُّ بهذا البلد.

بعد ذلك طلب زميل آخر مقابلتي، هذه المرَّة كان برتبة عميد، لم أكن أعرِفُه، ولم أسمع باسمه من قبل، إلى درجة أنَّي شككتُ في كونه ضابطًا حقًّا، تلاشت مخاوفي حينما رأيته يقترب من مكان جلوسي في مطعم في مصر الجديدة، كان بطيءَ الحركة جدًّا، بما يتناسب مع ضابط كسولٍ ينشغل عقلُه بالتفكير عوضًا عن انشغال جسدِه بالحركة، هذه خطوات عميد، وهذه أيضًا جلسته، حالما جلس أخبرني باسمه وبالقليل عن عمله السابق في الداخلية. العميد عادل الشواربي هو أحد القيادات المتوسِّطة في المقاومة، وعلى الرغم من وجهه الجامد وعينيه الساكنتين، إلا أنّه تبسَّط كثيرًا في الحديث بعد مرور خمس دقائقَ فقط، وكأنّه كان ينتظر أن يطمئنَّ إليَّ كما كنتُ أنتظر تمامًا، تحدَّثنا كثيرًا عن حال البلد، وعندما

أبديتُ تعجُّبي من طول مدَّة الاحتلال وانعدام أيّ وجه من أوجه المقاومة، قال إنّ هذا أفضل من اشتراك المواطنين في المقاومة بكثير، عزوفهم سيؤكِّد على دورنا المتخصِّص في العمليّات العسكرية داخل المدن. قال إنّنا في حرب عصابات الآن، ولا أحد يصلح لها سوانا، قاطعته لأُعلِمَه بأنّ شرطَ عملي الوحيد هو الحفاظ على هذا الهيكل دون تغيير؛ ضبّاط الشرطة هم الأساس، وضبّاط الجيش والمواطنون العاديّون على الهامش وبلا أيّ صلاحيّات. ضحك وقال إنّه يودُّ لو اهتمّ المواطنون العاديّون، وإنّ قادة المقاومة لو أرادوا فعلًا إشراكَ المواطنين العاديّين في العمليّات، لمَا استطاعوا ذلك. لكنّه قال إنّ المشكلة حقًّا في ضبّاط الجيش، لذلك هم حريصون على التخلُّص منهم في عمليّاتٍ ذاتِ مخاطرَ كبيرة، قال إنّ هذه السياسة لن تتغيَّر أبدًا، ويبدو أنّ السادةَ ضبّاطَ الجيش يعلمون أنّ المقاومة تطبِّق هذه السياسة عليهم فقط، ويبدو أيضًا أنّهم راضون بما يحدث. قال: «في النهاية نحن في خضم حرب، ولا بدَّ من قتلى في أيّ حرب، فلمَ لا يكون القتلى في الجانب الذي أضاع البلد في الأصل؟».

كان كلامُه مطمئنًا، وأخبرني أنّهم يريدونني قنّاصًا. وأنّ عليَّ ألَّا أتردَّدَ كثيرًا، فأنا مطلوب للعمل على وجه السرعة.

استعدتُ ذكرياتِ عملي في شرطة المطار وفي الحراسات العامّة كقنّاص. كنتُ قد أمسكتُ البندقية عشرةَ أعوام، وتطلَّعتُ إلى العالم ناظرًا من خلال العدسات ساعات عدَّة، واستسلمتُ لإغراء التلصُّص بعد مقاومة ضعيفة، وأطلقتُ النار على أربعة أشخاص.

قال العميد عادل: «علمنا أنّك لم تخطئ قطّ».

وبالفعل، لم أخطئ قطّ. حتّى عندما تركتُ العمل في الحراسة واتّجهتُ إلى العمل في إدارات أخرى مختلفة لم أخطئ قطّ، كنتُ أتدرَّب على التصويب في الصحراء شرق القاهرة، وكنتُ أذهب إلى سيناء من حين لآخرَ لأصطادَ الغزلان، لم أكن أصوِّب على الغزلان، كنت أصوِّب على

الأحجار القاتمة اللون على الأرض الفسيحة، كنتُ أعتبر اصطياد الغزلان إهانةً لمن اصطاد بشرًا من قبل. كان اصطياد الأحجار أشرف بكثير. وسخر منّي رفاق الصيد في أوّل رحلة، لكنّهم أدركوا بسرعة أنّني لا يمكن أن أخطئ في كلّ مرّة، وأنّي أتعمّد ترك الغزلان. حتّى في سيناء لم أخطئ إصابة الأهداف قط.

استعدتُ ساعات الانتظار الطويلة، والسكون في انتظار ظهور الهدف المحتمل، والإبلاغ عن إمكانية إصابة الهدف في مقتل، والانتظار للحظات قبل أن يأتيَني التأكيدُ على أمر إطلاق النار، وسكوني للحظة بعد ذلك، والطلقة الغائبة في الهدف. كنتُ أتحكّم في تنفُّسي، فلم ألهث يومًا طلبًا لأكسجين زائد، لم يجفّ حلقي قطّ، ولم يندفع الأدرينالين في دمي قطّ، كنت أصوِّب وأطلق النار وكأنّني أُمرِّر كفّي في شعر رأسي. هذه ذكرياتٌ مجيدة حقًّا.

وافقته من فوري، وأبديتُ استعدادي للعمل دون أيِّ شروط أو تحفّظات، قلتُ له إنّ المشكلة الوحيدة أنّي لا أمتلكُ أيَّ سلاح الآن، وأنّ على المقاومة أن توفِّرَ لي بندقيةً بمِنظار. ابتسم وقال إنّ هذه ليست مشكلة.

خلال الشهور الستّة التالية التي أعقبت هذا اللقاء، كنتُ قد قتلت الكثيرين، أكثر بكثير ممّا قتلتُ حينما كنت ضابطًا في الداخلية. مَن قتلتهم سابقًا كانوا أفرادًا حاولوا الدخول عَنوة إلى الأماكن التي كنتُ أحرسها، أو حاولوا اغتيال أو الاعتداء على من كنتُ أحرسهم، تلك كانت عمليّات نظيفة بسيطة وبلا أيِّ تعقيدات، وطالما كنتُ عنصرًا رئيسًا في تلك العمليّات؛ كنتُ صاحب السلطة الذي ينتظر الأوامر طبقًا للإجراءات المعتادة، كنتُ مَن يُطلق الطلقة التي تحافظ على ما أحرسه آمنًا. أمّا خلال عملي مع المقاومة فقد اختلف كلُّ شيء.

كانت المخاطرة أكبر بكثير، كنتُ معرَّضًا لنيران المحتلّ طوال الوقت، معرَّضًا للاعتقال والمحاكمة بتهمة القتل، أو مقاومة السلطات، أو حمل

سلاح غيرِ مرخَّص. كان الانضمام للمقاومة عملًا وطنيًا لكنّه كان مخالفًا للقانون، وكان القتل جريمة، كما كان دائمًا، لكنّها كانت ضرورية للخلاص من المُحتلّ.

احتللتُ أسطح مبانٍ عديدة، حتّى صرتُ لا أذكرُ معالم الأسطح والسلالم التي صعدتها، كنتُ أتسلَّح بأنواع عديدة من بنادق الدراجونوف الحبيبة، نماذج رومانية مطوَّرة وصينية شبيهة بالأصل تمامًا. واحتفظتُ عدّة أيّام بواحدة روسية جميلة للغاية. كانت الدراجونوف الحبيبة رفيقتي التي اعتمدتُ عليها ستّة أشهر قبل أن أصعد إلى البرج.

خلال الشهور الستة قتلتُ ضبّاطًا وجنودًا من جيشَيْ الاحتلال، قتلتُ متعاملين مع المحتلّ؛ ضبّاط شرطة مصريّين، وضبّاط جيش مصريين سابقين، وموظّفي حكومة ومساعدي وزراء؛ قتلتُ وزير الثقافة في أثناء خروجه من معرِض فنّي في جاردن سيتي، كنتُ متمركزًا في المبنى نفسِه حيثُ أقيم المعرِض، ورأيته يخرج ويسلِّم على الفنّانين ثمّ استقلّ سيّارته. تركتُ السيّارة تمضي في الشارع ثم أطلقتُ ثلاثَ طلقات، اخترقتِ الأولى رأسَه، واخترقتِ الثانية والثالثة المقعد الخلفي لتستقرّا في جسده. أطلقتُ على وزير البيئة طلقة واحدة في رأسه من الوضع وقوفًا، كانت البندقية تستندُ على سيّارة متوقِّفة في الشارع حيث مسكنه، أطلقتُ الرصاصة وتركتُ البندقية ومشيتُ بهدوء خارجًا من الشارع ولم يلتفت إليّ أحد. كانت المقاومة في أقوى حالاتها في تلك الأيّام، إلى درجة أنّ أحدًا لم يتجرَّأ وينظر في وجهي. قتلتُ مواطنين عاديّين، ممّن كانوا يتعاملون مع جنود المحتلّ باستمرار، أصحاب الشركات والمؤسّسات التي ورَّدتِ الطعامَ والمعدّات إلى جيشي الاحتلال، هؤلاء استطاعوا توفير حراسة لأنفسهم وأسرهم، وصار اغتيالُهم شبهَ مستحيل إلّا ببندقية القنص. قتلتُ منهم الكثيرين. قتلت ضابطًا بعد أن رشف أوّل وآخر رشفة من فنجان قهوته، وقتلت القهوجي الذي وضع الفنجان أمامه، كان قد تسمَّر لثوانٍ بعدما تلقَّى الضابط الطلقة، ولا بدَ أنّه

ظنَّ أنّ الطلقة القادمة ستصيبه. قتلتُ مواطنًا عن طريق الخطأ، عندما أطلقتُ النار على ضابط فاخترقت الطلقة صدره لتستقرَّ في فخذ المواطن. رأيت فخذَه ينزف بغزارة، ورأيته يزحفُ محاولًا الهرب، وعرفتُ بعد ذلك أنّه مات بعدما نزف كثيرًا. قتلتُ الزوجة المصرية لقائد منطقة القاهرة العسكرية. قتلتها وهي واقفة في حفلة عامّة تتلقّى التهاني بشهر العسل والزواج السعيد؛ أطلقتُ النار على رأسها من المبنى المقابل على بعد أقلَّ من عشرين مترًا، ولم ينتبه أحدٌ لما حدث في البداية، فتابعتُ إطلاق النار وقتلتُ خمسة أشخاص لا أعرفهم، ثم أطلقتُ النار عشوائيًّا على الجميع، كان إجماليَّ مَن قتلتُ في ذلك اليوم عشرون شخصًا. قتلتُ رئيس الأركان المصري السابق، هذا الذي كان مسؤولًا عن الجيش المصري الأخير. كان الجيش يُمحى من على الأرض حسب خطّة دقيقة، الطائرات والدبّابات والمدرّعات وناقلات الجنود والشاحنات، كلّ ما حوى محرِّكًا دُمِّر في اليوم الأوّل وكان الرجل جالسًا في مكتبه يحاول الاتصال بالأمريكان دونَ مُجيب، وبالتأكيد كان يتبوّل في بدلته العسكرية وهو يتلقّى أخبار انهيار الجيش السريع واختفاء مَن كان يتّصل به، سيناريو 67 تكرَّرَ حرفيًّا في ذلك اليوم الكئيب. كنتُ سأطلق النارَ على رأسه وهو يمشي إلى جانب حفيدته قرب مدرستها. لكنّي أطلقتُ النار على كبده وتركتها تنحني فوقه وتحاول إيقاف النزيف بكفّها. أطلقتُ النار على أوّل مَن اقترب منهما يحاول إنقاذه، وأطلقتُ النار على أوّل مسعف وصل إلى المكان بعد ساعة كاملة. كان الرجل قد مات بالفعل، وحفيدته توقّفت عن البكاء وأخذت تحدّقُ في جسده الدامي، ولزُوجة الدم الناعمة تحت أناملِها تساعدها على تدليك كفّه الميّتة. كنتُ، في تلك الساعة، أخاطرُ بكشف مكاني أو حتّى بقتلي، أو على الأقلّ بإلقاء القبض عليَّ، لكنّ السيّد رئيسَ الأركان السابق كان يستحقُّ عذابَ النزيف وانسحاب الحرارة من الأطراف ورؤية الفزع في عينيَ حفيدته والرّعدَة الأخيرة. كنتُ أعذّب الرجل وكنتُ سعيدًا.

كانت تلك شهور الركض وصعود السلالم والهرب قفزًا بين الأسطح، وتقييم الموقف؛ هل أترك البندقية أم أحملها وأركض هاربًا؟ هل سينتبه المارّة إليَّ؟ وهل سيطلق أحد جنود الاحتلال النار عليَّ؟ هل يجب أن أقتل هذا حقًّا أم أن قتله لن يفيد؟ هل قتل هذا عقابٌ أم عظة؟

كنتُ أمتلك مقدارًا من قدرة إلهيّة على قتل الناس.

3

تقدَّم منّي شابٌّ تفوح منه رائحة صابون، بدا لي أنّه تحمَّم وحلق ذقنه توًّا، يمسك بندقية خرطوش ذاتَ ماسورة طويلة محليّة الصنع بكفّين نظيفتين، وتبدو أظافره نظيفة مسوَّاة بعناية، بدوتُ كشحَّاذ مقارنة به؛ رائحة عرقي نفَّاذة، وملابسي متّسخة، ويداي ملوَّثتان بالتراب الذي حفرته قبل دقائق، وبآثار الأقدام والأحذية على السلم الطويل.

لا مفرَّ من بطن الكوبري؛ لا يتحرَّك مَن بلا أوراق مثلي بين شطرَي القاهرة إلّا هكذا، عبر بطن كوبري أكتوبر، مخاطرين. قد يفقد المارُّ مالَه وممتلكاتِه وقد يفقد حياتَه. لكن يستحيل المرور على ظهر الكوبري، نقاط التفتيش هناك مصيدة لأمثالي، ثم إنّ أجرة المرور هنا قليلة، علبة سجاير فقط. هي سلعة رخيصة عندهم وعندي. الآن سأمرّ كمواطن عادي، لا يعلمون أنّي من المقاومة، لا أعلم إن كان هؤلاء من المقاومة أم أنّهم مجرَّد بلطجية يحرسون مصدر دخلهم؛ بطن الكوبري. لا أحمل معي شيئًا ذا قيمة وهذه رحلة بالغة القِصر، سأسيرُ أقلّ من كيلومترين عبر بطن الكوبري.

قال الشابُّ لي بهدوء:

«أجرة المرور علبة سجاير لم تُفتح، لا أسلحة هنا، إذا كنت تحمل سلاحًا الآن فارمِه من هذه الفتحة، لا تحادثِ المارّة ولا تنظر إلى وجوههم، وإذا كنت تحمل قناعًا فضعه على وجهك، أو غطِّه بشال أو بورق جرائد، وإذا لم تحمل أيًا من كلّ هذا فهاك كيسًا من الورق لتضعه على رأسك. كلّ

هذا لحمايتك أنتَ، لا تفصح عن اسمك أو شخصيّتك لأيٍّ من المارّة أو البائعين أو النائمين أو الواقفين. البطن لم يعد ممرًّا فقط كما كان، بل هو الآن منفذُ لبيع أشياءَ كثيرة، لا أمنعك من شراء أيّ شيء من الباعة، لكن كلّ عملية شراء ستتمُّ على مسؤوليتك، لا تأتي إليَّ شاكيًا أحدَهم إن قام بسرقتك أو النصب عليك... تقدَّم الآن».

وضعتُ علبة السجائر في كفِّه. أخرجت قناعي من الحقيبة ووضعته على وجهي، ثبّتُّه بالحزام الجلديّ على رأسي، أنا جاهز الآن لعبور البطن.

ظلام يكتنفُ المكان، لا يُظهر أمامي أيُّ شيء، ومن خلفي الشابّ ورائحة صابونه تختفي، ومن حوله وقف رفاقه يتأمّلونني، يبدون كحرّاس حقيقيّين بعصيِّهم وسيوفهم القصيرة، وضوء خافت شحيح ينبعث من الكوّة ينيرُ النصف السفليَّ من أجسادهم. تقدَّمت خطوات عدّة وأصوات بعيدة تصلني من عمق البطن، وأضواء متفرّقة ملوّنة، وصليل أسلحة وسلاسل.

أوّل ما رأيت كانت امرأة تبدو في الستين من العمر، كان وجهُها مغطًّى بقماشٍ ملفوفٍ حول رأسها، كأنّه عمامةٌ تغطّي الوجهَ بأكمله. لم تكن ترتدي أيَّ شيء آخر، ترهّلات الثديين والكتفين تفضحُ سنّها. منظرُها مبهرٌ جدًّا. العُري غير المتوقَّع والوجهُ المحجوب أربكاني كثيرًا، هذه أوّل مرّة أرى امرأةً عاريةً في مكان يُفترض أنّه مكانٌ عامٌّ كالشارع. رفعتُ يدي إلى وجهي تلقائيًّا؛ لأتأكدَ من ثبات القناع في مكانه. الآنَ، أنا آمن تمامًا. كانت تمسحُ بكفِّها على فخذِها، ثم عصرت ثديَها الأيمن وسألتني بصوتٍ مبحوح هادئ: «الخمسة بخمسة؟»

تجاوزتها متوقِّعًا الأسوأ.

لم أتوقّع أن يُنشأ الكوبري وفي باطنه نفق كهذا، حائطين وأرضية وسقف من الخرسانة. على الأرضية كابلاتٌ ومواسيرُ ضخمة تمتدُّ بطول النفق، تبدو ظاهرةً للعابر من خلال الفرجات بين الألواح الخشبيّة الكبيرة

التي تغطّيها، بالتأكيد وضع المارة الألواح كي لا يتعرَّضوا للصعق إذا تقشَّرت الكابلات، وكي لا تُثقبَ المواسير أو تنكسرَ إذا زاد الضغط عليها. هناك أكشاك عديدة على الجانبين، بعرض متر وطول مترين تقريبًا، وستائر مُعتِمة تغطِّي كلَّ كُشك، تحجبُ النورَ القليلَ المنبعث من الكشَّافات الكهربائيّة المعلَّقة في سقف النفق. بعضُها مسدلٌ على ما يحدث، وبعضُها مرفوع ليُظهرَ ما بداخل الكُشك. لم أستطع مقاومة الفضول، أنا لم ألمس فتاة منذ مدَّة طويلة، ودفء المكان والخطر المحدِق بي يحفزاني للتوقُّف. أمام ما رأيته أكثر الأكشاك تنظيمًا توقَّفتُ، لا مارَّة بجانبي، وفتاة نحيلة تجلس على كرسيٍّ مرتفع أمام الستار، تبدو ساقيها ناعمتين في الضوء الشحيح، ووجهها صغير متناسق، وأحمر شفاه قاتم يُزيِّن وجهَها، ترتدي جلبابًا خفيفًا، يُظهر جِيدها وجزءًا من ثدييها من جيبه، قالت لي: «الخمسة بخمسة». ولم أفهم ما تعني، لكنّي أومأت موافقًا على الصفقة، دخلت الكُشك وتبعتُها، وأسدلتْ الستار علينا.

في الداخل صور عديدة لنساء عاريات ملصقة على الجدران، كنت واقفًا أنظر حولي وأحاول الهرب من نظرات الفتاة، بسرعة فكَّتْ هي حزامي وأنزلت البنطلون، والتقمت قضيبي وأخذت تمصّه حتّى انتصب. ثم أجلستني على الفراش وامتطتني، حاولتُ خلع الجلباب عن جسدها، فأوقفت يدي بحدّة، وأمسكت طرف الجلباب وخلعته بحركة واحدة، ليصبح جسدها عاريًا تمامًا أمامي، أمسكت ثدييها وهي صامتة تتقافز على قضيبي. حدَّقتُ كثيرًا في صدرها وكتفَيها، وعندما أدهشتني الليونة التي لم أختبرها منذُ مدَّة. اعتصرتُ ثديَيها، تقافزتْ هي بسرعة أكبر محاولة الإفلات من قبضتي، لكنّي لم أفلتها. رفعتُ عيناي ورأيتُ وجهها واضحًا لأوّل مرَّة، بدا لي أنّ عينَها اليمنى حولاء، تنظر إلى الجانب فلا تتحرَّك كما تتحرَّك عينها الأخرى، زادت الفتاة من سرعتها وتأوَّهت، كان ما تفعله مفتعلًا، وبسبب السرعة سقطت عينها الحولاء على الفراش، وبدت

عينُها الحقيقية مشوَّهة تمامًا. وأدركتُ أنّ التي سقطت كانت غطاءً صناعيًّا لعينِها، تركتُ ثديَيها مُندهِشًا، بينما أخفضت هي عينُها السليمة ثم أغمضتها وظهرت عينها المعطوبة بلا جفن علويّ، كانت تنظر إليَّ بعين واحدة رمادية أرى تعرُّجاتٍ طفيفةً على سطحها، عينٌ عمياءُ لا ترى، مفتوحة باتّساع، وجفنها العُلوي ممزَّقٌ وبلا أهداب، اقتربت منّي لتخفيَ وجهَها عنّي، ومرَّرت أصابعها في شعري، ولم أشعر بالاقتراب كما يحدث عادة، في تلك اللحظة قذفتُ.

قامتْ من على حِجري، وتناولت عينها الصناعية وأعادتها إلى محجرها، ثم تناولت كوبًا من البلاستيك، وملأته بالماء من دلو في طرف الكشك، نثرت الماء على فرجها مرَّتين، وارتدت جلبابها ورفعت الستارة وخرجت. كنت جالسًا على الفراش وقضيبي يسترخي ببطء، والمني يسيل على البنطلون وعلى فخذي العارية، ورأيتُ الدم كثيفًا على قضيبي، لزجًا يأخذ في التجلُّط ولم أعرف مصدره، وفكَّرت في كوابيس المراهقة، هل وضعتْ موسى في كُسِّها؟ لكن ما حدث كان يدعو إلى القرف أكثر ممّا يدعو إلى الرعب، كانت الفتاة حائضًا. مرَّ أحدُهم من أمام الكُشك، وتوقَّف لحظة ينظر من خلال الستارة المرفوعة، ورأيتُ عينَيه تبتسمان من خلف قناعه. كان يضع قناعَ وجه إسماعيل ياسين، عرفته من جبهته الضيّقة، وشفتَيه الغليظتَين وأسنانِه الكبيرة، وابتسامتِه المتَّسعة، ما زلتُ أرتدي القناع فأنا آمن. قمتُ من مكاني مسرعًا، ورحت أُعدِّل ملابسي دونَ أن أمسح المني أو الدم، وخرجتُ لأجدَ قناع إسماعيل ياسين قد مضى بعيدًا غيرَ عابئٍ بي أو بالفتاة. قالت وهي تقف خارج الكشك: «ثلاثة بثلاثة». توقّفت أمامَها محاولًا فهمَ ما تقصد، حدَّقتُ في ثديَيها تحت الجلباب مرَّة أخرى وأنا مرتبك، أودُّ أن أعتصرهما مرَّة أخرى لكنّ الدم يمنعني، قالت: «أفّ! ثلاث دقائق بثلاثة جنيهات!».

مررتُ على عاهرات كثيرات، لم يكُنَّ أجملَ من الحائض، هي أجملهنّ

مع أنّها بعين واحدة. في المرَّة القادمة سأرتدي واقيًا ذكريًّا بالتأكيد، خشيت أن تكون مصابة بمرض ما، ربّما تكون مصابة بالإيدز، وتساءلت هل ستنتقل العدوى إليَّ، هل ينقل دم الحيض الإيدز؟

مشيتُ كثيرًا، سمعت صوت السيّارات التي تمرّ فوق رأسي، فوق هذا الجزء من الكوبري تمرّ السيّارات مسرعةً، لا نقاط تفتيش لتوقفَها أو تهدِّئَ من سرعتِها، استعدت دقائق الانتظار الطويلة، قبل الاحتلال، فوق كوبري أكتوبر راكبًا سيّارتي، كنت أنظر إلى عشرات المنتظرين أمثالي وأراهم يحدّقون في الفراغ أمامهم بلا هدف. الآن لا انتظار، قلَّ عدد السيّارات العابرة بين شطرَي القاهرة كثيرًا، وحتّى مع وجود نقاط التفتيش المعيقة للسيولة المرورية، لا تتجمَّع السيّارات على الكوبري كما كان يحدث سابقًا.

البطن آمن جدًّا، على عكس ما حذَّرني الحارس عند الكوّة، وقناعي يجعلني بعيدًا ومعزولًا عن كلّ ما حولي، هنا يبيعون كلّ أنواع الممنوعات، الحشيش والبانجو، وحبوب بيضاء وأخرى ملوَّنة متعدِّدة الأشكال موضوعة على طاولات منخفضة، وزجاجات خمر رخيصة، وأكياس بلاستيك صغيرة تحوي بوظة مختمرة، ومجلّات جنسيّة مستوردة. لا أكشاك للدّعارة في هذا القسم، هنا المركز التجاري للنفق، العمل الأكثر احترامًا.

كلّما تقدَّمت، قلَّ عدد الباعة، حتّى وصلت إلى قسم ليس فيه باعة ولا عاهرات. فقط مارّة مثلي، كلّ الوجوه مغطَّاة بأقنعة من قماش أو بأكياس من ورق أو بطرف حجاب. قليلون يضعون أقنعةً خاصّةً مثلما أفعل، هؤلاء مميّزون وكأنّ أقنعتَهم لا تُخفي هُويَّاتِهم، لا نفع في ارتداء قناع واحد مميَّز طوال الوقت. سيستبدلُ الواحد القناع بوجهه، ويصبح جزءًا من هُويّته.

هذه خطواتي الأولى في القاهرة منذ سنتين، المدّة الطويلة التي قضيتُها في البرج عزلتني عن كلّ ما يحدث، متى أصبح ارتداء الأقنعة فعلًا عاديًّا؟ أم لأنّنا نمشي في بطن الكوبري؟

عاد الباعة للظهور، هذه المرّة يعرضون تماثيل فرعونية صغيرة، لا حاجة إلى القول بأنّها مزوّرة، مع أنّ الباعة يصرّون على أنّها أصلية، أسمع واحدًا يجادل أحد المشترين المحتملين، يحاول إقناعَه بأنّ رأس التمثال هذا حقيقي.

ظهر باعة ألعاب الأطفال، دُمى وسيّارات صغيرة، وكرات ملوّنة، كنت أظنُّ أنّ النفق مرتع للبضاعة الممنوعة لكن يبدو أنّه مكانُ بيعِ أيّ شيء. ولمّا لمحت الملابس الداخلية البيضاء معروضةً على الأرضِ، تذكّرتُ قضيبي الملوّث.

ضاق النفق، سمعت أحدهم يقول لمرافقه إنّهما اقتربا كثيرًا من المخرج، وبعد دقائق ظهر ضوء الشارع يأتي شحيحًا من كوّة مربّعة في الأرضية، بدا كلُّ شيء مقلوبًا، نوافذُ في الأرضية تُنير المكان، لا في الحوائط أو السقف. نسيت لحظةً أنّي أمشي في نفقٍ معلّقٍ فوق سطح الأرض.

نزلت من خلال الفتحة، ضربني ضجيجُ السيّارات والمارّة، ورائحة بول خانقة، كان السلّم مثبّتًا في عمود الكوبري، حيث يتبوّل الناس عليه، كوّن البولُ، بعد سنين، بقعةً سوداءَ هائلةً تمتدُّ إلى أعلى وتصل حتّى منتصف العمود، بينما تمتدُّ البقعة على الأرض إلى مدى أبعد، جافّة لا أراها تلتمع كالسوائل، لكنّها بعثت رائحة خانقة. تعاون شخص يأكلُ رغيفًا ولعابه يسيل على ذقنه، وآخر يتمخّط في الشارع، وثالث يُمسك سيفًا قصيرًا يرفعه مهدِّدًا أحدَ المارّة، تعاونوا على رفع كلّ السوائل إلى مريئي، تقيأتُ متخلِّصًا من كلّ شيء. أنا الآن في شارع الجلاء، في المنطقة المسمّاة الإسعاف.

مشيت ببطء، محاولًا الخروج من تحت الكوبري والوصول إلى حيث يوجد هواء نقيّ، كنت أرى نور الشمس الساطع يضرب شارع 26 يوليو، أودُّ أن أصل إلى تقاطُع شارع رمسيس مع 26 يوليو قبل أن أفقد الوعي، هناك سألتقي بواحد. الساعة تقترب من العاشرة صباحًا، سأصل هناك خلال خمس دقائقَ لا أكثر.

أوقفني شيخٌ عارٍ تمامًا، يمشي حافيًا وقدماه متّسختان لا تبدو أصابعُهما واضحة من شدّة السواد، كان يتمتم بكلماتٍ غيرِ مسموعة، ولعابُه يسيل على لحيته، نظر إليَّ وهمس في وجهي مرتعبًا: «كلُّنا ميّتون... كلّنا نُعذَّب». حدَّقتُ في وجهه قليلًا، ثم تابعت السير.

وقفتُ أمام صيدلية الإسعاف خمس دقائق. اقتربت منّي امرأةٌ منقّبة وسألتني: «عطارد؟». صمتُّ ثوانٍ قبل أن أجيبَها، أومأتْ برأسها ومشت، تبعتها وكلِّي أمل في الخلاص. كنت أخشى الالتفات إلى ما خلَّفته.

مشت في شارع 26 يوليو متّجهةً إلى وسط المدينة، كان الزحام على أشدِّه، ولا مكان للمَشي على الرصيف، لكنّها كانت تمشي بين الناس وكأنّها قد اعتادت فعل ذلك، حاولتُ التخلُّص من المحيطين بي بدفعهم أو بالهروب منهم، الناس ينقسمون بين من يعطِّل السير بسبب التلكُّؤ أو السير في الاتجاه المعاكس، والباعة المستقرِّين على يمين الرصيف ويساره، يحتلّون جزءًا كبيرًا منه، ويضيق المكان المتروك للمارّة حتّى يصل عرضه إلى متر واحد. لا أرى المنقَّبة بوضوح، لكنِّي تبعتُها من بعيد وحاولت الاقتراب منها كلّ دقيقة بالرغم من الزحام القاتل.

اتّسع الرصيف قليلًا، وخفَّ الزحام فاقتربتُ من المنقّبة، سألتها إلى أين نحن ذاهبان؟ فلم تجِب. استمرّت ماشيةً حتّى وصلنا إلى ميدان العتبة، وأكملتِ الطريق إلى شارع الأزهر، دخلَت إلى أحد الشوارع الجانبية ومشَت أمتارًا قليلة، ثم دخلَت شوارعَ أصغرَ وأصغر، حتّى كدتُ أن أتيهَ وأنا أمشي خلفها.

هذه رحلتي الأولى في القاهرة منذ مدّة طويلة، لا أرى تغيُّرًا يُذكر في البيوت والمباني، السيّارات لم تتغيَّر والزحام لم يخفَّ. لكنّ الناس أصبحوا أكثر غرابة، صياحهم يشقّ الهواء طوال الوقت، شجارُهم مندلَعٌ في كلّ شارع وأمام كلّ دكان، شتائم عديدة تُطلق على سبيل المزاح والإهانة والتهديد. واشتباكات بالأيدي وطعنات مُدى، أحصيتُ أربعة

يتقيَّؤون على الرصيف ثمّ توقَّفت عن العدّ. ورأيت أحدَهم يرقدُ على الأرض ودمُه يسيل من تحته، لم يتحرَّك نحوه واحد من الناس فيغطّي جثمانه، كنَّا نفعل ذلك سابقًا؛ يستعيرُ أحدُهم جريدة ويغطّي بها الجثمان، ويثبّتها بحجارة صغيرة على الأطراف، وإذا كان هناك دمٌ فإنّه كفيلٌ بلصق الورق على الجثمان. الآن يعرضون الجثمان على الناس.

صعدت المنقّبة سلَّم بيت قديم وفتحت بابَ شقّة في الطابق الأوّل، دخلنا معًا.

خلعَت نقابَها، وأشعلت سيجارة، قال الرجل ذو الشارب الرفيع: «ألن ترفع القناع؟». كنت قد اعتدتُ النظرَ من خلال فتحتَي العينين الضيّقتَين، وأصبح وزنَ القناع شيئًا معتادًا على وجهي، رفعته فزال إحساسي بالاطمئنان، وعاد الخوف ليحتلّني، لم أترك القناع، متشبّثًا بآخر حماية لي هنا. كنت آمنًا في البرج وأنا الآن في العراء. حدَّق الرجل في وجهي قليلًا، واستراح على كرسي، جلست في مواجهته ولم أرَ مانعًا من ارتداء القناع مرّة أخرى فارتديته. أنا الآن مواطنٌ عادي، تركتُ الداخلية منذ مدَّة وأصبحتُ بلا حماية، كلّ من أعرفهم رحلوا أو ماتوا أو انضمّوا إلى المقاومة ومَن ظلَّ ضابطًا في الداخلية صار عدوًّا لي بالتأكيد، لهذا فأنا مهدَّدٌ ولا حماية لي إلا قناعي. على الرغم من أنّي الآن في بيت آمن تابع للمقاومة، وأجلس مع ضابط اتصال تابع للمقاومة، إلّا أنَّ خُدعة الرجل جعلتني أتخوَّفُ منه كثيرًا.

ابتسم الرجل وقال: «سيمرُّ عليك أحدُهم هذه الليلة ليعطيَك رسالة ويحدِّدَ لك موعدًا، هناك اجتماعٌ مُهمّ ويجب أن تكون حاضرًا، أمثالُك قليلون هذه الأيّام وربّما لا تعرف كم أنت ضروري. يمكنك أن تخرج إن أردتَ، لكن عليك العودة قبل منتصف الليل، وفي كلّ الأحوال يجب أن تحتميَ بالزحام، إذا طلب أحدُ الضبّاط بطاقتَك الشخصية، فأنتَ ميّت، اقتله إذا اضطررتَ. على كلّ حال أنتَ قتلتَ الكثيرين خلال الشهور

الماضية، ومَن يعلم، قد تقتل الكثيرين قريبًا. ضبّاط الشرطة الآن كما تعلم خونة، فلا مانعَ من قتلِهم».

لا أعلم إن كان الجالس أمامي ضابطًا أم لا، انتهى عصر الضبّاط الأقوياء، وطالما رُفع النحاسُ من فوق الكتفين فلا بدّ أن ينحنيَ الظهر. على الأرجح هو عضو في المقاومة مَهمَّتُه الإبلاغُ عن المواعيد، ومقابلة الأشخاص وتوصيلهم إلى المنازل الآمنة، لا خبرةَ له بالسلاح أو بالتفجيرات أو بالعمل مع الشرطة. قام من مكانه وودّعني ثُمّ خرج.

كنت مُرهقًا، تجوَّلتُ في الشقّة ووجدتُ في إحدى الغُرف سريرًا كبيرًا نظيفًا، تمدَّدتُ عليه وشعرت بالراحة على الفور، وخلال دقائقَ استسلمت للنوم. لحظة تذكَّرتُ المَنيَّ والدَّمَ، أردتُ أن أقومَ فأستحمّ بعد الرحلة المرهقة، لكنّي كنت قد غفوتُ بالفعل.



كنتُ أحلق ذقني بآلةٍ كهربائية صغيرة جرَّبتُها من قبل، ربّما كان هذا منذُ عشرِ سنوات، لكنّها لم تعجبني كثيرًا، هذه المرّة كنت أسمع الأزيز المعدِنيّ الكهربائي، لكنّي لم أشعر بذبذباتها على جلد وجهي، كنت منذ عشر سنوات في حمّام غرفتي في فندق لا أذكر اسمه، لكنّي أذكر أنّه في برلين.

حسنًا، لستُ في برلين الآن، زرتُ المدينة فعلًا منذُ عشر سنوات، وابتعتُ آلةَ الحلاقة من الشارع، وعندما عدتُ إلى الفندق وجرَّبتها لم تعجبني، أنا الآن في القاهرة والعام 2025، وأنا نائمٌ في حجرة صغيرة في شقّة لا أعرفها ولم أدخلها من قبل. أنا نائمٌ الآن ويجب أن أستيقظَ كي أتخلَّصَ من أزيز آلة الحلاقة.

تعلَّق في الهواء أصغر درون رأيتُه منذ أن ظهروا في حياتنا، كان على شكل خنفساءَ طائرة، أصغر قليلًا من حجم كفّ مفرودة، يحلِّق ثابتًا في مكانه قرب سقف الغرفة، ستّة أرجل مفصليّة نحيلة تدلَّت من الجسد

الأسود اللامع، وجناحان سوداوان ضخمان انفتحا فوق الجسد، حسنًا، لم يكونا جناحَين، بل غطاءين أسودين صُلبين للأجنحة التي تضرب الهواء تحتهما. كنت لا أزال ممدَّدًا على السرير فجلست، واقترب الدرون منّي بهدوء، أزيزُه الخافت هو ما أيقظني، وفكَّرتُ أنّي اعتدتُ على الهدوء التامّ في الطابق الأعلى للبرج، واعتدتُ على النوم بلا أيّ ضوضاء. استقرّ الدرون على السرير أمامي، ولثوانٍ ظلّ الغطاءان الأسودان مرفوعين في الهواء، ريثما انتفضت الأجنحة الأربعة الشفّافة انتفاضات عديدة خاطفة ثم استقرّت جميعًا ملاصقة لجسد الدرون، وأُغلق الغطاءان الأسودان. أمسكت بالدرون، كان خفيفًا جدًّا وخمَّنتُ أنّ وزنَه أقلّ من مئة جرام، وربّما أقلّ من خمسين. هذا شيء خفيف ودقيق إلى درجة مذهلة، ولأنّه خنفساء، جعرانٌ إذا أردتُ أن أكون دقيقًا، فقد كان محبّبًا إلى نفسي كثيرًا، أحمل إعجابًا بالحشرات لا أملكُ له تفسيرًا، إعجابًا بحركتها وتصميمها وقدرتها على الصمود أمام البشر. كنت أقلّبه باحثًا عن رسالة ملحقة وأنا أفكّر في طريقة للاحتفاظ به. لكنّي سأحطّمه حتمًا إذا احتفظتُ به، هذا ليس سلاحًا صُلبًا يتحمَّل صدماتِ الحركة والإهمال والغضب كبندقيّتي، وهو ليس قناعي الذي خُدش في مواضع عديدة لكنّه لا يزال صُلبًا متماسِكًا، هذه لعبة صغيرة رقيقة لا تليقُ برجل غيرِ منظَّم وغير حريص مثلي. على بطن الدرون وجدتُ زرًّا صغيرًا، ضغطته لينفتحَ باب يُظهر تجويفًا صغيرًا في بطن الدرون، في التجويف وجدتُ الرسالة. أخذتها وأغلقت الباب، وأعدتُ الدرون إلى السرير.

حَمَلت الرسالة عنوانَ شقّة في عابدين وتوقيت، ولا شيءَ غير ذلك. لم أشغل بالي بقِصَر الرسالة غيرِ المتوقَّع، كنت في انتظار رسالة وها هي قد أتت.وفيها كلُّ المعلومات التي أحتاجها. يجب أن أكون هناك في السابعة، والساعة الآن الرابعة. ثلاثُ ساعاتٍ كافية تمامًا للاستحمام والذهاب إلى عابدين. أخذ الدرون يتحرَّك على السرير، يتسلَّق الغطاء المكرمش بمرونة

كبيرة. حاصرته مستخدمًا ساقي والوسادة وتجاعيدَ الغطاء، اختبر بقرنَيه الرفيعين ارتفاع الوسادة ثم ارتفاع التجعيدة، ثم اقترب من ساقي وتسلَّقها بلا تردُّد، مشى حتّى وصل إلى ركبتي، ثم انحرف وأكمل عابرًا ركبتي إلى فخذي، ثم توقَّف وببراعة رفع رأسه ناحية وجهي وأخذ يتراقص! هل أدركَ أنّي كنت أختبره وأداعبه؟ أعرف أنّ الدروناتِ ذكيّة بقدر يسمح لها بالتحرُّك أو الطيران وتخطّي العوائق والوصول إلى هدف، أمّا ما بعد ذلك فأعمال لا يمكنُ لدرون بسيط أن يقومَ بها، فضلًا عن التفاعل كحيوانٍ أليف مع صاحبه! ولو كان هذا الدرون حيوانًا أليفًا فأنا لست صاحبه، أرى أنَّ الجعران حشرةٌ مُبهرة، وأرى الدروناتِ أكثر إبهارًا؛ تستهلك طاقة بسيطة، صغيرة الحجم وتعقيداتها تبقى خفِيّة تحت الغطاء المعدِني، أظنَّ أنَّ الإنسان فكَّر لأوّل مرَّة بطريقة مبتكِرة حينما صنع أوّل درون بسيط كهذا. جعراني الصغير رفس فخذي بقائمتَيه الخلفيّتَين وتشقلب في الهواء ثمّ عادَ واستقرَّ على فخذي، هو يريني مهاراته حقًّا، ثم تشقلب مرَّةً أخرى وفرد أجنحتَه في الهواء وحلَّق محافظًا على توازنه. متعة صغيرة من أجل السّيّد عطارد.

دخلتُ الحمام وأغلقت الباب، الماء بارد ولا أثرَ لصابون في الشقّة، وقفت تحت الدشّ لدقائق ثم ارتديت الملابس ذاتَها، في الخارج كان الدرون يحلّق في الهواءِ أمام باب الحمّام مباشرة وكأنّه كان في انتظاري. في أثناء خروجي خطرَ ببالي تساؤل؛ هل يراقبني؟ وهكذا امّحت تمامًا الدقائقُ الممتعة التي قضيتُها مع الدرون. إذن أنا مُراقب ولا أستطيعُ عملَ أيِّ شيء، بالطبع أستطيعُ تحطيمَه، لكن إن فعلت، فقد يُلغى الاجتماع وتنتهي عَلاقتي بالمقاومة، هناك مَن يراقبني، وأنا أعلم أنَّ هناك مَن يراقبني، ومن يراقبني يعلم أنّي أعلم ذلك، لا فائدةَ من الأمر، إن كان من يراقبني ضابط شرطة، فلا بدَّ أنّه يعلم أنّي سأشكّ في الدرون حتمًا، ربّما يراقبني واحدٌ ساذج من المقاومة، ربّما هو ضابط مستجَدّ، وربّما هو ضابطٌ ذو

خبرة طويلة ويريد فقط أن يعلّمني بأنّه يستطيع الوصول إليّ. على كلّ حال وصلت الرسالة، الآن سأتّخذ الوجه الخشبيّ المعتاد؛ لا انفعالات على الإطلاق. الدرون كان يتشقلب في الهواء كلّما نظرت إليه، يريد أن يُبهرني مرّة أخرى، ما أغضبني حقًّا هو انشغالي بألعابه في البداية، ضاعت حاسّتي الأمنيّة ولم انتبه لكونه أداة لمراقبتي إلا بعد دقائق من تلقّي الرسالة.

في زمن ما سيصنع الإنسان درونات كهذا، لا لكي تخدمه، ولا لكي تحضّر الطعام وتقود السيّارة، ولن تتحكّم الدرونات فينا فهذا خيال علمي ساذج كالأفلام الساذجة، بل سنصنع درونات لنستعبدَها، سيكون هناك دروناتٌ معدَّةٌ للاغتصاب كي ينشغلَ بها المغتصبون، وأخرى ستكون معدّة للمقاومة وستكون مزوّدة بأصوات صراخ وتوسُّل، سنقوم بضربها وهي ستبكي، وربّما سيقوم صاحب الدرون بتعليقه في أعمدة الإنارة ليسوطَه ويعذبه، ربّما سنحرُقها عقابًا على شيء لم تفعله، سنشمُّ رائحة اللحم المشويّ منبعثةً من تجاويف خاصّة في جوانبها، وربّما ازدادت المتعة فبرمجنا الدرونات لضربنا واستثارتنا، ربّما سنبرمجُها لتغتصبَنا، لنتذوَّقَ الألمَ مجسَّدًا في امتهان الفتحاتِ بعنف. ربّما استمتعنا بجلدات السياط تنهالُ علينا من ذراعٍ آليّ. ثمّ نستريحُ، ونستحمُ ونرتدي ملابسنا كرجالٍ ونساء متحضّرين ونسير في الشارع نحمل الدرون المغتصِب في حقيبة صغيرة.

الساعة السادسة، لم يقلّ الزحام بل ازداد، وازداد معه عددُ دوريات جيشَي الاحتلال في ميداني العتبة والأوبرا، منطقة وسط البلد لا يمكنُ السيرُ فيها لكثرة نقاط التفتيش، لذلك عبرتُ ميدان الأوبرا متَّجهًا إلى شارع الجمهورية في طريقي إلى عابدين، لا يزال تمثال إبراهيم باشا مشوَّهًا بعد سرقة رأسه مع بداية الاحتلال، بل بدا أنَّ الجزء السفليَّ الباقيَ من التمثال يتضاءلُ يومًا بعد يوم. يقولون إنّ الناس يسرقون منه قطعًا كلّ ليلة، يصعد أحدهم على سلّم حاملًا منشارًا ويقطع. عملٌ مرهقٌ لكنّ التمثال يغري

بالسرقة، إبراهيم باشا كان يشير بإصبعه إلى الأفق، ونحن قطعنا الرأس واليد والذراع، ولن نكفَّ حتّى نطيحَ نحن بالتمثال كاملًا وحتّى حدوات الحصان. لن نترك ذرّة على قاعدة التمثال. فوق التمثال طفا بالون ضخم، وفي منتصف حبل البالون ربطت لوحةٌ إعلانيّةٌ هائلة، ترفرف بفعل الريح المارَّة عبر الميدان، لم أفهم ما هذا في البداية، وبعد تدقيق أدركتُ أنّه إعلانٌ لبرنامج يُذاع على التلفزيون: غدًا الأمل. حالما قرأت عنوان البرنامج، توقّعتُ كلّ تفاصيله، هذه البرامج منتشرة منذ عشرين سنة على الأقلّ، كلُّها تتحدَّث عن الأمل والغد، أو عن الغد والأمل، أو عن الغد في الأمل، أو عن الأمل في الغد. ثم تعود الدورة من جديد لنجدَ برنامجًا يتحدَّث عن الأمل والغد. وحتّى بعد وفاة مُحرِّك الأمل الأكبر ومبدع مئات الكتب عن الطاقة الذاتية والإيجابية وما شابه، مصابًا بازدواج أشرس الأمراض، الإيدز وسرطان العظام، لا يزالُ الناس ينظرون إلى الغد بأمل. لذلك فالدرونات المغتصِبة هي الحلّ.

مشيت في شارع الجمهورية، أهدأ كثيرًا من الميدان خلفي، وأقلّ زحامًا من شوارع وسط البلد المتقاطعة، ثم طار شيء ما، فجأة، فوق كتفي الأيمن قادمًا من الخلف، مرَّ بجانبي وتوقّف على بعد مترٍ واحدٍ أمام وجهي في الهواء، درون آخر؟ هذا هو الدرون نفسُه الذي تركته في الشقّة، ربّما تبعني من الشقّة وحتّى هنا، ربّما كان يبحث عنّي ووجدني الآن فقط. حلّق أمامي وكأنّه يستأذنني في متابعتي، هل دخلنا عصر الدرونات الإنسانية دون أن أعرف؟ طيّب، أنا لا أعترض على مراقبتي، أريد فقط أن أمضيَ في طريقي ولا شيءَ غيرُ ذلك، أومأت له قاصدًا الموافقة على أن يرافقني، فلنرَ إن كان سيفهم إشارتي، وما حدث كان مثيرًا للتعجُّب فعلًا، تشقلب ثلاثَ مرّاتٍ في الهواء، ثم دار حولي دورة واحدة، واستقرَّ ساكنًا على كتفي الأيمن! تابعتُ المشي وأنا لا أكادُ أشعر به من فرط خفته.

سألت المارَّة عن اسم الشارع ورقم المبنى، دَلّني الناس على المكان

بعدما سألت أكثر من واحد، كلُّهم يصف الطريق نفسَها لكنِّي أسأل عدّة أشخاص للتيقُّن من صحّة الوصف، ثلاثة على التوالي وصفوا طريقًا مختصرَة، في النهاية وجدت نفسي في حارة صغيرة تنتهي بمبنى صغير، هي حارة متفرِّعة من شارع واسع لا تحوي دكاكينَ أو مبانيَ ضخمة، بل تحوي مباني صغيرة لا ترتفع أكثر من ثلاثة طوابق. السابعةُ إلّا الربعَ، لن أصعد إلّا في موعدي المحدّد وسأنتظر في الظلام ربع الساعة، أنا ملك الانتظار!

اختيار المبنى قبل الأخير في الحارة الضيِّقة يوحي بغباء شديد، هذه مصيدة وليست مكانًا آمنًا، من سيستطيع الهرب من بيت كهذا إذا هجمت الشرطة عليه؟ الحارة هادئة جدًّا، تصلح كمسرح لشمّ الكلة وضرب الحقن ومكان لعاهرات الشوارع.

طار الجعران من على كتفي واتّجه نحو مصباح الشارع وحلَّق تحته دقيقة. عظيم! وكأنّي أرى المستقبل القريب! هذا واحدٌ رفع ساقًا عارية وألصق صاحبتها بجدار أحد المباني، ضغط جسدها إلى الحائط، تظهر مؤخّرته عارية بعد سقوط بنطاله ولباسه، يطعنها بقضيبه طعنات متتالية، وهي ترفع وجهها بعيدًا عن أنفاسه وتنظر قلقة إلى مدخل الحارة البعيد. هذا ما يُسمّى واحدًا سريعًا. أنا صيّاد أماكن الأفعال المَشينة!

أنهى الرجل الأمرَ سريعًا، والعاهرة حاولت ضبط ملابسها وخطت خطوتَين لتظهر في دائرة ضوء مصباح الشارع، كانت قد خلعت ساق بنطلونها كي تُسهّل الأمر على الرجل، وهي الآن تحاول ارتداءه كاملًا، والرجل تبوَّل على الحائط ونفَّض قضيبَه بعدما انتهى، لكن أين المال؟ هل الواحد بواحد أيضًا؟ هل هناك مصطلحات جديدة للتجارة؟ لا أفهم لِمَ أنا مهتمٌّ هكذا، لم أنا غاضب! هل ستنهي الدعارة آمالي في مستقبل باسم؟ هل يستعيد أحمد عطارد أخلاقه الرفيعة بعد جولة قصيرة في شوارع القاهرة؟ يعود الدرون ليستقرَّ فوق كتفي، هذه المرَّة لا يسكن بل يستمرّ في

الحركة البطيئة متمشّيًا فوق ترقوتي، أجبني يا دروني العزيز لو سمحت؛ هل غضبي نتيجة أملي في الغد؟

كانا صامتين طوال الدقائق الماضية، وحافظتُ أنا على صمتي طمعًا في إطالة مدَّة المراقبة، لن أستفيدَ شيئًا من مراقبتهما إلّا التسلية وقتل الوقت. لسبب ما لطمتُه على وجهه، رنَّ صوتُ اللطمة في الفراغ وهو رَدَّها بأخرى عنيفة أصدرت صوتًا مكتومًا، سكن الدرون فجأةً، كأنّه ينصت أو يراقب ما يحدث، شغلني ما فعلاه عن مراقبته، خمشت وجهه بأظافرها وهو أخذ يلكمها بعنف، استطاع إبعادَها عن جسده أخيرًا فتناولت هي حقيبتها من على الأرض وأخذت تعبث فيها باحثة عن شيء ما، بينما هو تقدَّم منها متردِّدًا وطعن ذراعها بمُديَة قصيرة النصل، لم أسمع أيَّ صرخات، كان وجهه ينزف وهي تلقّت الطعنة صامتة تمامًا، ابتعد الرجل خطوتين إلى الوراء، حين أخرجت هي ما يشبه مسدَّسًا صغيرًا من حقيبتها، من أوّل نظرة أدركت أنّه سلاحٌ مصنوع هنا في مصر، مقروطة عادية، صنعها أحدُ الحدّادين في ورشته بلا تصميم سابق أو تجارِب، وربّما صنع منها عشرَ قطع فقط، باعهم لمَن يرغب في قطعة سلاح صغيرة الحجم رخيصة الثمن وبلاً ترخيص. الماسورة المشرّعة في وجه الرجل حملت انبعاجات طفيفة بدت واضحةً للعين حتّى في الضوء الشحيح، ارتدَّ السلاح في يدها ردّة خفيفة بفعل المقذوف المنطلق، وتناثر خرزٌ كثيرٌ في وجه الرجل وصدره وعلى الحائط الذي تبوّل عليه قبل دقائق، هذه طلقة خرطوش غير قاتلة في المعتاد لكنّها قد تكون كذلك من تلك المسافة القريبة. وبالتأكيد قد تودي بالعين إذا أصابتها خرزة. تماسك الرجل ولم يصِح، وهي أخرجت خرطوشة أخرى من حقيبتها وحاولت تلقيم السلاح بها، اقترب الرجل منها وهو يبدو أنّه لا يرى إلّا جزءًا ممّا يحدث أمامه، يمسك بيسراه المقروطة محاولًا نزعها من يدها، ويمناه غائبة عن نظري، أخيرًا استطاع استعادة مُديَتِه من ذراع الفتاة، وأخذ يطعنها طعناتٍ هيستيرية في وجهها،

مع الطعنة الخامسة أو السادسة سقطت الفتاة على الأرض، كانت قد استطاعت تعمير السلاح مرَّة أخرى، وهذه المرَّة مدّت ذراعَها وقرَّبتِ السلاح إلى جسد الرجل، كانت المسافة بين الفوّهة وبين عانته عشر سنتيمترات حينما أطلقتِ النار. انتفض جسد الرجل هذه المرّة، واشتعل بنطلونه وارتفع لهبٌ ضعيفٌ من حيث أصابته الطلقة، ولا بدَّ أنَّ الخرز أصاب شريانًا كبيرًا، فقد رأيته ينزف بغزارة وسمعتُ صوت الدماء على الأسفلت. ركلها عدّة مرَّات ثم أمسك مُديَتَه وقرَّبها من عنقها وأخذ يقطع، بعد لحظات انبقثت الدماء كالنافورة لتغطِّيَ رأسَها وشعرَها، ليصبحَ الاثنان متعادلَين ووجهاهما بلا معالم بفعل الجروح والدماء التي تغطّيهما. كانت قد لقَّمت السلاح للمرّة الثالثة، ورفعته إلى وجه الرجل وأدخلت فوّهته في فمه، لم يحاول الرجل أن يبعدَ رأسه، كان يستطيع ذلك لكنّه كان مشغولًا بقطع رقبتها، ظلّت الفتاة ثوانٍ قليلةً رافعةً ذراعَها في الهواء في الوضع نفسِه بينما يعمل الرجل على رقبتها. أخيرًا، أطلقَتِ النار.

طار الدرون من على كتفي واتّجه إلى الجسدَين اللّذين لا يزالان في حالة التحام وصراع، ثم عاد إليَّ وتراقص أمام وجهي، واتّجه نحو بوّابة المبنى حيث الاجتماع، داعيًا إيّايَ للدخول، ومرّ من خلالها بسلاسة.

الساعة السابعة، دخلتُ المبنى وصعدتُ السلَّم بهدوء.

4

في مساء أحد الأيّام وصلتنا رسالة تقول إنّ فنّانًا سيأتينا لنحت قناع لكلّ واحدٍ منّا، سيحضر إلى البرج بعد ساعتين على الأكثر. كانت الرسالة تطلب أن نكون حليقي الذقن استعدادًا لعمل قالب للوجه.

لم أفهم المطلوب منّا في البداية، لكنّ الليلة كلّها كانت عبثيةً جدًّا.

صحيحٌ أنّنا ننفِّذ الأوامر بدقّة بالغة وكأنّنا لا نزال ضبّاطًا في الداخلية، لكن ما عَلاقة الأقنعة بما نحن فيه اليوم؟

طلب النحّات منّي أن أستلقيَ على الأرض، وضع أنبوبتينِ رفيعتينِ في فتحتَي أنفي، غطّى رأسي وشعري ورقبتي، ثم صبَّ عجينتَه الرطبة الباردة على وجهي بالكامل، وانتظر دقائقَ حتّى تصلّبتِ العجينة ثم رفع القالب. أخذ يتفحَّصُه من الداخل، وقال لي إنّ هذا ليس القالب النهائي، وإنّه سيصنع قالبًا آخرَ ليصبَّ عليه القناع. كنتُ أتَّجه إلى الحمَّام عندما سألني عن الشكل الذي أفضله للقناع، قلت له «اصبر.. سأفكِّر قليلًا».

كنَّا نتعامل مع حكاية الأقنعة تلك على أنها شغل وقت الفراغ، أمرٌ غيرُ مهمّ لكنّه مسلٍّ، وضعنا الغريب جعلنا نتقبَّلُ أيَّ شيء، لكنّي كنتُ أفكّرُ في أسباب أكبرَ وأعمقَ من مجرَّد التسلية، هناك هدفٌ غيرُ معلن لقيادة المقاومة، تمسَّكتُ بالصبر وفكَّرتُ أنّنا سنعرف كلّ شيء قريبًا.

عندما عدتُ إلى النحّات كان قد انتهى من عمل القوالب للجميع، كانوا قد اختاروا أشكال قوالبهم أيضًا، كلّهم اختاروا وجوه ممثّلين كوميديّين، أحدهم اختار وجه فؤاد المهندس وطلب إضافة نظّارته الطبّيّة الشهيرة. كنتُ أفكّرُ في ما سأختاره عندما لاح أمام وجهي قناعُ بوذا.

هذه ذكرى غامضة جدًّا، لا أذكر أنّي رأيته من قبل في أيّ مكان، ربّما رأيت صورة للقناع في مجلّة أو جريدة، وربّما رأيتُ فيلمًا وثائقيًّا عنه، ارتبط بوذا في ذهني بالحكمة لكنّي لم أكن أعلم أيَّ معلومات عنه، هو هو نبيٌّ للبوذيين، هل هو إله، هل يعبد البقر؟ لم أعلم قطّ ما الذي دعاني لطلب قناع بوذا. سيعرفني القليلون باسم «بوذا»، سيصبح اسمي الحركي عند بعض أعضاء المقاومة، وسترتبط شخصيّتي بالغموض أكثر من الحكمة، وسيظنّ بعضهم أنّي أتعالى، باختياري هذا، على الجميع؛ مَن اختاروا أقنعة عاديّة لشخصيّات شهيرة. سأعلم لاحقًا أنّ كلّ القنَّاصة تقنَّعوا بأقنعة صُنعت لهم خصّيصًا على أيدي نحّاتين محترفين. سأعلم - أيضًا - أنّ ذلك كان امتيازًا للمتميِّزين من رجال المقاومة، لمَن قُتلُوا، أو كانوا على وشكِ قتل، أعداد كبيرة من الناس.

أتاني النحّات نفسُه وأخرج القناع من علبة خشبية وسلَّمني إيّاه بعناية فائقة، وعندما وضعته على وجهي وشعرتُ بملمس معدِنه البارد ووجدته لا ينطبق على وجهي تمام الانطباق سألته عن الغرض من القالب الذي صنعه من قبل، قال إنّ القالب لم يكن لنقل تفاصيل وجهي حرفيًّا بل لمعرفة قياسات الرأس. قال إنّ هذا قناع من معدِن صُلب، صنع من سبيكة من الألومينيوم ومعادن أخرى خفيفة، غير مرنٍ لكنّه سيشكِّلُ حمايةً للوجه من الشظايا الصغيرة.

قال لي الرجل وهو يُمسك القناع: «اطمئن.. لن ينطبق على الوجه أبدًا.. لن يصير وجهك أبدًا». أخطأ النحّات في ظنّه هذا. وبعد أيّام ارتديته عدّة دقائق ثمّ خلعته، ثم طالت مُدَد التقنُّع.

ستمرّ عليَّ أيّام طويلة مرتديًا القناع، سأستبدلُه بوجهي وسأنسى أنّ لي وجهًا من لحم ودم. سأنظر إلى المرآة غير عابئ بما أراه من معدِن لامع لا يتغيَّر مع مرور الوقت، كنتُ أعلم أنّه لن يشيخ ولن يتأثّر بالجوّ المتقلّب أو بدخان السجاير، وسأخاف كثيرًا حينما أخلعه ليحلق أحد الزملاء ذقني كلّ عدَّة أيّام، سأخاف النظر إلى وجهي في أثناء الحلاقة وسأطلب، في حياءٍ، من أحد الزملاء أن يحلق ذقني. سأرتعد عند النوم، سأخلعه مرغمًا وسأشعر وكأنّي تعرَّيتُ أمام الملايين، سأطفئ النور وسأمشي في الظلام مُتّجهًا إلى فراشي الصغير مقنّعًا، ولن أخلعه إلّا تحت الغطاء ثم سأضعه بجانب رأسي في انتظار نور النهار؛ لأرتديَه حالما أستيقظ. سأفعل ذلك شهورًا طويلة، وسيبلغ الجنون بي أقصى حدوده، فأنام ستّة أسابيعَ مقنّعًا.

مع مرور الوقت أدركتُ أنّي لا أستبدل القناع بوجهي كما ظننتُ في البداية، لكنّي كنتُ أضع حاجزًا بيني وبين من حولي، مع أنّ هؤلاءِ زملائي وأصدقائي وهم أكثر مَن أثقُ فيهم وأطمئنُ إليهم. سأراهم ينحدرون مثلي متمسِّكين بأقنعتهم رافضين خلعَها لمُدَدٍ طويلة جدًّا، لن أبتسمَ حينما أرى وجه فؤاد المهندس بعدما أصبح وجهه مألوفًا تمامًا. وسأطوِّر أغرب

فهم للشخصيات حولي؛ سأنسى تمامًا كلَّ الدلالات المصاحبة للأقنعة الضاحكة والباسمة والغاضبة، وسأنسى أيضًا الوجوه الأصلية، وسأخلق وجوهًا وهميّة لأربطها بالأجساد التي تعيش حولي. وسيتطوَّر الأمر حينما تأتيني مجموعة من القنّاصين لم أرَ وجوههم قطُّ، فقط أقنعة وشخصيّات مستعارة، سأجهل تمامًا شخصيّاتهم الحقيقية ولن يَعلَق بذهني إلّا تفاصيلُ شخصيّاتهم المستعارة. وسأصلُ إلى الحيرة الكاملة حينما أرى أقنعة بلا ملامح. لا أنوف ولا آذان ولا شفاه، ولا فتحات للأعين، سوى شبكة من الأسلاك بالغة الدقّة تسمح بالرؤية من خلفها، بينما تغطّي تمامًا أعين أصحابها. كنَّا ننحدرُ كثيرًا ونحن لا نشعر، ونقيم حواجزَ وسدودًا حولنا، ونحرصُ على تدعيمِها واستمراريّتها.

ثُمّ سيتطوَّرُ الأمرُ كثيرًا فأفقد القدرة على التصويب إلّا وأنا مقنَّعٌ، حدث ذلك عندما كنتُ أُصوِّبُ على هدفٍ يقف قُربَ مبنى ماسبيرو؛ كان الضابط واقفًا ينتظر سيّارة ليستقلّها، كانت فرصة من أندرِ ما يكون، وحسب التعليمات لم أكن لأنتظرَ أو لأتردَّد، كنَّا قد تلقّينا الضوء الأخضر في ما يتعلَّق بقنص جنود وضبّاط جيشي فرسان مالطا. خلعتُ القناع كي تتضحَ رؤيتي عبرَ المِنظار الضيّق الفوّهة، وعندما استعدتُ وضع التصويب وبحثت عن الهدف وجدته ينظر إليَّ، كان الهدف على بُعد كيلومترٍ واحدٍ تقريبًا، يحدقُ في عينيَ بتحدٍّ اهتزّت كفّي لرؤيته في عينيه، ولولا بقيّة من عقلٍ لكنتُ ظننتُ أنّه رآني حقًّا وعرفني. ابتعدتُ عن المِنظار ذاهلًا، وارتديتُ القناع ثم نظرتُ من خلال المِنظار، لأجدَ الرجل وقد بدَّل وجهته ونظر إلى النيل. استرحتُ كثيرًا وأعدتُ التصويب وأطلقتُ النار. هذا لم أقتله لأنّه ضابط محتلّ، بل لأنّي كنتُ على يقينٍ أنّه رآني.

بعد إصابة ذلك الهدف لم أخلع القناع قطّ في أثناء التصويب. كان القناع قد أصبح سرَّ دِقّتي الذي لم يعلمه أحد، وربّما أصبح سرّ دِقَّة مجموعة البرج كلِّها دونَ أن أعلم ذلك.

بقيتُ أيّامًا كثيرةً أتأمّل القاهرة الشرقية من خلف قناعي، لم أكن أشعر بالحاجة إلى التخفّي خلف المنظار والبندقية الثقيلة، لم أستسلم للفضول وأتطلّع إلى التفاصيل التي يعينني المِنظار على الوصول إليها، كنتُ منيعًا هناك في الأعلى، يحميني الارتفاع والبعد وقناعي. كنتُ إلاهًا مصريًّا قديمًا بوجه مستعار لن يعرف الناس معالم وجهه الحقيقي مهما فعلوا. كنتُ إلاهًا إغريقيًّا يسخرُ من العالم الذي خلقه فيقتل من يشاءُ ويترك من يشاءُ ويضاجعُ من يشاء وينجبُ من يشاء. ويوم جاءني درون برسالة يُعلِمُني أنّي وزملائي أحرارٌ في اختيار الأهداف وقنصِها دونَ الرجوع إلى القيادة كانت صفاتي قد اكتملت تمامًا. وقلتُ إنّ ما سيأتي سيشبعني تمامًا.

بعد إعطائي الضوءَ الأخضرَ بدتِ الزوارقُ الحربيّةُ الخمس أهدافًا بالغةَ السهولة، قريبة وساكنة وقابلة للتدمير إذا أردنا ذلك، لذا تجاهلناها تمامًا، وأصبحتِ الأهدافُ البعيدة العشوائية في القاهرة الشرقيةِ هي هَمَّنا الأوّل. وأتت الدرونات الضخمة بكمِّيّات هائلة من الذخيرة، كنّا قد تركنا الدرانوجوف الحبيبة، واعتمدنا على طرازَين فقط؛ ماكميلان تاك وباريت إم 107. ولا بدّ أنّنا أمطرنا القاهرة الشرقية بآلاف الرَّصاصات من عيار النصف بوصة.

قتلتُ وزير الخارجية، جاءتني رسالة تعلمُني بأنّ سيّارة الرجل ستمرُّ خلال ربع الساعة القادمة في طريق الكورنيش، وأنّها ستتوقّف في نقطةٍ ما بين فندق سميراميس ومبنى ماسبيرو، تابعتُ السيّارة المرسيدس السوداء متلهِّفًا منتظرًا توقُّفَها، وعندما اقتربت السيّارة كثيرًا من مبنى ماسبيرو لم يكن هناك بدٌّ من إطلاق خمس رَصاصات عليها بعدما أدركتُ أنّها ستستمرُّ في المسير. توقَّفَتِ السيّارة أخيرًا لكن بفعل رَصاصاتي، ولم يتحرَّك أيّ شخص خارجًا منها. قتلتُ وزير الإعلام، كنتُ أتابع شبابيك مبنى ماسبيرو عبر المِنظار، حينما أخرج رأسَه من أحد الشبابيك مُمسكًا تليفونه متحدِّثًا، كانت هذه مصادفةً سعيدة، ولا أظنُّ أنَّ الوقت الذي مرَّ

بين رؤيته وإطلاق النار عليه قد تعدّى ثلاث ثوانٍ. وقتلتُ لواءً من الجيش الرابع لفرسان مالطا، مرَّ راكبًا مدرَّعة وهبط ليتفقَّدَ نقطة تفتيش، لفت نظري شاربه وحاجباه وقد اختلط البياض فيهم بالسواد، والنجمة الواحدة على كتفه تتناقض مع الشيب في شعره، قتلتُه ولم أتأكّد قطُّ إن كان لواءً يرتدي زيَّ ملازم أم لا. قتلتُ زميلًا قديمًا، رائدَ شرطة كان يجلس في شرفة فندق سميراميس، ارتدى زيًّا مدنيًّا وقعد مسترخيًا تحت مظلّة يشربُ البيرة من الزجاجة مباشرة ويدخّن، ميَّزتُ وجهه ولم أذكر اسمه، فقط تذكَّرتُ أنّي سبقتُه بعدّة دفعات، وافترضتُ أنّه اغتنى بعد الاحتلال لاسترخائه في شرفة فندق كهذا، فقتلته.

وفي يوم حارّ رخو صوبتُ البندقية على حيّ بولاق أبو العلا وأطلقتُ النارَ عشوائيًّا، أكثر من ثلاثمئة طلقة استقرَّت في المباني هناك ولم أعرف كم قتلتُ وأصبتُ، ثم وجَّهت البندقية نحو ميدان التحرير وأطلقتُ النار عبرَ الفرجة بين ركام مبنيَي فندق هيلتون النيل وجامعة الدول العربية وفوقهما، فأصبت عددًا كبيرًا من السيّارات والأوتوبيسات والمارّة حتّى خلا الميدان من كلّ شيء. وتابعت إطلاق النار على الميدان الفارغ حتّى تعطَّل السلاح.

لم أهتمّ بما سأقوله لقادة المقاومة لتبرير ما فعلتُ أو بالرسالة التي ستصلني لتعنّفني. لم أهتمّ بالزملاء يقفون حولي لا يفهمون لم فعلتُ ذلك، وعندما انتهيتُ والتفتُّ إليهم لم ألمح إلّا الجمود في أقنعتهم التي ظلّوا يرتدونها كي يحجبوا عيونهم المرتجفة عنّي.

5

كلّ شيءٍ هنا قديم، ولا أعني أنّ عشرين عامًا مرَّت على هذا الأثاث وهذه الجدران. هي قديمة ومتربة إلى درجة أنّي لا أعرف إلى أيّ عهد تنتمي. لو أنّنا اجتمعنا في مقبرة لما اختلف الوضع كثيرًا.

كنَّا خمسةَ أفرادٍ، بيننا اللواء كمال الأسيوطي قائد المقاومة، رأيته مرَّة واحدة حينما كنتُ ضابطًا في الداخلية، وعرفتُ مصادفةً منذ مدّة أنّه قائد المقاومة، بدا أشدَّ نحولًا من صورته المختزنة في ذاكرتي، وجنتاه بارزتان، أسنانه الأمامية بارزة، عيناه جاحظتان، وبياض شعره غلب السواد. ومساعده العميد سليمان ماضي، هذا أعرفه جيّدًا وأعرف تاريخه، عمل في المباحث طوال عمره ولم يخرج إلى إدارة أخرى قطّ، هذا مثال الضابط الذي وهب حياته للعمل في الشرطة ولم يلتفت لأيّ شيء آخرَ، حتّى الهوايات المعتادة من صيدٍ وتدريبٍ على التصويب لم يمارسها، حتّى الدراسات الأكاديمية لم يقربها. سليمان ماضي رجلٌ بوجه واحد، بلا آمال أو طموحات أو توقّعات، فقط ماكينة عمل ولا شيء غير ذلك. تعجَّبتُ كثيرًا عندما علمتُ أنّه لم يستمرّ في الخدمة بعد الاحتلال، وأنّه قرَّر الانضمام للمقاومة، كانت هذه روحًا وطنيةً غريبةً عليه تمامًا. وبعد ذلك كنتُ أرى بصماتِه وأفعالَه حاضرةً في تحرُّكات المقاومة وفي الضربات العنيفة التي يتلقّاها جنود الداخلية وضبّاطها. لم أعرف الضابطَين الباقيَين، لكنّ وجود أقوى رجلين في المقاومة كان علامة على الأهمّية القصوى لهذا الاجتماع.

كنَّا واقفين لاستحالة الجلوس على الكراسي المتّسخة، وكان مصباحٌ يستقرُّ على المنضدة ينيرُ المكان، وينيرُ أجسادَنا ووجوهنا. بدا أنَّ الاجتماع سيكون مرهقًا للجميع.

بدأ الأسيوطي الكلام: «يبدو أنّ الدرون لم يُفقد». وأشار بسبّابته إلى كتفي، أومأ مساعدُه موافقًا وهو ينظر إليَّ. خاطبني: «أرسلناه ليعلِّمَك بميعادِ الاجتماع لكنّه لم يعد، قلنا إنّه تحطَّم أو سُرق، ولم نعلم هل وصلتك الرسالة أم لا. ويبدو أنّه التصق بك لسبب لا أفهمه».

هل يناورني سيادة الضابط؟ سألته: «كيف يمكن لدرون أن يخرج عن السيطرة ويلتصق بشخص؟».

ردّ: «هذا أمر نادر الحدوث، وما علينا إلا إعادةُ برمجته كما كان وقت خروجه من المصنع. سيعود للعمل بشكل طبيعي، هو يلزمنا على كلّ حال، الدرونات أصبحت نادرة هذه الأيّام».

تلفَّت الأسيوطي متفحِّصًا وجوهَ الجميع، قال وهو يهزُّ كفَّيه: «الجميع هنا، فلنبدأ الاجتماع الآن».

بدا متعجِّلًا كثيرًا، وبدا هرمًا لا يقوى على الوقوف مكانه. لا أعلم لم أشفقت عليه، شرد بعينه محدِّقًا في الأرض، كأنَّه يبحث عن شيء ضاع منه. قال ماضي يخاطبُنا نحن الثلاثة: «ينقصنا ضابط، لكنّ مَهمَّته تختلف قليلًا عن مَهمَّتكم، لذا يمكن أن نبدأ الاجتماع من دونه، على أيّ حال نحن نثق فيكم تمام الثقة، كما نثقُ فيه...».

نظر إليَّ وقال: «بالمناسبة هو المسؤول عن التحكُّم في الدرونات، سيأتي خلال دقائق ويُخلِّصك منه».

صمت لحظات، وزَّع نظراتِه على الجميع ثم قال: «حاولتِ المقاومةُ طردَ المحتلّ بكل الطُّرق، أنتم تعلمون ما قمنا به حتمًا، أنتم كنتم أذرعَنا الطويلة في هذه المَهمّات، الاغتيالات الكثيرة ما كانت لتَتِمَّ لولا مهارتُكم وشجاعتُكم، كان لا بدَّ من وجود ضحايا من المواطنين، ولم نلُمكم على ذلك قطّ، بل ربّما كانت تضحيّات هؤلاء أقلَّ ممّا يجب. في النهاية الاحتلالُ لا يزالُ قائمًا، ويبدو أنّ على المواطنين بذلُ المزيد من التضحيات، لم لا نصبح بلد الخمسة ملايين شهيد؟».

علت الابتسامات الوجوه، بينما ظلَّ الأسيوطي صامتًا تمامًا، شارد الذهن تمامًا، معنا بجسده لكن عقلَه في مكانٍ آخر.

تابع ماضي: «أنتم خِيرة قنَّاصي المقاومة، والمَهمَّة القادمة هي أصعب مَهمّاتكم جميعًا، ولا أعني بكلمة أصعب الجانب التقني، بل أعني الجانب الأخلاقي. سيثور جدلٌ داخل كلٍّ منكم، لكن أتمنَّى أن تكونوا عمليِّين ومنطقيِّين، هذه الفرصة لن تسنحَ لنا كثيرًا، ونحن الآن في قمّة جبل الغضب الشعبي، وعلينا ألَّا نضيِّع هذه الفرصة».

غضب شعبي؟ أين هذا الغضب؟ لم أرَ شيئًا خلال الساعات الماضية، لا غضب هناك على الإطلاق!

«المحتلّ أصبح أكثر خبرةً بطرقنا في المقاومة، ووتيرة الاغتيالات قلَّت كثيرًا، بل وصارت غير فعَّالة، والأسوأ أنّ المحتلَّ بدأ في اغتيال أفراد منَّا، وقد صار أكثر ذكاءً فقبض على بعضنا وأعدمه علنًا أمام الجميع، الناس تعاطفوا بالطبع مع شهدائنا، وعلينا أن نستفيدَ من هذا التعاطُف. لذلك غيَّرنا الاتجاه منذ عدّة شهور. هدفنا الآن دفعُ الناس للثورة على المحتلّ، نحن نهندّس ثورة شعبيّة جديدة».

أفهم تمامًا ما يقصد بتلك العبارة، خلال السنوات الماضية كان الناس يُقادون كقطيع الخِراف إلى الانتفاضات والثورات والمظاهرات، وقدناهم نحنُ إلى الثورة على ثورة قادهم إليها آخرون، يساعدنا الإعلام في كلّ خطوة وفي كلّ تحريض على الحركة، أو تثبيط لها.

«منذ أربعة أشهرٍ بدأنا خطّة طموحة لدفع الناس للنزول إلى الشارع، أثرنا هلع الناس خوفًا على الانهيار الأخلاقي، أثرنا في نفوسهم الخوف من المحتلِّ، تكلّمنا كثيرًا عن مياه الشرب غير صالحة الاستخدام، وعن الأمراض التي تنشرها العاهرات، وعن مدى التردّي الأخلاقي الذي أصاب البلد بعد تقنين الدعارة، وعن القتلِ العشوائي للمواطنين وإلقاء جثامينهم في المزابل، وحدّثناهم كيف أنَّ المحتلَّ هو المسؤول عن المحافظة على أرواحهم. كلُّ هذا قمنا به بوساطة رجالنا في الشارع وعلى الإنترنت، واستغللنا حماسة بعض المواطنين ورغبتهم الصادقة في طرد المحتلّ، وربّما إدراكهم غير الواثق لخطتنا، وتركناهم يشتركون معنا لكن دون اتفاقٍ بيننا، ما أخَّر الوضع كثيرًا أنَّنا لم نتمكّن من إقناع الإعلام بدخول المعركة معنا، كلّ وسائل الإعلام تقف إلى جانب المحتلّ في مواجهتنا، بالتأكيد لم تكن عودة الداخلية للعمل أفضل ما حدث، مالَ الإعلام إليهم وتركونا. وللأسف تمّ استغلال ضحايا الجانبَين لحوادث الاغتيال أسوأ

استغلال، وتمَّ اتّهام المقاومة بأقذر الاتّهامات، وربّما كرهَنَا الناس لهذا السبب».

ما فائدة هذا الكلام؟ سيادة الضابط يحضِّر لشيءٍ ما لا أفهمه!

«لكنّنا لن نتركَ هذا الأمر أبدًا، بل سنستمرُّ إلى أن نطردَ المحتلَّ تمامًا، وبعد أيّامٍ قليلة من الآنَ ستقومون بإشعال الثورة التي ستطيح به».

هذا انفعال زائد، إذا فقد ضابط الشرطة أعصابه وانفعل فاعلم أنّه يقودك إلى كارثة.

«المواطنون سيدركون أنّنا أوغاد، أنّنا نقتلهم، لكنّهم سيفضِّلوننا على المحتلّ في النهاية، لا لأنّنا وطنيّون أو من أهل البلد أو لأنّنا نتكلّم اللّغة نفسَها، بل فقط لأنّنا سنقتلُهم طالما استمرَّ الاحتلال، سيستنتجون تلقائيًّا أنّنا سنتركهم أحياء إذا رحل المحتلّ. هل تعلمون كم مواطنًا قُتل على يد المحتلّ خلال السنوات الثلاث ونصف السنة الماضية؟ فقط ثلاثمئة ألف مواطن، هذا رقم صغير إلى درجة الإهمال. هل تعلمون كم مواطنًا قتلنا خلال المدّة نفسِها، سواء قتلناه لأنّه متعاونٌ مع المحتلّ أم كان ضحيّة بالمصادفة لواحدة من عمليّاتنا؟ تجاوز الرقم الثلاثة ملايين مواطن، وسيكون عليكم قتلُ المزيد في الأيّام القادمة. هذه هي الخطّة...».

كان اللّواء كمال الأسيوطي يتأمّلُ ما حوله، سمع الكلام ولم يسمعه، معنا وليس معنا، يعبث بشعره وأنفه وذقنه برتابة هادئة، وعيناه هائمتانِ في ركن الغرفة. توقّف الضابط عن الكلام برهةً، في انتظار تعليق من أحد الواقفين أو ربّما كي يَلفت انتباهَنا لأهمّية ما سيأتي.

«لقد قمنا بخطوات عديدة في طريق التحضير للثورة، وبفضل تلك الخطوات صار الناسُ متخوّفين من تغيُّر مستواهم الاجتماعي والاقتصادي بسبب الاحتلال، أصبح أغنياء الحرب سببًا لأَرَقِهم، والقتل المجاني سببًا لرعبهم، الناس يحنُّون الآن لزمنٍ آمن خالٍ من القلق على الأبناء والأحباب طوال الوقت».

ما الجديد؟ الناس يشعرون بالحنين إلى هذا الزمن طوال السنوات العشر الماضية!

«لكن تتبقّى الخطوة الأخيرة، يبدو أنّ إثارة الهلع الأخلاقي لم تعد سببًا كافيًا لتحريك الناس، وإذا صبرنا أكثرَ من ذلك، فسيهدأ هذا الهلع تمامًا ولن نستطيع إثارته مرّة أخرى. الهلع الأخلاقي، كأيّ رعب، زائف. ولا يدرك زيفَه الناسُ إلا بعد مدّة مِن سيطرته عليهم، وحالما أدركوا هذا الزيف لم يعد بالإمكان تصديقُه مرّة أخرى. ويبدو أنّ علينا أن نخطوَ خطوةً أخرى أبعدَ ممّا جاء في الدراسات الاجتماعية التي نتبعُها، هذه المرّة لن نخلق هلعًا أخلاقيًا زائفًا، بل يجب أن نخلق هلعًا حقيقيًا.. هلعًا صافيًا».

يبدو أنَّ القادم سيِّئ حقًّا، كنت دائمًا أتوقّع أنَّ القادم أسوأ لكن ليس إلى درجة ما يشير إليه سيادة العميد.

«خلال أيّام قليلة وفي ساعة محدَّدة، سيندلعُ القتل في الشوارع، ستصبحُ الجريمة بلا عقوبة، أعداد القتلى ستزيد في كلّ شارع من شوارع القاهرة، لن يجد الناس مهربًا من الرصاص وجماعات البلطجية والسيّارات المندفعة تدهس المارّة، لن يكون هناك نهبٌ للمحلّات أو البيوت، فقط قتل، من دون أسبابٍ أو ضوابطَ، سينهارُ الحاجز الأمنيُّ الواهي فجأة، ذلك الذي تحافظ الداخلية عليه بصعوبة بالغة. ولن يجد الناس مفرًّا وقتَها من الثورة على الحاكم».

أعرف عمَّا يتحدَّث، هذا ما فعلته أنا في سورة الغضب منذ شهور، لا لأدفعَ الناسَ للثورة، بل لأنتقمَ منهم.

«مَهمَّتُكم أسهلُ من مَهمّة الباقين، أنتم ستتمركزون في نقاط محدَّدة فوق مبانٍ بعينها، ستتلقّون ذخيرة كافية لقتل المئات، مَهمَّتُكم هي قتل أكبر عدد من المارّة في الشوارع، ستكونون رأس حربتنا، أوّل من سيطلق النار على الناس. واطمئنوا، فلا حدود على الإطلاق، ستختارون ضحاياكم بإرادتكم الحرّة، ولا تفرقة بين رجل وامرأة، أو بين طفل وشيخ، سيكون

الأمر سهلًا لأنّكم ستختبئون، بينما ستكون المَهمّة أصعب على الفرق المتواجدة على الأرض. بعضٌ منهم زملاء شجعان وسيكونون معرَّضون لأخطار حقيقية، هؤلاء شهداء محتمَلون».

هذا الكلام يثيرُ ذكرى قديمة، ها نحن ننفّذ خطّة كنّا ضحيّتها منذ سنوات.

«سنحرصُ على أن تكونَ رصاصاتكم هي أوّلُ مَن يحصد الناس، ثم سيظهرُ البلطجية والمتطرِّفون الذين سيقتلون الناسَ بالسلاح الأبيض والعِصيّ، يحرّضهم ويوجّههم زملاؤنا على الأرض، ستكون حربًا بدائية تمامًا، وهكذا سيسقط الناس ضحايا لرصاصات تأتي من أماكنَ مجهولة، ثم سيسقطون ضحايا لضربات السيوف والعِصيّ، سنصل بالناس إلى أقصى حدود الفزع».

ولا سؤال واحد! يبدو أنَّ الزميلين لا يفكِّران إطلاقًا، هما أصغر منِّي سنًّا ولا أعلم عنهما شيئًا، لكنَّهما يمتلكان عقلَين بالتأكيد، ومع كلِّ ما قيلِ منذ ثوانٍ فهما لا يعترضان ولا يتكلَّمان. طيب، أنا صامتٌ لأنّني أعلم أنَّ ما سيحدث لن يؤدِّيَ إلى شيء، لا ثورة ولا شيء آخر، ولا أريد أن أبدوَ معارضًا لقرارات قيادة المقاومة. لكن ماذا عنهما، هل يعلمان ما أعلمه، هل هما على استعداد لتنفيذ المَهمّة على أكمل وجه، هل هما مقتنعان حقًّا بما يقوله العميد ماضي، هل هما على استعدادٍ لقتل أحد أفراد أسرتيهما إذا ما مرَّ أمامهما؟

«ستصلكم معلومات كاملة عن نقاط التمركزِ خلال الأيّام القادمة، كونوا على استعدادٍ دومًا للعمل في أيِّ وقت، كونوا حريصين على التواجد في البيوت الآمنة المخصَّصة لكم منذ ما بعد منتصف الليل وحتّى غروب الشمس، هذه هي الفترة التي ستصلُكم فيها الرسالة، باستثناء الغد، كونوا على أُهْبة الاستعداد دائمًا».

هل يبدأ الجدل الآن؟ ألن يسأل أحدهما السؤال الأخلاقي؟

نظر إلينا اللواء كمال الأسيوطي، ثم سألنا: «هل كلّ شيء واضح؟ هل هناك أيّةُ أسئلة؟». صمت قليلًا في انتظار سؤال، ثم قال بنبرة مَن يُنهي الحديث: «وفَّقكم الله... يبدو أنّنا سننتظر سيادة الضابط المتأخِّر قليلًا، اتصل به يا ماضي فلا وقت لدينا، يمكنكم أن تستريحوا يا سادة؛ فالاجتماع قد انتهى».

إذن لا أسئلة، لقد قامتِ الداخلية بمَهمَّة ناجحة حقًّا.

بقينا واقفين، لكنّنا استرخينا تمامًا وأشعل ثلاثة منّا سجائرهم. ثم بدأتِ الأحاديث الجانبية بصوتٍ منخفض بين الحاضرين كلّهم، اللواء الأسيوطي يكلِّم سليمان ماضي بصوت مرتفع، والضابطان يتحدّثان معًا بصوت خفيض. وقفتُ صامتًا أنتظر أن يبدأ أحدهم الكلام معي. هذا ما كنّا نفعله في اجتماعاتنا قبل الاحتلال، هذه الأحاديث الودّية كانت تخفِّف الاحتقان كثيرًا، كانت الأوضاع صعبة دائمًا، وكانت المصالح الخاصّة تفرض نفسَها على الاجتماعات والقرارات طوال الوقت، كانت الاجتماعات تحمل قدرًا كبيرًا من الانفعال المكتوم دومًا، بينما كان للثرثرة مفعولُ السِّحر. عرفتُ من خلال حوارِهما أنّ كلا القنّاصَين كانا يتحرَّكان في القاهرة الشرقية بحرّيّة كبيرة، يعودان إلى منزليهما كلَّ يوم أو كلَّ عدّة أيّام، بينما كمال الأسيوطي يعيش في القاهرة الغربية ولا يتركها إلّا نادرًا، بدا لي أنّه سيسلِّم القيادة إلى سليمان ماضي المتحمِّس. هدوء الأسيوطي وشروده جعلاني أفكّر في مدى كفاءته وقدرته على قيادة المقاومة. الأكيدُ أنّ التراتبية غائبة أو على الأقلّ لم تعد مطبَّقة كما كانت في الوزارة، لا نظامَ صارم الآن، كنَّا ضباطًا وما زلنا نعتبر أنفسنا ضبّاطًا، لكن مناخ «الضبط العامّ» انتهى. أخذت الضحكاتُ تتصاعد ردًّا على مزحة ألقاها أحد الواقفين. وفي غمرة الضحك سأل أحد الضابطَين سليمان ماضي: «لكن ألم يحدث هذا من قبلُ؟ قَتْلُ الناس في أثناء شغب يناير؟».

تلاشت ضحكة ماضي ببطء، كان مبتسمًا حينما قال بخفّة: «لم هذه السيرة؟».

ضحك الجميع ضحكاتٍ مكتومةً. شغب يناير 2011 كان كارثة، ويوم 28 يناير سيظلّ علامةً سوداءَ في ذاكرة الوَزارة.

لا بدَّ أنَّ الجميع استرجعوا ما حدث، الخلاصة أنّنا تأكّدنا أنّ الناسَ قنبلةٌ في حالة انتظار دائم، قد تنفجر في وجهك في أيّ وقت، وأنّ الرَّصاص أفضل طريقة للتعامل معها وقت الانفجار.

تابع سليمان ماضي كلامه: «شغب يناير قصّة مختلفة، إطلاق النار كان محاولة منّا لإخافة الناس وإرجاعهم إلى منازلهم، إطلاق النار كان دفاعًا عن الأقسام، وبالتأكيد أدّى إطلاق النار إلى نتيجة عكسية تمامًا، لا أعرف فيمَ كان يفكّر القادة وقتها، التخبّط كان يسيطر على التحرُّكات كافّة، بالطبع لم تكن هناك أوامرُ صريحة بإطلاق النار، هذا لم يحدث قطّ، في ذلك الزمن الغبي كانت أوامر مثل هذه قد تودي بصاحبها إلى المحاكمة وربّما إلى السجن. طبعًا انتهى كلّ ذلك بعد 2011 بسنوات وأصبح القتلُ متاحًا للتخلُّص من الإرهابيّين والمشاغبين والعملاء والمتظاهرين، وبتأييد غير مشروط من الشعب والنيابة والقضاء».

نعم، كانت تلك أيامًا جميلة حقًّا.

«لكنَّ الجميعَ يعلم تمامًا متى يجب أن يطلقَ الضابط النار. ما حدث أنّ الضبّاط أخطؤوا حتمًا في يناير. لكن لماذا نتذكّر يناير ولا نتذكّر ما بعده؟ أغسطس 2013 كان ملحمةً حقيقية، معركةُ رابعةَ التي سحقنا فيها الإخوان تمامًا، وبمباركة الأغلبية الساحقة من الشعب، ودون أدنى إحساس بالذنب أو الندم. مارس 2016، أطلقنا النارَ في ميدان المنشية في الإسكندرية دونَ أوامر ودون اتّفاق في ما بيننا، كان التوقيت ممتازًا فمات أربعةُ آلاف شخصٍ خلال ستّة أيّام، ولم يحاكَم أحدنا. ولا أودُّ ذكر سبتمبر 2019، كان يوم نزهة حقيقي، حديقة الأزهر، وكلّية هندسة عين شمس، واعتصام الآلاف من المراهقين فيهما لسبب تافهٍ، حتّى إنّي لا أذكر سبب الاعتصام! ولأنّ العملية تمّ التخطيطُ لها بدقّة بالغة، أسقطنا أكثر من ألفَي قتيلٍ في

ساعتين، واستخدمنا تكنيك «فرم السيقان» الذي أثبت نجاحًا تامًّا، إذا لم تودّ قتل متظاهر، فاخفض سلاحَك، وأطلِق النار على مستوى ركبتَيه، لن يتظاهر بعد اليوم، بل لن يتحرَّك. كان سبتمبر 2019 علامةً على سيطرتنا على الأماكن العامّة والجامعات وقدرتنا على التحرُّك لاحتلال عدّة أماكنَ في توقيت واحد، وقدرتنا على فضِّ أيِّ تجمُّعٍ أو مظاهرة أو اعتصام. ما تلا ذلك كان عملًا بطوليًا من النيابة، نعم استخدمنا الرَّصاص الحيَّ لكنَّ أحدًا لم يتحرَّك ليُدِين فردًا واحدًا منّا، كان هذا تأكيدًا للقوّة الثلاثية للداخلية والنيابة والقضاء، في ذلك اليوم فعلنا كلَّ ما نريد، ونجحنا في تطويع الناس إلى الأبد. وبعد سبتمبر 2019 تأكدَّتُ أنّ أحدَنا لن يُحاكمَ أبدًا إذا قَتَلَ مواطنًا في أحداث شغب، محاكمات يناير لن تتكرَّر أبدًا يا سادة، النيابة أدركت أنَّ ما حدث حينها كان خطأً هائلًا، والقضاة لم يتردَّدوا في منحِنا أحكامَ براءة، مُخرِسةً أيَّ خائنٍ أو عميل. علم الجميع أخيرًا أنّنا ذراعهم الطويلة، ولولانا، لَمَا كانت هناك هيبةٌ للقضاء أو تنفيذ لأحكامه. لقد أثبتنا في مناسباتٍ وأيّام عديدة أنّنا كنَّا أبطالًا شجعان، في يناير وفي أغسطس وفي مارس وفي سبتمبر، وأنّنا أهمُّ من المواطن العادي، وأنّ أرواحنا أهمُّ من روح المواطن العادي، بل إنَّ روح المواطن العادي ليست ذاتَ قيمة في مقابل الحفاظ على الدولة. اطمئنوا، نحن الآن نخطِّط لاسترداد الدولة من أيدي المحتلِّ، وإذا كان قتل المواطنين حلالًا كي نحافظ على الدولة، فهو واجب لاستردادها».

صمتنا دقائق، وأظنُّ أنَّ ماضي كان لديه الكثيرُ ليقوله، كان جادًّا ومتحمِّسًا، ويبدو أنَّه أراد أن يضع بُعدًا كوميديًا لانفعاله السابق، فضحكَ ضحكةً قصيرة ثم قال: «ساورا!». وهنا غرق الجميع في الضحك.

قالَ واحد منَّا بين الضحكات الرنّانة «شوهداء الساورا!». فضحك الأسيوطي متخلِّيًا أخيرًا عن شروده المستمرّ. خفَّ الضحك قليلًا، ثم قال سليمان ماضي: «هذه نتيجة أفعالنا يا سادة، لو لَم نطلقِ النارَ في يناير، لما

حدث كلُّ هذا، ربَّما لما صرنا واقفين في هذا المكان، وبالتأكيد لم يكنِ الجيشُ لينقلبَ على مبارك، لكنّ هذا تغيَّر، صرنا نعرفُ متى نطلق النار، ومتى نتركُ الناس لتثور. يا أخي، لقد سمَّى الناس ما حدث «ثورة» وظلّت الأحداث هكذا في عقول الناس سنواتٍ طويلةً، الحمدُ لله أنَّ الناس أدركوا حقيقة ما حدث وعدلوا الوصف إلى «شغب» أخيرًا».

هذا صحيح، شعور بالراحة عمَّ الجميع حينما تبدَّل اسم ما حدث.

تابع ماضي بهدوء: «يبدو أنّنا متّفقون، والعملية كلُّها أكثرُ وضوحًا الآن، نحنُ نحاول إعادة تكرار أحداث شغب يناير، نتوقَّع أن يقوم الناس بمهاجمة دوريّات الاحتلال، وأقسام الشرطة، هذه المرّة لن يقاوم ضبّاط الشرطة الهجوم، بل سيتركون الأقسام لتحترق، هل هناك تعليمات بذلك؟ بالتأكيد لا. هل هناك اتفاقٌ بيننا وبينهم؟ بالتأكيد لا، لكنّي أعلم أنّهم سيتركون الأقسام لتنهبها الجماهير. اطمئنوا وتعاملوا مع ما سيحدث على أنّه إحياء لذكرى شغب يناير، على أنّه استرجاع لما تمَّ يوم 28، لكن كونوا في موقف المنتقِم. بعد أيّام قليلة سنحتفلُ بذكرى «الساورا» القديمة».

قلتُ ضاحكًا: «ربّما سيكتب أحدهم شعرًا في آخر اليوم!».

ردّ ماضي: «ربّما.. المغفّلون كثيرون».

ثم ابتسم وقال مخاطبًا أصغرَ الواقفين سنًّا: «هل تذكر شعر شغب يناير يا ملازم علي؟».

ارتسمَت ابتسامةُ دهشةٍ على وجهه، ونظر ناحية الأسيوطي.

قال ماضي: «لا عليك، نحن لسنا في اجتماعٍ رسميٍّ الآن، ولا أظنُّ اللواءَ الأسيوطي يعارضُ القليل من الفكاهة».

قال الأسيوطي: «لكنّه كان طفلًا في ذلك الوقت، كيف يذكر شعرًا قيل في ذلك الوقت؟».

قال الملازم علي: «لم أسمعه حينها يا أفندم، سمعته بعد ذلك بسنوات، هذا شعر سمعناه من الزملاء في الأكاديمية، وظللنا نردِّده بعدها كثيرًا!».

ردّ عليه الأسيوطي: «حسنًا يا شاعر، قل ما لديك!».

تنحنح الملازم عليّ، ورفع ذراعَيه كعادة الشعراء ثم قال: «اقتلني... قتلي ما هايعيد دولتك تاني». قالها وهو يشهرُ سبّابتَيه في الهواء وكأنّه يطلق النار من مسدَّسَين، ولم أستطع قطّ منع الابتسامة؛ قتلناهم وأعدنا دولتَنا. ثم تابع الإلقاء: «باكتب بدمي حياة تانية لأوطاني». قالها وهو يعصر ثديَيه كامرأة متهيّجة. غرقنا في الضحك، وتذكّرتُ القصيدة أخيرًا، هذه قصيدة كتبها شاعرٌ مغمورٌ اسمُه صفاء المويلحي تكريمًا لـ«شوهداء الساورا»، لن أنسى اسمه أبدًا! تابع الملازم: «دمّي دا ولا الربيع...». ثم مرَّر أصابعه ما بين فخذَيه ومسح بنطلونه، ثم رفع كفَّه وفتح عينَيه على اتّساعهما وتأمّلها فزعًا، وقال: «الاتنين بلون الحيض!!». ضحك الأسيوطي كثيرًا ثم سأله وهو يسعل: «هل قال الشاعر «حيض» حقًّا؟».

لكنّ الزميل لم يتمكّن من الردّ، ولم نتمكّن نحن من الإصغاء، كانت الضحكات عالية إلى درجة أنّنا خشينا أن ينكشف أمرُنا، ولو كانت الأرض نظيفة لارتميتُ عليها. تذكّرتُ دم العاهرة في بطن الكوبري يغطّي قضيبي، وفكّرتُ أنّها لا بدَّ كانت واحدة من الثُّوار وراحت عينُها بخرطوش أطلقه زميل عليها، خرطشناها كما خرطشنا غيرها، وانتهت بعد نضالٍ ومظاهراتٍ ودولارات العمالة إلى أن أصبحت شرموطة في بطن الكوبري، نكتُها بثلاثة جنيهات، نهاية تليق بخائنة تمامًا. وتساءلتُ: هل ينقل دم الشوهداء الإيدز أيضًا؟

رفع عليٌّ كفّه معتذرًا عن المتابعة وهو يضحك. هذه اللحظات التي ننتظرُها دائمًا، الانتقام من شغب يناير يشغلنا حتّى اليوم. هدأتِ الضحكاتُ رويدًا رويدًا، ثم قال أحدهم بصوت أنثوي: «شوهداء الساورا». لتندفعَ موجة أخرى من الضحك.

سمعنا طرقًا على الباب، وعندما فتح واحد منّا الباب دخل شابٌّ يحمل حقيبة كبيرة، هل انكشف أمرُنا حقًّا بسبب الضحك؟! كان الشابُّ متجهِّمًا،

لكنَّه ابتسم عندما رآني، ثم نظر إلى الجعران على كتفي وأومأ برأسه: «يبدو أنَّه أحبَّك!».

ردَدتُ عليه: «يبدو أنَّه تخلَّى عنك!».

إذن، فهذا هو الضابط المهندس المختصُّ بالدرونات. طلب الضابطان الإذن بالرحيل، وتحدَّث سليمان ماضي معهما قليلًا، ثم صافحا الجميع ورحلا. وضع الضابط المهندس حقيبتَه على الطاولة المتّسخة وفتحها ثم أخذ يعبث بمحتوياتها قليلًا وأخرج منها ما يشبه إبرة طويلة وجهازًا يشبه التليفون المحمول وعدّة أسلاك. ثم اتّجه نحوي مباشرة، عرَّفني بنفسه، قال إنّه الرائد جون مختار. وإنّه سيستعيدُ السيطرة على الدرون خلال دقيقة واحدة.

يبدو أنّه يوم مرح على غير العادة. وعلى الرغم من الجثّتَين الراقدتين في الشارع قرب المبنى، وعلى الرغم من الذكرى الحزينة التي سيطرت على الجميع. اعتذر الرائد جون عمَّا أصاب الدرون، قال لي إنّ هذا الدرون هو أفضل ما لديه الآن، خفيف جدًّا، يستهلكُ مقدارًا ضئيلًا من الطاقة، ويستطيع امتصاص طاقة الشمس وتحويلها إلى طاقة كهربية، وهو أيضًا يستطيع الاستفادة من حركتي أنا وتحويلها إلى طاقة، لذلك لا بدَّ أنّه يتعلَّق بكتفي عندما أمشي، قال إنّ هذا الدرون تحفة تكنولوجية، لكن يبدو أنّ الدرون قرَّر أن يغفل باقي مهامّه وأن يرافقَني لسببٍ ما!

كان ردُّ ماضي جاهزًا: «هذا ليس مزاحًا يا قدّيس، الدرون خرج عن السيطرة، وربّما كان تحت سيطرة آخرين دون أن نعلم، أليس من الوارد أن يكون أحدهم قد تجسَّس علينا الآن؟».

لم ألتفت إلى خطورة ما قاله ماضي، وسألت جون: «قدّيس؟».

ردَّ عليَّ: «يطلقون عليَّ هذا اللقب لأنّي لم أقتل أحدًا بعدُ».

سألته: «كيف حدث هذا! نحن تحت الاحتلال منذ ثلاث سنوات الآن! ألم تقتل أحدًا طوال هذه المدّة حقًّا؟ الضابط لا يصبح ضابطًا إلّا إذا قتل يا صاحبي».

تجاهل القدِّيس كلامي وعلى وجهه ابتسامة صفراء. كان قد أنهى توصيل الدرون بجهازه وأخذ يعبثُ في الجهاز مختبرًا الدرون حينما قال: «لا تقلق بخصوص الدرون، لا يمكن التجسّس عليك من خلاله، هذا النوع لا يمكن التحكُّم بحركته بالكامل، يمكن فقط أن نحدّد نقطة الهدف ويقوم هو بالتوجّه إليها، يتحاشى الحواجز ويرتفع فوق المباني أو ينتظر مختبئًا ريثما تظهر الشمس كي يحصل على الطاقة. والدرون نفسه لن يسمح لأحد بتقييد حركته، سيهرب في أوّل فرصة وقد يحرق نفسه إذا شعر بأنّ هناك خطر يتهدّده، أقصدُ أنّ هذا الدرون لا يموت لكنّه قد ينتحر. طيّب، يبدو أنّ الخطأ خطئي! يظهر من سِجِلِّ التعليمات أنّي أخطأتُ فعلًا! ما حدث ببساطة هو أنّي أهملتُ فلم أعطِه أمرًا بالعودة إليَّ. وهكذا استمرّ يرافقك، المُدهش أنّ الدرون تعلّق بك أنتَ، ولم يتوقّف عن الحركة أو تاه في المدينة».

قلت له: «المُدهش أنّه كان يلعب معي! كحيوانٍ أليفٍ أربّيه في البيت!».

ابتسم القدِّيس وقال: «هذا تطوُّر مدهش، الدرونات الآن تتعلّم وتحتفظ ما تراه من أفعال وتقلده، لا بدّ أنّه رأى كلبًا يلاعب صاحبه أو ما يشبه ذلك، وحلَّل ما رآه وقرَّر أن يقلِّده».

كان القدِّيس قد كفَّ عن العبث بالدرون، نظر إلينا ثم قال: «كلّ ما أريد أن أقوله أن لا خوفَ من تواجده بينكم، وببساطة يمكن تحطيم الدرون الآن والتخلّص من كلّ الهواجس. كما كان يمكنكم تحطيمُه سابقًا، لكنّ أحدًا لم يفعل ذلك...».

كنتُ أتأمَّل الدرون في كفّ القدِّيس عندما سمعتُ اللّواء الأسيوطي يسألني: «هل تودُّ الاحتفاظ به؟».

كانت إجابتي بسيطة: «لا مانع».

لسببٍ ما لم أجد ضررًا في الاحتفاظ بالدرون.

سألتُ القدِّيس عن اسمه فقال: «برهان!».

قال الأسيوطي: «اتركه يا جون، قد يكون مُسلّيًا لسيادة العقيد».

هزَّ القدِّيس جون كتفَيه علامة التسليم، ثم أخرج من حقيبته عدّة أشياء وقال لي: «هذا تليفون محمول يحوي برنامجًا للتحكّم ببرهان، في الأوقات العادية سيرافقُك برهان وقد يرتاح على كتفك معظم الوقت. ولا تنتظر الكثير، فهو لن يتكلَّم يومًا ويقول: برهان في خدمتك يا سيدي».

وضعت الوصلة والتليفون في جيبي، التفتُّ إلى كمال الأسيوطي وسليمان ماضي وسألتهما إن كانت هناك أوامر أخرى، ابتسم الأسيوطي بهدوء وصرفني، قال إنّ عليَّ أن أستمتع بالقاهرة خلال الأيّام القادمة، لكن يجب أن أبقى مستعدًّا طوال الوقت، وذكَّرني أنّ الغد فقط عطلة. تقدَّم ماضي نحوي، أخبرني أنّ القدِّيس سيسهِّل لي الحصول على أشياء كثيرة، وطلب منّي أن أتّصل به في وقت الحاجة، ثم سلَّمني مظروفًا مغلقًا، قال إنّه يحوي القليل من المال، لكنّه كافٍ تمامًا للعيش خلال الأيّام القادمة.

أمسكت مالًا أخيرًا! لم أمسك جنيهًا واحدًا طوال الشهور الماضية، الذي يعيش في البرج يأتيه الطعام والشراب والحشيش، وليس في حاجة إلى مال يحمله. هذه مصيبة! تذكّرتُ أنّي لا أملك أيَّ حشيش الآن! وتلقائيًّا فكَّرتُ في القدِّيس جون، هل يمكن أن يأتيَني بقطعة من الحشيش، أم أنّه سيراني مُبذِّرًا أنفق أموال الحكومة على المزاج؟

برهان، نعم هو برهان الآن، يعود للتحليق فوق رأسي بهدوء، ومع خروجي من الشقّة ونزولي السلم بدأ ينشط كثيرًا، ازدادت سرعة دورانه وأخذ يتشقلب في الهواء، ثم اكتشف لعبة جديدة؛ كان يطير إلى الأمام في سرعة بالغة لمسافة قصيرة، ثم يوقف خفق أجنحته ويخبّئهم أسفل القشرة الصُّلبة، ويبدأ جسده بالسقوط مدّة ثانية واحدة، ثم يعود ليفتح أجنحته ويضرب الهواء بقوّة رافعًا جسده مرَّة أخرى. يبدو أنّ برهان سعيدٌ لأنّنا سنعود إلى الشارع. على الرصيف المقابل وقف أربعةُ رجالٍ يدخّنون سجائرَهم، ويحدِّق واحد منهم في الأرض، بينما يعبث الباقون في هواتفهم. حاسّتي تنبئُني بأنّ هؤلاء يسعَون لعملٍ إجرامي، سيسرقون منزلًا

أو سيّارة، سيخطفون امرأةً أو طفلًا. مشيتُهم تُوحي بالتوتر، وانشغالهم بما في أيديهم زائف. لكن لم أهتمّ؟ لستُ ضابطًا الآن وعليَّ أن أحضِّر نفسي للساورا القادمة.

كانت الساعة قد اقتربت من العاشرة ليلًا، الصداع يتسلّل إلى رأسي، أشعر بمقدِّماته المعتادة؛ الصفاء العقلي الذي يدوم لثوانٍ قليلة قبل أن ينتهيَ إلى صداع حقيقي، ثم صدمات الألم التي ستضرب مؤخّرة رأسي كلّ عدّة دقائق، لا أكادُ أنسى آخرَ ضربة حتّى تصيبني أختها. لا مفرَّ من الحشيش. المسكّنات المعتادة قد لا تنهي الصداع، وقد أضطرُّ للنوم بعد تناولها وأنا لا أرغب في هذا أصلًا. لكنَّ الحشيش سيُنسيني الصداع، سيجعلني هادئًا وقادرًا على التخطيط لما سيحدث بعد أيّام.

أخرجتُ التليفون الذي أخذته قبل دقائق لأبحث عن اسم القدِّيس جون، وجدتُ أنّه الاسم الوحيد المسجَّل في ذاكرة التليفون، اتصلتُ به فسألني عن مكاني ثم أخبرني بأنّه سينزل من المبنى بعد دقيقة واحدة.

دخل رجلان إلى المبنى المقابل، وبقي الاثنان الآخران واقفَين في انتظار شيء ما. خرج من بوّابة المبنى الضيّقة شخص هائل الحجم، برز كرشُه إلى الأمام وظهرت ذراعاه ضخمتين، لكنّ وجهه اختبأ خلف الظلال التي تُهيمن على جانب الطريق. بدا أنّه يتأكَّدُ ممّا حوله، نظر إلى الشارع وإليَّ، سكن دقيقةً كاملة ثم عاد إلى الداخل. التفتُّ إلى يميني لأجد القدِّيس جون واقفًا يتأمّله مثلما كنتُ أفعل، أخبرني أنّ هذا حارس بيت الدعارة على الجانب الآخر، ثم شبَكَ ذراعه في ذراعي، وقادني إلى خارج الشارع.

سمعنا موجاتٍ من موسيقى إلكترونية إيقاعية، خليط من صراخ بشري وصياح حيوانات، ظننتُ أنّي سمعت صوت خنزير، وصوت كلب يعوي متألمًا، يقطع كلّ هذا جمل موسيقية قصيرة جدًّا، وأصوات طبول إلكترونية كلّها ذات طابع معدِني صُلب، كان مصدر الموسيقى يقترب ونحن نسير،

كأنّي أتزحلق على مسار حديدي هائل ولا كابح لسرعتي، ثم وصلنا إلى أقرب نقطة من المصدر فسمعتُ صوتًا يتسلّلُ من بين النغمات ويهمسُ: «ماء... عطشان...». ثم أخذنا نبتعد وأخذت الموسيقى تختفي رويدًا رويدًا، وصوت الرجل يخفت وهو يردِّدُ: «ماء... عطشان...». هذا صوتٌ أضيفَ إلى الموسيقى، عبارة أخذتْ من تسجيل شهير لشخص لا أميزُ صوته، ربّما من فيلم قديم أو مسلسل حيث يطلب البطل الماء من شخصٍ ما، وربّما هو رجل يحتضر ويطلب شربة الموت. فكّرتُ أنّ أصوات الحيوانات تلك هي أصوات سفاد، خنزير نَهِمٌ يطأ أنثاه، وعواءُ كلبة تعاني ضربات كلب شوارع، هذه أصوات نشوة الأنثى أو وصول الذكر إلى لحظة القذف. لكن الخفقات الرتيبة لبرهان المستقرّ على كتفي أوحت لي بأنّها صرخات حيوانات تُذبح.

سألتُ القدِّيس عن الموسيقى فقال: «هذه موسيقى إلكترونية جديدة، الموسيقي في الأربعين من عمره وليس شابًّا كما اعتدنا، لا بدّ أنّك سمعت عنه، أبادير، اسمُه مميَّز جدًّا وهو يعملُ منذ أكثر من خمسةَ عشرَ عامًا. لكنّه مع ذلك يجدِّد موسيقاه ولا يلتزم بنمطٍ معيَّن. هذه أصواتُ حيوانات تُقتل، أبادير معتاد على تسجيل أصوات من الشارع ليدمجَها في موسيقاه بعد ذلك، يسجّل أصوات الباعة الجوّالين، وأصوات ركّاب المترو والأوتوبيس، وأصوات موظّفي الحكومة وهم ينهرون المواطنين، أشياء متعدّدة يسجّلها ويدمجها في موسيقاه».

صَمَت القدِّيس، وتعجَّبتُ كثيرًا حينما أخبرني بما كنتُ أفكِّرُ به للتوّ. سمعتُ ما يمكن أن يكون حشرجات الموت وصراخ الجماع، ويبدو أنّ الصوتَين متشابهان كثيرًا، ولا أعلم كيف علمتُ أنّ هذه صرخات الموت.

تابع القدِّيس: «سجَّل أبادير صوت حمار يلفظ أنفاسه الأخيرة في الشارع بعدما صدمته سيّارة، وكعادته خلط صوته بالموسيقى وحقَّقت القطعة نجاحًا كبيرًا، ثم قرَّر هذه المرَّة أن يسجّل صوت الخنازير وهي

تُقتل. لا بدّ أنّك تعلم، اكتشفت الشرطة وجود مزرعة خنازير ضخمة في المرج في شمال القاهرة، وخافوا من انتشار انفلونزا الخنازير مرَّة أخرى فأعدموا الخنازير كلّها في يوم واحد. وخوفًا من العدوى وتوفيرًا للنفقات أجبروا أصحاب مزرعة الخنازير والعاملين فيها على تنفيذ الإعدام. أجبروهم على ضرب جماجمها بمواسير حديد حتّى الموت. في ذلك اليوم سجَّل أبادير عدّة ساعات من صراخ الخنازير وهي تُقتلُ. هذه القطعة ممتعة حقًّا، وتنتهي بتصاعد مبهر، يقول أبادير إنّه سجَّل أصوات الخنازير تصرخ وهي تُضرب بعنف، ثم التقط أصوات العاملين في المزرعة وهم يبكون وسط صراخها، كانوا يضربونها ويبكون، ثم أخذ الصراخ يقلّ والخنازير تستسلم وتكفُّ عن الهرب، ثم توقَّف العاملون عن البكاء واستسلموا تمامًا لنشوة القتل، ثم شيئًا فشيئًا أخذوا يصرخون من شدّة النشوة، ويشتمون الخنازير بألفاظ وكلمات قذرة، قال أبادير إنّه رأى أحدهم وهو ويضرب أحد الخنازير بعنف بالغ، كانت جمجمته قد تحطّمت تمامًا، ولم يكن هناك أيُّ داعٍ للاستمرار في فرم العظم واللحم، وعندما توقّف الرجل عن الضرب واستدار إلى أبادير، لاحظ أنّ بقعة ضخمة من البلل قد غطت بنطاله حتّى الركبتين وقميصه حتّى البطن، كان الرجل قد قذف في بنطاله. وقرب النهاية سجَّل أبادير صوت خنزير ملقى على الأرض وهو يردِّدُ هامسًا بعربية صحيحة «ماء... عطشان...»، وختم بهذا التسجيل قطعته الموسيقية التي سمعتها للتوّ».

كلام القدِّيس شغلني عن الصداع، وسألته كيف يمكن الحصول على هذه الموسيقى، كان الفضول يقتلني. قال: «هذا سهل جدًّا، سأنقل لك ملفّات الموسيقى كلّها إلى تليفونك حينما نصلُ إلى البيت، وسأعطيك سماعة أذن لتستمع إليها منفردًا».

سرنا صامتيَن، كلّ ما يشغلني السؤال عن الحشيش، قد يكون القدِّيس جون حشّاشًا وقد يكون قدّيسًا حقًّا لم يقرب الحشيش مطلقًا، الشوارع

هادئة بلا مارّة أو سيّارات أو دوريات احتلال، سرنا وهو لم يسألني مطلقًا عمّا أريد أو إلى أين نتجه. وعندما احتلّ الصداع زمنًا أطول من زمن الصفاء سألته عن الحشيش.

صمت قليلًا، فكرتُ أنّي لن أخسر شيئًا الآن، لأنّي لا أملك شيئًا من الأصل. قال القدّيس دون أن ينظر إليَّ: «الحصول الآن على حشيش أمرٌ صعب، التجّار يرَون أنّ الحركة نهارًا أفضل من الحركة ليلًا. أستار الليل لم تعد كافية لحجبهم، بينما ضوء النهار يحجبهم وسط زحام الناس، سأدلّك على تاجر غدًا صباحًا. الآن لا يمكن الحصول على أيّ شيء، هناك فقط سيجارة كربون».

أخرج من جيبه علبة سجاير عادية، ثم أخرج منها سيجارة ملفوفة رشيقة، أشعلها وسحب منها نفسًا، ثم مجَّ دخانًا شديد البياض والكثافة، ومدَّ يده ليناولَني إيّاها.

في البداية ظننتُ أنّ «الكربون» هو اسم لأحد أصناف الحشيش الجيِّد، الواحد لن يشارك رفيقه إلَّا الحشيش الجيّد، تجنُّبًا للحرج إذا كان الرفيق خبيرًا، ولإبداء كرم، حقيقي أو مفتعل، للرفيق. مع أوّل نفَس أدركتُ أنّ هذا ليس حشيشًا، الطعم والرائحة مختلفتان عمّا اعتدته، هذا لا يحرق الحنجرة والصدر ولا يسبب السعال، ودخانه لا يملأ الأنف برائحة عتيقة، ولا يتشعَّب في الصدر منبئًا متعاطيه باسترخاء قادم، هذا شيء ذو رائحة عضوية غير معتادة، ولسبب ما تذكَّرتُ الجمبري المشوي، رائحة القشرة الرقيقة التي لسعتها نار الشواء، وخليط من روائح عدَّة لم أميِّز أيًّا منها، هذا شيء مختلف.

كنت قد أخذتُ ثلاثة أنفاس من السيجارة ثم ناولتها إلى القدّيس، الذي نظر إلى وجهي ونحن سائران وسألني عن «الأخبار» فكَّرتُ وقلت إنّي لا أهتمّ بشيء الآن، فضحك وقال إنّه يسألني عن الكربون، عندما وجدت مكعَّبًا أسود كثيفًا قد أحاط برأسي.

كان المكعَّب ثقيلًا كالرخام لكنّه لم يكن باردًا، بل كان بلا حرارة على الإطلاق، مددتُ كفيّ لأشعر بجوانبه المربّعة ووجدتها مسطّحة تمامًا منتظمة جدًّا وزواياه القائمة حادّة تحت أناملي، ولكنّي لم أرَ أيَّ شيء، ولم أسمع أيّ صوت، ولم أتمكّن من التفوُّه بأبسط كلمة، وحاولت التنفُّس لكن لا هواء داخل المكعب، كان المكعّب مصمتًا تمامًا، ورأسي قد أصبحت جزءًا منه لا في داخله. ثم تضخَّم المكعّب فشمل عنقي وصدري وبطني واستمرَّ تضخّمه حتّى وصل إلى قدميّ، وصرتُ معزولًا تمامًا عمَّا حولي، لم أشغل بالي بالقدِّيس أو بمَهمَتي أو بأيّ شيء آخر، لكنّي رأيت نفسي محشورًا تحت صخرة هائلة في ظلام دامس وأنا أهمسُ «ماء... عطشان...».

ثم راح كلّ هذا، وفقدت كلّ قدرتي على الوعي، لكنّي لم أفقد الوعي، بل كنت مستيقظًا وحواسّي معطّلة تمامًا. ووجدت أنّي نسيتُ كلّ ما سبق، وأنّ رأسي خاوية من الذكريات، لم أعد أذكر اسمي أو لغتي أو حتّى شكلي. وتذكّرتُ للحظة أنّ هناك أشياءَ كثيرةً في العالم خارج المكعّب الأسود، لكنّي لم أذكر أيّها كنتُ قبل أن أدخل المكعّب. كنتُ في المكعّب، في عدم ما قبل الخلق، أو عدم ما بعد فنائه، والأمرُ لا يهمُّ حقًّا فالعَدَمَين سواء.

ثم سمعتُ القدِّيس وهو يتكلَّم عن شيءٍ ما، وفورًا عادتِ المشاهد المحيطة بي إلى عينيّ، وعاد الصداع خفيفًا في طور الوداع.

توقَّف القدِّيس بغتةً فتوقّفتُ ونظر إليَّ وهو يبتسم ثم قال: «لقد ضربك الكربون للتوّ!». حدقتُ في وجهه وأنا مندهش من كلّ ما حدث؛ المكعّب وانعدام الوعي والغياب عن العالم، ثم نظرتُ إلى أصابعه فوجدتُ السيجارة وقد تآكلت ولم يبقَ منها إلا رمادٌ متعلِّقٌ، وسألته «ماذا كان هذا؟!».

ثم ضرب المكعّب الأسود رأسي مرَّة أخرى.

الضابط الضخم قاومني بشدّة، تلقّى رَصاصتَين من مسدّسي ثم تعطّل المسدس، علِقت رَصاصة في الماسورة ولم تتحرَّك، وكنت أحاول سحب مخزن الرصاص عندما وجدت الرجل يطبق على رقبتي ويحاول خنقي.

كان ينزف بغزارة ودمُه يغطّي صدري ويُغرق ملابسي بالكامل، لحظتها ظننت أنّي ميّت ولعنتُ الساعة التي وافقت فيها على مَهمّةٍ حمقاءَ كهذه؛ قتل عميد في الجيش الخامس لفرسان مالطا مَهمّة سهلة، مسدّس حلوان وكاتم للصوت وعدّة طلقات كفيلة بالإجهاز عليه، لكن يبدو أنّ هذا العميد ثورٌ لا إنسان. فكّرتُ أنّه أدرك أنّ نهايته اقتربت كثيرًا، وأنّه قرّر أن يقتلَني، ويأخذَني معه إلى الجحيم، وتوهّمتُ أنّنا سنُبعث معًا هكذا على الهيئة نفسِها؛ دمُه يشخبُ من ثقبَين في صدره ليغرق جسدي بالكامل، وعيناه تحدِّقان في عينيّ، وكفّاه تحاولان كسر رقبتي. كنتُ أقربُ ما يكون للاستسلام، لكنّي قرّرتُ أن أحاول مرَّةً أخيرة. استللتُ السكّين الصغيرة من جانبي، وأخذتُ أطعنه مرّاتٍ متتالية. لم أصوِّب هذه المرّة، إذا كنت قنّاصًا محترفًا فأنا لا أجيدُ استخدام السكّين أبدًا، لكن لحُسن حظّي أتت جميع الطعنات في قضيبِه وعانته. كنتُ هناك، في غرفة الرجل الخاصّة، هو عارٍ تمامًا وامرأة جالسة على طرف السرير عارية أيضًا، بدا من سمرة بشرتِها واستدارات جسدِها أنّها مصرية، وبدا من عُريها الكاشف، مع أنّ أغطية كثيرة تراكمت على السرير، أنّها عاهرة محترفة، وفكّرتُ وأنا أطعن قضيبَ الرجل أنّني قد أطعنها بقضيبي إذا ما أُتيحت لي الفرصة، وعندما بدأت الرؤية تتلاشى رويدًا رويدًا أدرت كفّي ومرّرتها إلى الأعلى قليلًا، بيني وبينه، ثم فتحت بطنه من اليسار إلى اليمين. ولا بدّ أنّ مقاومته انهارت في اللحظة نفسها، فسقط دون أدنى حركة.

استمرَّت هذه المعركة عدّة ثوانٍ دونَ صوت منه أو منها، هو مشغولٌ بمحاولة قتلي وهي مشغولة بالرعب ومحاولة الخروج من الموقف بأدنى

خسائر. كنتُ مرهقًا وعلى وشك الإغماء، لكنّي أردتُ إهانتها إهانة أخيرة؛ تناولتُ مسدّسي الساقط على الأرض وأخرجت مخزن الرصاص والرصاصة العالقة، ثم أعدت المخزن مرّة أخرى وأشرت لها بالمسدّس أن تأتي، ولمّا أتت أمسكت بكتفها وأجبرتها على النزول أمامي حتّى ارتكزت على ركبتيها، أنزلتُ البنطلون بيد واحدة واستندتُ بالمسدّس إلى رأسها، وهي كانت تعرف ما كنتُ أريد.

كنتُ ألهث، وأشعر بالاختناق وبأصابعه لا تزال تقبض على عنقي، وهي تمصُّ وتمصُّ دون فائدة، ولثوانٍ قليلة انتصبتُ، وعدتُ مرّة أخرى أكافح من أجل بعض الأكسجين. وفي أثناء محاولتها الدؤوبة كنتُ أضغط على رأسها بفوهة كاتم الصوت، كان المسدّس في وضع عمودي على رأسها، وفكّرتُ أنّي إذا أطلقت النار عليها فإنّ الرصاصة ستخترق رأسها وتسير في ظهرها محطّمة عمودها الفقري بالكامل، وتخيّلتُ أنّي كقنّاص قد أستطيع التصويب كي أدمّر كلَّ فقراتها بهذه الطريقة. وفكّرتُ أنّ هذا مستحيل، بل من الممكن أن تخترق الرصاصة طبقة الشعر الخفيفة ثم الجلد ثم سطح الجمجمة ثم المخّ، ثم تصيب قضيبي المسترخي في فمها. وعلى الفور وجّهت المسدّس بعيدًا عن قضيبي. مجنون مَن يستخدم مسدّس حلوان من أجل مَهمّة كهذه، قد تنطلق رصاصة بالخطأ إذا سقط الحلوان على الأرض، وقد تلتوي الماسورة إذا أطلقت عدّة رصاصات متتالية، وقد تنطلق رصاصة تريدها لتدمير عمود العاهرة الفقري فتصيب قضيبك.

مللتُ ما تفعل، وأخذت أخلع ملابسي وهي لا تزال تعمل، كان الأمر صعبًا للغاية، خلعت البنطال والحذاء مستخدمًا يدي اليسرى وقدماي، وخلعت القميص بالطريقة نفسها، لكنّي اضطررتُ لإمساك المسدس بيدي اليسرى لخلع القميص تمامًا، كان القميص قد تشرَّب الدم، ووصل إلى جلدي، لكن لم يكن هناك وقت للاستحمام أو حتّى مسح الدماء.

ولذلك ارتديتُ قميص الرجل النظيف والملقى على السرير، والعاهرة أدركت ما أودّ فعله فمدّت يدَها دونَ أن تترك قضيبي وأمسكت ببنطال الرجل وساعدتني في ارتدائه. كلّ شيء كان حسنًا في تلك اللحظة.

لم أنتصب على الرغم من محاولاتها المستمرّة، وأدهشني صمتها وقدرتها على مصِّ قضيبي وأنا غارق في الدماء وجثّة الرجل إلى جانبها، ولم أجد أنّ ما أفعله يُهينها في شيء بسبب ردّ فعلها الطبيعي هذا، ولم أجد ما فعلته مهينًا من الأصل، لم يكن للإهانة معنى بعد قتلي الرجل وغرقي في دمه.

لا بد أنّها ظنّت أنّي أودُّ قتلها، أخذت تداعب قضيبي بيدها وهي تتوسَّل كي أتركها تعيش، لم تدرك أنّ وجهها البائس وكلماتها السخيفة لا تساعد على استثارتي مطلقًا، كانت تبكي وتدمع وهي تقول إنّ لها أولادًا ينتظرونها في البيت، كلّ هذا وهي تدعك قضيبي في انتظار أن ينتصب دون أيّ أمل، وانهارت باكية وهي تقول إنّها لا تعرفني، ولا تعرف اسمي، وستنسى وجهي حينما أخرج من المكان وإنّها ستقول إنّها لم ترَ وجهي لأنّي كنتُ ألبس قناعًا.

خرجتُ متهالكًا وأنا ألهث من التوتر.

كنتُ أمشي بسرعة وقلبي يخفق بعنف، حاولتُ أن أبدوَ عاديًّا حتّى لا ألفت الأنظار إليَّ، قد يلاحظ أحدهم الدم المتجلِّط على صدري تحت الملابس، وربّما يلاحظ أنّي أرتدي ملابس واسعة كثيرًا ولا تصلح لي. كنتُ قلقًا للغاية وحلقي جافّ، ولمّا مررت إلى جانب قهوة ووجدت كوبًا من الماء على الطاولة الخالية، شربته دون تردّد.

ثم رأيت في تلفزيون القهوة أعضاء مجلس الشعب وهم يصوّتون على قانون الدعارة الجديد. كان الناس جالسين يتابعون ما يحدث في صمت أبله، ولا بدّ أنّ عشرات الأفكار والمشاعر تلاطمت في رؤوسهم؛ نعم سيصير للعاهرات نقابة، نعم سيكون هناك ترخيصٌ لمزاولة المهنة، نعم قد

تقوم أختي أو زوجتي بالعمل في بيوت الدعارة، نعم سأقتلها إن اكتشفتُ ذلك، نعم سيُكتب في البطاقة الشخصية «المهنة: عاهرة»، نعم، كلّ هذا بسبب الاحتلال، نعم، كلّ هذا بسبب الجيش المتخاذِل، نعم، كلّ هذا بسبب المقاومة المتهوِّرة، نعم، كلّ هذا بسبب الساورا، نعم، نحن شعب معرَّض، نعم، لا حلّ إلّا الدعارة، نعم، القانون سيحميهنّ، نعم، الشرطة ستحميهنّ، نعم، سيكون هناك متّسع لي لتجربة بُرعي الصغير مع أنثى بدلًا من تجربته منفردًا، نعم عليَّ أن أصنِّع الواقيات الذكرية في غرفتي لأنّها ستباع بالملايين، نعم، أعضاء مجلس الشعب لعام 2024 قوّادون. وفكّرتُ أنا أنّ العاهرة التي تركتها خلفي لن تتعرَّض لمواقفَ شبيهةٍ بعد اليوم.

كنتُ من أوائل مَن اعترضوا على تقنين الدعارة، ولم يكن موقفي هذا بدافع الإيمان أو التمسّك بالأخلاق الحميدة وما إلى ذلك، كانت حجّتي المُعلنة أنّ من المستحيل إقامة عَلاقة بين اثنين خالية من الحبّ. عندما أعلنتُ هذا الرأيَ أوّل مرّة أثار ضحكًا ماجنًا بين المحيطين بي، زملاء الداخلية سابقًا والمقاومة حاليًا، والأصدقاء القليلون، والجالسون على القهاوي ولا أعرفهم، كلّهم حافظوا على ردّ فعل ثابت، كلّما أعلنته، تلقّيت تعليقاتٍ ساخرةً تصل إلى حدّ الإهانة، خصوصًا إذا كنتُ في اجتماع خاصّ بالمقاومة. حالة الإيمان بقضية الوطن كانت حجّة معلنة أيضًا؛ كنتُ أتساءل عن كيفية مقاومة المحتلّ دون أخلاق، نعم، لم أكن مؤمنًا بالفكرة ولكنّها بدت أكثرَ قابلةً للتصديق من فكرة الحُبّ، مع ذلك، أثارت فكرة الأخلاق ضحكًا أشدَّ مجونًا. الحفاظ على مصر والدولة والأخلاق والحُبّ حججٌ نبرِّر بها جميعًا رغبتنا في القتل والتفجير والتخريب، لكنّها لن تكون أبدًا حجّة لمنع الدعارة، بل هي حجّة لتقنينها والاهتمام بها. من أجل تنشيط السياحة وصون أعراض الشريفات. لم نكن يومًا ننظر إلى الناس إلا على أنّهم مجرمون محتملون، حتّى الصامتون كانوا عُرضة لأن ينقلبوا إلى الجانب الآخر المُعترض والمخالف للقانون وللدولة، عندما

كانت هناك دولة. وبدا لي أنّ السخرية المريرة من حجّتي الرومانسية والأخرى الأخلاقية كانت إعلانًا صريحًا لمواقف الزملاء الخالية من أيّ منطق أو عقل، كلّ منّا يعلن عن حجج سخيفة وجميعنا نضمرُ أسبابنا الخاصّة. والحقيقة أنّي لم أجد سببًا حقيقيًا أو مُضمرًا يجعلني أعترض على تقنين الدعارة، ربّما كان اعتراضي آليًّا لا فكرة من وراءه.

كانت هناك حملة إعلامية منظّمة لتمرير الأمر بين الناس ولضمان عدم اعتراضهم. تمّ إسكات رجال الأزهر والأكاديميّين والمثقّفين تمامًا، هؤلاء أكثر الناس زيفًا وادّعاءً، وتناقضاتهم كفيلة بإفساد أيّ قضية يقفون في صفّها. بينما تُرك العِنان للإعلاميين ليقتربوا من الموضوع بخطًى بطيئة، قارنوا بين مضار التقنين وفوائدِه، أذاعوا حلقات تلفزيونية عديدة تقارن بين تجارب الدول الأوربيّة وبين تجربتنا المصرية، وعرضوا إحصائيّات في الصحف والإذاعة والتلفزيون تُظهر بجلاء انحسار جرائم الاغتصاب وهتك العرض والإخلال بالأمن والسرقة بالإكراه في الدول التي قنّنت الدعارة، وتمّ سردُ تاريخ طويل من الاستقرار والهدوء والعَلاقات المتّزنة بين الشباب الذين جرّبوا الجنس هناك، فلم يعد الجنس هاجسهم بل حلّت محلّه عوامل أخرى تدعو للزواج، كشخصية الطرف الآخر واهتماماته ومدى صبره واجتهاده في الحياة، وتمّ ربط كلّ هذا بقلّة معدلات الطلاق في الدول التي تقنّن الدعارة، وبالطبع أُضيف الهلع المصري الأصيل إلى كلّ ذلك؛ الخوف من الانفجار السكاني، وبالطبع تمّ التأكيد على أنّ الدعارة ستقلّل الزيادة السكانية كثيرًا. كان الإعلاميّون بستراتهم اللامعة ووجوههم الحليقة وشعورهم المزيّتة يأكلون الناس أكلًا، هؤلاء المزيّتون أيضًا في محاولات حثيثة لطمس هُويّاتهم وإحلال هُويّات مقاربة أو مطابقة لهُويّات الإعلاميّين، أَسْمَاكٌ مُزَيَّتَةٌ تأكُلُ فرائِسَهَا المُزَيَّتَةَ. ثمّ اكتشف أحدهم أنّ الدعارة كانت مقنّنة في العهد الملكي لكن لا أحد يتكلّم عن ذلك، كنّا متحضّرين إلى درجة هائلة في النصف الأوّل من القرن العشرين؛

كنّا نسمح بالدعارة، وكان رجال الشرطة الشرفاء يُشرفون على العملية كلّها بصفتهم المحافظين على القانون، لكنّ انقلاب سنة 52 العسكري أطاح بكلّ تلك الحضارة ورمى البلاد في هُوّة الظلام والتأخُّر. وتعجَّبتُ كثيرًا، متى أصبح الإعلاميون على يقين من كون ثورة 52 انقلابًا عسكريًّا؟ هل تغيَّر التاريخُ دون أن أعي؟

لكن يبدو أنّ البداياتِ السيّئة لا تعني أنّ الأمر كلّه سيئ.

خلال الشهر الأوّل افتتحت عدّة بيوت للعاهرات، كانت الإعلانات توزَّع يدًا ليد في الشوارع، وانتشرت لافتات أنيقة مضيئة على كلّ بيت تعلن عن اسم البيت ورقم الترخيص، وشغلت البيوت مبانيَ صغيرة كاملة، كلّها في شوارع ضيقة وحواري صغيرة متفرّعة من شارع شريف في وسط القاهرة الشرقية، وخصوصًا في منطقة البورصة وما حولها، كانت معظمها بيوتًا مهجورة بلا سكّان وفي حالة سيّئة للغاية، وبدا أنّ البيوت الحزينة ستحوي حزيناتٍ أيضًا، لكنّي عندما دخلتُ أوّل بيت بعد عدّة شهور اكتشفتُ أنّ الأمر مختلف جدًّا.

المدخل كان مكيّفًا وباردًا على عكس الشارع الحارّ، والسلم نظيف ومغطًّى بالسجّاد ليعطيَ إحساسًا بالراحة بدلًا من صلابة الرخام القاسية، في الطابق الأرضي باب نصف مغلق عليه لافتة مكتوب عليها «الأمن» وإلى جانب الباب سهمٌ يشير إلى أعلى مكتوب عليه «إلى أعلى»!

سيْلٌ من النازلين واجهني، وسيْل صعد معي درجَ هذا البيت، وكلٌّ كان مشغولًا بالنازلين والطالعين أكثر من انشغال الغرف بالزبائن والعاهرات، كلُّهم يحدِّق في الأرض ويهرب من تلاقي العيون، نظرتُ في وجوه الجميع بحسن نيّة لكنّ أحدًا لم ينظر في عينيّ، رجالٌ يصعدون حاملين أكياسًا وحقائب وآخرون يصعدون دون أحمال، شباب وكهول وشيوخ، جنود من جيشي فرسان مالطا، وضبّاط شرطة مصريون حاليّون، وآخرون سابقون عرفتهم من عيونهم المنكسرة، رجال بملابس رسمية وأحذية

لامعة، ورجال بملابس بسيطة أو رياضية وأحذية متربة، يدور خجل وانكسار بينهم، ولا أثر لهرمون الذكورة المتوقَّع تفجُّره وسط الجميع، هؤلاء خصيان أتَوا تلبيةً لنداء الشهوة دون شهوة.

في الطابق الأوّل وجدت أربعة أبواب مفتوحة، باب لكل شقّة، دخلت الشقّة الأولى لتدهشني الأضواء التي تُظهر ملابس العاهرات الداخلية وكأنّها مضيئة، والعاهرات يقفن أمام أبواب الغرف لا يرى الواحد تفاصيلهنّ لكنّ الأكيد أنّ الأجسام جميلة متناسقة. في ذلك اليوم دخلت جميع الشقق في المبنى، وتأملتُ كلّ واحدة واقفة تنتظر أمام باب غرفتها، وأدهشني التنوّع الذي لا حدود له؛ سمراوات وشقراوات، مصريات وأجنبيات، نحيلات وسمينات، ارتدين ملابسَ أكثرَ تنوّعًا من أشكالهنّ؛ أزياء ممرضات بيضاء من بلاستيك لامع، وأخرى لأفراد العصابات لامعة أيضًا، وملابس داخلية من قطعتين ومشدّات صدر كبيرة وصغيرة، وأزياء ذات ريش ملوّن وخرز لامع وأنوار صغيرة تضيء وتنطفئ، وقمصان رجال على اللحم دون أيّ شيء أسفل منها تهيِّج أكثر من غيرها، وجلاليب رجال صعيدية تُظهر مفارق الأثداء مثيرة تحفز على العصر، وزيّ عمّال مصانع من قطعة واحدة قصير للغاية ضيّق للغاية، ومشدّات صدر من نسيج ناعم جدًّا يُظهر الحلمات بارزة منتصبة، وزيّ سوبر مان وندر ومان، وزيّ شرطي وعصا سوداء في الحزام، وزيّ ضابط جيش وبندقية بلاستيكية معلّقة بالكتِف، وزيّ ضباط جيشي فرسان مالطا المميز، وزيّ صيّاد إنجليزي في إفريقيا وسوط أسود قصير في يدها، وزيّ فلّاحة واسع لكنّه قصير جدًّا، وزيّ قاضٍ ووشاحه ورديّ لامع، وزيّ طالبة مدرسة وضفيرَتَين ونظّارة بلاستيك ضخمة، وزيّ رجل من أوّل القرن العشرين ببدلة سوداء وطربوش وشارب رفيع منمّق على وجه أنثوي بالغ الجمال، والكثير الكثير من الملابس الداخلية وقمصان النوم مرّة ثانية وثالثة ورابعة.

وفي الطابق الخامس تجمّعت كلّ الشواذّ؛ أسواطٌ حقيقية تفرقعُ في الهواء

كلَّ دقيقة، وعِصيٌّ كهربائيّة تئزُّ وتومض بشراراتٍ زرقاءَ خافتة، وأحذيةٌ ذاتُ كعوب عالية جدًّا سميكةٌ ونحيلة، ومشدّاتُ صدر كأصغر ما يكون وقضيبٌ صناعيٌّ أسودُ اللون منتصب، ترتديه العاهرةُ وتحرِّكه لتغرِيَ به المارّين، وتاجٌ من الريش الأحمر والأصفر والأسود وذيل من عدّة ريشات طويلات جدًّا يظهر خلف الجسد، ولمَّا حدّقت ولم أجد أيَّ أربطة جلدية كي يربط بها الذيل استدارت العاهرة وانحنت لأجد أنّ الريش مثبّت في قطعة بلاستيك سوداء خرجت من إستها. وفتيات بصدور مسطّحة وأرداف هائلة، وأخريات بأثداء كبيرة وأرداف هزيلة، وشابّات كأنّهنّ بلغن البارحة وسيّدات يبدو من ترهُّل أثدائهنّ أنّهنّ أرضعنَ عدَّة أبناء. وفي النهاية كنتُ قد رأيتُ كلَّ شيء، ولم أرغب في واحدة منهنّ.

نزلتُ الدرج ومشاعر كثيرة تغمرني، أسرعتُ وكأنّني أهرب من عشرات الأجساد الأنثوية التي لم تترك أيَّ أثر في نفسي، وعند الطابق الأرضي رأيتُ فريدة لأوَّل مرّة، ولسبب أجهله علمتُ أنّي سأنام الليلة معها.

كانت تصعد الدرج بملل حقيقي، ترفع حقيبة ربّما تحوي ملابس أو أزياء تنكُّرية كالتي رأيتها في الأعلى، وقفتُ أحاول التقاط ملامحها، وابتسمتُ لأنّي فكَّرت كالمراهقين تمامًا، هذه فتاة ستترك المهنة السيّئة وستتزوّجني لأنّها ستحبّني وسأنسى ماضيها البغيض وستتغاضى هي عن كلّ سيّئاتي. لكنّها لم تحدِّق في وجهي، كنتُ واحدًا آخرَ ممّن يصعدون وينزلون السلالم في شارع شريف.

قالت لي فريدة في ما بعدُ إنّها ظنّت أنّي أنهيتُ ما جئتُ من أجله، ولذلك لم تنظر إليَّ بخلًا بنظرة زائفة ترسلُها إلى الزبائن كي يلتفتوا إليها، لم تكن فريدة على قدر وافر من الجمال؛ لها جسد نحيل، وبشرة سمراء شاحبة توحي بالمرض المزمن أو سوء التغذية، وجسد صبياني إلّا من مؤخّرة عريضة تصلح لأن تكون لجسد آخر غير جسدها. لكنّ الشعر القصير أسرَني، كذلك الوجنتان البارزتان والوجه المستطيل كأنّه وجهٌ فِرعونيّ.

توقَّفَت وحدَّقَت في من نزل خلفي، وسمعتُ خطواتِه البطيئة على الدرج مكتومةً بفعل السجّاد، ولمّا لمحت بوادر ابتسامة سخرية لا إغواء مرَّ الرجل من جانبي؛ شيخ قصير أصلع، يحمل كيسًا ضخمًا يحوي دُمى أطفال عديدة، ويني ذا بو وبيجلوت وتيجر ورابت، وشخصيّات أخرى لا أعرفها، وقلوب حمراء كالتي تُباع في عيد الحُبّ، كلّ هذا يكاد يقفز من الكيس الضخم، ونظرتُ أنا إليه متعجّبًا غاضبًا من إفساده الموقف، ونظرت هي إليه بملَل وهو يمرُّ من جانبها، قالت: «الرجل يبحث عن مربّية!».

صعدت إلى الطابق الأوّل فلحقتها، ودخلت إحدى الشقق ثمّ غرفة في آخر الشقّة، وانتظرتُ محاطًا بنظرات العاهرات الزميلات قبل أن تخرج هي في زيّ يغطّي جسدها بالكامل، كان ثوبًا رقيقًا جدًّا نصفَ شفّاف، منسوجًا من خيوط سوداء نحيلة، تمامًا كجوارب النساء الخفيفة نصف الشفّافة، يُظهر زيّها نحول ساقيها وخصرها، وانحناءة عجيزتها العريضة، واستدارة ثديَيها الصغيرين الخجولة وهي تغطّي بساعدها الحلمتَين راضخةً لتعليمات الأمن التي تمنع إظهارهما خارج الغرف منعًا باتًّا، وكفّ ذراعها المسترخية تصل إلى فرجها لتغطّيَه، ورقة توت كبيرة توحي بقدمين كبيرتين. سأرى لاحقًا الثديَين عاريَين تمامًا، وسألاحظ أنّ ثديَها الأيسر تنقُصه الحلمة، وسأرى ندبة صغيرة مكانها. كانت هذه أذكى حيلة في المبنى كلّه، هي عارية وليست كذلك، ترتدي شيئًا يكشف جسدَها كلّه لكنّها تغطّي ما قد يُرى واضحًا، أنثى ناضجة لكنّها نحيلة نحول مراهِقة، سمراء شاحبة لكنّ شعرها يتألّق في الظلام، وجهها منحوت كوجه صبيٍّ لكن شفتَيها مُثيرَتين.

هذا الخليط الغريبُ؛ الجسد الواقع بين قوام الصبيّ وطراوة الفتاة، الهالة التي تصل البساطة بالغواية، أسكرني تمامًا.

دخلتُ الغرفة خلفَها، وشكرتُ في سرِّي قَوّادي مجلس الشعب لدورة 2024، الذين يضَحُّون بكلّ شيء من أجل إمتاعنا بتلك الفراشات.

7

لا بُدَّ أنّ القدِّيس رافقني حتى الشارع حيث يقع البيت. كنت أرى ظهره وهو يبتعد عنّي. التفت إليَّ، وابتسم مُلوِّحًا ثم مضى مسرعًا في طريقه. ما قبل ذلك لا أذكر منه شيئًا، وما بعد ذلك لا أذكر منه شيئًا. لكنّي أذكر جيّدًا استيقاظي وقد تخلَّصتُ من كلّ التعب والإرهاق، كأنّي بدَّلت عظامي وعضلاتي في أثناء النوم.

حام برهان حولي، ونسيم ناعم ناتج عن ضرب أجنحته للهواء داعب وجهي. كنتُ في حالة رائعة من البهجة وبدا أنّ كلّ المشاكل قد اختفت، لم تُحلّ وإنّما اختفت تمامًا بلا أثرٍ أو رجعة. وكأيّ متعاطٍ للكيف نسبت هذا التأثير العظيم للكربون الذي شربته البارحة. على السرير قرب رأسي استقرّ التليفون، أتاني نور الشمس مبهرًا، أمسكت به وعلمت أنّ الساعة تقترب من التاسعة صباحًا، لفت انتباهي تغيُّر في محتويات التليفون، لاحظت وجود أيقونة جديدة على شاشته؛ رمز مفتاح صول الموسيقي، والأيقونة نفسها تحمل اسم أبادير. ضغطتُ عليها فانفتحت قائمة تحوي ملفّات عدَّة، من أوّل نظرة أدركت أنّ هذه ملفّاتُ صوتٍ، أغانٍ أو موسيقى، مرَّرت طرف إبهامي على الشاشة لأجد ملفًّا باسم «تحت صلابة المواسير» ولوهلة كدتُ أسخر من العنوان المفتعل، لكنّ صوت الموسيقى رنّ في رأسي، هذه هي الموسيقى التي سمعتها البارحة، أضافها القدِّيس إلى التليفون كما قال. شغَّلتُ المقطوعة ثم أخذتُ أبحث عن السماعة التي وعدني بها، سمعت صوت اصطدام برهان بشيء ما، ولمَّا التفتُ رأيته مستقرًّا على الطاولة والسمّاعة بجانبه. وحالما أمسكت بالسماعة طار وهو يتشقلب في الهواء، فأوصلتُ السمّاعة بالموبايل وأتاني الصوت واضحًا نقيًّا.

مرَّت ساعةٌ كاملة، استمعتُ إلى ثلاث مقطوعات من موسيقى أبادير، كنت عالقًا تحت قصف الطبول المدوّي، كأنّ عشرة طبول ضخمة تُقرع في توالٍ، بين كلّ طبل وما يليه عُشر ثانية لا أكثر. ثانية كاملة من ضربات

متتالية متّصلة، هذا ما لم أسمعه من قبل قطّ، وتخيّلت خنزيرًا صغيرًا مستسلمًا لماسورة رجل غليظ يتلقّى الضربات دون أن يحاول الهرب، ثم يهمس طالبًا الماء. وتخيلتُ الرجل يترك الماسورة ثم يأتيه بماءٍ ويسقيه، وبعدما يرتوي الخنزير يتابع الرجل ضربه حتّى الموت. هل هذا أيضًا من أثر الكربون؟ صار الموت عندي غريبًا.

اتصال القدِّيس قطع الموسيقى فجأة، وجاءني رنين التليفون مدوّيًا عبر السماعة. قال لي إنّه ينتظرني أسفل البيت فطلبت منه الصعود وانتظاري ريثما أرتدي ملابسي. أنهيت الاتصال وحاولتُ تذكُّر ما حدث مع القدِّيس الليلة الماضية، لم أتذكَّر كيف أضاف الموسيقى إلى التليفون، ولم أتذكّر ما تحدّثنا فيه بعد ضربة الكربون الثانية.

فتحتُ باب الشقّة وعدتُ إلى الداخل كي أستحمّ. ملابسي كلّها متّسخة، أخذت أتحسّسها وأشمّها لمعرفة الأقلّ اتّساخًا منها، تخيَّرتُ عدّة قطع وتوجّهتُ إلى الحمّام عندما دخل القدِّيس وحيّاني بابتسامة، وجلس يتابع برهان.

تحمَّمتُ وخرجتُ لأجد برهان يطير في فضاء الصالة، على حافّة دائرة متخيَّلة مركزها القدِّيس الواقف يراقبه كلّما مرّ أمام عينيه.

قال القدِّيس: «إنّي أختبره، يبدو أنّ لا مشاكل في أجنحته أو أيّ من أجهزته. برهان على ما يرام».

سألته: «هل عليَّ أن أختبره أنا أيضًا؟».

قال لي: «لا، على كلّ حال مهمّة برهان ستنتهي قريبًا، لن تحتاجه بعد الثورة». تعجّبتُ من يقينه بحدوث ثورة، لم أعلّق كي لا أدخل في جدل طويل حول الشعب والثورة والدولة والاحتلال. كنتُ قد مللتُ كلّ هذا منذ مدَّة.

قال القدِّيس: «كيف حالك اليوم، هل أعجبك الكربون؟».

قلت: «بالتأكيد، لكنّي لا أفهم تأثيره تمامًا، أريد أن أجرّبه مرَّة أخرى».

قال القدِّيس: «تعني أنّك لا تريد أن تذهب لنشتريَ حشيشًا؟». ثم ابتسم: «ستترك المزاج القديم وتبدأ في ضرب الكربون؟».

قلت: «لا أعلم بعد، قلت لك إنّي لم أفهم تمامًا ما حدث لي وأودّ أن أختبر هذا الشعور مرَّة ثانية، لكنّك لم تقل لي، ممّ يُصنع الكربون؟ وهل يُصنع في معمل؟».

اتّسعت ابتسامته: «هو يُصنع في معامل فعلًا، لكنّها ليست معامل أنيقة نظيفة كما تتخيَّل، على كلّ حال يمكننا الذهاب إلى معمل كربون، هناك واحد عند سفح جبل المقطّم، سنستقلّ سيّارة مدّة ربع الساعة فقط». بالتأكيد معامل الكيف وسخة يا حضرة الضابط، يظنّني مستجدًّا!

قلت: «وهل سيسمحون لنا بالدخول؟ هل سيسمحون لضابطَي شرطة بالاطّلاع على ما يحدث في الداخل؟».

قال القدِّيس: «يبدو أنّك تنسى أنّنا لم نعد ضبّاطًا، هم لا يعلمون شيئًا عنّي سوى أنّي صديق صاحب المعمل، بالمناسبة صاحب هذا المعمل ضابط سابق أيضًا».

سألته: «في المقاومة؟».

قال: «لا، هذا قرَّر أن يترك كلّ هذا الخراء ويستثمر في الكربون فقط، لا يعيش إلا للكربون».

قلت: «طيب، لا مانع من زيارة المعمل، دعك من الحشيش ولنحاول فهم الكربون. مرَّة أخرى، ممّ يُصنع؟ هل هي زهرات نبات ما أم أوراقه؟».

قال: «سترى كلّ شيء بنفسك...».

نزلنا معًا، ومشينا قليلًا حتّى خرجنا من الحواري والشوارع الضيّقة، ووصلنا أخيرًا إلى شارع الأزهر المزدحم بالسيّارات ورصيفه المزدحم بالمارّة. قال القدِّيس: «سنركب تاكسي». لم أردّ والتفتُّ إلى يساري منتظرًا مرور تاكسي شاغر. عندما لاحظتُ تجمهرًا على بعد مئة متر، كان الناس قد تجمَّعوا على الرصيف وعلى جزء من الطريق نفسه، فأصبح الطريق

الضيّق أكثر ضيقًا، وأخذت السيّارات تمرّ بصعوبة بالغة من مساحة صغيرة تركها الناس خالية. كان الناس يرفعون رؤوسهم نحو كوبري الأزهر الذي يرتفع فوق منتصف الشارع ويمتدّ موازيًا له. لم ألحظ ما يثير الاهتمام، لكنّ القدِّيس ربَّت على كتفي وقال: «تعال لننظر ماذا يحدث هناك».

على الكوبري وقف رجل عاريًا تمامًا، يرتدي قناعًا أصفر، أدركت بعد ثوانٍ أنّه قناع سبونج بوب، أصفر ومربّع وبعينين بيضاوَين وابتسامة طفل، وبه فتحة في منتصفه تظهر وجه الرجل واضحًا لنا وهو يبتسم. كان الرجل يقف والسيّارات تمرّ خلفه مسرعة، يستند ببطنه ومرفقيه إلى سور الكوبري الحديد، يبصق على الناس ويرعش وسطاه في وجوههم ويبتسم، وإلى جانبه ظهر حبل سميك معلَّق طرفه في سور الكوبري المنخفض، وطرفه الآخر أنشوطة في رقبة الرجل، كان الرجل قد أعدّ مشنقته الخاصّة هائلة الحجم؛ كوبري الأزهر. كان الناس يشتمونه ويشخرون له، ويردُّون ارتعاشة وسطاه بارتعاشات مماثلة، ولمَّا ضحك ولوَّح لهم ضحكوا ولوَّحوا، ولمَّا أشار بسبّابته ووسطاه علامة التدخين قذف أحدهم علبة سجاير إليه فالتقطها الرجل بمهارة، ثم أخرج منها سيجارة ووضعها بين شفتَيه، ثم أشار بإبهامه يريد قدّاحة فرمى واحدٌ قدّاحة إليه، أشعل الرجل السيجارة وأخذ يدخّنها بهدوء. ثم رفع ساقه ومرّرها فوق سور الكوبري، ووضع قدمه بحرص بالغ على طرف السور الخارجي، ثم مرّر ساقه الثانية ووقف ممسكًا السور بكلتا يدَيه ريثما يحفظ توازنه ثم تركه وأمسك قضيبه المرتخي ثم أخذ يتبوَّل على الناس والسيجارة في فمه، وبدا لي أنّه أغلق عينه اليمنى بعدما لسعها دخان السيجارة، ثم قفز.

أخذ جسد الرجل يتأرّجح بشدَّة، وارتخت ذراعاه إلى جانبه، وانساب البول غزيرًا من قضيبه، وجرّح الحبل الخشن رقبته فجزَّها وأخذ الجرح ينزف بغزارة ليغطّي الدم صدره وبطنه ويختلط ببوله ويسقطا على الأرض وعلى الواقفين. نظرتُ إلى الجمهور فوجدتهم واقفين يُحدِّقون في تركيز

بالغ بالجثمان المتأرجح، يتساقط الدم على وجوه بعضهم فلا يعيرونه اهتمامًا، ورفع واحد منهم يده ليمسح قطرات من الدم سقطت على عينه ثم تابع التحديق في الجثمان. كانوا صامتين لكنّهم غير مأخوذين بما يرونه، كطلبة يتابعون محاضرة رغبة في الفَهم.

كانتِ السيجارة لا زالت معلَّقة بين شفتَي الجثمان، مشتعلة يرتفع دخانها قرب قناعه، استقرّت هناك على الرغم من تأرّجح الجثمان الشديد، وفكَّرتُ أنّ طرفها التصق بشفَتي الرجل كما يحدث عندما تُترك السيجارة لدقائق طويلة بين الشفتين. كانتِ السيجارة لا تزال مشتعلة حينما رأيت أوّل حجر يقذفُ نحو الجثمان.

ثم تابع الناس الرجم، فرجموه بحجارة الطريق وبأخشاب وأكياس زبالة مكوَّرة وأحذية وحبّات طماطم، وبعد دقيقة سمعتُ صوتَ إطلاق نار، والتفتُّ خلفي لأجد أحدهم يوجه مقروطة نحو الجثمان ويطلق النار مرّة أخرى وثالثة ورابعة، ثم أدركتُ أنّه لا يصوِّب نحو الجثمان، وإنّما يصوّب نحو الحبل يريد قطعه. كان الحبل يتدلّى من أسفل سور الكوبري، ولا يمكن لأحدٍ أن يقطعَه وهو واقف على سطحه أبدًا.

ثم رفع الكثيرون مقاريط وأخذوا يطلقون النار على الحبل، وتناثر الخرز الرفيع فأصاب الجثمان والحبل والكوبري وارتدَّ عنه ليصيب الواقفين الذين لم يتحرَّكوا. وأصبح الجثمان مزركشًا بخرز كثير، ثم انقطع الحبل وهُرع الناس نحو الجثمان.

أمسك القدِّيس ذراعي وشدَّني مبتعدًا عن التجمهر، قال لي: «علينا أن نهرب من الزحام، لن يمرّ تاكسي في هذا الشارع إلّا بعد ساعة على الأقلّ... هل كان على الرجل أن ينتحرَ في هذا التوقيت بالذات؟».

قلتُ: «أيّهمك التوقيت إلى هذا الحدّ؟ الرجل انتحر، وانتهى الأمر».

قال: «بالتأكيد يهمّني، الرجل خسر الدنيا والآخرة وهو حرٌّ في ذلك، لكنّه أخطأ حتمًا بسبب ما سيتبع انتحاره من زحام».

رأيتُ كلام القدِّيس منطقيًا، لكن عبارة «خسر الدنيا والآخرة» لم تكن كذلك، قلت له: «معك حقّ، والرجل خسر الآخرة فعلًا، لكنّه حتمًا لم يخسرِ الدنيا، كيف يمكن خسارة ما نحن فيه من خراء؟».

ضحك القدِّيس وقال: «هناك متعٌ في الدنيا بالتأكيد، الحياة ليست خراءً كاملًا، بل ربّما نحن في جنّة ولا ندري!».

فكَّرت أنّ القدِّيس كان يختبر إيماني عندما قال إنّ الرجل خسر الدنيا والآخرة، هل تختبرني يا قدّيس؟ أنا لا أحبُّ هذه الألعاب يا صاحبي. كنّا قد مشينا في شارع الأزهر وابتعدنا كثيرًا عن التجمهُر، واختفتِ السيّارات تمامًا من الشارع. حينما قال القدِّيس: «حتّى في أقسى السجون هناك متعة، في أمنِ الدولة متعة يا باشا! ولذلك لا ينتحرِ النَاس في السجون أبدًا!».

القدِّيس طيب القلب حقًّا، أو هو يتكلَّم ويضمر ما لا أفهمه، لكنّ الانتحار وأمن الدولة ذكَّراني بـ «أزمة أمن الدولة» التي كانت رائجة بيننا منذُ سنوات. سألتُ القدِّيس عنها فنفى أنه سمع بها من قبل. كنَّا قد اقتربنا من مسجد الحسين، والزحام المعتاد يشغل الرصيف القريب من المسجد.

قلت للقدّيس: «هذه مشكلة نظرية شهيرة بين الضباط ولا أعلم كيف لم تسمع بها من قبل، سمعتها قديمًا في محاولة للإجابة عن السؤال الكبير؛ لم لا ينتحر الناس في السجون؟ وربّما اختلقها ضابط مثقّفٌ محاولًا تقديم سبب لموضوع الإعراض عن الانتحار هذا. يُقال إنّ ثلاثة من السلفيّين كانوا محتجزين في مبنى أمن الدولة، محمّد ومحمود وأحمد، يُعذَّبَون كلَّ يوم بشتَّى الطرق والوسائل. ثم يعودون إلى زنزانة واحدة يبيتون فيها إلى الغد كي يستيقظوا ويتجدَّدَ عذابُهم. ظلّوا تحت العذاب مدّة طويلة، وفي إحدى الليالي أيقظ محمّد زميلَيه من النوم فرحًا سعيدًا، وأخبرهما بأنّه وجد حلًّا لأزمتهم الرهيبة. قال محمّد إنّهم يذوقون عذابًا لا قِبلَ لهم به، وهم لا يُضمرون أيّةَ معلوماتٍ سرّيةٍ كي يعترفوا بها، والحقيقة أنّهم جميعًا على أتمِّ الاستعداد للاعتراف بأيِّ شيء. لكنّ المعذَّبين لا

يعلمونهم بفحوى الاعتراف المطلوب. ولهذا يظنّ أنّ المعذَّبين يفعلون ذلك للاستمتاع فقط».

قاطعني القدِّيس ضاحكًا: «طيّب، ها هو واحد سلفي يدرك أنّ بعض الضبّاط يستمتعون في أمن الدولة، ألم أقل لك إنّنا قد نكون في جنّة ونحن لا ندري؟».

تجاهلته وأكملت: «وعلى هذا قال محمّد إنَّ هذا العذاب سينتهي بموتهم فقط ولا شيء غير ذلك. لهذا، سيتبرّع محمّد بأن يكونَ أوّلَ قاتل، فيقتل محمود، ثم سيقوم أحمد بقتل محمد، وهكذا سيستريحون من العذاب، وبالتأكيد سيغفر الله للقَتَلَة فعلتَهم الشنيعة، التي قاموا بها لرفع العذاب عن أنفسهم».

قاطعني القدِّيس مرّة أخرى: «وماذا عن السلفي الأخير، هل سينتحر؟».

كانت هذه لفتة ذكيّة منه، تابعتُ: «هنا اعترض أحمد، قال إنّهم سيتركونه ليواجَه مصيرًا بشعًا، هو موافقٌ بالتأكيد على أن يقتله أحدهما، لكنّه لن يكون القاتل الأخير ليعيشَ أيّامًا يعذَّب قبل أن يُحكم عليه بالإعدام. وهكذا أخبره محمّد بأنّه إذا أراد فلينتحر، وبالتأكيد سيغفر الله له جرمَه الكبير لأنّه لا يقصد الانتحار حتمًا».

كانت الحماسة قد سيطرت على القدِّيس فقال: «لكنّ هذا غشٌّ! المنتحرُ لا يدخل الجنّة أبدًا! حتّى لو انتحر لغرض شريف كهذا».

كدتُ أسأله إن كان هذا غرضًا شريفًا حقًّا، لكنّي تابعتُ: «وكان هذا اعتراض أحمد أيضًا، قال إنّه لا يجرؤ على الانتحار، وحتّى لو سمع فتوى صريحة تبيح له ذلك فلن يفعل، وأعلن مرّة ثانية أنّه على استعدادٍ لأن يُقتل الآن بيدِ أحد رفيقَيه، لكنّه لن يُترك للنهاية أبدًا».

صمتُّ لحظات، انتهت الحكاية لكنّ القدِّيس يبدو أنّه لم يفهم ما أقصده تمامًا، سألني: «ثم؟ ماذا حدث للثلاثة؟».

فقلتُ: «لا شيء، لم يقتل أحدهم الآخر، وظلّوا تحت ضربات العذاب

حتّى اليوم، الخلاصة يا باشا أنّ المساجين لا ينتحرون لأنّهم يرغبون في حياة أفضل عند خروجهم من السجن أو ربّما بعد موتهم، أو ربّما لأنّ حياة السجن أفضل من الحياة خارجه». أشعلت سيجارة وتابعتُ: «أتعلم أنّ السلفيّين يؤمنون بأنّ العذاب الواقع عليهم في السجون هو نوع من التطهُّر من الخطايا؟ هم يظنّون أنّهم سيدخلون الجنّة في النهاية جزاءً لهم على صبرهم في الدنيا، ببساطة نحن من سنُدخلهم الجنّة بأفعالنا. وبالتأكيد هم يعتقدون أنّهم إذا قتلوا من شدّة التعذيب فهم شهداء، وإذا قُتلوا برصاصنا فهم شهداء، سيدخلون الجنّة بلا حساب».

سألني القدِّيس مبتسمًا: «وهل سيدخلون الجنّة حقًّا؟».

أجبته: «بالتأكيد لا! هؤلاء آلات قتل مجنونة لكن من دون سلاح، فقط أعطِهم سلاحًا ثم انظر ماذا سيفعلون».

اختفت ابتسامة القدِّيس ونظر إلى الأرض متابعًا المشيَ. تخيَّلتُ لحظة أنّه يفكّر في كلامي الأخير وفي ما كنت أفعله طوال تمركزي في البرج، هل مَنْ قتلتهم سيدخلون الجنّة حقًّا؟ هل أنا ملاك الرحمة الذي يرسل الناس إلى الفردوس؟ هل قتلتُ يومًا مَن يستحقُّ القتل؟ أم أنّي كنت مجرَّد أداة لتخليص الناس من الدنيا البغيضة؟ لم أجد ما أقوله، وأدركتُ أنّي كنتُ متناقضًا وصبيانيًّا وأخرق. وأنّي أشبه تمامًا هؤلاء الذين أصفهم بآلات القتل، لكنّي مُنحتُ سلاحًا. وتساءلت عن رأي برهان المستقرّ على كتفي يستمدّ طاقة من حركتي ويخزِّنها.

لكنّ القدِّيس لم يعقِّب، كنّا قد وصلنا إلى شارع صلاح سالم، وعبرناه صامتَين إلى الجهة الأخرى.

مشينا بين المقابر متجهَين نحو منشيّة ناصر، طغى الازدحام على المكان وفكّرتُ أنّ الموتى هنا أكثر من الأحياء، ومع المشاهد الأولى لشواهد القبور أخذتني الرهبة، لكنّي مع كلّ خطوة ومع كلّ شاهد قبر أمرّ عليه كنتُ أعود إلى خانة اللامبالاة، وأصبحت الشواهد مجرَّد حجارة،

والأرض تراب وما تحتَه عظامٌ لا حياة فيها. ملأت رائحة التراب الناعم أنفي، ورأيتُ مجموعتَين من الناس توقّفا عند قبرَين يدفنان جثمانَين، وبكاء ودعاء وصلوات وقراءة من مصاحف وكُتيبَات صغيرة، ووداع وشوق إلى الرحمة لا إلى العدل، ورجاء في لقاء قريب لأنّ الحياة لا تحتمل دون الفقيد، ولأن الحياة لا تحتمل به أيضًا، والحلّ أن نرحل عن هذا العالم طمعًا في آخرَ أقلَّ عذابًا من هذا، الجحيم أقلّ عذابًا من الدنيا، على الأقلّ في الجحيم سنعلم أنّنا نعذَّب، سنكون على يقين أنّنا ندفع ثمن خطايانا هنا، وأنّ الحساب سينتهي بعد مدّة وأنّ القادم أفضل، على عكس ما نراه اليوم وما نحن نعلمه حتمًا؛ القادم أسوأ.

ورأيتُ محاقنَ فارغةً ملقاةً على الأرض، وزجاجاتٍ كثيرةً لعقاقير سعال متعدِّدة، وعظامًا قديمةً وحديثة، ولم أعلم هل هي عظام إنسان أم حيوان. كنّا نمشي والموتى في أكفانهم من تحتنا ينظرون إلينا ويأملون في توقّف ومحادثة ولو ثانية، لكنّنا كنّا متعجِّلَين فلم نتوقّف ولم نحادثهم.

قال القدِّيس دونَ مقدِّمات: «لا أحد ينتحر يا باشا إلّا في حالات قليلة جدًّا، كما قلت أنت، الناس يعيشون على أمل حياة أفضلَ في مكانٍ آخرَ غيرِ هذا، كلّ البشر يتطلّعون إلى الخلود في الجنّة». صمت قليلًا ثم قال: «لكنّ للمنتحر منطقًا أيضًا، إذا كان المنتحر مُلحدًا، فهو لا يتوقّع شيئًا بعد الموت، ولا يعنيه ما سيحدث وكلّ ما يهمّه أن يتخلّص ويتحرّر من هذا العالم، وإذا كان الرجل مؤمنًا، فلا بدّ أنّه يرى نفسه خالدًا في الجحيم بسبب خطاياه حتّى وإن لم ينتحر. في كلتا الحالتين هو ينتحر لأنّه فقد الأمل، فقدَ الأمل في حياةٍ أفضلَ في الدنيا، أو فقد الأمل في حياةٍ أفضلَ في الآخرة، المنتحِر يرى ما نعمَى عنه لأنّه فقد الأمل، ببساطة الأملُ يُذهِبُ بصيرتَنا يا باشا».

هذه أفكارٌ لم تشغلني منذ مدَّة طويلة، أنا مقبِلٌ على قتل جماعي بلا تفرقة بعد عدَّة أيّام. لكنّ القدِّيس، الذي لم يقتل أحدًا أبدًا، هو مَن يفكّر في هذه الأمور. هل فقدتُ إيماني؟

تابع القدِّيس: «ربّما سنرى العالم مختلفًا إذا تأكّدنا أنّنا خالدون في الجحيم يا باشا».

سألته: «والرجل الذي قفز من على كوبري الأزهر، أهو مؤمن أم ملحد؟».

ضحك القدِّيس وقال: «لا أعلم بالطبع، ربّما رأى ما لم ترَ أو علم ما لم تعلم، لا يمكن الحكم على منتحرٍ يتبوَّل على الناس ثم يقفز عاريًا ليشنق نفسه».

كنَّا قد اجتزنا المقابر وظهرت منشيّة ناصر أمامنا، وبدا أنّ القدِّيس قد تعب من المشي، فأشار إلى توك توك كي يوصّلنا إلى الطرف الآخر من الحيّ، قال لي وهو يركب: «سنعبر الآن منشية ناصر إلى سفح المقطّم، اقتربنا كثيرًا ولن يستغرق عبور الحيّ أكثرَ من عشر دقائق».

هذا صحيح، إلى أين ولّت أيّام الانتحار الكلاسيكي؛ الخطاب المكتوب إلى الحبيبة وزجاجة السمّ أو المِشنقة في السقف أو الحبوب المهدّئة أو الشرايين المفتوحة طوليًّا، وبالطبع الاكتئاب الحادّ قبل الانتحار. فريدة لا تزال حاضرة في ذهني وسأراها اليوم حتمًا، ضيَّعتُ أوّل يوم في القاهرة الشرقية لكنّي اليوم بلا مسؤوليّات وسأعود إلى شارع شريف لأبحث عنها. طار برهان من على كتفي فجأةً بعدما كنت نسيته تمامًا، ثم استقرّ على رأس القدِّيس الذي ضحك ولم يعلِّق، وسائق التوك توك نظر إلينا عبر مرآته وابتسم، ثم عاد برهان ليقف على كتفي. ولسبب ما رنَّت جملة القدِّيس في رأسي، وفكَّرتُ أنّ المنتحر والقدِّيس، وربّما برهان أيضًا، يعلمون ما لا أعلم.

توقَّف التوك توك عند ما بدا نهاية العمران، على طرف القاهرة الأقصى، منشيّة ناصر والمقابر وصلاح سالم وباقي المدينة خلفنا، وجبل المقطم الهائل أمامنا، مشينا قليلًا على أرض غيرِ ممهَّدة، وبدا سفح الجبل واضحًا، وراجمات الصواريخ الخاصّة بجيش فرسان مالطا الخامس موزَّعة على

هضبة غيرِ بعيدة عنَّا، لكنّها بعيدة جدًّا عن أيّ عمران أو طريق أو بشر، حولها مساحة واسعة من الخلاء، وسور شائك مكهرَب يقطع بينها وبين الناس. من هنا قصفوا القاهرة الغربية. ونظرتُ خلفي فرأيتُ شبح برج القاهرة بعيدًا جدًّا، تلفّه غلالةٌ من الغبار والدخَان، ولم أعلم إن كان خاليًا أم أن هناك واحدًا منّا يتمركز فيه الآن.

أخذ القدِّيس يصعد على حافّة الهضبة المائلة، استعان بيده مرّة أو مرّتين حتّى يتمكّن من الارتقاء، تبعته وأنا متحمِّس كثيرًا، حتّى وصلنا إلى مصطبة مستوية نحيلة ترتفع فوق الأرض بمتر تقريبًا، بدت وكأنّها مائدة في انتظار الكراسي والطعام، لاحظت أثر الماء على المصطبة الحجرية، وكأنّ السماء أمطرت فوق تلك البقعة فقط ولم يجفّ أثرُ المطر بعد. نزلنا عدّة درجاتٍ نُحتت في الصخر وراء المصطبة، ولاحظتُ تجويفًا في صخور الهضبة كأنّه وادٍ صغير ضيّق دخل فيه القدِّيس وتبعته، وكالسحر رأيتُ بابًا جديدًا وسط الجدار الصخري لونه أصفر كلون الرمال، اتّجهنا إليه. وطرقه القدِّيس، ففُتح الباب ودخلنا.

دهليز ضيقٌ يُفضي إلى غرفة ضيّقة، وقف فيها رجل يحمل كلاشينكوف وزرّ الأمان مغلق، بدا هادئًا تمامًا، لكنّه لمّا رآني فتح زر الأمان وتحفّزت عيناه وسبّابته. رفع القدِّيس كفّه في وجه الرجل وقال: «اطمئن، الرجل معي». لكنّه لم يطمئن، وتشبّث بسلاحه في انتظار التفتيش. انتظرنا ريثما أتى واحدٌ آخر وفتّشَنا باحثًا عن أسلحة، فتّشَنا بدقّة ولطف رجل شرطة دمث، أعرف كفّ رجل الشرطة حينما يفتش دون رغبة في إهانة مَنْ أمامه، ولولا المتشبِّث بالكلاشينكوف لسألته عن رُتبته.

مررنا عبر باب آخر ودهليز طويل، وتفرَّع الدهليز إلى أنفاق ودهاليز عديدة، كنَّا تحت الأرض والحوائط والسقف من صخور المقطم الصُّلبة خشنة تحت اليد خشونة القِدم والثبات. ولا بدّ أنّي تهتُ في تشابك الأنفاق الضيقة جدًّا. فلم أعد أذكر الطريق، وحتمًا لن أستطيع العودة منفردًا. لا سلاح معي ولا أعرف من الناس هنا سوى القدِّيس، حياتي معلّقة بحياة القدِّيس.

قال القدِّيس: «مستعد؟ سندخل أوّل غرفة حيث يتمّ جمع المادّة الخامّ». ثم فتح بابًا واندفعت رائحة عضوية قوية منه.

براميل عديدة موضوعة على الأرض، ورجل يقف وسطها يرتدي حذاءً مطّاطيًّا يرتفع حتّى ركبَتَه وبنطلون جينز ونصفه العلوي عارٍ يُظهر نحوله الشديد. التفت إلينا ثم عاد ليتفحَّص المنخل في يده، ويمرِّرُ أصابعه في ثقب كبير في نسيجه محاولًا قياس قطر الثقب.

بدافع الفضول اقتربتُ من أقرب برميل إليَّ، ونظرتُ فوجدته مليئًا بجعارين صغيرة. مئات الخنافس السوداء عليها طبقة رقيقة من التراب يحاول بعضها الهرب بتسلّق جدار البرميل الداخلي، لكنّها تعود لتسقط داخله منزلقة على الجدار الأملس. تسمَّرتُ أمام البرميل محاولًا إدراك ما يحدث.

أشعل القدِّيس سيجارة عادية، وقال للرجل إنّه سيطفئُها حالًا، ثم اقترب من برميل آخر، وسمعته يقول: «هكذا بدأ المصريون استهلاك الكربون». ثم أدخل ذراعه ممسكًا بالسيجارة في البرميل، وحرَّكه كأنّه يبحث عن شيء ما ثم أخرجه بحرص، التصقت نملة حمراء كبيرة بطرف السيجارة المشتعل، تضرب الهواء بأقدامها الدقيقة تحاول الفرار. رفع القدِّيس السيجارة إلى فمه وعيناه معلَّقتان بالنملة يخشى أن تسقط، ثم سحب نفسًا طويلًا جدًّا، فتجمَّر طرف السيجارة، وتشنَّجت النملة بفعل النار، رأيتها تضرب رأسها بأطرافها الأمامية، سحب القدِّيس نفسًا آخر وتوقَّفت النملة عن الحركة في منتصف النفس. انتشرت رائحة نفَّاذة في الغرفة؛ رائحة نملة حمراء محروقة حتّى الموت. وسحب القدِّيس نفسًا ثالثًا لتنكمش جثّة النملة تمامًا وتصبح مجرَّدَ حبّة سوداء لا عَلاقة لها بشكل النمل المعتاد. أسقط القدِّيس السيجارة وداسها ليطفئها، ثم قال: «هذا أسوأ أنواع الكربون، النمل. أمّا ما شربته أنت البارحة فقد كان أفضلها، الجعران المقدّس عند أجدادنا».

8

كنت أحضِّر السيجارة في الهواء الطلق، نور الشمس الساطع يغطّي جلدي وأشعر بسعادة وراحة غير عاديّتَين، كان صباحًا جميلًا أَنساني ما مرّ من أيّام مملّة وأنا معلّق في السماء.

في قمّة البرج يفكّر الواحد في أشياء مرعبة؛ القفز في النيل، لا بغرض الانتحار بل شوقًا لمعانقة الماء، وأتخيّل أنّي سأنجو بعد السقوط من هذا الارتفاع الشاهق في عرض النيل، سأغطس لأمتارٍ قليلة ثم أطفو مستمتعًا بالماء البارد. وربّما سأسبح ناحية القوارب الخمس وأدقّ عليها بقبضتي متحدّيًا بحريَّة فرسان مالطا ثم أعود سابحًا نحو شاطئ الجزيرة لأجد الرفاق في انتظاري. أفكّر في إطلاق النار عشوائيًّا على الماشين في طريق الكورنيش، هؤلاء لا يعيرون القوارب اهتمامًا وربّما هم موافقون على بقاء المحتلّ، آلاف السيّارات تمرُّ يوميًّا من هذا الشارع وآلاف المارّة، يرون القاهرة الغربية محرَّرة ولا سلطة لجيشي فرسان مالطا عليها، ويعرفون أنّ هناك من يقاوم وقد يضحِّي بحياته لطرد المحتلّ لكنّهم لا يشاركونه، القاهرة مدينة فاسدة حقًّا، كلّما وصلتني أخبار عن التمرُّدات في الدلتا أندهش من الكائنات الداجنة التي تعيش حولي ولا تقاوم. أفكّرُ في إطلاق النار على نوافذ مبنى التلفزيون الذي يسبّح بحمد فرسان مالطا طوال اليوم، التلفزيون الرسمي الحكومي يستحقّ أن يقصف بالقنابل دون تنبيهٍ أو إنذار لمَن في داخله.

أفكّر أنّ جنود الاحتلال سيخافون حتمًا إذا اعتدنا قتلهم ثم شيّهم على الفحم وأكل لحومهم، ربّما سيرحلون لا خوفًا من الموت بل خوفًا من الانتهاء كخراء في مجاري القاهرة، وأفكّرُ أنّ كلَّ ما حدث ويحدث لا مهربَ منه أبدًا لكنّنا لا نزال نقاوم على كلّ حال.

كنت أحدِّقُ في الدرون يبتعد عنّا متّجهًا نحو القاهرة الغربية وأنا أُحكِم لفَّ السيجارة، أتانا منذ قليل بقطعة حشيش أصغر من المعتاد وتعليمات

تؤكّد ضبطَ النفس مدّة أربع وعشرين ساعة، نمتنع خلالها عن ضرب النار على القاهرة الشرقية تمامًا. أدركنا فورًا أن مجموعة من القيادات ستتحرَّك في الشرقية اليوم، وربّما سيمرُّون في طريق الكورنيش أو سيتسلّلون إلى مبنى التلفزيون، وهم يخشَون أن نُصيبهم إذا ما أطلقنا النار، أو يخشَون التشديداتِ الأمنيةَ المعتادةَ بعد كلّ إطلاق نار، الأمر بضبط النفس مفرح كثيرًا ويُوحي أنّنا في انتظار عمل استثنائي للمقاومة. هل سيؤدِّي الضغط المتصاعد لرحيل جيشي فرسان مالطا حقًّا؟ أتخيّلهم حائرين يرغبون في الرحيل لكن لا مكان لهم خارج مصر، ربّما نطردهم ليحتلّوا بلدًا آخر ويقمعوا شعبًا آخر، ولا أهتمُّ لأنّي مللتُ البقاء هنا وأفكّرُ كلَّ يوم في جدوى ما أفعل، وأعود لأفكرَ أن لا طريق آخر سوى الذي أمشي فيه.

مع النَفَس الأوّل أدركتُ أنّ الحشيش مشغول، هذه المرّة كان على غير العادة مخلوطًا بكيمياء كثيرة. لكنّي تابعت التدخين راغبًا في تجربة مزاج مختلف، أنا لا أميِّزُ أنواع الحبوب المخدّرة، ولا أعلم إن كانت هذه حبوب مخدِّرة حقًّا أم شيئًا آخر، لكنّ الأثر كان رهيبًا عليَّ. بعد النفَس الرابع كان مفعول الحبوب قد طغى على تأثير الحشيش؛ استلقيت ممدَّدًا على الأرض في الطابق الأخير، السماء فوق رأسي منيرة، كنتُ متعجِّبًا من ذلك النور الطاغي وتلك السماء الصافية، والأسياخ الحديد المنتصبة المائلة على الطرف العلوي لشرفة البرج تذكّرني بكفّ وحشٍ ذي ألف مِخلب، وتوهَّمتُ أنَّ مخالب الوحش تقبض عليَّ والرفاق وتحتوينا وتحطِّمنا جميعًا دونَ أملٍ في الفرار. كنتُ أنظر إلى مَن معي فأراهم ممدِّدين على الأرض أو يسندون ظهورهم إلى سور الشرفة صامتين، ثم أتتني فتراتٌ قصيرةٌ جدًّا من الوعي الكامل بالأشياء حولي وبما يحدث، ولحظات من انتعاش كامل للحواسّ؛ فأشمّ رائحة دخان الحشيش واضحة تملأ أنفي، ورائحة الصابون الذي غسلت به وجهي منذ ساعتين، ورائحة الدواء الذي دهن به واحد منّا كتفه ليخلِّصَه من الألم. وأسمعُ الأصوات البعيدة تأتيني

واضحة جدًّا؛ صوت انغلاق مصراعي شبّاك مبنى يطلّ على الكورنيش في القاهرة الغربية، وصوت العصافير وقد تجمَّعت على أغصان شجرة هائلة قرب حديقة الحيوان، تزقزق جميعها في هيستيريا لا حدود لها، وصوت شجار في شارع من شوارع إمبابة، عشرون شخصًا تتشابك أيديهم في ما قبل الشجار الحقيقي حيث تسكت الأصوات وتنقطع الشتائم وتظهر الأسلحة البيضاء ويرمي الأطفال والمراهقين الطوب والحجارة على المتشاجرين، ثم سمعت أصوات الخراطيش تنطلق من المقاريط والمسدّسات المحلّية الصنع، وصوت حدَّاد يصرخ غاضبًا في شارع قريب وهو يخرج مقاريط أنهى صنعها البارحة ليضعَها في جوّال ليمدَّ بها فريقًا من المشتبكين في المعركة، وصوت أبواق السيّارات التي تدور في ميدان التحرير في القاهرة الشرقية، تحاول الخروج من دائرة الجحيم تلك، دقائق تروح من أعمار السائقين والراكبين ولا أمل في استرجاعها أو الاستفادة منها. وأرى السيّارات تتحرَّك ببطء لتختفيَ خلف المباني الضخمة في شارع طلعت حرب التي تحجبها للرائي لكنّها لا تحجبُها عن نظري، أراها مجرَّد خطوط خارجية تحدِّد حجم السيارات والمارة وأبعادهما دون ألوان أو ظلال أو مسطّحات، خطوط لا تسمحُ لي بتحديد نوع السيّارة وعدد وهيئات من يركبونها، أرى هياكل أشخاص تمشي خلف المباني لكنّي أسمع أصواتها جيّدًا وكأنّي أمرُّ بينها، خليط لا أستطيع تفكيكه من الكلام والأصوات الآدمية. لكنّ فتراتِ الوعي الفائق تلك كانت تذوبُ ببطء في فترات الانقطاع الطويلة التالية لها، هل كانت تلك حقًّا فترة وعي قصيرة أم أنّني غائب تمامًا وأتوهَّم أنّي أسمع وأرى وأشمّ كلّ هذا. وفكّرتُ أنّهم أرسلوا إلينا حشيشًا مخلوطًا لضمان تخديرنا تمامًا، كي نصبح جثثًا نعيش ولا نتفاعل.

قمتُ بصعوبة، ومشيت مترنِّحًا نحو سور الشرفة وحاولت إيقاظ واحد من الراقدين لكنّه لم يتحرَّك ولم يردّ عليَّ، أخطأت وناديته: «يا عليّ»،

حاولتُ تذكّر اسمه لكنّي لم أستطع، وأخذتُ أركلُ فخذَ الثاني ركلات خفيفة وحوَّل هو نظره إليَّ ببطء ولم يستجِب للركلات، في تلك اللحظة عاد الوعي إليَّ وأدركتُ أنّنا في ورطة كبيرة، جنود خطّ الدفاع الأوّل مخدّرين تمامًا ولن يتمكّنوا من فعل أيّ شيء، الحشيش كان مهدِّئًا لنا ومساعدًا على الاسترخاء لكن هذه اللعنة التي تعاطيناها أفقدتنا كلّ إدراك. مشيت عبر الشرفة إلى الناحية الآخرى وتطلّعتُ نحو القاهرة الغربية، كان كلّ شيء على ما يرام، أو بدا كذلك.

وفي لحظة سمعتُ صوت نفثة نارية حادّة ذكَّرتني بصوت انفلات الألعاب النارية، أو صوت تفريغ إطار من الهواء، لم أعلم من أين أتى الصوت وأخذتُ أتطلَّع حولي، وخطر خاطرٌ؛ ربّما كنّا في الجحيم، وربّما هذه فسوةُ إبليس؛ نارٌ لاهبة وصوت مفزِع. وحدَّقتُ أمامي منتظرًا ظهور عمود نار أو خيط لهبٍ في السماء. لكنّي لم أرَ إلَّا جسمًا داكنًا صغيرًا يسقط من السماء بسرعة هائلةٍ فدهشتُ، ثم رأيتُ الضوء يغمرُ مكانَ السقوط، وصوت الانفجار يأتيني قويًّا واضحًا، وكرات نار متشابكة ترتفع وتتحوَّل إلى دخَان أسود. كانت القاهرة الغربيّة تتعرَّضُ للقصف لأوّل مرّة منذ بداية الاحتلال.

ركضتُ متَّجِهًا إلى الجانب الآخر من الشرفة حيث القاهرة الشرقية، كنتُ أميل بجسدي في أثناء الركض نحو جسد البرج، والسور الحديد يمرُّ بجانبي وتتكرَّرُ قضبانه أمام عيني، وطالت المسافة كثيرًا كثيرًا، ورفعتُ يدي كي أنظر في الساعة لكنّي تذكَّرتُ أنّي لا أرتدي واحدةً منذ سنوات، ثم توقَّفتُ، وظننتُ أنّي درت دورتين كاملتين حول مركز البرج دون أن أصل إلى الزملاء الراقدين المخدّرين، وأنّ عليَّ أن أرجع فأدورَ في الاتجاه المعاكس كي أعودَ إلى الجانب الشرقي، شرفةُ البرج متاهةٌ دائريةٌ ولا سبيلَ إلى الخروج منها أبدًا. ثم نظرت إلى الأفق فرأيتُ كلَّ شيء هادئًا ولا تغيُّر في ما حولي؛ النيل يمتدُّ نحو الشمال بهدوء لا يبالي بأيّ خراء

يحدث على ضفّتَيه، عندما سمعتُ صراخ واحد من الزملاء يناديني بلوعة.

في لحظة الاستيقاظ تلك ركضت وقطعتُ المسافة القصيرة في ثانيتَين، الزملاء يقفون قربَ حافّة السور يتطلّعون نحو القاهرة الشرقية، يُحدِّقون في القوارب المستقرّة في عرض النيل أمامنا مباشرة، وقفتُ إلى جانبهم، وسمعتُ أحدهم يقول: «هناك.. على حدود القاهرة». وهو يشير نحو الشرق.

كان خطّ انطلاق الصاروخ واضحًا، يبدأ بالقرب من سفح جبل المقطّم ويصعد حتّى يمرّ فوقنا ثم يختفي تدريجيًّا. في أثناء إشارته انطلق صاروخ آخر، وارتسم في السماء خطٌ أبيضُ ثانٍ موازيًا الأوّل، ثم خطّ ثالث ورابع. كان وعيي بالأشياء يتلاشى مرّة أخرى في ما يبدو وكأنّه انحسارٌ لتأثير الحشيش ونشاط مفاجئ لمفعول الكيمياء، عندما تابعت الصاروخ وهو يرتفع نحو السماء مارًّا فوق رؤوسنا حتّى غاب في السماء ولم أعد ألحظ إلّا لمعانه كنجمة صغيرة متفجِّرة في النهار، ثم سقط سريعًا فوق القاهرة الغربية، وانفتح جسدُ الصاروخ ليحرِّر مئات الأجسام الصغيرة، قنابل صغيرة تكمل رحلة السقوط القصيرة وتوسِّع مجال القصف والإصابة، سقطت على عدّة مبانٍ ودكَّتها، في اللحظة التي انفتح فيها جسد الصاروخ الثالث والرابع لتتحرَّر القنابل العنقودية وتؤكّدُ تحطيم هذه البقعة من القاهرة الغربية.

وسمعت صوت الهدم وهبَّات الغبار الناعم وشهقات القتلى والأرواح تُنزع من الأجساد لا أعلم مَن فيهما يمزّق الآخر وبكاء النساء وأكفّهنّ تلطم وجوههنّ والنار تأكل أولادهنّ والسيّارات تسرع ثم تتوقّف والسائقون يركضون بلا وعي نحو بيوت محطّمة يحرِّكون الأنقاض فَزِعين والآلاف تحت الأنقاض يطلبون الماء أو الموت والأطباء يصرخون طالبينَ أشياءَ لا أفهمها والصبية على الموتوسيكلات يرفعون الأجساد النازفة ويسرعون بوجوه جامدة باحثين عن مسعفٍ وعمّال صعايدة يصرخون ينادون

أصحابهم وهم يُزيلون الأنقاض بأيديهم العارية ورجل يشعل سيجارة ثم يدخّنها بهدوء واستمتاع وجسده تحت أطنان من الخرسانة المحطّمة والطوب والخشب لا أمل له وقال: «لم لا أستمتع قبل أن أموت؟». وامرأة قالت: «أخيرًا!». وهي مستسلمة لسقوطٍ حُرٍّ بسرعة باب الغرفة وسقفها وأرضيتها، كلّهم هوى. وأحدهم نادى من مئذنة الجامع ولم يفهمه أحد وكلّهم تركوه يهذي والكلاب تعوي ولا تفهم وتنبح ولا تفهم وتجري ولا تفهم، ولا أفهم.

عندما حلّ الليل كانت الصواريخ لا تزال تنطلق من حدود القاهرة الشرقية، واستحال خطّ الدخَان الأبيض إلى خطٍّ من نور ينفثه الصاروخ ليختفيَ بسرعة في الظلام، كان نصف القاهرة الغربية قد أصبح ركامًا، والمخدِّر لا يزال فعّالًا ولا يبدو أن أثرَه سيروح قريبًا، لم يتحرَّك واحد من أعضاء المقاومة على الأرض، ولم يتحرَّك مواطن واحد من القاهرة الشرقية ليضرب راجمات الصواريخ أو يمنعها، وعلمتُ بعد ذلك أنّ اليوم كان أكثرَ الأيّام هدوءًا في الشرقية منذ بداية الاحتلال، لم يُلمس جندي مالطي واحد، وتعامل المواطنون على أنّ ما يحدث أمرٌ معتاد. قال أحد الزملاء الراقدين إلى جانبي في استسلام: «حتّى لو كنّا في كامل الوعي.. لم نكن لنفعلَ شيئًا».

راقبتُ القاهرة الشرقية عبر منظاري باحثًا عن جندي واحد، عن ضابط واحد لأسقطه، كانت البندقية ثابتة في يدي لكنّي لم أكن ثابتًا، ورأيتُ آلاف الواقفين على جانب طريق الكورنيش يتابعون قصف الغربية ببرود لا يصدَّق، وكأنّها مدينة خيالية تُقصف بالنور على شاشة سينما. انتشر الباعة الجوّالون بين الواقفين في أمانٍ بالغ، وقعد الكثيرون في منتصف الطريق وكأنّهم يستريحون من مجهود شاقّ. لم يعبر أحدهم أيًّا من الكباري ليساعد سكّان الغربية.

في الصباح التالي كان دخَان الحرائق الأسود قد قطع مسافة طويلة

نحو الجنوب، سحابة هائلة من السواد تستقرّ فوق ما تبقّى من القاهرة الغربية وتترك ذيلها يسرح ليتجاوز القاهرة نفسها ولا يتوقّف ولا يذوب في الهواء، عادت الحياة إلى القاهرة الشرقية كما لو كان الأمس يومًا عاديًا تمامًا، مرَّ الكثيرون مسرعين في طريق الكورنيش ينظرون نحو ركام جارتهم بلامبالاة، وقرابة العصر تجمَّع الكثيرون كما تجمّعوا أمس، كلّ واحد يخرج من عمله فيأتي ويقف ويشاهد ما حدث متوقّعًا أن تُقصف المدينة اليوم أيضًا.

كنتُ قد أفقتُ من المخدّر بعد الفجر وإن بقيَ أثر طفيف لا يكاد يُلحظ. وكان من معي قد انتظروا الدرون القادم بتعليمات اليوم لكنّه لم يأتِ، انتهت مهلة الأربع وعشرين ساعة وبإمكاننا الآن أن نطلق النار. جهّزنا أنفسنا بالذخيرة كلّها وصعدنا إلى الطابق الأخير ووجّهنا البنادق نحو القاهرة الشرقية.

أطلقت النار على المارّة والواقفين في طريق الكورنيش، هذا أقرب شارع إلى البرج، كنتُ أوجِّه البندقية نحوهم وأطلق من دون أن أصوّب على واحد بعينه، أطلقت النار على السيّارات التي تمرّ فقُتل عدد من السائقين وتكدَّست السيّارات في الطريق، لكنّ كلّ هذا لم يوقف الناس، بعد غروب الشمس توافد الآلاف على الكورنيش في إعادة لمشهد البارحة، وبدا لي أنّهم لا يريدون مشاهدة الشطر الغربي المحترق، بل ينتظرون من يطلق النار عليهم.

أمرت الجميع بوقف إطلاق النار، ثم أمرتهم بالتصويب نحو المناطق البعيدة عن الكورنيش وإطلاق النار عشوائيًا، أصبنا مبانيَ عديدةً في بولاق أبو العلا وحول ميداني التحرير ميدان عبد المنعم رياض. ثم أخذنا نتخيَّر الأهداف ونسقط كل مَنْ يمرّ في تلك الأماكن البعيدة ونصيب السيّارات بطلقات عديدة. لم أكن أعلم ما الدافع لكلّ هذا، كنتُ مرتاحًا لما أفعل بل وربّما كنتُ مستمتعًا، عاودني إحساسُ السعادة والراحة الذي كنتُ أشعر

به صباح أمس، لم يأتنا درون يطلب منّا وقف إطلاق النار، لم يلتفت واحدٌ من الناس أو من جنود الاحتلال إلينا، بالتأكيد علم الكثيرون أنّ فوق قمّة البرج قنّاصة يقتلون الناس، لكن لم يهتمّوا ولم يحاولوا منعنا، بعد ثلاث ساعاتٍ من القنص المستمرّ برصاصات النصف بوصة نفدت ذخيرتُنا، كانت البنادق تلهث بين أيدينا، لكنّنا كنّا نحلّق من النشوة.

انفضَّ الجمعِ تدريجيًّا، وقرُب منتصف الليل خلا طريق الكورنيش من المارّة والسيّارات، ونامتِ القاهرة الشرقية تمامًا، لم تنم جريحة من جرَّاء الجثث العديدة التي سقطت اليوم، لكنّها نامت لامبالية ومئات الجثث ملقاة أمامنا على طريق الكورنيش تشهد على حالة الكسل والبلادة التي أصابت المدينة، حتّى الجثث الملقاة كان سمِجة لا يتعاطف الواحد معها وإن رأى أعينها مفتوحة تحدِّقُ فيه. كان هذا أوّل إطلاق نار بغرض قتل مواطنين مصريين عشوائيًّا، كنّا من قبلُ نتصيَّدُ المتعاونين مع المحتلّ وموظّفي الحكومة الكبار وربّما قتلنا واحدًا لا نعرفه بطريق الخطأ أو لاختبار ضبط المنظار أو حتّى لمجرَّد التسلية، كيف لا يمرّ يوم دون قتل؟ لكنّ اليوم ثأر، وغدًا، وما بعدهما كذلك.

كانت رائحة الدخَان لا تزال عالقةً في الهواء، ولأنّنا أقرب ما يكون للسحابة السوداء المعلّقة فوقنا فقد غطّينا أنوفنا وأفواهَنا بقطع قماش مُبلّلة كي نمنعَ تسلُّل الرماد والغبار المتطايرين. كنتُ أتابع حصيلة اليوم عبر منظاري، عندما ظهرت مجموعة من تسعة أشخاص أو عشرة، كانوا يرتدون أقنعة مطّاطية لشخصيات لا أعرفها، وإن ميَّزتُ تقليدًا فاشلًا لوجه سمير غانم بين أقنعتهم. وبدا من الابتسامات الواسعة والحواجب المقوّسة والأعين المفتوحة المتَّسعة أنّ كلّ الأقنعة تمثّل وجوه ممثّلين كوميديّين. كان الواحد منهم ينحني على الأرض ليمدّ يده عند كفّ أقرب جثّة باحثًا عن خاتم أو ساعة فينتزعها، ثم يمدّها نحو الملابس يفتّش عن أموال فيأخذها، وإلى الأعناق والآذان باحثًا عن حليّ فيسرقها، ثم يرمي

كلّ ما يجد في كيس يمسكه بيسراه. كلّ هذا كان يتمّ بسرعة وتعجُّل، ولم يبدُ أنّهم كانوا خائفين من الشرطة أو غيرها، بل كانوا متعجِّلين كي يجرِّدوا أكبر عدد ممكنٍ من الجثث في أقصر وقت.

أتى بعدهم مجموعةٌ أكبرُ، يرتدي كلُّ واحد منهم كيسَ زبالة أسودَ على رأسه، يحجب رقبته ووجهه وشعره بالكامل، ولا يظهر منه إلا العينان عبر فتحتين تمّ تمزيقهما دون أيّ انتظام، رأيتُ الأكياس تلتصق بوجوههم مع كلِّ شهيق، وتنتفخ مع كلِّ زفير، هؤلاء بحثوا في جيوب القتلى وحقائبهم، وأخذوا الأوراق والهُويّات والتليفونات والساعات والخواتم الرخيصة والحقائب والأحذية والأحزمة. وكلّ ما تركت المجموعة الأولى، هؤلاء رحلوا بعدما فتّشوا القتلى بسرعة بالغة، ولم يتركوا سوى الملابس.

ثم أتى بعدهم مجموعة صغيرة من المراهقين، كانوا خمسة لا أكثر، ربّما كانوا في سنّ الخامسةَ عشرةَ أو السادسةَ عشرةَ، عراةَ الصدور، نحيلين جدًّا، تلمع بشرتهم في النور الشحيح لا أعلم بسبب العرق أم بسبب زيت يضعونه على أجسادهم، ندوب عديدة ظهرت على صدورهم وبطونهم العارية وأذرعهم، هؤلاء غطُّوا رؤوسهم بورق جرائد ومجلّات، ولم يفتحوا سوى فتحة واحدة مكان إحدى العينين. قال لي أحد الزملاء إنّ الناس يسمّونهم الصراصير، حينها تذكَّرتُ ما وردني عن تسمية الناس لنا بالدبابير. هؤلاء كانوا أكثر سفالة فخلعوا ملابس القتلى واحدًا تلوَ الآخر، لم يتركوا شيئًا، وأخذوا يتفحّصون جثامين النساء الملقاة على الأرض، يرفعون الذراع ويداعبون الثدي ويقرصون الأفخاذ، وتعاون اثنان منهم فرفعوا قدمَي جثمان شابّة وباعدا بين فخذيها، ثم أخذا يفحصان فرجها.

كنتُ قد تعبتُ كثيرًا، ولم أعد أقوى على فتح عيني والنظر عبر المنظار إلى ما يحدث، لكنّ حركة أحدهم العنيفة نبّهتني إلى ما يفعل.

وجد امرأة لا تزال حية، استلقت وهي تحرِّك ذراعها ثقيلة متراخية، كانت تلوِّح تطلب المساعدة أو تطلب الموت، خلع الصرصار ملابسها

كافّة، ثم أنزل بنطاله بسرعة وأخذ يجلد قضيبه بعنف إلى أن انتصب، ثم أولجه فيها متشبثًا بفخذيها المرفوعتين، كان يضاجعها بسرعة لم أصدقها، كأنّه آلة موصلة بالكهرباء ولا هَمّ لها سوى ذلك. وتجمّع حوله باقي الصراصير، كانوا يدخّنون عبر أوراق الجرائد اللاتي اتخذوها أقنعة، وكانوا يمرِّرون السجائر عبر فتحات الأفواه، ثم يمجّون الدخان وهم يشاهدون الآلة تعمل. وتقدّم أحدهم وأخذ يتحسَّس رأس ورقبة وذراع المرأة، ثم أشار بكفّه إلى الآلة أنّها انتهت، ماتت، كانت إشارة يده حاسمة فتوقّف الصرصار فجأة عمّا كان يفعل وقضيبه لا يزال في الجثّة، وترك فخذَيها لينهارا من دون مقاومة إلى كلّ جانب. وما هي إلّا ثوانٍ حتّى عاد إلى الاهتزاز والطعن وإمساك الفخذين، وانتهى ليتناوبَ باقي الصراصير على الجثّة.

انتشرتِ الجثامين على طول طريق الكورنيش، تزداد كثافة عند منطقة ما وتقلّ إلى أن تختفيَ في منطقة أخرى، وأخذتُ أمسح الشارع بالمنظار لأرى ما يحدث، أبحث عن لصوص آخرين. وظهر كثيرون يبحثون بين الجثامين، لم يكونوا مقنّعين ولم يرتدوا زيًّا موحّدًا، كانوا يتحرَّكون ببطء بينها، هؤلاءِ بالتأكيد يبحثون عن ذويهم؛ كانوا يُحدِّقون في الوجوه فقط، ولا يلمسون الجثامين العارية، ولا يحاولون البحث في الملابس التي لم تُسرق بعدُ، فقط كانوا ينظرون إلى الوجوه وهم يبكون. مشت مجموعة كبيرة تبحث عن جثامين عدّة أشخاص، هؤلاء حملوا صورًا في أيديهم وأخذوا يطابقون ما فيها مع وجوه القتلى. مشت واحدة تصرخ ملتاعة، لم تنظر في أيّ من الوجوه الميّتة لكنّها ظلّت تصرخ دون أن تهدأ، وبعدما راح الجميع ظلّت تصرخ صرخاتٍ متقطّعة حتّى الفجر. مشى رجل يحمل طفلة على ذراعه، تبدو في الخامسة أو السادسة، كان ينحني فوق كلّ جثمان ويدير رأسه بيده لترى هي وجهه. يشير إلى الرأس ويحدِّثها وهي تهزّ رأسها نافية ثم تدير ذراعها الصغيرة حول عنقه وتدفن عينيها في كتفه.

مرَّ على الجثث كلّها، لم يترك واحدة إلّا وأشار إلى وجهها وهو يخاطب الطفلة على ذراعه، لكنّها كانت تنفي دائمًا، كانت تحرِّك رأسها حركة طفيفة جدًّا لا تكادُ تلحظ، ثم يمضي الرجل إلى جثّة أخرى لينحنيَ فوقها.

9

الهواء النظيف في الخارج أنعشني، كانت رائحة الحشرات نفَّاذة غير معتادة، ولم أعلم إن كرهتها أم لا، لكن كلّ ما أعلمه أنّي قرَّرتُ ألّا أضرب الكربون أبدًا، هل يعلم الناس أنّهم يدخّنون نملًا وجعارين وصراصيرَ وخنافس؟

قلت للقدّيس ونحن نهبط إلى منشيّة ناصر إنّني سأذهب إلى شارع شريف، قال لي إنّه سيرافقني إذا وافقتُ، لم يكن لديّ مانع طالما أنّه لن يدخل معي إلى الغرفة، وفي الحقيقة أردته أن يأتي ليكونَ دليلي في حال عدم عثوري على فريدة. سنتان طويلتان من العزلة والانقطاع عن الاتصال كفيلتان بتغيير الأماكن والقلوب. القدِّيس سيساعدني حتمًا، ربّما يعرف أحد الضبّاط هناك، أو ربّما يعرف أحد أصحاب البيوت أو القوّادين. لكنّي كنتُ متأكِّدًا من أنّي سأجدها. تعلَّق برهان بكتفي كعادته، وربّما شعر أنَّه مهدَّدٌ بطريقة أو بأخرى، برهان هائل الحجم مقارنة بأمثاله في البرميل الضخم، ولا بدّ أنّه سيكون مطمعًا لأيّ تاجر كربون.

لم يكن هناك بدٌّ من ركوب تاكسي، أوقفنا واحدًا قرب منشية ناصر وقال القدِّيس للسائق: «وسط البلد». بدا الجوّ معقّمًا داخل السيّارة الجديدة تمامًا، الهواء البارد يخرج من فتحات التكييف بلا رائحة، كنتُ قد نسيت الهواء البارد الخارج من التكييف، في البرج لا تستنشق إلّا الهواء الطبيعي الملوَّث فقط.

التفت القدِّيس الجالس إلى جانب السائق إليَّ وقال: «البلد كلّها تدخّن الكربون الآن». تعجّبتُ كثيرًا من الكلام عن الكربون بلا خشية من السائق،

بالطبع لن يصيبَنا ضررٌ من أيّ نوع، لكنّ الحديث عن الكيف كان دائمًا خفيًّا.

تابع القدِّيس: «أنت لا تذكر ما حدث بالأمس، صحّ؟ هذا هو أحد تأثيرات الكربون يا باشا، وهو ما يعشقه الناس. ببساطة أنت تتحوَّل إلى شخصين، واحد غارق تمامًا في الظلام؛ لا خيالَ هناك ولا هلاوس ولا ألوان ولا ذكرياتِ، ستنسى كلّ شيء، حتّى إنّك لن تذكر اسمك، وعلى الجانب الآخر سيعمل جسدك وعقلك بطريقة مثالية مع ما حولك، أنت كنت تمشي معي وتحدّثنا معًا، وكنت دمثًا للغاية؛ تتحدَّث بطريقة مهذّبة وتجاملني وتتحرَّج حينما أشتمُ، بالطبع أنت لا تذكر كلّ هذا الآن، وهذا أيضًا أحد تأثيرات الكربون؛ ما يحدث بعد التعاطي لن يثبت في الذاكرة أبدًا، لن يظلّ هناك في المكان الغامض في المخ؛ لأنّه لم يُخزَّن هناك أصلًا. وكلّ ما تذكّره هو ضياعك تمامًا في الظلام دقيقةً أو اثنتين، مع أنّك كنت ضائعًا ثلاث ساعات على الأقلّ. الكربون يجعل الناس تلتصق بالواقع أكثر، هو ببساطة يفصل بين الخيال والواقع، متعاطي الكربون لا يخطئ في أثناء عمله، ولا يَمَلّ، ولا يسرح بخياله بعيدًا عن تفاصيل العمل. وهو يزن كلامه وإجاباته على ما يوجَّه له من أسئلة بميزان حسّاس، فيجامل عند الضرورة ويهاجم محدّثه في أحوال قليلة. إذا كان الحشيش ممنوعًا في أماكن العمل فالكربون مطلوب حتمًا، فهو الآن السبب الوحيد لإتقان العمل».

لم يعد يهمّني السائق الذي يسمعنا، ما قاله القدِّيس سحر حلال، إذا كنتُ حاكمًا لمصر فسوف أقنّن الكربون حتمًا.

تابع: «كلّ ما هناك أنّه يمنع الابتكار والإبداع، على كلّ حال لم يشتكِ أحد من قلّة الإبداع قطّ».

سألتُ القدِّيس: «هل تعني أنّك الآن اثنان؟ أنا لا أفهم التأثير تمامًا يا قدّيس».

قال: «القدِّيس جون الذي يحدِّثك هو النسخة اللطيفة العمليّة منّي، النسخة غير المبتكِرة المتفائلة السعيدة الصبورة على العمل، النسخة الأخرى هناك في الظلام قابعة لا تتحرَّك، مقموعة تمامًا ولا صوت أو تأثير لها على أفعالي الآن».

قلتُ: «ولأنّ ذاكرتك لن تختزن أيّ شيء ممّا يحدث الآن، أعني الحوار بيننا وركوبنا التاكسي والطريق الذي نقطعه وربّما أحداث عدّة ساعات قادمة، لذلك فأنت لن تذكر أيّ شيء من هذا حينما ينتهي تأثير الكربون، ستخرج فقط ممّا تسمّيه «الظلام» إلى العالم الواقعي ولا شيء غير ذلك، صحّ؟».

قال القدِّيس: «بالضبط، ربّما يبدو هذا غير ممتع، لكن ما الممتع في الحياة هذه أصلًا؟ الجميع يحاول الهروب، حتّى وإن كان هروبهم إلى مكان مظلم لا يعون فيه أيّ شيء. هذا أفضل كثيرًا ممّا نحن فيه الآن».

نظرتُ إلى سائق التاكسي منتظرًا تدخُّله، الحديث تطوَّر ولا بدّ أنّه سيتدخّل قريبًا.

قال القدِّيس: «هذا أيضًا يجعل المحيطين بالمُكربَن أكثر صراحة، أيّ كلام ستقوله وسأسمعه الآن فلن أتذكّره لاحقًا، ما أعيه الآن سيُمحى حالما أعود من الظلام. بالمناسبة، هل دخلت أنت أيضًا في الظلام؟ ماذا سمَّيته؟».

قلت: «لم أرَ أنّ هذا ظلام، كنتُ أراه سوادًا في البداية، ثم أدركت أنّني في العدم ذاته».

قال وهو يضحك: «العدم ذاته! هذه هي المرّة الأولى التي أسمع فيها هذا التعبير. أنت وجدت نفسَك في العدم!».

قلت: «نعم، لا شيءَ حولي، لا نورَ، لا موجوداتِ، لا رائحةَ ولا إحساسَ، بل لا أفكارَ، هذا هو العدم، ولا كلمة ثانية لوصفه. ألستَ في العدم الآن؟».

سكت القدِّيس قليلًا، واعتدل في جلسته لينظرَ من خلال الزجاج الأمامي للسيّارة، صمت ثوانيَ ثم قال: «ربّما ذلك عدمٌ حقًا، لكنّي لا أعرف ما أنا فيه الآن، لا أعرف ما يحدث هناك حيث أنا موجود حقًا. لكنّي أذكر جيّدًا ما كنتُ فيه في المرّات السابقة، هو عدم حقًا ولا كلمات أخرى تصلح لوصفه».

قلت محاولًا إشراك السائق في الحديث: «ماذا عنك يا أسطى.. جرَّبت الكربون؟».

التفت القدِّيس إليَّ مرّة أخرى وقال: «ما دام الرجل لم يقاطع حديثنا حتّى الآن فهو بالتأكيد تحت تأثير الكربون، لا تفسيرَ آخرَ لحالة الأدب والدماثة تلك». ثم التفت إلى السائق وقال: «أليس كذلك يا باشا؟». فأومأ السائقُ موافقًا ولمحتُ طرف ابتسامته.

لكنّي لن أضرب الكربون الآن، لن أكون تحت تأثيره عند لقائي بفريدة، لماذا أنسى؟ ألم أَقُل إنّي لن أتعاطاه مطلقًا بعد الآن؟ ثم خطر في ذهني خاطر فقلت للقدِّيس: «ماذا تسمّون مدخِّنَ الكربون، مُتكربِن؟».

فقال: «لا، نقول: مُكربَن، وأنا كربنتُ، ونحن مكربنين، وهل كربنت البارحة؟ وهذا كربنجي أصيل، يكربن كلّ أسبوع. الموظَّف كربوناتي محترف، يكربن كلَّ يوم.. وهكذا».

فقلتُ: «هل يكربن الموظّفون كلّ يوم فعلًا؟».

فقال: «الجميع يكربن كلّ يوم يا باشا، البلد كلّها مكربَنة ولا يمكنك منع أو حتّى تقليل ذلك، أتعرف متى يفيق الناس من الكربون؟ حينما يذهبون إلى شارع شريف، أو حينما يحشِّشون، أو يشربون الخمرة، أو ينامون مع زوجاتهم، أو عشيقاتهم، وأيّام تنفيذ أحكام الإعدام العلنية في الميادين العامّة. حينها سترى ما لن تراه أبدًا».

قلتُ: «رأيتُ ذلك..».

قال: «بمناسبة الحديث الصباحي، يعتقد الناسُ اليوم أنَّ ما يحدث

للمجرمين قبل إعدامهم يرفع عنهم ثلث الخطايا، والإعدام يرفع الثلث الآخر، وما يحدث بعد الإعدام يرفع الثلث الأخير. ما بعد الموت ليس تعذيبًا لهم بالطبع، بل تعذيبٌ لنا، صدقة جارية في صورة عذاب للآخرين».

لم أرَ إلّا إعدامًا واحدًا في ميدان التحرير، بعد ذلك كنتُ أسمع عن أحكام إعدام في ميادين العتبة ورمسيس والعبّاسية وروكسي، لكنّي لم أرَ شيئًا ولم أعرف ما يحدث. قلت له: «ماذا يحدث بعد الإعدام؟ أنا لم أرَ إلا إعدامًا علنيًّا واحدًا».

قال: «آه صحيح، أنت كنت في البرج، أيَّ إعدام رأيت؟».

قلت: «رأيتُ الأوّل، حينما أعدموا خمسة على الخوازيق».

قال: «كان الأمر مختلفًا في ذلك الوقت، كان الناس مفزوعين من المشهد، ولم يكونوا قد اعتادوا بعدُ على مشاهدة أحكام الإعدام والتفاعل معها، ربّما سنرى واحدًا أو اثنين خلال الأيّام القادمة. على كلّ حال هم يعلنون عن موعد تنفيذ الحكم ومكانه قبله بساعات قليلة». كيف يتفاعل الناس؟ هل يرجمون المحكوم بالإعدام كما فعلوا مع المنتحر اليوم صباحًا؟

تابع القدّيس: «من يعلم، ربّما سيكون بعضنا من ينفّذ أحكام الإعدام قريبًا». نعم، نحن سننفّذ حكم إعدام جماعي قريبًا، ولنرَ كيف سيتفاعل الناس مع حكمنا.

وصلت السيّارة إلى شارع شريف، والسائق لم يفتح فمه طوال الرحلة، قال لي القدّيس وهو يمطُّ ذراعَيه في الهواء: «لم أقل له شارع شريف في البداية، في العادة الذاهبون إلى هناك يقصدون بيوت الدعارة، وسائقو التاكسي يسلكون طرقًا أطول من المعتاد للوصول إلى هناك ليرفعوا أجرة التوصيلة، الراكب دائمًا يخشى الجدال معهم خجلًا ممّا سيفعل بعد دقائق، والسائقون يستغلّون هذا الخجل، أمّا هذا السائق فكان مكربنًا، أدركت ذلك بعد دقائق من ركوبنا السيّارة، لذلك فهو لن يغشنا، ولذلك أخبرته

بوجهتنا في منتصف الطريق وكما رأيت فقد اتّخذ أقصر طريق ممكن».
كان القدِّيس يعبث في جيب سترته الداخلي، ثم أخرج كيسًا جلديًّا صغيرًا، فتحه وأخذ يخرج ما فيه، تابع: «أترى كيف أنّ على الجميع أن يكونوا مكربنين؟».

أخرج القدِّيس قناعًا قماشيًّا وفكّ أربطته الخلفية، قناعًا ناعمًا يبدو خفيفًا على اليد، وكأنّه صُنع من الحرير، ارتداه وشدّ الأربطة على رأسه من الخلف بكلتا يديه، كان القناع يحمل وجه أنور السّادات، وابتسامته واسعة وأسنانه بيضاء لامعة بالغة الضخامة، وبشرته شديدة السواد كأنّها لزنجي.

تابع القدِّيس: «إذا كنت تملك قناعًا فعليك أن ترتديَه الآن». أخرجتُ القناع من حقيبتي وارتديته، سريعًا كما اعتدتُ دائمًا، وحالما فعلتُ صاح القدِّيس منبهرًا: «ما هذا! هذا وجه بوذا، صحّ؟ هذا أجمل وأدقّ قناع رأيته في حياتي! ربّما أكثر جمالًا من قناع وجه مريم فخر الدين!».

كنتُ أحبّ وجهها كثيرًا، ولا أرى فيه أيَّ شيء قبيح أو حتّى متوسّط الجمال، وكنتُ أنظر إلى وجهها المتغضّن في شيخوختها وأبتسم أيضًا، وأنا أعلم أنّ تلك الترهلات والتجاعيد ضريبة جمال أسطوري سابق، سألت القدِّيس: «من يرتدي قناع مريم فخر الدين، شخصيّة مشهورة؟ واحدة تعرفها؟».

سمعت ضحكته من وراء القناع: «لا، يرتديه مخنّثٌ مشهور يعمل في بيت الشهداء في آخر الشارع».

رفعتُ وجهي لأرى الشارع المنير المبهج للعين، كلّ المارّة مقنَّعون، بلا استثناء.

استمرّ القدِّيس في ذبحي: «والجميل أنّ القناع ليس ملوَّنًا كقناعي هذا، هو أبيض وأسود، كصورة مريم فخر الدين الشابّة في الأفلام القديمة، وسنمرّ الآن أمام بيت استوديو مصر، الذي يسمح للزائرين الرجال بارتداء قناع شكري سرحان، ويسمح للإناث بارتداء قناع ليلى مراد».

صمتنا تمامًا، كنتُ أحاول طرد كلّ صور الأفلام القديمة من رأسي، لكنّ الطوفان شغلني عمَّا أتيتُ من أجله، تابعتُ تيّارات متعاقبة من السينما وأبطالها، كنَّا نمرُّ أمام بيت كُتب على واجهته «استوديو مصر» ورأيت صور ممثّلات ومطربات شهيرات معلّقة على الواجهة مضاءة بشدّة، ثم لاحظت أنّ ملامحهنّ غير متناسقة، وأدركتُ فورًا أنّ كلّ هذه ليست صور ممثّلات ومطربات، بل هي صور العاهرات يرتدين أقنعة تشبه وجوههنّ، تتابعت الصور: أمينة رزق، فيروز، زينات صدقي..

وفكّرتُ أنّ من ستضع قناع سعاد حسني قد تموت من كثرة الزبائن في أوّل يوم عمل، وسألتُ القدّيس: «ولا واحدة ترتدي قناع سعاد حسني؟».

ردّ: «جرَّبوها فلم تنجح، ارتدته واحدة لها جسد سعاد حسني ذاته، ولم يدخل غرفتها أحد، وعندما ارتدت قناع نعيمة الصغير لم يرحمها الناس، تكاثروا عليها ووقفوا في طوابير لا نهاية لها أمام باب البيت، الآن هناك المئات يرتدين قناع نعيمة الصغير ولا أحد يرتدي قناع سعاد حسني».

كدتُ أسأله عن البيت المسمّى بيت الشهداء، حينما مررنا بمبنى البنك الأهلى الذي انهار مع بداية الاحتلال، أومأ القدّيس برأسه إلى المبنى وقال: «هذا مكان الشراميط الرخيصة، بجنيه واحد تستطيع فعل ما تريد في أحد الخزائن الحديد الصامدة تحت الأنقاض، روح المغامرة تدفع الكثيرين للذهاب هناك، تخيّل أن ترقد في خزانة حديد ذات جدار سميك، لكنّها ضيّقة للغاية، والبنت فوقك أو تحتك وجسدك العاري يحتّك بالحديد الصدئ البارد؛ ظهرك ومرفقاك وركبتاك، ويزداد الاحتكاك مع زيادة الهيجان، ويتعرَّق جسدك وجسدها حتّى تشمَّ رائحة الصدأ المبلّل به تحتكما، ثم تنهار مقاومة الفولاذ فجأة وتنضغط الخزانة تحت أطنان الخرسانة المتراكمة عليها أكثر من ثلاث سنوات، وتموت محطَّمًا وأنت في هذا الموقف القذر».

تخيّلتُ كثيرًا أنّي سأموت في مواقف أكثر قذارة، هذا لا شيء بالمقارنة

بما فعلتُ من قبل، وتخيّلتُ أنّي سأُبعثُ في هيئتي عند موتي؛ سأُبعثُ ورجل بثقبين في صدره يُمسك بعنقي، سأُبعثُ والمئات ينظرون إليَّ من خلال مناظير البنادق، والشعرتان المتصالبتان على صدري، وشعاع الليزر ينتهي عند وجهي، سأتحوّل إلى قمر أحمرَ ومئات الخطوط الحمراء تضربني، سأُبعثُ ورجل بلا وجه يطلب القصاص منّي، قتلته دون أن أرى وجهه، سيأتيني بلا عينين أو أنف أو فم، فقط وجه خالٍ من المعالم، وربّما فتحتين للتنفّس لا غير، لن يتكلّم وسيشير بأصبعه إليَّ وكلُّهم سيفهم أنّي قاتل. لكن لا، هؤلاء كان يجب قتلهم، هؤلاء قتلة في الأصل أو خونة، قتلتهم من أجل الحفاظ على الدولة، من أجل الحفاظ على مصر. سأُبعثُ وأنا فخور.

وصلنا إلى آخر الشارع عند وزارة الأوقاف، ووجدنا رجلًا هائل الحجم عملاقًا، وأوّل ما لاحظته بعد حجمه كان ثدييه الهائلين، ثديين مدوَّرين جديرين بامرأة بالغة. ارتدى الرجل بنطلون جلد أسود، وحذاءً نسائيًّا بكعبٍ عالٍ، وباروكة شعرها أصفر رخيص، وحمَّالة صدر سوداء مزركشة، ولا شيء غير ذلك، كان يدخّن سيجارة ويوزّع إعلانات ورقيّة صغيرة لبيوت الدعارة في الشارع. وتناقض ساعده وأصابعه والشعر الكثيف يعلوهم مع طلاء الأظافر الأسود اللامع. كان القادم من باب اللوق يرى هذا الرجل عندما يدخل الشارع، وكأنّه حارسٌ أو دليل لكلّ الداخلين.

لاحظتُ أنّ خريطة المكان تغيَّرت كثيرًا، ولا بدّ أنّ البيوت في منطقة البورصة اختفت تمامًا، وحلّت محلّها البيوت على شارع شريف، ورأيت أنّ من المستحيل أن أبحث عن فريدة وسط كلّ هذا. كنتُ مطمئنًا لكربنة القدِّيس فهو لن يتذكَّر شيئًا، واتّجهت للرجل ذي حمّالة الصدر وسألته عمَّا أفعل إن أردتُ الوصول إلى واحدة بعينها.

ردّ عليَّ الرجل ذو الثديين بصوت بالغ الخشونة، ولاحظتُ أنّ كلّ

تفصيلة في جسده ضخمة، ورائحة السجاير تنبعث منه على الرغم من وقوفه في الهواء الطلق، ولاحظت أثر أحمر الشفاه خارجًا عن حدود شفتَيه، طلى شفتَيه بخَرَق وإهمال واضحَين، حاول أن يكون دمثًا بقدر الإمكان، نطق كلمات مثل «أفندم، حضرتك، سيادتك، معاليك» وسط حديثه، وسألني عن البيت الذي عملت فيه فريدة، وعن ملامحها، وعن آخر مرّة زرتها، ولمَّا قلت له: «سنتان». ضحك، وقال إنّها مدّة طويلة جدًّا، فالعمل في الدعارة يقتل الشباب والسنة بعشرة، وربّما عليَّ البحث عن واحدة أخرى لأنّ فريدة في الأغلب تركت شارع شريف. قال لي وهو يخرج تليفون من جيب بنطاله: «لكنّي سأصل إليها حتمًا، خمسة جنيهات». نظرتُ إلى القدِّيس وكأنّي أستشيره، فأومأ برأسه موافقًا، أنقدته الجنيهات الخمسة وانتظرتُ.

أجرى اتصالاتٍ عدّة، وفي نهاية الأمر أخبرني أنّ فريدة في غرفة رقم 82 في الطابق الثامن، في بيت «الحُبّ الحرام» بعد تقاطع شارع شريف مع شارع عبد الخالق ثروت مباشرة. قال القدِّيس إنّنا مررنا عليه ونحن قادمان. كنتُ قد استسلمتُ للتحديق في ثديي الرجل، وربّما فكَّر فيهما ألف واحد قبلي، هل زرعهما؟ لا بدّ أنّه حاول زرع ثديَين راغبًا في التحوّل إلى أنثى، كخطوة أولى يتلوها العديدُ من الخطوات، لكنّه فشل في ذلك أو ملَّ الأمر أو توقَّف دون سبب وظلّ صدره هكذا. كنتُ على وشك التحرُّك حينما قال لي ونبراته تشي بجدّية مفرطة: «أنا مولود بثديَين ضخمين، أكبر من ثديي أمي».

عدنا متّجهَين نحو بيت الحُبّ الحرام وأنا أتأمّل ما حولي، الشارع خالٍ تقريبًا من السيّارات، لكنّه يمتلئ بالمارّة. رأيت أقنعة لوجوه شهيرة مصنوعة بعناية ودقّة، أنور وجدي، ومحمود الخطيب، ورفيق الحريري! وأقنعة كاريكاتورية لمشاهير آخرين؛ عمر الشريف، وحسن فايق، وميّادة الحناوي، وعلاء الأسواني. ومن لم يرتدِ قناعًا لفَّ رأسه بورق جرائد،

وهؤلاء كثيرون؛ بعضهم فتح ثقبَين مستديرَين في الورقة عند موضع العينَين ليرى من خلالهما طريقه، وبعضهم لم يفتح شيئًا، رؤوس تمشي بأقنعة مصمتة ولا أعلم كيف يرون طريقهم، آخرون يلفّون رؤوسهم بقطع قماش بالية، بأجولة قديمة حال لونها، وبالنظر إلى كلّ هؤلاء كان قناعي أكثر الأقنعة تناسقًا وأناقة كما أخبرني القدِّيس.

هناك مصعد معطّل ومعلَّقٌ في الطابق الأوّل، لا جدران تحيط به بل سياج من قضبان حديد رفيعة يُظهر غرفة المصعد معلَّقة بحبال من حديد مرن مجدول، وزبالة بارتفاع ثلاثة أمتار تملأ الفراغ بين غرفة المصعد والطابق الأرضي، أكياس بلاستيك وأوراق وجرائد وواقيات ذكرية وعلب أدوية وفضلات ورق دون أيّ فضلات عضوية، وكأنّ أحدهم فَرَزَ الزبالة قبل أن يرميَها هنا، لا رائحة للكومة الهائلة لكن يميزها تنوُّع هائل من الألوان والأشكال. من القاع برز كيس بلاستيك كان يومًا يحوي طعامًا، وتاريخ انتهاء الصلاحية مطبوع وواضح 9/ 10/ 2011. ضابط الشرطة لا يجلس في غرفته في الطابق الأرضي كما اعتدتُ رؤيته، وإنّما يجلس في المدخل المتّسخ ذي البلاط العاري على كرسي وثير يقرأ جريدة، يرتدي زيًّا رسميًّا وقناعًا كاريكاتوريًّا لرونالد ريجان. صعدتُ السلم متّجهًا على الفور إلى الطابق الثامن.

وجدتُ باب الغرفة مغلقًا، وسألتُ جارتها الجالسة على كرسي عالٍ عن فريدة، فقالت إنّها في الداخل مع زبون، اطمأننتُ قليلًا، فريدة هنا فعلًا ولم أتورَّط في بحث طويل عنها، القدِّيس كان يدور في الشقّة متفحصًا الفقرَ في وجوه العاهرات، كانت الملابس فقيرة والأحذية متّسخة والحوائط متهالكة والوجوه مكتئبة، كلّ هذا ولا زبائن وعاهرات كثيرات يتغنجن ويخرجن أصواتًا من حناجرهن كمواء القطط، جارة فريدة لم تتكلَّم إلّا لتعلمَني بأنّها في الداخل، لكنّ باقي العاهرات أخذن يتلوِّين لإغرائي، ولمّا رأين القدِّيس مهتمًّا اقترب منه ثلاث منهنّ، وهو اتفق معهنّ بسرعة على

كلّ التفاصيل، ودخلوا جميعًا غرفة إحداهنّ. في الوقت نفسِه فُتح باب غرفة فريدة وخرج ثلاثة صراصير، سمعت ضحكاتهم وصرخاتهم عالية لكنّها مكتومة خلف ورق الجرائد الذي لُفّت به رؤوسهم بطريقة عشوائية، ذكّروني بسارقي الجثث الذين رأيتهم منذ شهور يجرِّدونها من الملابس، لهم الأجساد نفسها الفَتِيَّةُ النحيلة المليئة بالندوب، كان الثلاثة يضحكون ويصرخون ويشخرون شخراتٍ رنّانة منفعلين في سورة حماسية هائلة، يتقافزون بهيستيريا شديدة، ويركضون نحو الحوائط فيصدمون أجسادهم بها عن عمد، ويصدم بعضهم بعضًا، ويصدمون العاهرات الواقفات خائفات يرتعدن مما يحدث، لم ينطقن بكلمة اعتراض، وبينما كان برهان يحلِّق قرب سقف الممرّ وكأنّه يهرب من أيّ اعتداء متوقَّع عليه ركضوا في صخب إلى الدرج ونزلوا صائحين، تغيب صرخاتهم كلّما نزلوا طابقًا.

هدأ المكان تمامًا بعد خروج الصراصير الثلاثة، وعاد برهان ليستقرّ على كتفي، كانت القواعد تقضي بأن أنتظر ريثما تفتح فريدة الباب مستعدِّة للعمل مرّة أخرى، لكنّي لم أطِق الانتظار فطرقته، ولمّا لم تردّ عليَّ أدرتُ المقبض وفتحت الباب بهدوء.

فريدة كانت كزوجة بالنسبة لي، ولا خجل بيننا ولا خشية ممّا سأراه مهما كان محزنًا، كنتُ أفتح الباب وأنا أتذكّر دم المنتحر اليوم صباحًا وهو يتناثر فوق رؤوس الناس ولا يتحرَّكون، والرجل في الأسفل يمسح قطرة الدم عن جفنَيه ثم يعاود التحديق في الجثّة، وتوقّعتُ أن أرى فريدة تنزف وتحاول إيقاف النزيف، وتوهَّمتُ أنّها تنزف من أنفها وفمها ومن جرحٍ في موضع حلمة ثديها الأيسر الغائبة، توقّعتُ كلّ هذا كي تغيب الصدمة عنّي مهما كانت قاسية، ودخلتُ ورأيت بقايا فريدة، هيكل فريدة العظمي مُغطّى بجلدها، وككلّ مرَّة خطف ثديُها الخالي من الحلمة عيني، وأحزنتني عظام وجهها التي أصبحت أكثر بروزًا. كانت قاعدة على الأرض تسند ظهرها إلى الحائط، تلهث وذراعاها مرتخيتان إلى جانبها، دخلتُ وهي لم تتكلّم بل نظرت إليَّ نظرة حادّة ولسانها معقود من وقاحة ذلك الذي فتح الباب دون استئذان،

وعندما كان بيني وبينها مترٌ واحد وقفَت وهي ترتجف غاضبة مرهقة تستعدّ لشتمي وطردي، وخلعتُ القناعِ كي تتعرَّف عليَّ لكنّها لم تعرفني، احتضنتها وأنا ألمح عينَيها ذاهلتَين تحدِّقان في وجهي وقسماتها تختلج، تخشَّبت ذراعاها وهي تبعد وجهها عن وجهي المدفون في كتفها تريد أن تتمعّن فيه زيادة، تحدِّقٍ في وجهي وأنا ملتصق بها، وتقاوم ضمِّي لها لا كرهًا منها لكن رغبة في التيقُّن من وجودي، وقالت وهي تتلعثم: «أنت كريم؟». ولم أعلم من هو كريم ولم أبالِ به، ثم صرخت: «أنت أحمد! أنت أحمد!»، وكتمتُ بكاءً غاضبًا، لكنّها استسلمت لنواحٍ مرير لم أسمعه من قبل.

كيف حالك يا فريدة؟

أمسكها الفزع، وظلَّت ترتجف وذراعاها متخشِّبتان إلى جانبَيها، لم تقوَ على احتضاني، وقعدتُ وأجلستُها على حجري، أمسكت بها حتّى استكانت وهدأت، وبعد خمس دقائق كانت قد غفت. كانت ترتدي زيَّها الشهير لكنّه كان ممزَّقًا في مواضع عدّة، أبدلتُ ملابسها وحملتها وخرجتُ إلى الشقّة وأنا أنادي: «يا قدّيس». ولمّا لم يردّ تحركتُ نحو الغرفة التي دخلها وضربت الباب بقدمي وأنا أصرخ: «يا قدّيس.. يا قدّيس»، لم أقوَ على البقاء والعاهرات أخذن يتجمّعن حولي، خائفاتٍ لكنّهنّ قد يتجرَّأن بعد قليل، تناسيتُ القدِّيس على الفور وخرجتُ من الشقّة، وخرجت العاهرات خلفي ينادين وهنّ يلوِّحن لي: «يا قدّيس.. يا قدّيس». ونزلتُ الدرج مسرعًا، ثمانية طوابقَ والعاهرات يسمعن نداء زميلاتهنّ ويخرجن ليقفنَ أمام أبواب شققِهنّ ويناديِن: «يا قدّيس.. يا قدّيس». ويقفن على الدرج ينظرن من خلال منور السلم وينادين: «يا قدّيس.. يا قدّيس». وخرجتُ من المبنى لأذوب في الزحام وأنا أسمع نداءهن يتلاشى ويخفت: «يا قدّيس.. يا قدّيس». ولم أعلم قطّ لمَ سخرن منّي بهذه القسوة، لمَ ضحكن الضحكات العاهرة وهنّ يقلِّدن ندائي، لم شخرت كلّ واحدة كأنّها تنتقم منّي ومن فريدة؟

سرتُ وسط الزحام على رصيف الشارع، وأنا أحاول ضبط نفسي

فلا أجري ولا أصطدم بالمارّة ولا ألهث، كلّ هذا حتّى لا ألفت الأنظار نحوي، وفريدة كومة عظام وجلد بين ذراعيّ ولا مجال لإيقاف تاكسي إلّا بعيدًا عن شارع شريف، سيظنّ السائق أنّي أخطف إحدى العاهرات، برهان يطير أمامي وكأنّه دليلي للخروج من شارع شريف، لم يكتفِ بالبقاء على كتفي وقرّر أن يخفّف حملي فطار. سرتُ وأنا أحدّق فيه حتّى وصلتُ إلى شارع 26 يوليو حيث الزحام الحقيقي وضوضاؤه وإزعاجه، سرتُ معزولًا عن الناس من شدّة الزحام، هنا لن يلحظَني أحد أبدًا. وكان برهان يغيب وسط الزحام وكأنّه يفرّق الناس، ثم ارتفع بمقدار متر عن رؤوس الناس وأخذ يحلّق في مكانه وكأنّه ينتظر قراري. توقّفتُ إلى جانب بوّابة إحدى العمارات، وسمعت الخنزير يهمس: «ماء..». ولو كانت في يدي ماسورة من حديد لتركتُ فريدة على الأرض ولحطّمتُ جماجم السائرين حتّى يفرغ الشارع من كلّ إنسان، جفّ حلقي وسمعتني أهمس: «ماء..». وتطلّعتُ نحو السماء وتمنّيتُ أن تمطرَ على رؤوسنا فأشربَ ويهربَ الناس من المطر، تمنّيتُ أن تمطرَ أيّ شيء، لكن السماء بخلت حتّى بالخراء.

أخيرًا عبرتُ الرصيف ووقفتُ في بقعة غير مزدحمة قرب الشارع، توقّف تاكسي أمامي دون أن أشير إليه، دخلت من فوري السيّارة وقلت للسائق: «شارع الأزهر».

رقدت فريدة على حجري، تلتصق قدماها بباب السيّارة، وذراعي يحيط بكتفيها، تحرّكتُ إلى الجانب ببطء كي يرتاح جسدها على المقعد الخلفي بالكامل، والتصقتُ بالباب الآخر وأسندتُ رأسها على فخذي. ثم خلعتُ قناعي وتأمّلته لحظة، وراعني هدوء ملامحه وحياديتها، كيف يمكن للمعدِن ألا يتشوّهَ وسط كلّ تشوّهاتنا؟ وغطّيت به وجه فريدة المكشوف الشاحب نصف النائم نصف فاقد الوعي.

في داخل التاكسي، في العتمة المشروخة كلّ ثوانٍ بنور أعمدة الإضاءة الأصفر، كنت أرى عيني فريدة واضحتين مفتوحتين تحدّقان بي من خلف

فتحتي القناع، غابت عن عينيّ ملامحُ القناع تمامًا وكلّ ما رأيته عيناها، وتوقَّعت أن أراهما تدمعان أو تطرفان، لكنّهما كانتا جامدتَين ساكنتَين.

تمّ استنفاد كلّ شيء؛ لامبالاتي، وهدوئي، وسخريّتي ممّا يحدث حولي، حتّى غضبي نفد ولم تتبقَ إلا الرغبة في الانتقام؛ من الصامتين الماشين في الشوارع، وزوّار بيوت الدعارة، والصاخبين المغنِّين على الأرصفة، والمتحلّقين في دوائر وسط الزحام يقفزون عاليًا معًا ويهتفون بهتافات منغَّمة لا أفهم منها شيئًا، من كلاب الشوارع والخنازير والأبقار الهادئة والأفاعي المتسلّقة الحوائط والزاحفة بنعومة تجرح الرصيف وتجرحني والصراصير التي تنتشر في كلّ شارع بأجساد زلقة عارية مهدِّدة. مرّ التاكسي على الكثيرين، سأقتلهم يومًا، لن أترك أحدهم حيًّا. وفكّرتُ أنّي لو أحصيت مَن سأنتقم منهم لما انتهيت، وقلتُ إنّ صبري قد نفد، وإنّ انتقامي عادل، وإنّ اليوم قادم.

كنتُ أودّ أن أتفحّصَ جسدَها النحيل الذي تمدَّد مستسلمًا على السرير، وضعتُ كفّي على بطنها الضامر، وخصرها بارز العظام، وثديها الصغير، ورقبتها النحيلة، ووجنتها المنحوتة، كنتُ أتلمّسها وقلبي يخفق بجنون، هي مستيقظة تنظر إلى عينيّ لحظاتٍ ثم تسرح عيناها في فضاء الغرفة، يا فريدة أنتِ خائفة؟ لكن لا، العاهرات لا يخفن الأماكن الغريبة والغرف المغلقة. كنتُ أخشى أن تتكلَّم، أن تقوم دون أن أشبع من الجسد المستلقِي، وكنتُ أخاف إن تكلمتُ أن أنهار تحت حمل صوتها الأثير الناعس. فريدة كانت أكثرَ ممّا أتحمّل، وأتذكّرُ وجهها الذي رأيته للتوّ فزعًا عندما رأَت وجهي، وفمها مفتوح وأسنانها كبيرة كما أحبّها، لكنّها ذكّرتني بأسنان الموتى الممدَّدة أجسادهم على الأَسرَّة استعدادًا للغُسل، وظلّت صورتها فاغرة الفم متشنّجة الرقبة أمامي لا تغيب، مع أنّ وجهها هنا تحت كفّي أشعر ببشرتها الشاحبة اللون السقيمة تحت أصابعي، لكنّ الذكرى غلبت الحاضر. ثم أغمضت فريدة عينيها وبلعت ريقها، وسرعان ما انتظم تنفُّسها ونامت.

لم أتمكّن من القعود، كنتُ أدور في الشقّة كالسجين، وبرهان يقف متعلقًا بالحائط ورأسه إلى أسفل كأنّه يتّقي غضبي وينتظر ما سأفعله لاحقًا. نعم، سأقتل الناس حتمًا، وسأفعل هذا بسعادة. لو أنّي أمتلك سلاحًا الآن!

وتذكّرتُ كيس الكربون الذي اشتريته اليوم صباحًا؛ مسحوق الجعارين الملكي، وتذكّرتُ القدّيس لكنّه على الأرجح لا يزال في الغرفة مع الفتيات، ولن يهتمَّ بما حدث وسينسى كلَّ شيء غدًا صباحًا. لم يكن لديّ ورق بفرة، فأفرغت سيجارة من التبغ وملأتها بحرص بالكربون، وقطعت جزءًا من الفلتر بأسناني، تصرَّفتُ كيفما اتّفق وشربت السيجارة بنَهَم لم أصدقْه، وضربني السواد قبل أن أنهيَها.

نعم، أنا في العدم مرّة أخرى، هذه المرّة احتلّني باردًا كأنّي غارق في بئر بترول، وازدادت كثافته رويدًا رويدًا، وازدادت حرارته إلى أن قاربت حرارة جسدي فلم أعد أشعر به. وتساءلت كيف أكون في العدم وأنا موجود، إذا كنتُ موجودًا فهذا ليس بعدم، وحاولت البحث عن شيء ما حولي، أيّ شيء، لم أنظر لكنّي بحثت، لم يكن للنظر معنى في وسط هذا السواد، كنتُ أحاول أن أكسر فكرة العدم هذه، وأن أجد شيئًا حولي لأتيقّن من وجودي على الأقلّ، ثم فكّرتُ أنّ كلّ موجود متحرِّك لا بدّ، حتّى لو كنتُ ميّتًا، حتّى لو كنتُ ترابًا، حتّى لو كنت خارج الأرض في الفضاء، في سواد مماثل لما أنا فيه الآن، لكنتُ أتحرَّك ولو حركة طفيفة، ولكانت أعضائي الداخلية تتحرَّك حتمًا، لكنّي أدركتُ أنّي ساكنٌ الآن تمامًا، وأنّ قلبي ساكنٌ لا يخفق، وأنّ رئتيَّ لا تمتلئان بالهواء ولا تفرغان، وأنّ دمي متخثّرٌ في عروقي، ثم علمتُ أنّي عدمٌ كالعدم حولي، كنتُ لا شيء على الإطلاق، وحاولتُ تذكُّر ما حدث اليوم وأين أنا وما أنا، لكنّي نسيت اللغة والذاكرة.

10

برهان متعلّق بالحائط كما تركته البارحة، وفريدة لا تزال نائمة، وأنا جالس إلى جانبها أتأمَّلُها. كلّ شيء هادئ الآن.

لا أذكر ما فعلتُ بعد الكربون، ربّما نمت إلى جانبها دون أن أمسَّها، وربّما لم أتمكّن من السيطرة على شوقي فنمتُ معها. لا تزال صورة وجهها المرتعب تسيطر عليَّ، ولا تزال رغبتي في الانتقام حاضرة. كم ابتعدتُ اليوم عن المقاومة وكراهية فرسان مالطا وعمليّات الاغتيال والتحضير لثورة شعبيّة تطيح بالمحتلّ. تحوَّلت الأمور من العام إلى الشخصي، ولو أصبح الكثيرون في المقاومة مثلي لدام الاحتلال إلى الأبد.

سنقتل الناس لا ريب، نحن نقتلهم منذ سنوات طويلة ولم يعد الأمر مزعجًا لنا، سنقتلهم ولن يحدث شيء، سنقتلهم ولن يثوروا، لن يتحرَّكوا ليحطِّموا ويحرقوا مقرَّات المحتلّ، لن يهاجموا الجنود والضبّاط في مقارّ القيادة، وثكنات الجيش المصري المحتلَّة بعيدة عن الكثافات السكّانية ولا يمكن أن يقتحمها المدنيون، ونحن لا نملك القوّة أو السلاح الكافيَين. بدا الأمر كلّه عبثيًّا، وبدا أنّنا سنقتلُ الناس لمجرَّد الاستمتاع بذلك. أودّ أن أنسى الأمر كلَّه وأن أعيش مع فريدة، أتزوّجها، تترك هي الدعارة وأعمل أنا حارسًا شخصيًّا لواحد مشهور ومهدَّد. أعمل مدير أمن في مؤسّسة أو مصنع كبير. هذه أحلام اللاهثين وراء الاستقرار، لكنّ الاستقرار انتهى منذ سنوات ولن يعود. وأفكّر أنّنا لم نستقرّ قطّ من قبل، هذا وهم لا أساس له، هناك دائمًا المفاجآت التي تُخرِج الواحد من مسار حياته وتُدخله في متاهة ذات مسارات لا نهائية، ليعيش خائفًا دائمًا باحثًا عن الاستقرار المتوهَّم، يتحرَّك في المتاهة محاولًا الخروج أملًا في حياة أفضل وبلا قيد. ثم نخرج من المتاهة لنجد أنّنا في متاهة أكبر وأكثر تعقيدًا، من سجن صغير إلى سجن أكبر ولا شيء غير ذلك، حتّى مسارنا المستقرّ لم يكن إلا سجنًا، لكنّنا نفضِّله لأنّه واضحٌ على عكس المتاهة.

هل سأعود ضابطًا في وزارة الداخلية بعد نهاية الاحتلال؟ هل سيتمّ بناء الجيش المصري مرَّة أخرى؟ هل من تبقَّى من الضبّاط لديهم القدرة على السيطرة على الحدود ورفع العلم على أراضي القطر المصري مرّة أخرى؟

عشنا تحت الاحتلال قرونًا عديدة، لم نقاوم قطّ، وإذا نظرنا إلى كفاح باقي الشعوب لوجدنا أنّنا رحّبنا بكلّ المُحتلّين، يقولون إنّنا كنّا نرحّب بالمحتلّ فقط كي يطرد المحتلّ الذي سبقه، وكأنّ الاحتلال مرغوب فيه لكن بشروط. وحالما تخلّصنا من آخر محتلّ أجنبي بدأت التساؤلات ولم تنتهِ؛ هل هذه ثورة أم انقلاب عسكري، هل نحن دولة اشتراكية أم رأسمالية، هل نهتمّ بأنفسنا فقط أم نتوحّد مع العرب، هل تلك نكسة أم هزيمة، هل نحارب أم ننتظر، هل هذا انفتاح أم سداح مداح، هل نوقّع اتفاقية سلام أم إنّها خيانة، هل هو إرهاب أم إرهاب دولة، هل نحارب الإرهاب بالنار أم بالتنوير، هل هو ربان ماهر أم بقرة ضاحكة، هل عدنا إلى الملكية ممثلة في العائلة المباركة أم أنّه رجل يحترم الدستور، هل ما يحدث توريث أم أنّ ابنه يساعده، هل أهذه ثورة أم شغب، انتفاضة شعبية أم احتلال إخواني، هل سيحكمنا الإخوان إلى الأبد أم نثور عليهم. ومرّة أخرى؛ هل هذه ثورة أم انقلاب عسكري، هل نصبرُ أم ننتفض، هل نلتزم بالدستور أم نفوّض الرجل ليحكمنا إلى الأبد، هل سيرشح نفسه مرّة أخرى أمام دمية أخرى أم أمام منافس حقيقي، هل ما يحدث شغب أم ثورة، هل لا يزال الفساد متغلغلًا أم أن هذه هي سمات الدولة الحديثة، هل نعدّل الدستور كي يحكمنا لفترة ثالثة أم نجعله رئيسًا للحكومة؟ ثم جاء ما يقرب من نصف مليون فارس مالطي وأنهوا كلّ هذا التخبُّط، كلّ هذا الجدل غير المفهوم، كلّ هذه النقاشات والحوارات، كلّهم كفَّ عن طرح الأسئلة مع أنّنا لم نسمع إجابة واحدة شافية خلال عشرات السنين. ما حدث احتلالٌ صريحٌ حقيقيٌّ صادقٌ واضحٌ جميلٌ لا شكّ فيه، لم تعد هناك أقلّيةٌ، لم تعد هناك كتلةٌ حرِجة، لم تعد هناك معارضةٌ، لم تعد هناك أحزابٌ أو برلمانٌ أو انتخاباتٌ. كنّا جميعًا ضدّ الاحتلال ولم يقاومه أحدٌ. ولمّا تحرَّك عدّة أفراد وكوَّنوا مقاومةً قِوامُها ضبّاطُ الشرطة لم يأبه لهم ولم يعاونهم مواطن واحد، وحينما قُتل الناس برصاصات فرسان مالطا

لم يعترضوا، وحينما قتلناهم نحن لم يتّهمونا بالجنون، وحينما سأقتلهم بعد أيّام فإنّهم سيرفعون أكتافهم لامبالين ويمشون بهدوء مبتعدين. فقدنا القدرة على الاستمرار وتحوَّلنا إلى كتل صمَّاء، قتلتنا اللامبالاة ولم نعد قادرين على اتّخاذ أيّة مواقف، وكأنّنا جوامد أو أموات! لكن حتّى الموتى سيعترضون وسيندمون؛ الناس في يوم القيامة سيكونون نادمين على ما فعلوا، الناس في الجحيم سيصرخون من شدّة العذاب، لن يقفوا هكذا ليُعذَّبوا برضا تامّ ومن دون مقاومة. واللّواء الأسيوطي يظنّ أنّ الناس سينتفضُّون لأنّنا سنقتل منهم بضعة آلاف؟ يظنّ الرجل ابن عصر الوطنية أنّ الناس يكرهون المتاهة، ولا يدرك أنّ الجميع قعد ونام واستقرّ ودفن نفسه داخل المتاهة، تحت جدران المتاهة، لا يعلم أنّهم يئسوا منذ مدّة، وأنّهم الآن في ما بعد اليأس.

لكن لو كانت متاهتي ثمن استيقاظ فريدة لدفعته سعيدًا. استيقظي يا فريدة، أودُّ أن أسمع صوتكِ وأن أرى عينيكِ.

سمعتُ طرقاتٍ خفيفةً على الباب، رجل لا أعرفه، يرتدي قناعًا هائلًا على شكل رأس حصان ورقبته يغطّي نصفه العلوي، وذراعاه بارزتان من جانبي رقبة القناع، أعطاني مظروفًا صغيرًا أبيض ثم مضى دون كلمة واحدة.

كانت الرسالة واضحة: «في الساعة السابعة أرسلوا الناس إلى الجنّة. مبنى تيرينج في العتبة» عليَّ أن أرتجل كثيرًا إذن، لكن بالتأكيد حان الوقت.

لم أكن أعلم موقع مبنى تيرينج، لكنّ ميدان العتبة على بعد خطوات من البيت، مررت عليه مئات المرّات لكنّي لم أرَ المبنى قطّ.

لا يزال أمامي متّسع من الوقت، لكن يجب أن أنزل لأذهب إلى العتبة وأبحث عن المبنى، وبعد ذلك يجب أن أتفقّده لأعلم أين سأتمركز، ثم أبحث عن السلاح وأتأكَّد من كفاءته ودقّة تصويبه، وربّما اختبرته على عدّة أهداف، كلّ هذا قبل السابعة. الرسالة تحوي معلومتين فقط، مبنى

تيرينجِ والساعة السابعة، وعليَّ الالتزام بهما، أمّا غير ذلك فعليَّ أن أختلقَه اختلاقًا. منذ سنتين كانت كلّ مهمّاتي كهذه. معلومة واحدة فقط.

دامت جولتي في الحيّ أقلّ من نصف الساعة، اشتريت طعامًا لفريدة، وماءً وشايًا وسكّرًا، وملابس ظننتُ أنّها ستناسبها، وصابونًا كي تستحمّ. ثم عدتُ لأجدها لا تزال نائمة. ولم يكن هناك بدّ من إيقاظها.

جاء صوتها ضعيفًا في البداية، ربّما لأنّها نامت طويلًا، وأوّل ما قالت: «اطمئن.. أنا بخير». ثم أغمضت عينيها وتقلّبت في السرير ثم جلست ببطء. احتضنتها، كنت في حاجة إلى الشعور بذراعيها وهي واعية حول جسدي، وهي لم تكن بخيلة قطّ فضمّتني وأصابعها تعبث بظهري. قلت لها إنّ عليَّ أن أذهب الآن، وإنّي سأعود ليلًا. وقلتُ إنّ عليها ألّا تنزل إلى الشارع أبدًا اليوم، كلّ ما تحتاجه هنا وعليها أن تصبر إلى أن أعود. وعلى الفور رسمت على وجهها الامتعاض المفتعل المتدلِّل، هذا الذي كنتُ أحبّه كثيرًا فابتسمتُ من فوري، وتذكَّرتُ كيف كانت تفعل ذلك كلّما قلت شيئًا لا يعجبها. لم يكن هناك ما لا يعجبها حقًّا، كانت فقط تبدي امتعاضًا رقيقًا دون أيّة نيّة في تغيير ما سأفعل، كانت هذه طريقتها في الاعتراض، ربّما لذلك تعلَّقتُ بها كثيرًا.

يا فريدة سأعود منتصرًا، لكن لا أعدكِ بأنّ كلّ شيء سينتهي قريبًا.

مشت حافية واكتشفتُ أنّي ألبستها، في عجلتي، ملابس رجل؛ قميصًا لم أُزْرِرهُ وبنطلونًا لم أسحب سحابه، وربّما لم يلحظ أحد من السائرين في الشارع ملابس الرجل الواسعة على جسدها، وربّما لم يلحظنا أحد من الأصل. مشت نحو باب الغرفة الأخرى، تمسك البنطلون كي لا يسقط والقميص الواسع بذراعيه الطويلتين يخفيان يديها، ولما وصلت إلى الباب ونظرت إلى داخل الغرفة تراجعت واتجهت نحو باب الحمام، في المسافة القصيرة خلعت البنطلون والقميص، وظهرت بالزيّ الخفيف من النسيج الذي يغطّيها كلّها، سوى قدميها وكفّيها ورأسها، ودخلَت الحمَّام وأنا

أرى ظهرها المستقيم والفقرات تظهر تحت الجلد بارزة أودّ أن ألمسها، ومؤخّرتها قاعدة عريضة، نعم لا تزال عريضة، للجسد كلّه.

في الحمَّام كانت قاعدة على المرحاض عارية تمامًا، وسمعتُ صوت ضربة تيار البول في المرحاض، وابتسمت هي وقالت إنّ عليَّ أن أخرج، فالرائحة لا تطاق. وابتسمتُ لأنّي أحرجتها، لا تزال فريدة خجولة على الرغم من كلّ شيء.

وفكّرتُ أنّ عليَّ البقاء معها، وترك المهمّة والمقاومة وكلّ شيء، ربّما عليَّ أن أترك فرسان مالطا في مصر، ربّما عليَّ أن أعود إلى حياة طبيعية مع إنسانة طبيعية.

خرجت عارية تخطو برشاقة على البلاط اللامع، قدماها الكبيرتان تتناقضان مع ساقيها النحيلتين، وككلّ مرَّة رفعتُ عيني نحو كفّيها الكبيرتين، المتناقضتين مع ساعديها النحيلتين. كنتُ مجنونًا حينما تركتُ فريدة وقرَّرتُ البقاء في البرج. لكنّي هذه المرّة سأعود حتمًا، لن أغيب سنتين بالتأكيد، لكنّي تساءلتُ إن كانت ستنتظرني أم لا.

احتضنتها عارية، كنتُ أودّ أن أخلع ملابسي وأشعر بجلدها على جلدي، وأن تحتويَ قضيبي المنتصب بين فخذيها كما اعتادت، وأن تخمش بأظافرها ظهري ورقبتي وتضرب مؤخّرتي وتمسك بها وتقبض عليها وتقول لي كم هي حلوة، وأضحك أنا وتبالغ هي في المزاح فتدور حولي وتنحني ناظرة إليها وتقول: «فعلًا.. طيزك حلوة». لكن الوطن يناديني يا فريدة.

ودَّعتها وابتسمَت، قالت إنّها ستنتظرني، دون لوم أو غضب أو رغبة في العراك، وكأنّ سنتين لم يمضيا على آخر لقاء، وكأنّنا عدنا حبيبين في لحظة. لم تطلب تفسيرًا للغياب وأنا لم أطلب تفسيرًا لرعبها ليلة أمس. هذا ما نصير عليه عندما نرى كلّ المصائب تتراكم علينا دون رحمة؛ تصبح أفعالنا القذرة مغفورة.

خرجتُ وصورة الصراصير في رأسي، يغطّون رؤوسهم بورق الجرائد وصدورهم عارية وأجسادهم نحيلة، يتخبَّطون في الممرّ المفضي إلى السلم وكلّهم خرق وانفعال، كنت أودّ أن أعود لأقتلهم، وفكّرتُ أنّهم ينتحرون لكن على طريقتهم الخاصّة، هؤلاء يسعون إلى الموت غاضبين إلى أقصى حد، بلا أيّ مقدار من الرجاء، فقط يريدون أن نراهم هكذا، يائسين، لا كي نشفق عليهم، بل كي نأسى لحالهم.

وقفتُ أمام المبنى وارتديتُ قناع بوذا، هذا يوم طويل ولا بدّ لي من حماية مبكّرة.

ميدان العتبة على بعد دقائق من مكاني، ولا أريد أن أسأل المارّة والقناع يغطّي وجهي، في ذلك كسر للعزلة التي اخترتها لهذا اليوم، وفكَّرتُ أن أخلعه لأسأل الناس ثم تذكَّرتُ تليفوني وخرائطه.

خلال دقيقة ظهر مبنى تيرينج في منتصف شاشة التليفون، في صورة أفقية لميدان العتبة وما حوله، وظهرت روابط تشير إلى مقالات وتحقيقات كُتبت عن المبنى القديم، وصور كثيرة للمبنى من الأرض تُظهر الزخرفة على شرفاته والقبّة على قمّتة التي تعلوها كرة ضخمة، هذا مبنى أثري ولا أهتمّ. مشيت حتّى وصلتُ إلى ميدان العتبة، وبعد نظرتين وجدت مبنى تيرينج أشدّ وضوحًا ممّا ظننتُ، عمارة قديمة أبرز ما فيها القبّة التي كُتب تحتها بالعربية والإنجليزية «تيرينج» وفوق القبّة كرة ضخمة من معدِن حائل اللون وتماثيل لأشخاص يحملونها على ظهورهم.

اختيار المبنى موفَّق للغاية، سأقف داخل تلك القبّة أو بجانبها، كاشفًا مساحات شاسعة من الأرض، المئات يعبرون الطريق كلّ دقيقة، ولا بدّ لي من ذخيرة لا تنضب كي أقتل كلّ هؤلاء. أمام المبنى تجمَّع باعة كثيرون يعرضون بضاعة رخيصة، وكثيرون يمرّون بين الطاولات يتفحَّصون البضاعة ويمضون، سوق عشوائي وزبائن وباعة، بشر كثيرون جديرون بالقنص، كنتُ أمسح المكان بعينيّ حينما نشط برهان فجأة وطار متّجهًا نحو المبنى.

لم يلتفت أحد إلى برهان، الساعة الخامسة والربع، نحن في ذروة الزحام والعمل في السوق العشوائي على أشدّه، البيع والشراء قليلان لكنّ هناك الكثيرَ من الباعة والمارّة ومقلّبي البضائع. وبرهان مرّ وسط كلّ هؤلاء وواحد أو اثنان التفتا وأشارا إليه وهما يضحكان، وثالث افتعل الحماس مازحًا وجرى خطوات خلف برهان الطائر وهو يقول: «امسكوه، هذا سيعمل عشرين سيجارة!». بينما مشيتُ أنا بهدوء خلفه وقلت إنّ الناس جَهَلَة حقًّا، ولكنّ هذا ليس ذنبهم أو خطأهم، من يظنّ أنّي سأصعد إلى الأعلى وأقتلهم بعد أقلّ من ساعتين، وربّما لو علموا ذلك لما تحرَّكوا ولبقي كلّ منهم واقفًا في انتظار نصيبه من الرصاص.

تبعتُ برهان، ودخلتُ المبنى ليفاجئني السلم الضخم المتهالك، علامة على فخامة عتيقة انتهت بمرور السنين، صعدتُ الدرج ونور الشمس يتراجع، الدرج غير واضح بسبب الظلام المتسلِّل، وأشياء لم أميِّزها وركام كثير مبعثر عليه، يمنعني من الصعود بسرعة خوفًا من التعثُّر. في الطابق الأوّل انحرف برهان إلى اليمين داخلًا إلى إحدى الشقق، كان يطير بسرعة وكأنّه يتعجَّلني، تبعته وأنا أهرول هذه المرّة غير عابئ بما قد أتعثّر به. ودخل إلى إحدى الغرف التي كانت مظلمة تمامًا. أشعلت ضوء التليفون ودخلتُ.

وجَّهتُ الضوء إلى حيث سمعتُ صوت ضربات أجنحة برهان، كان أزيزه يطمئنني كثيرًا، وكان يحلِّق فوق صناديق من الخشب والبلاستيك. ومن النظرة الأولى أدركتُ أنّني أمام حقيبتين تحويان بندقتي قنصٍ، وتحتهما عدّة صناديق حجمها أصغر تحوي ذخيرة. آلاف الرصاصات هذه المرّة، فتحت إحدى الحقيبتين لأجد بندقيّتي المفضّلة، الدراجونوف الحبيبة، جديدة تمامًا ولا تزال تحمل رائحة شحم المصنع، وربّما لم تطلق النار قطّ، هذه النسخة البولندية المطوَّرة من النسخة الروسية الشهيرة، أكثر دقّة من مثيلتها الرومانية. أغلقت الحقيبة وحملتها بيسراي مع صندوقي

ذخيرة تحت ذراعي الأيسر، وأنرتُ الطريق بضوء التليفون، ثم استدرتُ ليرعبني ما رأيته.

عند طرف الغرفة الآخر كانت هناك مشنقة؛ حبل سميك ينتهي بأنشوطة خالية، يتدلّى من عمود خشبي أفقي قصير يتصل بآخر رأسي طويل، تسمَّرتُ قليلًا أمام المشهد، ثم وضعتُ الصناديق على الأرض وتقدَّمت نحوها.

عمود المشنقة مثبّتٌ في مصطبة كبيرة من الخشب، تعلو عن الأرض بمقدار درجات قليلة، صعدتُ ثلاث درجات إلى أن وقفتُ فوقها، أتتني قعقعة الألواح الخشب واضحة ليقشعرّ جسدي، وكلّما خطوت ازدادت القعقعة حتّى ظننتُ أنّ المصطبة سوف تنهار تحت ثقلي. لكنّ ما أدهشني وأخافني أرجحة الأنشوطة، كانت تتأرجح بعنف، وكأنّ شخصًا قد حرَّكها للتوّ، أو كأنّ شخصًا قد شُنق بها قبل دقائق لكنّ جثمانه غير موجود. تحت الأنشوطة مباشرة رأيتُ كوَّة مربّعة مظلمة تمامًا تبدو وكأنّها تنتظرني. هنا يسقط الجسد وهو بين الحياة والموت. تسمَّرتُ أمامها كثيرًا، كنتُ أريد أن أقرِّب نور التليفون منها كي أرى ما في داخلها، لكنّ شيئًا ما منعني.

تركتُ الغرفة حاملًا الصناديق وصعدتُ درج المبنى، كانت بقايا ضوء الشمس وأضواء الشارع تتسرَّب إليَّ لتضيء المكان الواسع، كنتُ أصعد وقد هزَّني كثيرًا مرأى المشنقة، ولم أفكر قطّ في سبب وجودها هنا، أو من استخدمها آخر مرَّة، أو حتّى لم كانت الأنشوطة تتأرجح، وقرَّرتُ ألّا أعود لآخذ البندقية الأخرى وباقي الصناديق.

وصلتُ إلى حيث القبّة، كنتُ على سطح المبنى والقبّة أمامي والشوارع مكشوفة تحت قدميّ، كلّ شيء واضح ولا يحجب الشارع سوى المبنى القريب، لذلك قررتُ أن أصعد لا كي أتمركز فوق القبّة، بل كي أتمركز داخل الكرة الحديد الضخمة الموضوعة فوق القبّة. أخرجتُ البندقية من صندوقها، وحشوت ثلاث خزانات بالطلقات، وحملت صندوق

طلقات والبندقية ثم صعدت على سلّم نحيل فوق القبّة. كنتُ قريبًا جدًّا من التماثيل الأربعة التي تحمل الكرة، لكنّي لم أعرف قطّ أكانوا ملائكة أم شياطين. ولم أعرف أيضًا إن كانت تلك الكرة هي الأرض أم الكون أم شيئًا آخر أكبر منهما. والتفتُ خلفي فرأيت الصيد يسرح على الأسفلت ينتظرني. مرَّرت جسدي تحت الكرة من خلال الفرجة الواسعة بينها وبين الأرضية، كنتُ أقف وسط التماثيل الأربعة، صدري ورأسي داخل الكرة، وباقي جسدي خارجها كأنّي أحملها معهم.

في الداخل وجدتُ كرسيًّا مثبّتًا في هيكل من قوائم حديد تتّصل أطرافها بالكرة، الكرسيّ معلَّقٌ في منتصف الكرة تمامًا. كان داخل الكرة حارًّا بفعل الشمس التي كانت تضربها طوال النهار، وفكّرتُ أنّ الحديد سيبرد سريعًا، ولن أعانيَ بسبب الحرارة كثيرًا. تسلَّقت الهيكل الحديد وجلستُ على الكرسي، ووجدته كرسيًّا يدور حول محوره ويتحرّك، وهناك نوافذ صغيرة تفتح في سطح الكرة تسمح لي باصطياد المارّة في الشوارع دون أن يلاحظني أحد، هذه أداة إبادة كاملة. لم تصل أيٌّ من أنوار الشارع إلى داخل الكرة، وأكادُ لا أرى شيئًا دون مساعدة ضوء التليفون الذي أتى خافتًا داخل الكرة الهائلة، والذي لن يدوم طويلًا. لكن لا مفرّ، لا بدَّ أن أنهيَ صناديق الذخيرة كلّها.

صوَّبت نحو شابّ يعبث في تليفونه بكلتا يدَيه، يلعب لعبة ما، كان الهدف واضحًا جدًّا، ولا يبعد أكثر من مئة وخمسين مترًا، وهو قريب للغاية بمقاييس الدراجونوف الحبيبة. الشابّ يرتدي قميصًا أبيض، وذلك أنسب الألوان لإظهار لون الدم الناتج عن الإصابة. صوَّبتُ نحو منتصف الصدر، فوق الكفّ العابثة بالتليفون تمامًا، ومع حساب ارتداد البندقية، ومع حساب الريح الخفيفة، ودرجة الميل الحادّة، أطلقتُ النار.

وربّما كانت تلك أدقّ إصابة وجّهتها لأحدٍ منذ مدّة طويلة، كنتُ قد اعتدتُ على التصويب من قمّة البرج، أقلّ مسافة بيني وبين الهدف كانت

تزيد عن الكيلومتر الواحد، والآن أنا أصوّب من على بعد ثُمن المسافة تقريبًا. وبدا من إصابة الشابّ الساقط على الأرض أنّ الموضوع سيكون سهلًا. تجمَّع خمسة أشخاص حول الرجل، ينحنون فوقه ولا يلمسونه، واختبرتُ نفسي فأطلقت الرصاص عليهم، ثم أدرتُ الكرسيّ ووجهتُ البندقية نحو هدف آخر، هذه المرّة امرأة في الخمسين تمشي وسط الناس دون أيّ تميُّز، لكنّي كنتُ أودّ قتلها ولم أعلم لماذا، أطلقت النار عليها وسقطت دون حركة. ثم قتلتُ كهلًا يشربُ سيجارة، أطلقت النار على وجهه. ثم قتلتُ شابًّا من الباعة الواقفين تحت الكوبري، سقط فوق بضاعته وأسقطها على الأرض. ثم عدتُ إلى حيث الباعة الجوّالون قرب المبنى، ووقفتُ على الهيكل الحديد الذي يحمل الكرسيَّ كي تصبح درجة مَيَلان البندقية أكثر حدّة، كان الحفاظ على التوازن سهلًا، وأتاح وقوفي مدى أكثر اتساعًا للبندقية، وأخذتُ أتأمّل المشهد من خلال المنظار قليلًا.

قتلتُ أغباهم، أطلقت النار عليه وهو يصرخ مروّجًا بضاعته، كان يصرخ كمجنون: «أنا حرامي!». كي يبرِّر انخفاض أسعار بضاعته، أطلقت النار بعدما نطق حرفين من كلمة «حرامي» ثم تحمَّستُ كثيرًا فحاولتُ إطلاق النار على مجاورِيه من الباعة، لكن الرصاصات نفدت. بدَّلتُ المخزن المليء بالفارغ على الفور.

قتلتُ واحدة تمسك بملابس وتقلِّبها ولا يبدو على وجهها أنّها ستشتري أبدًا، أطلقت النار على كفّها التي تقلّب الملابس، فصرخت وأمسكت قطعة الملابس بكفّها الأخرى، فأطلقت النار على الأخرى لتفيق من جنونها وتتخبّط بين الطاولات محاولة الخروج، ثم أطلقت النار على رأسها. الساعة التاسعة. تعطَّلت البندقية الأولى أربع مرّات، ومللتُ من محاولاتي إصلاح العطل فنزلتُ وأخذتُ الثانية وتابعت الضرب. كانت الذخيرة وفيرةً جدًّا، وبقي بالقرب من القبّة صندوقان كاملان، لم أهتمّ بإحصاء الرصاصات المتبقّية، كان واضحًا أنّي سأملُّ الأمر كلّه قبل أن تنتهيَ الرصاصات.

وقتلتُ واحدًا يمرّ راجلًا فوق الكوبري، أطلقت النار على ساقَيه فوقع وأخذ يزحف حتّى الحافّة، ثم حاول تمرير جسده عبر السور الحديد يريد السقوط، لكنّي وفّرتُ عليه المشقّة وأطلقتُ النار على رأسه. وقتلتُ مَن توقّف بسيّارته محاولًا إنقاذه، ولسبب ما تريّثتُ قليلًا قبل أن أطلق النار، فوجدتُ الرجل يسحب سكينًا من تحت كرسي سيّارته ويذبح الرجل. ولم أفهم كيف يذبح واحدًا ميّتًا، أو ربّما هو لا يزال حيًّا على الرغم من الرصاصة التي أصابت رأسه، ولم أبالِ فأطلقت ثلاث رصاصاتٍ على الذي يحمل السكين، أنا من يقتل الناس هنا. وقتلتُ من اصطدمت سيّارته بالسيّارة المتوقّفة فوق الكوبري وسقطت سيّارته لترتطم بالأرض في جلبة هائلة، وخرج هو من السيّارة يترنّح، وصوّبت عليه وأنا أضحك وأهتزّ من شدّة الضحك، وحاولتُ كتم أنفاسي لكنّي انفجرتُ ضاحكًا إلى درجة أنّ البندقية كادت أن تسقط من يدي، ثم أتاني خاطر أنّ الرجل قد يهرب وأنّ عليَّ قتله وأنّ اسمه أمين. وتماسكتُ ورفعتُ البندقية نحو أمين وأطلقت رصاصتين على صدره. وقتلتُ صعيديًّا يرتدي جلبابًا واسع الكم، اسمه جوهر، هذا أصبت رقبته برصاصة واحدة وأخذ يجري وهو ينزف، وتركته لأنّي علمتُ أنّه سيموت بعد دقائق دون أن يتمكّن أحدٌ من مساعدته، وقتلتُ علي خليل وهو رجل طاعن في السنّ ولم أعلم لم كان يسير هنا، أطلقت النار على رأسه فسقط وهو يتنفّسُ، وأطلقت النار مرّة أخرى على صدره لأنّي علمتُ أنّه سيموت برصاصتين. وأطلقت النار على كمال حسين، وعمره أربعة وعشرون عامًا، صوّبت على رأسه وأطلقت رصاصتين متتابعتَين، ومات وهو في طريقه إلى الأرض. وبحثتُ عن سميرة الدهشوري، كنتُ أعلم أنّها تمشي تحت الكوبري فمسحتُ المسافة بالمنظار، ولمّا رأيتها أطلقت النار بلا تردّد على كبدها، كان متليّفًا منذ سنوات وربّما شعرت هي بالطلقة تخترقه وتقتلها، وهو ما دعاها للتأمُّل وهي تموت.

وقتلتُ زياد محمّد صالح بكير بطلقة واحدة، وقتلتُ شهاب حسن عبده عبد المجيد شهاب بطلقة في رأسه، وقتلتُ كريم مدحت محمّد وهبة بطلقة في الجانب الأيمن من صدره، وقتلتُ محمّد ممدوح سيّد منصور بطلقة في بطنه خرجت من ظهره، وقتلتُ مصطفى زينهم ربيع محمّد بطلقة في صدره، وقتلتُ محمود خالد محمود قطب بطلقة في عينه اليسرى، وقتلتُ أحمد إيهاب محمّد عباس فؤاد بطلقة في جبهته، وقتلتُ أحمد حسين أحمد حسين بطلقة في رأسه، وقتلتُ أحمد شريف محمّد محيي الدين ضاحي بطلقة في صدره، وقتلتُ إسلام عصام محمّد فتحي محمّد شريف بطلقة في رأسه، وقتلتُ أميرة أحمد محمّد إسماعيل بطلقة في صدرها، وقتلتُ رامي جمال شفيق أحمد بطلقة في صدره، وقتلتُ رمضان صدقي أبو العلا بطلقة في بطنه، وقتلتُ روماني متى عدلي متى بطلقة في الجانب الأيمن من صدره، وقتلتُ سامح محمّد جمال بطلقتين في صدره ورأسه، وقتلتُ محمود ميرغني محمّد أحمد بطلقة في رأسه، وقتلتُ نانسي رفعت السيّد حسن بطلقة في عينها اليمنى، وقتلتُ مصطفى فتحي منصور درويش بطلقة في وجهه، وقتلتُ محمّد إبراهيم محمّد خليل بطلقة في قلبه، وقتلتُ مؤمن عيد حسانين عبد المُعطي بطلقة في رأسه، وقتلتُ هبة حسين محمّد أمين بطلقة في رأسها، وقتلتُ أبانوب عوض الله نعيم خليل جرجس بطلقة في رأسه، وقتلتُ أشرف موسى حجاب موسى بطلقة في جبهته، وقتلتُ جرجس لمعي موسى بطلقة في رقبته، ما أسهل طلقات الرقبة، وقتلتُ مصطفى كمال إبراهيم عامر بطلقتَين في صدره وبطنه، وقتلتُ عماد عبد الظاهر محمّد بطلقة في عينه اليمنى خرجت من جانب رأسه الأيمن، وقتلتُ محمود رمضان نظير عبد الحميد بطلقة في بطنه، وقتلتُ إبراهيم رضا محمّد عبد الحميد بطلقة في رأسه، وقتلتُ خالد محمّد السيد محمّد الوكيل بطلقة في صدره، وقتلتُ محمّد عثمان عبد الغني محمّد بطلقة في بطنه، وقتلتُ أيمن أنور عبد العزيز عبد الجواد

بطلقتين في صدره وبطنه، وقتلتُ يوسف فايز أرمانيوس إبراهيم بطلقة في صدره نفذت من ظهره، وقتلتُ صفوت محمّد محمّد سعيد بطلقة في الجانب الأيمن من صدره، وقتلتُ محمود شحاته محمّد شحاته بطلقة في بطنه، وقتلتُ سيّد فرج مسعود بطلقة في رقبته، وقتلتُ محمود إبراهيم محمّد خفاجة بطلقة في رأسه، وقتلتُ إمام كمال محمّد عبد الله بطلقة في رأسه، وقتلتُ مبروك أحمد عبد الفتاح بحر بطلقة في الجانب الأيسر من بطه، وقتلتُ شريف يحيى عتريس سليمان بطلقة في عينه اليسرى.

وقتلتُ محمّد علي محمد سامي بطلقة في جبهته؛ وقف في الشارع بين الجثث وهو ينظر إليَّ كأنّه يعلم مكاني بالضبط، كان واقفًا لا يتحرَّك وظلال كثيرة تحوم حوله ووراءه، عندما رفع كفَّه اليمنى وأشار لي بسبّابته، ثم وضعها على جبهته وتوقَّف طويلًا على هذا الوضع، كان من الممكن أن يكتشف أحدهم مكاني بعد كلّ هؤلاء القتلى، فيهرب بعيدًا أو يحتمي خلف حائط، لكنّ محمد لم يهرب ولم يتحرَّك بل وقف ينتظر الطلقة، كان يعلم أنّي سأستجيب له وسأطلق النار عليه حيثما أراد.

نظرتُ إلى ساعة التليفون ووجدتها العاشرة، وسمعت صوت برهان يعلو، تضرب أجنحته الهواء ويتصاعدُ الأزيز كما لم أسمعه من قبل، تركتُ البندقية وتلفَّتُ حولي باحثًا عنه، كان يحلِّقُ إلى يميني وكأنّه فزعٌ، يطير فيقترب من وجهي بسرعة ثم يتوقَّف قبل أن يصل إليَّ، أنا في منتصف الكرة وهو يدور حولي ويقترب منّي ويبتعد عنّي بخرقٍ غير معتاد، فراغ الكرة الصغير يخنقه. ثم اقترب من جدار الكرة وحلَّق قليلًا قربه، ثم اندفع مسرعًا وضربني في وجهي ضربة خفيفة، سمعتُ رنين اصطدامه بقناعي المعدني، وجدتني أسأله بلهفة: «ما لك؟». ثم عاد فابتعد، وطار مندفعًا ليضربني مرَّة أخرى ضربة أقوى، كدتُ أسقط من مكاني، وسألته وأنا أعلم أنّه لن يجيب: «ما لك يا برهان؟». ثم خرج من النافذة الضيّقة وكأنّه يهرب منّي، خلعتُ قناعي وأنا ألهثُ من فرط الانفعال، وأخذتُ أتنفّس

عميقًا طلبًا للمزيد من الأكسجين، واستعدت وضعي على الكرسيّ في منتصف الكرة ريثما أهدأ. لكنّي سمعت صوت برهان يقترب بسرعة بالغة فانقطعت أنفاسي، اندفع كالرصاصة من النافذة فأصاب جبهتي إصابة مباشرة، وسقطتُ من الكرسي لأصطدم بقاع الكرة، ثم وقعتُ خارجها تمامًا لأصطدم بقمّة القبّة الصُّلبة.

حاولت التمسّك بوعيي، هذا ليس وقتًا مناسبًا للإغماء أبدًا، قاومت وأخذتُ أفكِّرُ في المَهمّة والاحتلال والثورة القادمة ويأسي من أيّ تغيير، وصرتُ على يقين تامّ، كنتُ مؤمنًا بأنّ أحدًا لن يتحرَّك، كنت أعلم أنّ الثورة لن تحدث، وظننتُ أنّ كلّ ما فعلته بلا هدف، لكنّي كنتُ أنتقم من الجميع.

حام برهان في الهواء ببطئه المعتاد خارجًا من الكرة واقترب منّي، وحطّ على صدري وسكن، ثم فقدتُ الوعي ثواني قليلة.

كنت مستلقيًا بين أرجل الشياطين الأربعة، الكرة الحديد فوق رأسي والدراجونوف الحبيبة لم تسقط معي وإنّما تعلَّقت من حزامها الجلدي بالكرسي، وأخذت تتأرجح بلطف. تذكّرتُ فريدة في البيت وحدَها، وأدركتُ أنّي قتلتُ الكثيرين. كنتُ سليمًا، آلامٌ بسيطة أصابت ظهري وعنقي، وحلّ دوار خفيف ناتج عن اصطدام رأسي بالقبّة. كنتُ أريد التحرَّك والعودة إلى الكرة كي أتابع إطلاق النار، حينما سار برهان على صدري متمهِّلًا مقتربًا من وجهي. لو أنّ لك وجهًا لأعرف ما تنوي! في العتمة أسفل منّي سمعتُ صرخات الناس تعلو حزينة ملتاعة لأنّني توقّفتُ عن إطلاق النار، سمعتهم يهتفون: «أين ذهبت؟.. عد واضرب..».

ثم غمرتني العتمة.

2011 م

1

نزل إنسال من بيته مسرعًا، في طريقه المعتاد نحو المدرسة، لكنّ التوقيت هذه المرّة لم يكن معتادًا. نزل في السابعة مساءً، بعدما تلقّى اتصالًا من حارس المدرسة، قلق الرجل، وصوته المتوتّر آلما إنسال.

قال الحارس إنّ عليه الحضور إلى المدرسة فورًا، فهناك مشكلة لا يستطيع التعامل معها؛ طفلةٌ بقيت في المدرسة حتّى هذه الساعة، ولا أحدَ يردّ عليه عندما حاول الاتصال؛ المدير لا يردّ، المدرِّسون يتحجَّجون ببُعد المسافة وعدم القدرة على التصرُّف، ووالد الطفلة لا يردّ على أيٍّ من التليفونات المسجَّلة باسمه، والحارس لم يتمكّن من الوصول إلى محلّ سكنه. فكّر إنسال أنّ اختيار الحارس له دليل على يأسه، هو يصدّقه عندما قال إنّه قد حاول الاتصال بغيره وفشل. ليلى زوجته لم تعارض، قالت له اذهب وتحقَّق ممّا يحدث هناك، ولولا أنّها طلبت منه الذهاب بصدق لما ذهب.

عاد إنسال إلى بيته وهو يحمل فتاة في الرابعة من العمر، نائمة ومرهقة، دخل وهو يشرح لزوجته كيف أنّ لا مفرَّ من استضافتها في البيت الليلة فقط. توقَّفت ليلى أمام الفتاة متعاطفة، وبالتأكيد، أسهم جنينها في إذكاء هذا التعاطف، وكما يفعل الكثيرون، تخيَّلت ليلى سيناريوهات عديدة، يكبر فيها جنينها حتّى يصبح طفلًا في الرابعة، ويفقدهما لسبب ما، فتتبنّاه أسرة مُحسِنة. ولهذا تقبَّلت ليلى الفتاة بصدر رحب.

في ذلك اليوم، تصاعد الكثير من الغاز، بكى الناس، كانوا خائفين، لكنّهم بكَوا بسبب تأثير الغاز فيهم. سالت دموعهم وجرت أنوفهم، واختنق بعضهم. كانت الشرطة على الأرض تؤدّب المعترضين والعصاة. بينما وقعت الأغلبية في موجات عارمة من الضحك، جالسين في الصالونات الفخمة، يشاهدون ما يحدث من خلال التلفزيون، يتجشؤون بكسل، ويمارسون الهواية العظيمة: السخرية. قالوا: من يظنّون أنفسهم؟ يتحدُّون النظام؟

انتهى اليوم وقد كُنس كلّ من نزل إلى الشارع، أمطرتهم الشرطة بالغاز، هربوا فركض رجال الشرطة خلفهم في بعض أحياء القاهرة، اعتقلوا الكثيرين، وهرب الباقون إلى بيوتهم. ظنّت الأغلبية أنّ الأمر انتهى تلك الليلة، لكنّ الثأر كان قد أزهر أخيرًا.

ولم يدرك الجميع أنّ ما حدث، وما سيحدث لاحقًا، حتميّ، وأن جحيمهم معتاد، بل هو جحيم مكرَّر يشبه غيره، وأنّ كلّ ما حدث وما سيحدث قصاص.

في اليوم التالي، كان وهم الحياة الدنيا في أوجه، انطلتِ الخدعة على الجميع، وظنّ بعضهم أنّ الخلاص قد اقترب، هذا خلاص زائف، خلاص من أشياء حمقاء ابتدعوها. بينما استسلمت الأغلبية للوهم المسيطر على الجميع.

استيقظت زهرة وهي مريضة جدًّا، حتّى إنّ إنسال استدعى طبيبًا إلى البيت، مرتعبًا من فَقْد من لا يعرف. طمأنه الطبيب، وقال إنّ كلّ ما تحتاجه للراحة يومان، ودواء قويّ.

غاب إنسال عن المدرسة في هذا اليوم، وتابع مدير المدرسة حالة الفتاة عن طريق التليفون، أخبر إنسال بأنّه يحاول الوصول إلى أهل الفتاة بلا جدوى. وقرب الغروب، اتّصل به ليخبره بما توصّل إليه بعد جهد.

أمّ زهرة ميّتة، ووالدها لم يظهر مطلقًا، ويبدو أنّه معاق أو مريض. الأرجح، أنّ لا أحدَ في منزل والد زهرة. اختفى الرجل، وعندما عرض

المدير على الجيران استضافة الفتاة، ليأسه، رفض الجميع، أخبر المديرُ إنسال أنّه يبحث عن أقارب آخرين لزهرة، ولو لم يجد أيَّ أقارب سيرسلها بعد أيّام لأيٍّ ملجأ.

مرّ اليوم التالي بغير تحسّن في حالة زهرة، لكنّها أفاقت في صباح الجمعة وبدأت تسأل عن أبيها.

اشتعلت القاهرة في يوم الجمعة.

وكما توقّع إنسال وليلى، ملأت زهرة البيت بكاءً. وعبثًا حاول إنسال أن يشرح ما حدث، ولكنّه كلّما همّ توقّف، كيف يشرح ما لا يعرفه؟ وأخذ يطمئنها بكلّ طريقة ممكنة، وأخذ يكذب. فادّعى أنّ الأب غائب، وأخذ يسألها عمَّن تعرفه من الأقارب.

سألها عن الجدّ والجدّة، عن الأعمام والخالات، لكنّها أنكرت معرفتها بأيٍّ منهم، وعندما ازداد بكاؤها عن كلّ حدّ ممكن، انهت ليلى الاستجواب، وحملت زهرة وهي تهدهدها، متهمة إنسال بإثارتها.

أحسّت ليلى بفزع زهرة، لا يمكن تخيّل فزع طفل في الرابعة، هو فزعٌ يُرى ويُلمس فقط، وينتقل عبر ارتعادات الجسد، فيتضخّم عند البالغين، ويتحوّل لشعور بالضآلة والعجز. كانت زهرة في حالة فزع مستمرّ، ثابت في صعوده، لا يصل إلى قمّة إلّا علاها إلى ما فوقها، فزع يعلو فزع. هي لم تعلم ما يحدث بالخارج، كذلك، لم يعلم إنسال، ولا ليلى، ولم يعلم أحد من المصابين في الشوارع، وبالطبع، جهل القتلى كلّ شيء. وعلى الرغم من الجهل المطبق على الجميع، كان فزع زهرة الجاهلة مماثلًا لفزع مَن يعلم حقيقة ما يحدث.

نامت زهرة بعد ساعات من البكاء والتهدئة ومحاولات الإطعام، وظلّ الزوجان مسمّرَين أمام التلفزيون يتابعان في فزع آخر ما يحدث.

في ذلك اليوم اقتُنصَتِ الكثير من الأرواح، وأُصيب العديد من الناس بخرزٍ دقيق يلسع الجلد ويستقرّ تحته، يقتل إذا أطلق على الوجه مباشرة،

يخرِّب كرة العين إذا ما أصابها، سيعتبر كلّ مَن أصيب به نفسه بطلًا، هؤلاء الذين أصيبوا به ولم يموتوا، سيرون في خرزهم تذكارًا عظيمًا يحتفظون به تحت الجلد، ولن يروا أبعد من ذلك؛ فبعد شهور قليلة، سيكون خرزهم عارًا يجلّلهم.

وسار الأمل بين الناس في الشوارع يحصدهم حصدًا، يمضغهم ويلفظهم سعداء، هؤلاء كانوا يرون طرف العذاب فقط، يظنّونه مجدًا.

ومرّت ثلاثة أيّام ثقيلة على العائلة الصغيرة، ولم يظهر والد زهرة قطّ، فاستنتج مدير المدرسة أنّه أصيب أو فُقد أو مات، واحد وسط آلاف. تعقّدت المسألة حينها، وتناقش إنسال مع ليلى، واستقرّ رأيهما على استضافة زهرة حتّى يظهر واحد من أهلها.

خلال الأيّام الثلاثة استقرّ إنسال وليلى أمام التلفزيون، يتابعان ما تنقله الكاميرات، يسمعان كلامًا كثيرًا عن أعداد القتلى والمصابين، يشاهدان الصراع بين الطرفين، ويفكّر إنسال في والد زهرة المفقود، يتنقّل بين قنوات التلفزيون، يقول إنّ الرجل مصاب في أحد المستشفيات، راقدٌ في غيبوبة، أو أنّه مات فعلًا، جثّته ملقاة بإهمال في مكان ما، لم يكتشفها أحد، خلف صندوق زبالة كبير، فوق سطح عمارة عالية، في بلّاعة عمومية، في مزبلة من المزابل. وربّما نقله أحدهم إلى المستشفى ومات هناك، وهو الآن مستقرٌّ في ثلاجة أو في مشرحة، أو ربّما مات وهو في الطريق إلى المستشفى، فنقلته سيّارة الإسعاف إلى المشرحة الكبيرة في زينهم، عندها يرتجف رعبًا، عليه أن يذهب إلى كلّ تلك الأماكن ويبحث عنه، يبحث عن جسد أو جثمان. ثم يمدّ يده إلى بطن ليلى، ليستمدَّ منها القوّة.

2

في الصباح، استيقظ إنسال وجلس على سريره محاولًا التخلّص من أثر النوم، ألقى نظرة على ليلى وزهرة، وجدهما على وضعٍ شبيهٍ بوضع البارحة:

ليلى تحتضن زهرة، وزهرة تمدّ ذراعها حول جسد ليلى تحاول احتواءها، لكنّ زهرة كانت مقلوبة؛ قدماها قرب وجه ليلى، ورأسها عند بطنها. قام إنسال وجهّز ملابس نظيفة واستحمَّ. لم يكن قد استحمّ بالأمس، نام بلا عشاء، وقف تحت الماء وكأنّه يتخلّص من شيءٍ ما، أو كأنّه يستعدّ لشيءٍ ما، لأدران قادمة ستصيبه، اليوم سيذهب إلى مستشفى قصر العيني ليبحث عن والد زهرة، بين المصابين وبين الأموات، ظنَّ إنسال أنَّ عليه أن يشجّع نفسَه قليلًا هذا الصباح، سيمشي بين الناس، سيتريّض في حيّه الهادئ، سيتوقّف عند النواصي متأمِّلًا الأشجار والنخلات القليلة، وسيتحاشى النظر لأكوام الزبالة العالية، يريد أن يرى جمالًا قبل أن يرى القبح، ويريد أن يرى أحياءً قبل أن يرى الأموات، أن يرى أصحّاء قبل أن يرى المصابين. غالَب قلقَه وانتهى من حمّامه سريعًا، ثم ارتدى ملابسه ونزل إلى الشارع.

كان الناس في خوف مستمرٍّ جالسين في بيوتهم، وقلّةٌ شجاعة تتحرّك نحو أعمالٍ مهمّة لا يمكن إهمالها، أو نحو ميادين الاحتجاج أو نحو الأسواق. بينما مشى في الشارع عدد قليل جدًّا لا يبالي بما يحدث حوله، يعلم كلّ شيء، لكنّه لا يبالي.

مشى إنسال بلا وجهة محدَّدة، أخذ يطوي الشوارع والتقاطعات، والناس يوقفونه ويسألونه أين يذهب، ويطلبون رؤية بطاقة هُويّته ثم يعتذرون، ويبرّرون تصرُّفهم هذا فالبلد مشتعلة، واللصوص في كلّ مكان، وإنسال لا يفهم، لم يفهم قطّ.

تكرَّر توقُّف إنسال أمام مجموعات من الشباب ليطّلعوا على هُويّته، مجموعة تلو أخرى، عند كلّ تقاطعٍ وكلّ ناصية وكلّ قهوة، حتّى ملَّ التوقّف. أراد أن يمشيَ بلا هدف، أن يترك كلّ همِّه على الرصيف، يتخلَّص منه خطوة بعد خطوة. وهؤلاء أصرُّوا على إيقافه وتذكيره بكلّ ما يحمله.

ومرّ رجلٌ هرِمٌ يرتدي ملابس مهلهلة كالمجانين الماشين في الشوارع، وقطيعٌ ضخمٌ من الكلاب تبعه في أثناء سيره، كلاب شوارع صغيرة الحجم

هزيلة، و أخرى ضخمة مترهّلة بآذان كسلانة، ينقصها ذيول وأقدام وأعين وأجزاء من الفرو هنا وهناك. تهرول خلفه ولا تبتعد عنه، ورجل الكلاب يسير باحثًا عن شيء ما، ينظر في وجوه الناس، يحدِّق ثواني قليلة، ثم يعاود المشي والبحث.

مشى إنسال متحاشيًا كلّ المارّة، مرَّ على دكّان فاكهة فانتعشت عينه بالألوان والأشكال، ابتاع برتقالًا وهو يفكّر في عصره ليشربه، يُحبّ ضربة الطعم الحامض للسانه. وابتاع خوخًا وهو يفكّر في تقطيعه قطعًا صغيرة لزهرة، تأكلها بيدها الصغيرة، وابتاع موزًا وهو يفكّر في تقشيره لليلى؛ هل يفيد الموز الحامل؟.

قابله رجل الكلاب، توقّفا ثواني على رصيف الشارع، اعترض رجل الكلاب طريقه، وكلّما حاول إنسال الإفلات من مواجهته تحرَّك ليمنعه، حاصرت الكلاب الرجلين؛ التفَّت حولهما وهي تتثاءب. قال له: «هذه المتع الزائفة، وها أنت قد خطوت خطواتك الأولى، وسوف تمرّ أيّام قليلة قبل أن ترى كلّ شيء، أقول لك: استمتع بالزيف، فلن تراه بعد ذلك».

ثم مضى رجل الكلاب في طريقه.

***

أمسك الناس بلصٍّ في الشارع، هكذا ظنُّوه؛ لصٌ لأنّه لم يحمل هُويّة. ضُرب وعُذّب، ولمّا أمسك مُدية أحدهم الذي حاول أن يطعنه، هرب الجميع من حوله خائفين، وظلَّ اللصُّ ممسكًا بالمُدية وهو لا يصدِّق ما حدث له. ثم حاول الهرب؛ جرى مسافة قصيرة ثم رمى المُديَة على الأرض وهو يجري، وتطوَّع إنسال فأمسك به وعطّله لثوانٍ، كان الناس قد لحقوا باللص. هكذا ظنّوه، لصًّا.

عندما علَّقوه في الأنشوطة كان قد مات قبل دقائق، لم يشعر بشيء حينما علَّقوا جثّته من عمود النور. سيتركونه هكذا ساعاتٍ طويلة، حتّى يأتي واحدٌ في الليل ويقطع الحبل، فيسقط الجثمان على الأرض.

توقَّف إنسال بجانب الجثّة المعلَّقة، كان كفُّ الجثّة قريبًا من وجه إنسال، أظهر ما رآه، مرتخيًا نصف قابضٍ على الهواء، وجرح غائر في ظاهر الكفّ. لا جرح غيره، أظافر الكفِّ نظيفة وأصابعها متناسقة. لم يقاوم الفضول ونظر إلى وجه الميِّت، ها هو يرى رجلًا مشنوقًا لأوَّل مرَّة.

عاد إنسال الى البيت مرهقًا، سار ساعة واحدة، لكنّها حطّمته تمامًا. بعد كلّ هذا كيف سيذهب إلى الثلاجة اليوم، كيف سيحمل زهرة ويدخل بها إلى الداخل، حيث الأبواب المعدِنية المربّعة.

وجد ليلى وزهرة نائمتين، أغلق عليها باب غرفة النوم وخرج إلى الصالة.

هناك، لطم صدغيه، شدّ شعر رأسه، كتم فمه بيده وأخذ يصرخ، قفز في الهواء، عضَّ أصابعه، أمسك قميصه وشدَّه بعنف يريد أن يمزِّقَه. ثم أخذ يلطم وجهه برتابة صارمة، لطمة كلّ ثانيتين، لطمة خلف أخرى، ازدادت شدَّة اللطمات مع زيادة عددها، كان وجهه يرتجُّ بشدّة مع اللطمات القويّة، كانت مشهد الصالة في عينه يهتزّ بعنف، ومع اللطمات الأخيرة، كان نورٌ ساطع يلتمع مع كلّ ضربة، يغطّي على مشهد الصالة، يختفي بسرعة ويعود مشهد الصالة المعتمة إلى عينه، لحظات الضوء هذه جعلت إنسال يهدأ، هذه لحظات انعزال عن العالم، بعيدًا عن الشارع والجثّة المعلّقة وزهرة وليلى. بعد ربع ساعة من العنف، هدأ وانتظم تنفّسه، خمد انفعاله. وعاد ليوقظ ليلى وزهرة.



وصل إنسال مرهقًا إلى مستشفى قصر العيني، ظلّ يسأل وسط الفوضى عن أماكن المصابين والمفقودين والموتى، أرشده العاملون إلى سجلّات قيد المصابين، وسأله واحدٌ منهم عن اسم المصاب المفقود، بحث أمامه عن الاسم في السجلّ، وعندما لم يجده أشار عليه بالذهاب إلى الثلاجة، حيث تنتظر جثامين كثيرة من يتعرَّف عليها.

وقف إنسال أمام الثلاجة وهو مضطرب كثيرًا، وقبل أن يدخل تذكَّر أنّه لا يعرف وجه الرجل، لم يره من قبل، ولم يرَ حتّى صورة له، ندم لحظة على تسرُّعه وعدم اتصاله بمدير المدرسة، لكنّه تناسى ندمه، فهو الآن أمام باب الثلاجة ولا بديل عن الاستمرار. كلّ ما يعرفه عن الرجل اسمه الثلاثي كما هو مدوّن في سجلّ المدرسة. أمام باب ضخم، وقف خازن الثلاجة في انتظار القادمين، بوجه بارد، وبكلمات مقتضبة جدًّا، سأله عن معلومات المفقود، اسمه الثلاثي، صلة القرابة، مكان فقدانه، متى كان آخر اتصال. أخبره إنسال بالاسم، وكذب الكذبة المعتادة مدعيًا أنّ المفقود ابن خالته. قال الخازن بعد بحث قصير إنّ الاسم غير موجود في سجلّ الداخلين، وربّما على إنسال الدخول إلى المشرحة والبحث بين الجثث، فهناك، بالإضافة إلى المعروفين، الكثير من الجثامين المجهولة، ربّما كان المفقود واحدًا منهم.

وافق إنسال، وهو لا يعلم عمَّن يبحث، دخل وأخذ يدور بين الجثث المكوَّمة على أسرة معدِنية في المكان، نظر في وجوه المُمدَّدين على الأرض. جروح عديدة شوَّهت الجثامين، في الصدر والأطراف والوجه، بعض الجثث عارية، يبدو أنّ هذه من تعرَّف أصحابها عليها، يبدو أنّ هؤلاء مَن سيتمُّ شقّ صدورهم لمعرفة سبب موتهم، عريهم يدلّ على الاستسلام. والباقون بملابسهم، مدماة وممزّقة، أو محروقة في أماكن قليلة، هؤلاء لم يستسلموا بعد، ينتظرون أصحابهم وأقاربهم كي تُخلع ملابسهم وتُفتح صدورهم، ينتظرون أن يبحث الطبيب عن أسباب الوفاة، أن يستخرج الطلقات والشظايا. وتنوَّعت التعبيرات على الوجوه؛ خوف وفزع واندهاش، لكنّ كلّ هذا خالطه تعبير ظاهر لأيّ عين؛ اللامبالاة. آخر ما ينشغل به القتلى عندما تنسحب أرواحهم من الأجساد.

لاحظ أنّ كلّهم ذكور، وتيقّن أنّ هناك نسوةً يرقدن في مكان آخر، عاريات أيضًا، لا يُسمح بأن يدخل عليهنّ سوى نسوة مثلهنّ، في الموت كما في الحياة حياء.

وجد جثتين لتوءمين، متماثلين إلى حدّ الاندهاش، لا فارق بينهما إلّا في الجروح، كلاهما قُتل برصاصات في الصدر، وُضع الجثمانان على طاولتين متجاورتين، على وجهيهما تعبير واحد، ارتخت أذرعهما في هيئة واحدة، واستسلمت الأكف في تماثُل كامل، اختبأت السبّابة تحت الوسطى، وارتخت الشفة السفلى كاشفة عن أسنان مسودَّة بفعل دخَان السجاير، وظهر شقّ في شعر الحاجب الأيسر، هذا يبدو وكأنّه شقٌّ متعمّد، قام به الحلّاق أو قام به التوءمان كي يؤكِّدا على التشابه المُقدّس. لكنّ التشابه في الحياة لا يعني التشابه في الموت، اختلف توزيع الرصاصات على الصدرين، عشوائيّة حكمت التوزيع، ثلاث ثقوب واضحة في صدر أحدهما، تجمّعت في الجانب الأيمن، قرب الترقوة، بينما ظهر ثقبان واضحان في صدر الثاني، واحد في منتصف الصدر، وآخر قرب البطن، وكان هناك ثقب ثالث يظهر ليختفي. تحيّر إنسال؛ هل هذا ثقب رصاصة فعلًا أم سراب يخادعه. هذا ميّت وكفى، الاثنان ميّتان، والاثنان ليسا والد زهرة، لكنّ تطابق الجسدين الكامل فرض على إنسال استنتاجًا واحدًا؛ هذا جسدٌ واحد قُتل مرّتين.

ألحّت الفكرة عليه، أيمكن أن تكون تلك الجثامين أوعية لروح واحدة تنقّلت من وعاء إلى الآخر مع كلّ عملية قتل؟

لم يرَ إنسال قتلى قبل هذا اليوم، رأى موتى فقط، جثامين لأشخاص يعرفهم ماتوا في سكينة بعد احتضار بسبب المرض، أو ماتوا وهم نيام، أو تحت أقنعة الأكسجين في المستشفيات، أو في غرف العناية المركزة. رأى جثمانًا أو اثنين تحت أوراق الصحف على الطريق، رأى جثّة دهستها سيّارة قبل أن يغطِّيها المارّة بأوراق الصحف، رآها من بعيد فلم يعرف تفاصيل الوجه المقتول. لكنّه اليوم حدَّق في الوجوه كثيرًا، محاولًا إيجاد من لا يعرفه.

هذه جروح ستبقى مفتوحة في نفسه حتّى يرحل.

استمرّ في دورانه على الوجوه، وفي النهاية لم يجد سببًا منطقيًّا لما يفعل الآن، لكنّه ظلّ يدور بلا مقدرة على التوقّف. ولمّا أنهى دورته الأولى على الوجوه دار مرّة أخرى، ببطء تأمّل كلّ وجه، ولم يكن في حاجة إلى تخزين هذه الوجوه، كانت تنطبع في ذاكرته فور مشاهدتها، اطمأن كثيرًا لهذا، فربّما يجد صورة للرجل في مكانٍ ما، عند أحد أقاربه، أو حتّى في أحد ملفّات المدرسة، فيبحث في ذاكرته عن صاحبها. كان ينقل ما هو لحم مكوّم على الطاولات وعلى الأرض إلى ذاكرته، خوفًا من فقدان الملامح، خوفًا من الضياع في التراب.

سأله خازن الثلاجة إن كان يعرف عمَّن يبحث؟ هل يعرف وجهه؟ كان دوران إنسال الرتيب قد أثار ريبة الخازن، بالإضافة إلى الكذبة الشهيرة التي أطلقها قبل دقائق. ارتبك إنسال قليلًا ثم ردّ نافيًا. والخازن لم يعترض أو يستنكر، يبدو أنّ الباحثين كلّهم لا يعرفون عمّن يبحثون. طلب الخازن منه أن يأتي بواحدٍ من أهل المفقود، علّه يتعرّف عليه. قال إنّ القوانين تحتّم ذلك، وما يفعله إنسال الآن مخالف للقانون. ثم تبدّلت لهجته ولانت ملامحه قليلًا، قال له إنّ الميت أفضل كثيرًا من الحيّ في هذه الأيّام، قال إنّ الكثيرين سيأتون هنا، وسيرون من مات ويتعرّفون عليه، ويسقطون موتى مثله، وبذلك يُرحمون من عذاب الفَقد.

لكنّ إنسال كان مهتمًّا بزهرة ووالدها، أراد أن يجد والدها ولو كان ميّتًا. قال للخازن إنّ للمفقود طفلة في الرابعة، وهي الوحيدة التي قد تتعرَّف عليه، فهو لا يعرف واحدًا من أقاربه غيرها. بهدوء قال الخازن إنّ عليه أن يأتيَ بالطفلة لتتعرّف على والدها، إن كان هنا.

تسمَّر إنسال، لم يُعقِّب على كلام الخازن، وظنَّ أنّه يسخر منه، لكنّ الجدِّيّة المرتسمة على وجهه نفت أيّ سخرية قد تبطِّن الكلام. قال الخازن إنّ ما يحدث عظيم، ولا حلّ إلّا هذا على الرغم من غرابته.

قال الخازن إنّه يعلم تمامًا لِم يشفق إنسال على الطفلة؛ يظنّ أنّ وجوه

القتلى ستؤرِّقها، قال إنّ عليه ألّا يخاف. ذاكرة الأطفال هشّة للغاية، ستحتفظ بصور الأب القتيل لأسابيع فقط، وبعدها ستنساه تمامًا. أيضًا، ستحتفظ الطفلة بصور القتلى الآخرين التي ستراهم لأيّام قليلة بعد ذلك، ثم ستختفي تمامًا من الذاكرة. ستروح لتحلّ محلّها ذكرياتٌ أخرى وصورٌ أكثرُ قَسَاوةً أو أكثر لطفًا. قال له بجدّيته الشديدة: مَن يعرف، ربّما كانت في رؤية وجوه القتلى رحمة من نوع آخر.

غادر إنسال الثلاجة وهو لا يفهم ما يحدث حوله. رسم في رأسه سيناريوهات سوداوية لزيارته القادمة مع زهرة؛ تخيَّل زهرة تدخل المستشفى وحدها، بينما ينتظرها هو على الباب، وتخيَّل جسدها صغيرًا جدًّا، يغيب في المدخل الضخم، لترتقيَ السلم على اليمين. ثم صار تخيُّل ما سيحدث بعد ذلك صعبًا.

غبط الخازن كلّ من في الخارج، مَن يطلق الرصاص ومن يتلقّاه، وتمنّى لو أنّه تعامل مع الجثامين فقط، أمّا الأهل فلا قِبل له بهم. كانت الفوضى في كلِّ مكان داخل الثلاجة، وعلم الخازن أنّ الكثيرين قد دفنوا أمواتهم، وأنّ آخرين يدفنون الجثث المجهولة في اللحظة نفسها، بينما ستظلُّ قلةٌ من الناس هنا يدورون بين الجثامين، هؤلاء من يُعذبون حقًا. كان يعرف أنّ تلك الفتاة ستجد أخاها بعد شهور من البحث، مع أنّ الأخ يرقد ميّتًا في مستشفى قريب. كان يعرف أنّ الأخرى ستجد أخاها حيًّا غدًا، ثم سيُقتل بعد شهور، وأنّها لن تبحث عنه طويلًا حينها، بل سيموت أمام ناظريها. كان يعلم أنّ هذا الأب سيجد جثمان ابنه غدًا، وسيتبعه بعد عدّة شهور من الحزن المستمرّ. كان يعلم أنّ تلك الجثامين الثلاثة لن يجدها أحد، بل لن يطلبها أحد. وأنّها ستُدفن بلا رفاق أو أهل، سيدفنها غرباء. وتأمَّل الخازنُ التدبير المتقن، وعاين للمرَّة الألف الخطَّة المحكمة. فها هم الغرباء يعذِّبون برؤية غرباء آخرين.

كان الناس في الشوارع غاضبين، كان القتل مشاعًا بينهم، يقتلهم

مجهولون من فوق ومن تحت، ظنّ الناس أنّهم يرفعون ظلمًا عن أنفسهم، وظنُّوا أنّ الظالم يقاومهم. بل وظنَّ الظالم أنّه منتصرٌ. وكذلك ظنَّ الناس، أنّهم منتصرون. لكن لا نصر اليوم، لا نصر هنا أبدًا. لم يعلم إنسال حقيقة ما يحدث حوله، كان كغيره يظنّ أنّ الظلم يُرفع، على الرغم من ذلك لم يرغب في السير في مظاهرة، لم يودّ أن يكون طرفًا في ما يحدث، في ذلك اليوم خرج من المستشفى وسار في مظاهرة دون أن يدرك ذلك.

وبينما كان إنسال يمشي وسط الناس وهم يهتفون، وجدهم يسقطون حوله بلا سبب؛ يتجمَّد الواحد منهم للحظة في مكانه ثم يسقط. سقط رجلٌ بهذه الطريقة، وآخرٌ كان يرفع ذراعيه ويهتف؛ سقطت ذراعاه إلى جانبه، ثم سقط على وجهه مرتطمًا بالأرض. ثم كانت وردةٌ حمراء دمويّة في جبهة أحدهم فجأة، واختفت معالم وجهه.

فزع إنسال، وجرى هاربًا ممّا لا يعلمه، لكنّه رأى الناس يشيرون إلى السماء ويصرخون، ويهرولون مسرعين بعيدًا عمَّا يشيرون إليه، ونظر إلى حيث تتوجَّه سبّاباتهم، فوجد مبنى عاديًّا، ولمّا سمع الناس يصرخون: «قنّاصة». رفع عينه تلقائيًّا ناحية السطح، باحثًا عن أيّ شخص، عندما رأى التماعة صغيرة وسقط بجانبه من صرخ للتوّ. ركض إنسال هاربًا.

احتمى بركن مبنى آخر أكثر ضخامة، في اللحظة التي اخترقت طلقة قناص ركن المبنى نفسه، لم يرَ إنسال الطلقة ولا أثرها، فمن ناحيته، كان ركن المبنى سليمًا، لم تنفذ الرصاص من الركن، تمكّنت الخرسانة من احتوائها، لكن الناحية الأخرى من الركن كانت قد تشوَّهت تمامًا بفعل الطلقة. ثقب يحيطه دمار، جرح في المبنى.

استراح على الأرض مع آخرين، لم يكن قد سمع كلّ هذه الضوضاء من قبل، خليط الصراخ والطلقات النارية وأصوات انفجارات مكتومة تأتيه من كلّ مكان. كان قد مرَّ بالميدان كثيرًا خلال حياته، ولم يرَ جمعًا بمثل هذه الفوضى أبدًا. رأى الكثيرين يقتربون من مكان سقوط الناس

مهرولين، هؤلاء أتَوا كي يسعفوهم. فردّ إنسال ساقيه على الأرض في استسلام، ووصلته رائحة دماء الساقطين قويّة طازجة. وتذكَّر طعم دماء أسنانه عندما كُسرت وهو طفل.

ورأى الناس واحدًا ملقى على الأرض وقد راح ربع رأسه؛ عينه اليمنى ونصف جبهته وصدغه، وحدَّقوا في رأسه فوجدوه فارغًا بلا مخّ؛ تجويف معتم بلا لحم أو أشلاء، ورفع الجميع أكفّهم إلى رؤوسهم لا إراديًا، يطمئنون، يتأكّدون أنّ رؤوسهم لا تزال كاملة، أنّ أمخاخهم لا تزال في محلّها.

صاح رجل في لوعة: «خربانة، الدنيا خربانة».

وسأله واحدٌ عمَّا يحدث؛ قال: «من يقتل من؟». فردّ غاضبًا: «ما يقتلنا ليسوا ببشر، هؤلاء لا يعلم أحدٌ خلقتهم».

ثم تحلَّق حول إنسال الكثيرون، يريدون رفعه ونقله إلى عربة الإسعاف، لكنّه أخبرهم أنّه بخير، طمأنهم وطمأن نفسه، قال إنّه فقط يودّ التحرُّك والعودة إلى المنزل، وبعد دقائق، استغلّ كثرة عددهم وذاب فيهم، متحرِّكًا نحو محطّة المترو، هاربًا من السماء.

وفي أثناء سيره نحو المترو، فكَّر أنّ زهرة ستتأذَّى كثيرًا حينما يأتي بها غدًا إلى الثلاجة.

وفي الخارج، كان الناس يبكون من فرط الغضب، كانوا قد رأوا مشهد الدمّ جَلِيًّا.

وكانوا يُنذرون عدوهم بالقصاص، يرفعون قبضاتٍ غاضبة، يهتفون بوعيد الإعدام. لم يكونوا في حيرة، كانوا يؤمنون بأنّهم صادقون، وأنّهم على الطريق الصحيح، وأنّهم مع ذلك قلّة، وأنّهم يقفون في وجه الطاغية وجماعته، وأنّ الأغلبية تقف مع الطاغية، لكنّهم آمنوا بالنصر الحاسم العاجل. ولم يعلم أحدهم أنّ كلّ هذه أوهام، لم يعلموا أنّ الأمل وهم.

سيحمل هؤلاء ثقل ثأر لن يزول أبدًا، وسيُعذَّبون كما لم يُعذَّب أحد.

3

في شارعٍ عريض قريب من بيت إنسال، علت أكوامٌ من الزبالة. تراكمت لتكوِّن أهرامًا عديدة، كانت هذه الأهرام نتاج شهور طويلة من إضراب الزبَّالين عن العمل. في البداية تكوَّنت كومة بسيطة في منتصف الشارع، وهكذا، صار كلّ مَن يرمي قذارته يقذفها إلى أعلى الكومة، وارتفعت الكومة حتّى كوَّنت تلًا عاليًا يضاهي في ارتفاعه ارتفاع أهرامات الجيزة.

ثم ظهر هرمٌ ثانٍ، وثالث ورابع، وارتصّت سبعة أهرامات في منتصف الشارع، وسُمي شارع الأهرام. ولسبب ما نسي الناس أنّهم هم من أنشؤوا تلك الأهرامات من الزبالة.

ومشى رجلٌ وفتاتان، واحدة في الحاديةَ عشرةَ والأخرى لا تزال طفلة في الرابعة، الرجل أتى من مكان قريب، من تحت الكوبري في الشارع الكبير حيث يبيت كلَّ يوم، والفتاتان أتيتا هاربتين من أبٍ مجنون، لا تتذكران سوى القليل، كانتا في غير حاجة إلى ذاكرة أصلًا، فما سيحدث كافٍ لإحداث أروع التأثير في الفتاة الكبيرة، كانت تعلم أنّ ما سيحدث عظيم، كانت أيضًا تعلم أن لا مفرَّ من حدوثه، واستسلمت استسلام العالمين. ولم يكن هناك ما ترتكِن إليه إلّا العبث.

أخذ الرجل يعبث بكومة الزبالة الصغيرة في الشارع الفرعي، أهرامات الزبالة الضخمة لا تصلح للنبش، هو يفعل ذلك كلّ يوم، يستخرج من الأكوام الصغيرة ما يمكن أكله، الذي لم يفسد بعدُ، الذي راحت رائحته وأخذ العَطنُ يتسلّل إليه، يأكله قبل أن يفسدَ تمامًا، قبل أن يتحلّلَ أو يتغيّر لونُه، يمسك التفاحة ليشمَّها، ليميِّزَ رائحة العطن الخفيّة قبل أن تسيطر على التفاحة بأكملها، وإذا رأى كسرة خبز متعفّنة، إذا رأى حبّة فاكهة وقد تعفَّن طرفها، فإنّه يقضم الجزء المتعفّن ويبصقه، ويأكل الباقي. رجل الزبالة.

غالبتِ الفتاةُ الكبيرة حياءها، وأخذت تعبث بكومة الزبالة الأخرى، بعد أوّل دقيقة، وجدت رغيفًا كاملًا، لا يزال طريًا، بينما وجد رجل الزبالة

في كومته رغيفًا قاسيًا، وضعه في كيسه البلاستيك ريثما يبلّله بالماء. ثم وجدت الفتاة الصغرى بقايا دجاجة، لحمًا أبيضَ لا يزال ملتصقًا بعظام الصدر، رفعت القطعة لتريَها لرفيقتها الكبيرة، وابتسمتا معًا. لكنّ رجل الزبالة لم يجد سوى رغيف الخبز اليابس. تابعهما بحسد، ثم أدرك أنَّهما تهدِّدان نطاق عمله، وستشاركانه استكشاف الزبالة، مِعى أخرى ستهضمُ طعامه.

طردهما بكلامه، ثم أشاح بذراعه غاضبًا. لكنّهما لم تتحرَّكا، بسرعة أمسكت الكبيرة بحجرٍ من الشارع وقذفته به. أخطأ الحجر وجهه، فتقدّم بجسده الضخم، ضاربًا الفتاة ضربة واحدة فقط لترقد فاقدة الوعي، والأخرى الصغيرة تنظر إليها ولا تفهم.

في ذلك الوقت، كان الناس في هلع بالغ، يدورون حول المخابز وبائعي الطعام. بينما كان الشباب يقفون في الشوارعِ مسلَّحين بالعِصي، كلٌ يشتبه في جاره، يشتبه في أخيه، ثم يعود ليحتضنَه معتذرًا معترفًا بالخطأ. كان الجميع يقولون إنّ الجرح قد انفتح، وإنّ الصديد ينزّ منه بكثافة، وإنّهم في حال اختبار، لكنّهم أصرّوا على إكمال الطريق، لا رجوعَ اليوم، لا عودة إلى ما سبق، لن نُظلم ثانية، وكان الأمل يتضاعف مع كلّ نَفَس يغذّيه الجهل.

لم تظهر علامات الندم أو الغضب على وجه رجل الزبالة، الرجل ذو وجه جامد، لم يتحرَّك منذ سنين، حتّى عندما يتسوَّل طعامه لا يتحرَّك وجهه، وإنّما يحاول أن يرقِّق صوته. ومع صوته الرقيق، يضيف تأوّهات وزفرات هادئة، وربّما صفَّر، هذه التأثيرات التي يضيفها على كلامه تجعله ودودًا حقًّا، لكنّ وجهه يبقى جامدًا.

فقد رجل الزبالة عينه منذ سنوات، بياض عينه مغناطيس لأعين الناس، والرغيف دائمًا في كفّه يشغل الناس بالتفكير في حاله البائس، في حالهم البائس، رغيف كامل صُلب أو بقايا رغيف، هو أكثر ما يحصل عليه من الزبالة، وهو أهمّ ما يحتفظ به.

يحرص رجل الزبالة على أكل ما يجده فورًا، يأكل بقايا الفواكه، وقشور الخضراوات، ويجرش العظام بأضراسه، وقد يمتصّ النخاع الذي يحبّه، حتّى لو كان باردًا ثقيل القوام. لكنّ للخبز تعاملًا آخر؛ يحبُّ أن يحتفظ بالخبز مدّة أطول، يبحث عن مصدر للمياه، ليبلّل الرغيف ثمّ يأكله، يحبّه طريًّا. يحتفظ رجل الزبالة بأرغفة عديدة في جيبه، في قميصه، في الكيس البلاستيك قرب موضع نومه، كلّما جاع أخرج واحدًا وأخذ يقضمه. يجوع رجل الزبالة وهو نائم، يستيقظ وحلقه جافّ، يشرب جَرعتين من الزجاجة بجانبه وهو راقد على الأرض، ثم يُخرج رغيفًا ويبلّله بقطرات قليلة، ثم يلتهمه حتّى يشبع ويعاود النوم. يحرص دائمًا على الرغيف والزجاجة بجانبه قبل أن ينام.

رجل الزبالة مملّ سَمِج، يمرُّ على البيوت، يعرف أسماء قاطنيها ويناديهم مضيفًا لقب حاج أو حاجة. وإذا لم يعرف الاسم ينادي: «يا حبيبي»، يتودَّد إلى الجالسين في بيوتهم، فيُلقُون إليه بالعملات المعدِنية وبقايا الخبز. آخرون يُخرجون رؤوسهم من الشبّاك هاتفين: «امشِ». صوت رجل الزبالة ضوضاء عندما يعلو، ومع تكرار جملة «يا حاج» كلّ ثلاث ثوانٍ، يتحوَّل الأمر إلى كابوس على السامع. لكنّ التكرار لا يأتي من فراغ، لا يتسوَّل رجل الزبالة طعامه إلّا إذا لم يجد شيئًا في أكوام الزبالة، الناس بخلاء هنا، يأكلون كلّ شيء، يأكلون اللحم والجلد والعظام، حتّى بقايا الفاكهة، كلّ ما يجده قشور البصل، وشعيرات جذوره المترَّبة، تلسع قشرة البصلة لسانه عندما يأكلها.

وفوق كلّ هذا ظهرت الفتاتان، لا يوجد ما يكفي من الخبز حتّى تشاركاه.

مرَّ إنسال بجانب رجل الزبالة، تحرّك وهو يهتزّ مبتهجًا، يناديه: «يا حبيبي، كلّ سنة وأنت طيب». ولا يقول غيرها، ظلّ يكرّرها برتابته المعتادة خمس مرَّات أو ستّ . تجاهله إنسال، ولاحظ الفتاتين تبكيان على الرصيف القريب، كانت الفتاة الكبيرة قد أفاقت وأخذت تبكي بصوت خفيض، فبكت الصغيرة لبكائها.

فكّر إنسال، إنّ قتل الفتاتين وزهرة ورجل الزبالة لن يحسِّن العالم، لكنّه سيريح الكثيرين.

وفي لمحة غير متوقّعة، اقترب رجل الزبالة من الفتاة التي صفعها للتوّ، وأخذ يربِّت على كتفها، كانت أضعف من أن تقاوم.



لم يضيِّع رجل الزبالة وقته، عاد مع الفتاتين إلى مكان مبيته، بيته الصغير تحت الكوبري، في المكان المتّسع قليلِ الارتفاع تحت المطلع، وضع رجل الزبالة ألواحًا خشبيّة نصف محطّمة، كوّن بها حوائط لتحميَه من الريح، مساحة صغيرة جدًّا اختبأت خلف كومة من أكياس الزبالة السوداء. كانت هذه الأكياس تحميه من تطفّل المارّة والشرطة. استلقى رجل الزبالة في منزله، على مساحة أربعة أمتار مربعة، تشغل المساحة وسادة صغيرة، وصحف عديدة مرصوصة في كلّ مكان، وحشية صغيرة لا لون لها. كانت رائحة العفن حاضرةً في المكان بشدّة، وصوت سيّارات قليلة تمرُّ فوق رأسه على الكوبري، وأنين الفتاة الكبيرة يأتي من تحت جسده المتعرِّق، لم يضاجع رجل الزبالة طفلة من قبل، لم يختبر هذه النعومة والرقّة من قبل، كذلك، لم يعتد أن تبكيَ امرأة تحته بكاءً مكتومًا خفيضًا هكذا.

في الخارج كان الناس مشغولين بوهم الدنيا، يُقتلون في كلّ شارع، وكان القنَّاصة يجتهدون في أداء مهامّهم. واستلقى إنسال محاولًا النوم، لكنّه لن ينام إلّا ساعة واحدة قبل الفجر.

كانت الفتاة الكبيرة تنشج بعنف، كان الألم طاحنًا، لكنَّها لم تصِح، فقط أنّت. خوفًا من إيقاظ الأخت الصغيرة النائمة في ركن البيت الصغير. فكَّر رجل الزبالة لو كانت ترفضني لقاومت، لخمشت وجهي وضربتني، لكنّها تريد ذلك. وعندما رفع وجهه وحدَّق في وجهها أعجبته دموعها ووجهها الخائف. تباطأ ثمّ توقّف قليلًا وهو يتابع هدوء وجهها، ثم عاد يرهز بعنف مفاجئ مستمتِعًا بالألم والنشيج المكتوم. تابع ما يفعله بحماسة.



لم تكنِ زهرة قد تأقلمت بعدُ على البيت، بكاؤها المتقطِّع يصيب ليلى بالتوتُّر، لكن لا مفرّ من احتمال الطفلة مفقودة الأب. تعافت زهرة من مرضها ببطء، خفَّف مرضها من شدَّة الصدمة التي تلقّتها بغياب الأب المفاجئ، وظهور العائلة التي لا تعرف عنها شيئًا.

ثم خلقت ليلى عذابها، تابعت ما كانت قد تخيَّلته عندما رأت زهرة لأوّل مرّة، تخيَّلت حياة طفلها بعيدًا عنها في ملجأ خاصّ بالأيتام، ولدٌ وحيد وسط مجموعة من المتشرِّدين، هو أكثرهم وسامةً ودَعة. ثم تخيّلته في الشارعِ مثل العديدين، طفلًا يجري حافيًا وملابسه ممزَّقة، يمسك كيسًا بلاستيكيًّا ويتنشَّق سائلًا سميكًا يستقرّ فيه. أو عند أحد الأقارب يضطهده ويرهبه، ويفرش له ملاءة على الأرض العارية لينام عليها، وربّما يغضب عليه فيجعله ينام من دون عشاء. كلّ هذه الأقدار المأساوية كانت تمرّ أمام عينيها قبل أن يرى طفلها النور. هناك، في رحمها كان الجنين على الخطّ الفاصل بين الموت والحياة، كانت روحٌ جديدةٌ تتكوَّن، منتظرةً اللحظة المثالية لتحلّ في الجسد الصغير، وتظلّ مستقرَّة في الرحم حتّى ترى النور.

بينما كانت ليلى في خوفٍ مستمرّ، تخاف حينًا على إنسال الذي يبحث في ثلّاجات المستشفيات عن جثمان رجل لا يعرفه ولم يره من قبل، وتخاف منه لإهماله المستمرّ ولشروده الدائم وانشغاله عنها دومًا بأمور لا أهمّية لها، حتّى البحث عن الجثمان كان غيرَ مهمّ، لكنّ الوضع كان لا يسمح بالاعتراض، وتخاف حينًا على الطفلة التي تبكي سائلة عن أبيها الغائب، وتخاف على طفلها. ولا تدري كيف تقوم بالتخلُّص من تلك المخاوف.

لا تكفّ زهرة عن الحركة في البيت، تمشي وهي تحدِّث نفسَها وتحدِّث أباها الغائب، تصف ما تراه وتكرّر اسمه، تحكي لأبيها عن حجم الكرسي، ولون الستارة، وقسوة خشب الباب. تأمَّلت السجادة ثم استلقت عليها وغرقت في النوم.

كرهت زهرة رائحة هذا البيت ورائحة إنسال ورائحة ليلى، لكنّ رائحة طفل ليلى لطيفة، أحبّتها زهرة كثيرًا.

استقبلت ليلى زوجها في لهفة، سألته عن زيارته المستشفياتِ، عمّا رآه هناك وعن والد زهرة؛ هل وجده؟

لم يكن إنسال في حالة تسمح له بمواجهة ليلى بكلِّ ما رآه، كذلك، لم تكن ليلى في حالة تسمح بسماع أوصاف الجثث، لكن كان يجب أن تعلم بزيارة زهرة المتوقَّعة للمشارح. حكى لها ما حدث باقتضاب، وحاول أن يشرح لها ضرورة تلك الزيارة. توقَّع إنسال أن تفزع ليلى لكلامه. لكنّه لم يتوقّع ردّ فعلها.

لا يمكن لأمٍّ تحمل جنينًا أن تحزن.

احتضنت ليلى زهرة وهي لا تزال نائمة، لم يكن هناك مفرٌّ من ذلك، وتسرّبت رائحة الفزع إلى أنف زهرة، وفي اللحظة نفسها عندما استقرّت روح الجنين في جسدها، تسرّب الفزع نفسُه إلى الجنين. لمست زهرة رائحةُ الأسى في الجسدين واستيقظت وليلى تحتضنها.

لم يتحرَّك إنسال من مكانه، لم يحكِ لليلى ما حدث له؛ هروبه من طلقات القنَّاص وتحلّق الناس حوله وسيره في الشارع ساعة وهو تائه وسط الطلقات الطائشة. لم يحكِ عن خازن الثلّاجة والجثامين.

حمل إنسال جسده، ومشى في اتجاه غرفة النوم، كانت هالة من الروائح تحيط به، عددٌ هائل يربك أيَّ إنسان، فكيف لزهرة الصغيرة أن تدركَها كلَّها؛ روائح لامبالاة الجثامين وفرحتهم بالخلاص وندمهم على الرحيل، وروائح الناس الذين احتكّوا به اليوم، فزع وأمل ورهبة. كلّها روائح لم تمسّ أنف زهرة من قبل، لم تشمّها زهرة قطّ. لكنّها ميَّزت رائحة بعينها. هل هي رائحة رجل غريب؟ لا، هذه رائحة إنسانٍ آخر تعرفه جيّدًا، رائحة واحدٍ قابله إنسال، هذه رائحة قريبة جدًّا، لكنّها متغيِّرة قليلًا.

كانت زهرة بين النوم واليقظة عندما سمعت إنسال، ميّزت من

كلامه الكثير، لكنّها لم تفهم ما يقصد بكلمة «الثلاجة» ولم تفهم كلمة «المستشفى» ولم تدرك أنّها سترافقه غدًا كي ترى ما في الثلّاجة. ربّما لو فهمت ما قال إنسال في تلك الدقائق لأدركت أنّ البحث سينتهي قريبًا.

نامت ليلى وهي تضمّ زهرة إليها، وجهها أمام صدرها، وقدماها محشورة بين الفخذين، احتضنت ليلى روحين اثنين في تلك الليلة.

بينما ظلّ إنسال أرِقًا طوال الليل، يحدِّق في وجه ليلى الباكي مغمض العينين، وجسد زهرة ورأسها المتقلِّب كلّ عدّة دقائق.

في ساعة متأخِّرة، لمست كفّ زهرة خدّه، شعرت بشعر لحيته القصير المدبّب تحت باطن كفّها، كانت نصف نائمة، لكنّها أخذت تمرِّر كفَّها على وجنتَيه وعينيه وأنفه وشفتَيه، وأعادت الدورة مرّتين أو ثلاث، تمرِّر كفّها على كلّ تفصيلة في وجهه. ثم يئست أخيرًا فتراخى ذراعها إلى جانبها.

في الليل دارت معاركُ عديدة، سقط الكثيرون قتلى، أصيب عددٌ ضخم، ومات معظمهم بعد مدَّة قصيرة. كلّ من يمشي في الميادين قد يرى واحدًا أو أكثر ملقًى على الرصيف، وبقعة دم جافٍّ تحته، فإذا حاول تحريكه أو التوقّف بجانبه قُتل على الفور، كان القتَلى مصائد.

وتجوَّلت الكلاب في كلّ مكان، تنتصب أنوفها في وجه الريح باحثين عن روائح القتلى، وحينما عثر كلبٌ منهم على رائحة تأتي من قريب، تبعها حتّى وصل إلى الجثمان وعوى مناديًا زملاءه ورجل الكلاب، الذي أتى يجرُّ عربته الرمادية ليضع الجثمان مع رفاقه في العربة، ويتحرَّك مستجيبًا لعواء آخر يدوِّي في الشارع المجاور.

4

وجد أحد الكلاب جثمانًا آخر تحت شجرة، تشمَّمه جيّدًا، نبح عاليًا، حتّى أتى أربعة كلاب وتشمّموا معه الجثمان، ونبحوا مؤكّدين أنّ الجثمان يخصّهم، كانوا ينبحون: «رجل ميّت... ميّت آخر... مات الرجل... هذا

ميِّت... يجب دفنه...». ثم بدأ العواء الجماعي المتقطّع: «ميِّت... ميِّت... ميِّت...». حتّى أتى صاحبهم مسرعًا يسحب عربته الخشبية.

بحث رجل الكلاب كثيرًا عن بطاقة هُوية، عمَّا يدلّ على اسم صاحب الجثمان، لكنّه لم يجد شيئًا، كثيرون بلا هُويّة في البلد، كثيرون أبسط من أن يمتلكوا هُويّة، كثيرون أضاعوا هُويّاتهم عمدًا، أسماؤهم عارٌ عليهم، مسجّلة في سجلّات الأشقياء، تلك التي تستدعي القلق والحذر والتربّص، كثيرون لا يهتمّون أصلًا بكلّ هذا، بالتسجيل والتدوين والدولة والورق. هذا منهم؛ هذا جثمان انبعثت منه رائحة المرارة، والكلاب تشمَّمته وتأمّلوا الرائحة التي لم يختبروها منذ مدّة طويلة، هذا رجل مات والأسى يغمره. والأكثر، هذا جثمان بلا هُويّة وبلا معالم، جثمان ذو رأس مفتَّت، بقايا عظام جمجمة مخلوطة باللحم، وأنف بعيد عن العينين كثيرًا، وعينان لا تكادان تظهران، لولا صفاء البياض مقارنة بما حوله من اللحم والدم، كان الدم ينزلق على كرة العين لامعًا، والعين طازجة سليمة، أفلتت من التمزُّق الذي أصاب الوجه. ما أحزن رجل الكلاب كثيرًا، فروة الرأس التي ملأها التراب، عند رجل الكلاب هذا دليل المعاناة، الكلاب والقطط الميّتة في الشارع والمتروكة للديدان في المزابل، يكون فراؤها مغبَّرًا بالتراب والقذارة. مات الرجل وسُحلت جثته فتلوَّث شعره، هذا مفقود ولن يعثر عليه أهله أبدًا.

قرَّر رجل الكلاب أن يدفنَ هذا في مكانه، لا يمكن تحريك جثّة رجل تحوّل وجهه إلى لحم مفروم، سيتساقط بعضه حتمًا في قاع العربة، أو على أسفلت الطريق، وربّما ينهشه كلبٌ ضال إذا غابت عنه عين رجل الكلاب. كان ينظر حزينًا لشعر الجثمان المترَب، عندما أخرج مشطًا صغيرًا من جيبه، وربَّت على فروة الرأس، ثم مرّر كفّه على الرأس نافضًا ذرّات التراب وأخذ يمشِّط شعر الجثّة، لن يُدفن إلّا وشعره ممشَّط.

حفرتِ الكلاب حفرة صغيرة بجانب الشجرة، ثم ابتعدت قليلًا عنها،

وأخذت تمزّق الجذور السابحة تحت سطح الأرض حتى وسَّعت مكانًا للجثمان، ثم أخذوا يحفرون أكثر وأكثر، كان رجل الكلاب قد انتهى من تمشيط الشعر وتنظيفه تمامًا من كلّ ما علق به، حمل الجثمان ونزل به إلى الحفرة، وسَّده الأرض ثم خرج، وانتظر بجانب القبر ريثما تهيل الكلاب التراب على الجثمان.

كان هذا واحدًا من آلاف سيُعذِّب آباؤهم وأمّهاتهم خلال السنوات المقبلة، سيعيشون على أمل كاذب، سيعذّبهم الانتظار، وسيضعون صورة الابن والأخ المفقود على جدران البيت، وفي مداخلها وعلى سيّاراتهم وبين ملابسهم وفي حقائبهم، سيموت بعضهم حزنًا وهم نيام، وسيموت بعضهم بالتدريج؛ سيفقدون القدرة على الحركة والكلام، سيعافون الطعام ثم سيموتون ببطء، هؤلاء حالهم أسوأ بالتأكيد ممّن ماتوا. سيتيقَّن الباقون منهم أنّ الابن والأخ قد مات، لكنّ ما سيؤرِّقهم جهلهم بمكان دفنه وظنّهم أنّه لم يدفن كما يجب؛ دون شعائر الغسل والتكفين، سيفزعون عندما يدركون أنّه دفن بعيدًا عن أهله، وحيدًا في قبرٍ خالٍ ممّن سواه. سيُجنّ بعضهم رويدًا رويدًا، حينما يتراءى له أنّ الابن والأخ لم يدفن قط، تُرك هكذا في العراء لتأكله الجِدآن والكلاب، سيجنون رويدًا رويدًا ويظنّون أنّ بشرًا ملاعين قتلوه وقطّعوه وباعوه لآخرين حمقى ليأكلوه، سيعافون اللحم، ظانّين أنّ كلّ لحمٍ هو لحم ابنهم وأخيهم. ابني لم يُدفن في التراب، أخي دُفن في البطون، قتلَه الناس وأكلوه. سيُجن الكثيرون بعد ذلك رويدًا رويدًا، هؤلاء لم يذوقوا طعم الغياب من قبل، سيقولون: «شهداء؟ صداع! كفاكم كلامًا، ماتوا ولن نعرف من قتلهم، ليسوا شهداء، حتّى في الحرب يموت جنود هاربون، يفرّون من وجه العدو فلا يصبحون شهداء». سيتطرَّف آخرون أيضًا على الجانب الآخر، سيقولون: «إنّهم قتلى، ليسوا شهداء حقًّا، الشهيد لا يُقتصُ له، يضيع حقّه إلى الأبد، لا ثأر للشهيد، هؤلاء قتلى ونعرف مَن قتلهم، رأيناهم يُقتلون». سيُجنّ الأب والأخ رويدًا

رويدًا، وسيبقى الفقد خانقًا لكلّ الرغبات بعد ذلك. وسيفكّران: «لم حدث هذا؟ أين سنذهب بعد الآن، هل من طريق لنسلكَه؟».

وقف رجل الكلاب وسط كلابه، لأوّل مرَّة منذ أعوام تدمع عيناه. هذا كثير، هذا عذاب لم يشهده من قبل، هذا أسى لا يملك أمامه إلّا الانهزام، هذا فزع أسوأ ممّا رأى طوال حياته. حتّى رجل الكلاب أصابه الفزع مع أنّه يعلم كلّ شيء، أو ظنَّ أنّه يعلم كلّ شيء لكنّه كان مخطئًا.

عليه التحرّك الآن، لا يزال هناك الكثير من العمل، عليه أن يبحث عن الجثامين الملقاة في كلّ جانب، الطريق طويل ولا تزال الأجساد تسقط بلا عدد، لا تزال مهمّته صعبة. تحرّك أخيرًا مع كلابه.

وبعد سنواتٍ من ذلك اليوم، سيكون الأبُ قد رحل، وسيكون الجثمانُ قد رُوي بالماء مرّات عديدة فتحلّل تمامًا، وستكون الشجرة قد ظلّلت الجثمان طوال تلك المدّة، نسيت جذورها المقطَّعة لأجل توسيع القبر، طالعت الجثّة وهي تتحلّل وتنقص كلّ يوم، تعاطفت مع البشر وأجسادهم الضعيفة الفانية وعذاب أرواحهم. وستبقى الجمجمة المشوّهة، والشعر الممشَّط أسفل التراب شاهدَين على فزع الموت ورقَّة الدفَّان. بعد سنوات سيمرّ الأخ على تلك الشجرة ليلًا وسيتبوّل على جذعها وهو سكران.

وعلى الأشجار كانت الغربان تتابع ما يحدث، تتخفى بردائها الأسود في الظلام، لا تتحرَّك، لا تنعق، تتابع ما يحدث وهي ترتعد، كان الفزع كالسواد.

عند الفجر، كان كثيرٌ منهم قد دُفنوا في تراب الحدائق وتحت أسفلت الشوارع وتحت الأشجار وبجانب حوائط مهجورة وخلف أعمدة الجسور وتحت بلاطات الأرصفة المفكّكة. خلال الليلة الماضية، كانت الجثامين المدفونة تزداد واحدًا كلّ دقيقة، كلّهم بلا هُويّة، كلّهم قُتلوا ولم يمت واحدٌ منهم بالنزيف، لم يمت لهبوط أصاب دورته الدموية، بل ماتوا فزعًا. كانت الفوضى تضرب كلّ شيء فوق الأرض.

كانتِ الكلاب في حالة إرهاق جسديّ لا يُوصف، لكنّ أرواحهم كانت مرتفعة، كانوا في قمَّة الرضا. وتمنَّى رجل الكلاب الموت، تساءل عن موعده ولم يجد إجابة. لكنّه علم أنّ الموعد بعيد، وأنّه سيرى ما لم يره خلال سنواتِه السابقة.



كان إنسال يحمل زهرة على ذراعه.

وقف أمام بوّابة الثلّاجة، مع عشرات الواقفين الصائحين كلّ دقيقة يحوقلون، تزيغ أبصارهم في السقف ويكبِّرون، ينظرون في الأرض ويستغفرون، ثم يصيح واحدٌ بغضب، يريد أن يدخل، يريد أن يرى مَنْ في الداخل. وكلّما تقدّم أحدهم بجرأة من الباب، تثاقلت خطواته الأخيرة رغمًا عنه. قام شجار بسيط بين واحد من الواقفين وخازن الثلّاجة، انتهى بسرعة تحت وطأة جلال الموقف، كان الرجال هم الغالبين، ثلاث نساء فقط وقفن في طرف القاعة، لا يتحدّثن، صامتات كما يليق بمَن تنتظر مصيبة، بينما كان الرجال يمجُّون دخان سجائرهم ويصيحون كلّ عدّة دقائق.

كلّ مَن دخل الثلاجة لم يجد من يبحث عنه، يبحثون أوّلًا في الدفتر، يبحثون عن اسم الغائب، وإذا لم يجدوه، يدخلون الثلاجة باحثين بين المجهولين، ثم يعودون خارجين والقلق يأكلهم. لم يفكّر واحدٌ منهم في الجدلية الشهيرة: لم نجده، إذن فهو لا يزال حيًّا، وقد يكون ميّتًا في ثلاجة أخرى. بل يفكّر الخارج منهم في أقصر طريق لأقرب مستشفى، كان الجميع على يقين من غيابهم إلى الأبد.

كتب إنسال اسم زهرة كاملًا في قائمة المنتظرين، وأعادها إلى الخازن. بدا الخازن اليوم أكثر تماسُكًا، أكثرَ ثقةً، وظهر هذا في نظراته الحادّة الموجَّهة لكلّ مَن وقف أمامه، ولهجته الحاسمة التي خاطب بها كلّ مَن سأله سؤالًا. لكنّه ارتجف حينما وقعت عيناه على زهرة.

تململت زهرة، تغضَّن وجهها، وأخذت تئنُّ بصوت منخفض، تستعدّ لبكاءٍ قادم. ربّما أخافها الزحام أو الضوضاء العشوائية حولها.

فوضى الروائح، كانت خانقة ومربكة. لمست زهرة روائحُ الخوف والقلق والغضب والمرض، شمَّت روائحَ العرق والأقدام والشعر، وروائح كثيفة لمضادات التعرُّق ولعطور متعدِّدة أتت قوّية لتغطّي على كلّ الروائح، وغلَّفت رائحة الفورمالين والمطهّرات كلّ هذا. ومن ركن مجهول، من طرفٍ لا يمكن لزهرة أن تحدِّده، لمستها رائحة خفيفة لأملٍ متردِّد. كانت هذه ذكرى رائحة أبيها، هو هنا، أو كان هنا، كان قريبًا جدًّا. كلّ روائحه هلَّت عليها: العرق المميَّز، وعطر الفلّ الذي يضعه دائمًا، وملابسه القطنية المغسولة حديثًا، وخوفه الدائم عليها، واطمئنانه عندما يحتضنها. غابت روائح أخرى تُميّز أبيها، وحضرت روائح أخرى لم تعرفها من قبل، كان هذا ما أربك زهرة.

التفتت إلى إنسال وسألته: «سنرى بابا؟».

هذه أوَّل مرَّة تكلِّمُ إنسال، وربّما أوَّل مرَّة تتعامل مع من حولها على أنّهم بشر يمكن أن تكلّمهم وتطرح عليهم تساؤلاتها. لم يجد إنسال ما يقوله. هو لا يعلم على وجه التحديد إذا ما كانت ستجد أباها أم لا، وهو لا يعلم هل ستفهم زهرة ما حدث، هل ستتقبَّل فكرة الموت؟ لكنّ الردّ كان واجبًا، فقال: «نعم، سنراه اليوم...». وفكَّر قليلًا ثم قال «أو ربّما غدًا...».

سمع الناس حوارهما القصير، كان بعضهم يحادث جاره، والآخرون صامتون يحدِّقون في تفصيلة من تفاصيل القاعة. لكنّ الجميع سمع جمل الحوار القصيرة، صمت الناس رويدًا رويدًا. أدركوا ما يحدث؛ الطفلة تبحث عن أبيها. إنسال وزهرة هما مركز الحدث الآن، هما أهم اثنين هنا؛ أهذه تبحث عن أبيها؟ ومَن هذا الذي يحملها كأبٍ؟ أين الآخرون؟ أين أقاربها؟ أين يكونُ أيُّ أحدٍ منهم؟ وعندما نادى الخازن على الاسم التالي في الكشف، تقدَّم الرجل من إنسال، وطلب منه الدخول إلى الثلّاجة بدلًا

منه. توقَّف إنسال ثوانيَ بدافع الحرج، لكن رائحة خوفه ضغطت على زهرة بقوّة وبلا مقدِّمات بكت.

تعلَّقت عينا إنسال بكلّ ما رآه، بالمُحيطين به وملابسهم، بالبلاط على الأرض ولون الحوائط، هذا مكانٌ لتخزين الجوامد لا لانتظار البشر. مشى وهو يربِّت على ظهر زهرة محاولًا تهدئتها، كان يربِّت بآليّة وهو مشدوه، وهي تزداد توتُّرًا وبكاءً، ظنَّ الجميع أنّها تبكي لأنّها تفهم ما هي مقبلة عليه، أخطأ الجميع، كانت تبكي بسبب رائحة الخوف الخانقة.

اصطدم الباب بكتف إنسال صدمة عنيفة، تزامن ذلك مع صدمة الروائح التي أصابت زهرة. الآن أدركت أنّ رائحة الخوف لم تأتِ من الخارج، بل هي ماثلة هنا، خلف الباب الذي عبرته للتوّ، هنا حيث الصمت مكسور بصوت أزيز مستمرّ يصدر من مصباح كهربائي أبيض الضوء.

هذا ليس خوفًا، هذا خوف سابق، ذكرى خوف علق بالأبدان، هذه رائحة فزع وصل حدَّه الأخير، ولا رائحة أمل، ولا رائحة غضب، ولا أيّ مشاعر أخرى. لكنّ روائح أخرى كانت حاضرة؛ عرقًا كثيفًا، وبارودًا، وحديدًا، ونحاسًا، ورائحةَ دمع غزير. ورائحتين نفّاذتين، واحدةً مُبكيةً صناعية تحرق العين، رائحةَ هواء محمَّلٍ بتراب لاسع، وأخرى لم تميِّزها زهرة قطّ، رائحة ماءٍ داكنٍ ثقيلٍ حيٍّ يتحرَّك، كانت رائحة جديدة.

ثلّاجات كثيرة من المعدِن اللامع ارتصّت في القاعة الكبيرة، يخفي الجدار عمقها الطويل الغاطس، وقف الخازن بالقرب من الباب المعدِنيّ لأوّل ثلاجة، أمسك بالمِقبض وسأل إنسال إن كان جاهزًا. لم يرد واكتفى بالصمت والتحديق في الباب المعدِنيّ، فتح الخازن الباب فظهر ظلام فراغ الثلّاجة جليًّا. وسحب سريرًا ضيّقًا تكوَّم عليه جثمانان؛ واحدٌ لرجل ستينيّ، عيناه نصف مفتوحتين، وجُرح في رأسه لا يزال ينزف. يرقد على جثمان شابٌّ في الخامسةَ عشرةَ، بلا جروح ظاهرة، لكن بوجهٍ بالغ الشحوب، وبتفاصيلَ دقيقةٍ أنيقة، وشعر مصفَّف بعناية.

كان إنسال يخشى بكاء زهرة لكنّها لم تبكِ. أخذت تحدِّق في الجثمانين، بدا واضحًا أنّ أباها ليس واحدًا منهما، هكذا فكَّر إنسال. شجَّع صمت زهرة الخازن، لم يسأل إنسال أو يسألها، أعاد السرير إلى مكانه وأغلق الباب، ثم فتح باب ثلّاجة أخرى. منذ هذه اللحظة اصطبغت أفعال الخازن وإنسال وزهرة بالرتابة.

بعد عشرين جثّة أخذت زهرة تئن، أنينٍ متقطّع رتيب، هذا صوتُ مواء قطط، صوت حزنٍ أسمى من أن تعبِّر زهرةُ عنه بالبكاء.

بعد ثلاثين جثّة، استدارت زهرة وأراحت رأسها على عنق إنسال، أحاطت رقبته بذراعها، استسلمت لرائحة الجثامين، وأخذت تبحث عن أبيها بتلك الطريقة؛ تستقبل رائحة الجثمان ولا تلزمها رؤيته. كانت تبدو هادئة، لا يشير أنينها الخافت إلى الأسى، وبالطبع، لا يشير إلى فزعها. بالتأكيد كانت زهرة فزعة، لا بسبب منظر الجثث، لكن بسبب روائحها.

هناك عرفت زهرة رائحة الدم؛ أخيرًا ربطت بين رائحة الماء الداكن، رائحة الماء الحيّ، الرائحة الملتصقة بروائح أبيها، ورائحة الكيان الأحمر، رأته مرّة سائلًا ومرّة جافًّا. ومرّات في حالة وسط، رأت زهرة جروحًا لا تزال تنزف ببطء، ودمًا سائلًا من الأفواه والأنوف، وكلٌ برائحة مختلفة، فرق طفيف يفصل بين رائحة كلّ دم وآخر، لكنّ الرائحة المائية الثقيلة كانت جزءًا من كلّ الروائح.

وقد يفتح الخازن بابًا فيظهر أثر الجثمان طفيفًا، خلف الأبواب المعدِنية العديدة ترقد جثامينُ كثيرة ليس من بينها جثمانُ أبيها، عرفت ذلك أخيرًا من الروائح المتسرِّبة من الأبواب، كلّها لا تشبه رائحة أبيها.

تابع الثلاثة الفرجة على الجثامين، حوت بعض الأسرّة ثلاث جثامينَ بينما شغل باقي الأسرة جثمانَين اثنين، كان عدد القتلى هائلًا. كلّ هؤلاء بلا هُويّة، كلّ هؤلاء ينتظرون مَن يتعرَّف عليهم. في الدفتر المستقرّ بالخارج كُتب اسم عشرين قتيلًا، بينما يرقد هنا أكثر من مئتي قتيل، هؤلاء معروفون، والآخرون مجهولون، ولا يعلم أحد مصير الجميع.

انتهت الجولة أخيرًا، خرج إنسال وهو مبتهجٌ لأن المهمة انتهت، لأن زهرة لم تجد الجثمان، خرج من المستشفى وهو يفكِّر في عدد المستشفيات الأخرى التي تحوي جثثًا لأشخاص قُتلوا في الأيّام القليلة الماضية. غدًا سيبحث في مستشفى آخر، سيحمل زهرة كما حملها اليوم ويبحثان بين الجثث. لم يعد الأمر يؤرِّقه كما كان سابقًا، كانت زهرة هادئة، أنّت قليلًا وكأنّها تتألَّمَّ وبكت بصوت خفيض، استسلمت معظم الوقت إلى كتفه، مرَّ اليوم بسلاسة لم يتوقّعها، وعندما سألها وهو في التاكسي هل خافت؟ أومأت برأسها علامة الإيجاب واستسلمت لكتفه مرَّة أخرى.

وبينما كان التاكسي يمرّ على أحد الميادين سقط ثلاثة إخوة قتلى برصاصات قنَّاص واحد. سقط الأول، فحاول الثاني سحبه فسقط، فاقترب الثالث منهما فسقط، وظلُّوا هكذا ساعتين، كلّ مَن يحاول الاقتراب منهم يتمّ تحذيره، كان الناس قد عرفوا أنّ القنَّاصين قد احتلّوا أسطح المباني، وأنّهم يتحرَّكون بينها بسهولة، عرفوا أيضًا أنّ القنّاصين يملُّون بسرعة؛ يصيب القنّاص واحدًا ليترك مكانه ويتحرَّك باحثًا عن واحد آخر، لا يقصدون أشخاصًا بعينهم، ويطلقون الرصاص بطريقة عشوائية.

لكنّ قنّاص الإخوة الثلاثة لا يملّ بسرعة مثل الباقين، بل يفضِّل البقاء مكانه ويراقب كلّ ما يحدث في نطاق مِنظاره، يراقب ضحيّته جيّدًا، يراقبها قبل الإصابة وبعدها، ثم يبقى في مكانه ليشاهد ما سيحدث حينما يكتشف الناس الجثّة المكوّمة على الأرض، يراقب كيف يلمس الناس الجثّة، كيف يتردَّدون في تغطيتها بورق الجرائد ثم يراقب كيف يقف الكثيرون أمامها، يتأمَّلون المشهد بلا حراك، لا يتجرَّؤون على رفع ورق الجرائد، بل يحدِّقون في شكل الجسد المبهم تحت الصور والكلام.

علمَ القنّاص أنّ عليه أن يُسقط ثلاث ضحايا هذه المرّة، لم يعلم أنّ هؤلاء إخوة، لا يهمّه إن كانوا إخوةً أم أصدقاء، عليه فقط أن يقتلهم. بالمصادفة سقط الأخ الثاني على الأوّل، ووجد القنّاص أنّ هذه إصابة لا

تحدث إلا مرّة في المليون، وصمّم على إصابة الثالث لتسقط جثّته فوق الجثّتَين. هذه هي الطريقة التي يحبّها القنّاص؛ تتسمّر الجثّة في الهواء لحظة، لحظة بهجة القنّاص والقتيل، ساعتها يتأكّدُ القنّاص من فكاك الروح من الجسد، لا يدرك البشر تلك اللحظة حينما يموت الواحد على فراشه، أو يموت وهو نائم. عندما يُقتل وهو في حال الحركة، لا بدّ لجسده أن يتجمّد لحظة، لجزءٍ ضئيلٍ من الثانية وهي فترة كافية لفكاك الروح، ثم تتعامل الجاذبية الأرضية مع الجسد الميّت.

في أثناء عمله، خلال الأيّام القليلة الماضية، تمنّى القنّاص لو أنّ منظاره يتابع عروج الروح، أو حتى خروجها من الجسد، في أحدى المرّات، فكّر أنّ روح ضحيّته لا بدّ وأنّها تقف أعلى الجثمان وتحدّق فيه، لا بدّ أنّها علمت مكان مُحرِّرها، حينها رفع رأسه إلى السماء فوق الجسد الملقى على الأرض، وأخذ يقلّب عينيه في الظلام فلم يجد شيئًا، وسّع بؤرة منظاره، ومسح السماء من خلاله لكنّه لم يجد شيئًا، تحرّك في كلّ الاتجاهات حاملًا بندقيّته، موجّهًا إيّاها إلى السماء، مخاطرًا بكشف نفسه للجميع، كلّ هذه مخاطرات لا فائدة منها وضياع لوقت مهمّ، وربّما فشلَ في تنفيذ إحدى المهمّات في توقيتها الصحيح، لكنّ هذه حال هذا القنّاص، يشغل نفسه بضحاياه كثيرًا، ويشغل نفسه بالسؤال عن حال البشر كلّهم. لسببٍ ما كان كان القنّاص يعتبر نفسه من جنسٍ أرقى قليلًا من البشر.

وتحرّك القنّاص أخيرًا، مشى عبر سطح المبنى، ووصل إلى الجانب الآخر المُطلّ على شارع يمرّ فيه الكثيرون، وثبّت بندقيّته، وبدأ في التصويب والإصابة.

5

مرّ إنسال وزهرة على ثلاث ثلّاجات حتّى اليوم، كلّ يوم ثلّاجة.

في كلّ مرّة يبحث عن الاسم في السجلّات، سجلّاتِ المصابين

والضائعين في غيبوبة أوّلًا، ثم في سجلّات القتلى، ثم يدخل مع زهرة إلى الثلّاجة، يبحثان وسط الجثامين، ثلاث ثلّاجات ولا أثرَ لوالد زهرة، حتّى ذكرى رائحته التي لمستْ زهرة في ثلّاجة قصر العيني غابت، اختفى الرجل تمامًا.

لو يعلم إنسال أنّ رجل الكلاب يدفن الجثث، لو يعلم أنّ ثلاثًا وخمسين جثّة مكوَّمة في غرفة على سطح مجمَّع التحرير، لو يعلم أنّ الناس دفنوا ثلاثمئة وخمس وعشرين جثّة في أطراف القاهرة.

***

أكلت الآلام بطن ليلى، أدركت متأخرةً أنّ الجنين يخرج الآن، إنّها تُجهض، وتخيَّلت أنّ الجنين في شهره الرابع سيخرج حيًّا، لذلك فكَّرت في ثديها الخالي من اللبن، واتصلت بأمّها تطلب النصيحة، ماءٌ ودمٌ يخرجان منها، وآلام لا تعرف متى بدأت، ورعدة تسري في جسدها بالكامل، روحها تُسرق منها ببطء. أخبرتها بأنّها ستتّصل بالصيدلية وتطلب لبنًا صناعيًّا للطفل، وريثما يخرج الجنين ويصل اللبن، على الأم أن تصل إلى البيت لتجهِّز لوصول المولود. تماسكتِ الأمّ عندما سمعت الكلام وطمأنت ليلى، راحت تجاريها وهي تعلم أنّ الإجهاض في طوره الأخير. لكنَّها لم تستطع تفسير ضياع عقل ليلى المفاجئ، مَن يظنّ أنّ امرأة عاقلة في سنِّ ابنتها تفكّر هكذا. ارتدتِ الأمُّ ملابسها ونزلت مسرعةً إليها.

حاولت ليلى الاتصال بإنسال، كانت تودُّ أنّ تبشِّره بما يحدث، كانت تعلم أنّ الاتصالات مقطوعة منذ أيّام، وقيل إنّها عادت بالأمس، حاولت الاتصال بتليفونه وفشلت، حاولت كثيرًا، وفشلت في كلّ مرّة. وعندما يئست تمامًا، أرسلت له رسالة قصيرة: إنِّي أَلِد. كان إنسال وقتها يقف أمام بوّابة الثلّاجة حائرًا. وبين الجدران الخرسانية السميكة، وتحت ضغط محاولات الاتصال المتعدّدة، ارتبكت كلّ شبكات الاتصالات، كان تليفون إنسال ميّتًا، وجنينُه يخرج ميّتًا في غيابه المؤقّت.

تسلَّل الجنين على مهلٍ خارجًا من جسد ليلى، حدّقت ليلى في كلّ ما حولها، في الكرسي المجاور وطاولة الزينة والسقف وستائر النافذة، ثم ثبَّتت عينيها على موضع زهرة الغائبة الآن، كانت نائمة هنا منذ ساعات، لو كانت هنا لسمعت صيحاتها القصيرة، ربّما شعرت بآلامها وخوفها. سكنت ليلى تمامًا، ظنَّت أنّ سكونها سيحافظ على الجنين داخلها، ربّما كانت حركتها سببًا لفقده، لكنّ الجنين كان قد انساب تاركًا فراغًا في روح ليلى.

استلقى الجنينُ على السرير تحت جسدها، حرَّكته بسبّابتها، ربَّتت على أطرافه غير الواضحة، حاولت التعرُّف على جنسه، لم تميِّز سوى ساقين وخصر صغير، أدركت أخيرًا أنّها ولدت جنينًا ميّتًا.

رأت أنَّ وضع الجنين هكذا غير مناسب، فتناولت منشفة صغيرة لا تزيد مساحتها عن كفّ رجل بالغ، ووضعت الجنين بداخلها لحمايته، تشابكت ذراع الجنين مع ذارع ميكي ماوس المرسومة على المنشفة، يأخذه ميكي إلى عالم خيالي بعيدًا عن الزمن الحالي، تمنَّت ليلى لو أنّها كانت مع الجنين وميكي في عالمهما. سمعت ليلى ضجّة أمّها وهي تدخل من الباب واختفى فورًا عالم ميكي الخيالي، راح كلّ تعاطف مع الجنين ولم يبقَ إلّا الحزن. جمعت الجنين في كفّها، متأمِّلة تفاصيله الحمراء الدموية، وأنسجته التي كانت قد بدأت في التكون منذ شهور.

وفي المسافة القصيرة من باب البيت وحتّى الغرفة نادتِ الأمّ ابنتها، صاحت ملتاعة عندما لم ترد ليلى النداء الأوّل، وهرولت بصمت قلق نحو غرفة النوم، وصلت وليلى تتأمَّل جنينها المجهض. فكَّرت ليلى في واجباتها الأخيرة؛ هل تقرأ القرآن، هل تصلّي على الميّت، هل مات أم أنّه لم يعش من الأصل، هل سيقوم إنسال بإصدار شهادة وفاة أم شهادة ميلاد، هل صلاة ذات الدم تجوز؟

كانت قسوة أمّها وغضبها قد بلغا الذروة، لم تسألها عن إنسال الغائب، لم تفكّر في السؤال من الأصل، كانت تعلم الإجابة؛ إنسال لا يتحمّل

ة، ومشغول بالفتاة ووالدها المفقود، ولا وقت لد
تسأل ليلى عن صحّتها، كانت تعلم إحساس الأمّ المُ
م أنّها لن تتحمَّل كلمة لوم واحدة، وأنّها لن تتكلَّم ع
كبر من أن تتوقّعها ليلى. تأمَّلت أمّها الجنين الميت ف
ذراع ميكي وكفّه المخبّأة في القفّاز الأبيض، وأكمل
جهه المبتسم دومًا، كان وجهه مختبئًا خلف جسد الج
فقط أن تستحم، عليها أن تتخلَّص من العرق وبق
أن ترتدي ملابس نظيفة. لا، لن ترتدي جلباب البيت
سعًا، ثم ستعود إلى بيت والديها، لن تعيش مع إنسا
ه مع انسياب الجنين للخارج، ستبدأ ليلى بداية جديد
ى إلى أمّها وكلّها أمل، قالت: خذيني معكِ.

ت ليلى ملابس نظيفة، وأخذت أمّها تعدُّ حقيبة صـ
ية وملابس قليلة، خرجتِ الأمّ، مشت حتّى غرفة
ل والقليل من الملابس.

فة النوم، تأمَّلتِ الأمُّ الجنينَ الموضوع في مِنشفَته الص
قامها من إنسال، حفيدي لكنّ ابنتي أغلى، تركت كلَّ
حت إلى المطبخ لتأخذ طبقًا صغيرًا، رفعتِ الجنين
ه في الطبق الصغير، بدا الجنين بالغ الصِّغَر والضعف
ملوَّن، إنسان برأس كبيرة، أحمر اللون، لا يميّزه إلّا م

ا من البيت، ليلى لا تفكِّر، انقطعت في لحظة صـ
جنين ابنها، لم يعد إنسال زوجها الطيِّب، لم يعد هذ
وتضمّها أكثر مع كلّ خطوة كي تساعدها على المـ
تنقل إليها طاقة الكراهية العظيمة. إنسال لا يستحـ
سال سيحفى خلف ترابك ولن يرى منكِ شيئًا بعد ا
أضاع طفله لأنّه أهملك. وليلى تفكِّر؛ إنسال مـ
أخرستها.

بيت من كل نفس.

سال المِفتاح، ودفع بابَ الشقّة، أنزل زهرة من عـ
قليلًا، ثم انتبهت للرائحة المعدِنية المنتشرة في البيت
ية التي تعرَّفت عليها منذ عدّة أيّام فقط، نادى إنسال
و غرفة النوم، بينما تسلَّقت زهرة أحد كراسي السفـ
جه الطبق الصغير. لم يجد إنسال أحدًا في الداخل،
ول لمس الجنين بأناملها الصغيرة، التقطت سبّابتها أثـ
م رفعتها لتتذوقَ السائل الرطب. توقّف إنسال لحـ
ا هذا، ولمّا سألته زهرة: «هذا بلح؟». أمسك بالطبـ
ن يريد أن يتعرَّف على الكتلة الحمراء الطرية المستقرِّ
ه يدرك إنسال ما حدث، علم أنّ ما ينتظر زهرة عظيم

***

صمت ولم ينطق، وهي صمتت في انتظار كلمة واحدة كي تشتمَه، ولمَّا لم تسمع شيئًا قالت: «كُلْ ابنَك، قلت لك كُلْ ابنَك».

رقد إنسال بجانب زهرة حتّى نامت.

صُعق إنسال عندما تعرَّف على ما في الطبق الصغير، أجاب زهرة: «لا، ليس هذا بلحًا». سألته مرَّة أخرى: «طيّب... ما هذا؟».

لن يظلَّ الجثمانُ الصغير على حاله تلك إلى الأبد، ربَّما تجمَّع النمل ليأكلَه، لفَّ الجثمان في مِنشفة صغيرة، كان قد ابتاعها خصِّيصًا للمولود القادم، وها هو يستخدمها بالفعل، وضع اللفافة في كيس بلاستيك، ونزل إلى الشارع.

كان الشارع خاليًا، إلّا من مارّة هنا وهناك، كان الناس قد ملُّوا الوقوف في الشارع سائلين كلَّ سائر عن هُويّته. سار وهو يرتِّب أفكاره. إلى أين سيذهب، ماذا سيفعل بالجثمان.

على بعد مئة متر حديقة كبيرة، ربّما سيمدُّ ذراعه من خلال السياج ويحفر حفرة صغيرة، ثم يضع اللفافة فيها ويعيد ملء الحفرة بالتراب. بين الأشجار والورود سيرقد الجثمان. لكنّ ذراعه لن تطال إلّا سنتيمترات قليلة من التراب، سيدفنه قريبًا من السطح، وهذا خطر. قد ينبش كلبٌ مكانه وقد يأكله. لا، الحديقة لا تصلح.

في منتصف الطريق حديقة أخرى تمتدّ بطوله، تنتهي حيث الكوبري الذي يمرّ فوقه، ربّما سيدفن الجثمان في تلك الحديقة، هذه بلا سياج، سيتمكّن من الوصول إلى آمن بقعة فيها، وسيحفر عميقًا، ليودِّعَه في أمان. لكن يظلّ الكلب خطرًا يهدِّد الجثمان، يظلُّ قطيع الكلاب المترنِّح في الشوارع قادرًا على الحفر. كان إنسال يخشى الكلاب فقط.

أين إذن؟ في كومة الزبالة الضخمة؟ كما يفعل الناس عادة؟ كلَّما سمع عمَّن تركت طفلها في الزبالة تعجَّب، يُقال إنّ العاهراتِ يسكنَّ المدن الجديدة، تلك الضواحي الكثيرة على أطراف المدينة الكبيرة، تحمل أسماءً

متعدِّدة لحدث واحد، السادس من اكتوبر، العبور، العاشر من رمضان.. أسماء النصر. وقد تحمّل الواحدة وتلد، سمع إنسال عن التي رمت جنينها من النافذة فور ولادته، أسقطته ببراعة فوق كومة الزبالة، تدرَّبت على ذلك كثيرًا قبل أن تلدَ؛ ترمي كيس الزبالة كلَّ يوم من النافذة، ليقعَ فوق الكومة بالضبط. سمع أيضًا عن العاهرة الشهيرة في مدينة السادس من أكتوبر، التي بكت قبل أن ترميَ وليدها في صندوق الزبالة. كان لا يزال حيًّا وربّما لم يطاوعها قلبها على رميه حيًّا، فوضعته على الرصيف ثم قعدت عليه حتّى مات ثم رمته الصندوق. وارتابت واحدة تمرُّ في الشارع، فمدَّت يدها إلى الصندوق وأخرجت كفَّ الجثمان. تحلَّق الناس وصاحوا، قالت العاهرة: «حتّى القطط تأكل عيالها».

لن يقعد إنسال على جنينِه، سار في الظلام وأمامه حوَّم الطبق الصغير يحوي شيئًا صغيرًا أحمر اللون، تضخّم الطبق حتّى صار بحجم الشارع أمامه، وكلّما سار إنسال سار الطبق معه، ثم تضخَّم حتّى غطّى الحيّ كلَّه، لم يقوَ إنسال على الاستمرار، المشي مرهقٌ والجثمان ثقيلٌ على كفّ إنسال. ارتاح على الرصيف، بجانبه قعدت العاهرة وتحتها لفافة بيضاء كلفافة جنينه. قالت له: «في المرّة القادمة... سآكله».

مرَّ قطيع الكلاب أمامه، كانوا يمشون على أسفلت الطريق الخالي، لم يتشمّمه كلبٌ منهم، فقط وقفوا يحدِّقون فيه، وفي اللفافة المرتاحة على فخذه، هذه أوّل مرّة يكتشفون جثمانًا صغيرًا بصحبة رجل، خافت الكلاب؛ النباح قد يثيرُ خوفه، بل سيثيرُ غضبه، ثم أتى رجل الكلاب يسحب عربته، وتوقَّف أمام إنسال.

رأى إنسال الجثامين مكوَّمة في العربة، بعضها بلا معالم، كلّها فيها جراح ظاهرة، بعضها مغطًّى ببقايا أوراق جرائد، بعضها عارٍ من أيِّ غطاء. لم تمتلئ العربة بعد ولا تزال خفيفة في يد رجل الكلاب، أحصى إنسال خطواتِه نحو الشجرة في الشارع القريب، نظر إلى العاهرة بجانبه فرأى

شفتَيها تتحرَّكان لكن بلا صوت، التفت أمامه ناظرًا إلى رجل الكلاب الصامت، وجهه متعرِّق على الرغم من البرد، وكفّاه ضخمتان مقارنة بجسده النحيل، وشعره غيرُ مصفّف، قصير لكنّه يبدو كشعر من استيقظ للتوّ من النوم. نقر رجل الكلاب بأصابعه على ذراع العربة نقرات متتابعة، ينقر أصابع بيانو في انتظار حركة إنسال. فكَّر إنسال أنّ مرور رجل الكلاب ليس مصادفة، بل أتى باحثًا عن جثمان لا يجد مكانًا للدفن.

مدَّ يده بالجثمان إلى العربة، ثم رفعها شاكرًا رجل الكلاب، الذي لوَّح بيده مودِّعًا إنسال. تعلَّقت عينا إنسال بالعربة وهي تترجرج.

كانت الكلاب تنبح: «ميتٌ آخر... هناك واحدٌ... يجب دفنه... هناك... قرب المبنى الضخم... جثمان شابّ... مات قبل قليل... يجب دفنه...»

كنت في السوق لمّا سمعتُ أنّ صخرًا الخزرجيّ قد مات.

كنًّا نتوقّع موته شابًّا، كلّ مَن رآه طفلًا توقّع ذلك، الصعايدة بالذات أجمعوا على أنّه ابن موت وقالوا إنّه سيموت فتيًّا ولن يكمل العشرين، ولمّا سار في السنة الأولى بعد العشرين زاد وجلُ الناس، وقالوا إنّ تخطّيَه عتبة العشرين سيقوده إلى مصيرٍ مُفزع، سيكون موته علامةً في زماننا، هكذا قالوا. وتحوَّل موته المتوقَّع إلى حدثٍ ينتظره الجميع، بكتِ النساء حزنًا على ما سيحدث له، وتأسَّى الرجال كلّما رأوه، بل بالغ الكثيرون، وقالوا إنّ ما سيحدث له ظلمٌ، ولم يعلم أحدهم ما سيحدث له حقًّا. لكن عِلمًا غامضًا مدَّ ظلَّه على الجميع؛ علمنا أنّ يوم موته سيكون عظيمًا. كان الناس قد كرَّروا ذلك في كلّ مجلس، وكان الفتى يسمع ويستسلم كلّ يوم عن سابقه، وصار كالملائكة، بلا خطايا.

كان كلّهم يسأل: أين الجثمان؟ ودار السؤال بين الناس، حتّى صار المرء يسأل رفيقه: أين صخر؟ فيردّ بالسؤال نفسه: «أين صخر؟». وهكذا تحوَّلنا إلى جمعٍ من الحمقى، نسأل السؤال ونكرِّره، ثم بدأ الناس ينوحون في الشوارع. وعندما سمعتُ نواحَ امرأةٍ تحمل طفلتَها، والبنت تربّت على خدِّ الباكية تحاول طمأنتها أصابني الفزع. وقلتُ إنّ اليوم يومٌ عظيم، وربّما لا قِبلَ لنا به. وفكّرت في الدعاء كي يُخفِّف الله عنّا بلاء يومنا هذا، لكنّي علمتُ أنّ الله لن يستجيب للدعاء اليوم.

وعلمتُ أنّي ميّتٌ اليوم.

وخرجتُ من الحيِّ هائمًا، لا أعلم أيَّ الطرق أسلك. صدري يؤلمُني مع أنِّي شعرت بأنّي خاوٍ بلا أحشاء، كنت أترنَّح من شدَّة الوجع، ورأيتُ في الشوارع رجالًا يترنَّحون، يستلقي بعضهم على الأرض متعبين أو صرعى، ساكنين أو متشنجين. بينما سقط بعضُهم فجأةً في مواضع وقوفهم، وعلمتُ أنَّهم ماتوا للتوِّ.

ثمّ سمعتُ الناس يقولون إنّه ممدَّدٌ بالقرب من سفح المقطَّم، و وقفتُ دقائقَ حائرًا، نسيتُ وجهة الجبل، ونسيتُ أيَّ طريقٍ أتبعُ حتّى أصل إليه، وما راعني كان اشتداد الريح، وصفيرٌ انتشر في الأجواء ولم أعلم ما مصدره، وغبارٌ أصفر لوَّث الجوَّ حولي، وبدأتُ أتنفَّسه. ثم رأيتُ أناسًا يمشون بهمَّة في اتّجاه واحد، وسألتهم أين تذهبون، فقالوا إنّهم يسعون نحو المقطّم، فسرتُ معهم.

كنت أحاول الاحتماء بظلال البيوت، كنت أمشي ملتصقًا بالجدران، متحاميًا في الظلّ من الريح والغبار، أسدُّ أذناي بسبابتيّ، فزعًا من صوت الصفير المستمرّ. ومع أنّ الشمس غابت خلف ستار أصفر، إلّا أنّ الجوّ كان حارًّا لا يُقهر، والظلّ نادرٌ.

وحدَّقت في ما حولي، ورأيت فزعَ الناس يشغلهم كما شغلني عمَّا يصيبنا، كانتِ البيوتُ تُلقي ظلالَها قصيرةً خفيفةً على الناس على الرغم من غياب شعاع الشمس، وتعجَّبتُ عندما رأيتُ الظلال تُردُّ إلى الجدران، مع أنّ الشمس تسير في خطّ المغيب، وعلمتُ أنّي لن أرى الهول القادم.

ثم ازداد عدد الناس، عشرات ثم مئات. بحرٌ من الناس أمامي وبحرٌ آخر خلفي، وأنا في المنتصف والفزع يحتلّ أعضائي رويدًا رويدًا. ونادى واحدٌ من الناس: «مات صخر، مات ابن الموت». فأخذ الناس يردِّدون وراءه فرادى، وتحوَّل النداء إلى هتافٍ جماعي. يقطعه نشيج الرجال كلّ دقيقة. كان الجميع يصرخ: «مات صخر الخزرجي، مات ابن الموت».

ولأوّل مرّة رأيت النساء في الشوارع حاسرات يبكين، ظهرن بأجسامٍ

قصيرة صغيرة ورؤوس منكّسة وأعين باكية، ثم تكاثرن يلبسن السواد، أنهارٌ من النّساء تسلّلت وسط بحر الرجال، كَسَهم يخترق الناس ويتخطّى الرقاب، كنَّ أسرعَ مِنَّا كثيرًا، أخفَّ منَّا، أو ربّما أكثر منَّا حزنًا. ولم أعلم أنّ الحزن يجعل الإنسانَ خفيفًا.

وكان الواحد منَّا ينظر لنهر النساء فيبكي ويخفي عينيه بكفّه، وكأنّه يخبِّئ الدنيا عن ناظرَيه، وكأنّه يخشى أن يطيل النظر لحزن النساء فيأخذه الحزن ويبكي مثلهنَّ، وكأنَّه لا يبكي، كنَّا نكابر، لكنّ البكاء ذبحنا.

كنت أسيرُ مع الناس عندما ثقل صدري، تجمَّع الغبار في جوفي الخاوي. وفجأة تلاحقت ضربات قلبي متسارعةً، ولا بُدَّ أنّ الغبار والفزع أثَّرا عليَّ، والصرعى حولي في كلّ مكان من شدَّة الهول. أبطأتُ الخُطَى، ومِلتُ إلى جانب الطريق، وقعدت على الأرض مسندًا ظهري إلى بيت من البيوت.

ثم حاولتُ القيام، لكنّ جسدي رفض الحركة، وصرتُ أتلفّت حولي باحثًا عن واحدٍ ليساعدَني، لكنّ الناس كانوا في انشغالٍ بما يحدث، يهرولون ولا يلتفتون إلى أحد. شعرتُ بعطشٍ شديدٍ وجفَّ حلقي بسرعة، وكأنّ كلَّ ماءٍ في جسدي تبخَّر. ولمّا فُتح باب البيت وخرجت منه نسوة، رفعتُ ذراعي وبكلّ قوَّتي صرختُ: «ماء». لكنّي صوتي خرج ضعيفًا لا يُسمع.



مشى الناس، كلّهم في طريقهم نحو باب البرقية القريب من سفح المقطم، كنتُ أسيرُ معهم، أهرول عندما يهرولون، وأنوح كلّما ناحوا. كان المقطّم قد ظهر واضحًا قرب الأفق، عندما قابل الجمع رجال الشرطة في آخر الشارع. حاول الشرطة ثنيهم عن المسير، ضربوهم بالعِصيّ كي يتراجعوا، فتراجع بعضهم خائفين، ثم تقدَّموا بفعل ضغط المتجمّعين خلفهم. كنتُ مضغوطًا في المنتصف تمامًا، أريد التقدّم والوصول إلى سفح المقطّم، أخافُ الشرطة وأتحدّاهم بالجمع حولي.

ثمّ شهر الشرطة السيوف والرماح في وجوه الناس مهدِّدين، كلٌّ يلوِّح

بسيفه في الهواء ويتراقص به، ليظهر انعكاس نور الشمس على أنصال السيوف للجمع المتأخِّر، لكنّ الناس استمرّوا في التزاحم، حتّى لم يعد هناك بين الرجل ورفيقه إلّا القماش. وازداد الضغط حتّى أخذ المتقدِّمون يقتربون من الشرطة مدفوعين غصبًا، وقد كانوا يمانعون ويدفعون المتأخّرين إلى الخلف.

ووجدنا الغبار يملأ الهواء فجأة، والريح تنوح كما ننوح، تردُّ على حزننا بحزنٍ مماثل، وبصفيرٍ مُفزع.

وعلمتُ أنّ اليوم آخر أيامي.

وفجأةً استسلم مَن في الصفوف الأمامية لضغوط الذين خلفهم، فتقدَّموا في استسلامٍ تامّ، ليتلقّوا ضربات سيوف الشرطة في الصدور وعلى الجباه، ثم ليطَؤوا كلّ شرطيّ ثبت أمامهم، وكلّ مَن ضُرب وسقط منهم، وهكذا سُوّي بالأرض كلّ من ضَرب وضُرب، وانطلق الناس في صياح وتهليل مدّة وجيزة، واختفى الشرطة تحت الأقدام، وفرَّت خيولهم مدماة تكاد تسقط من التعب، ووطأتُ ميّتًا بقدمي، وحاولت تحاشي الآخر، لكنّي فكَّرتُ في الثأر فوطأت الثالث والرابع وأخذت أدعس كلَّ جثمان يقابلني، لم يكن ليمنعَني أحدٌ من الذهاب لصخر، ولم يكن ليمنعَني أحدٌ من الثأر.

ظهر التُرك هذه المرَّة وهم يضربون أعناق جيادهم في عجلة لا حدَّ لها، مخترقين الصفوف محطّمين صدور ورؤوس الناس بقوائم الجياد والدرر في أيدهم، ضاربين برماحهم الطوال كلّ مَن يقف على يمينهم. في إصرارٍ بالغ على منع الناس من التقدُّم.

كنتُ أتقدّمُ الخطوة تلوَ الخطوة، حتّى رأيتُ الجياد تتخطَّى هامات الناس، وتطأ كلَّ مَن يقف أمامها، ورأيت الناس مسمَّرين في الأرض لا يتحرَّكون، ذهول أصابتهم من دهشة وخوف. ورأيتُ بعضهم وكأنّه يفيق من ذهوله ذلك فيتحرَّك إلى الأمام مواجهًا الجياد والرماح، لا يهرب نحو جانب الطريق كما يجدر به.

كنت قد اقتربت كثيرًا من التُرك، لمَّا مرَّ جنديّ منهم بجانبي، وأصابني بحربته في كتفي، ثم تبعه آخرُ ساط رأسي فغطّى الدم وجهي، وشعرته دافئًا يتساقط من حاجبيّ على وجنتيّ. حينما صدمتني قوائم جواد في صدري. ولا بُدَّ أنَّ الجواد وطأني عدّة مرّات، فاستلقيتُ لا أشعر إلا بألمٍ خفيف.

***

احتلّ صوتُ صراخٍ متّصل الهواء، ولم أعلم ما هذا، أصوت ألف طير يحتضر؟، ضاعت أنفاسي وخلا صدري.

***

وظهر باب البرقية من بعيد، ومن بعده جبل المقطّم، كان الجمع يتقدَّم نحوه مسرعين، وفكَّرتُ أنّ الباب سيتهدّم بفعل تضاغط الأجساد، أو أنّه سينهار على رؤوسنا من شدَّة التزاحم.

ثم أصبح باب البرقية أقرب ما يكون إلينا، وألهبت الشرطة ظهورنا بالسياط، كان كلّ منهم يمتطي حصانه ويرفع ذراعه حاملًا سوطًا طويلًا، ثم يسوطنا به ليمر السوط فوق أجساد الجميع، وصرخ الناس: «غطُّوا وجوهَكم.. غطُّوا أعينكم». ولم يفكِّر واحدٌ منَّا في الاقتراب أو منع الشرطة.

وأغمضت عينيّ بشدَّة، ثم حجبتهما بكفّيّ، وشعرت بجسدي يتحرَّك محمولًا مع الجمع دونَ أن تحملني قدماي، كنت أرقى بمقدار قبضة عن الأرض، وفرَّجت بين أصابعي وفتحت عيني اليمنى، لأرى الناس كلّهم وقد فعلوا مثلي، حجبوا أعينهم بأكفّهم، ورأيت سياط الشرطة وقد استحالت حبالًا من نار، تضرب جسد الواحد منَّا فيُقبضُ للتوّ. ورأيت الناس قتلى أجسادهم مرتخية ورؤوسهم مائلة وأذرعهم مدلّاة إلى جانبهم لا أراها من شدَّة الزحام، وارتَّصت الجثامين منتصبة تتحرَّك مع الجمع، وتميل رؤوسها جميعًا في اتجاه واحد مع كلّ حركة.

ثم رفعتُ كفّاي وصرخت في الناس: «احذروا السياط.. الموت..

النار». ورفع الناس أكفّهم عن أعينهم فوجدوا السياط تدوّمُ فوق الرؤوس، والجثامين الواقفة محشورة إلى جانبهم، تمشي كما يمشون.

***

وجدت جسدي يرتفع بمقدار ذراعين في الهواء، ورأيت الناس يشغلون كلّ فراغ حولي، إذا أمطرت السماء لم ترتوِ الأرض، وكنّا على بُعد بضعة أذرع من باب البرقية، عندما تباطأ الجمع كثيرًا، وشعرت بصدرى ينضغط فلا أقوى على الشهيق، وكنت أتحرَّك رغمًا عنّي، وعلمتُ أنّي ميّتٌ بعد لحظات.

***

كنت على بعد ذراع من باب البرقيّة، عندما وجدت الجمع يرتقي وأنا معهم، والناس يرفعون أذرعهم في الهواء ويصيحون، ثم تميل رؤوسهم إلى جانب وتسقط أذرعهم؛ واحد يسقط ذراعه على رأسه، وآخر يسقط ذراعه على مَن أمامه، ولم أدرك أنّهم قُبضوا إلا ونحن نمرّ من أسفل قوس الباب.

***

كنت أمرُّ محمولًا عبر باب البرقيّة ولا أرادة لي في حركتي، عندما انساب الضجيج بعيدًا عن أذنيّ، وغاب الثقل الضاغط على صدري.

***

وتوقَّفت للحظات تحت قوس باب البرقية، وتأمَّلت المشهد على يساري، فإذا الجمع يصيح وينوح، والناس يرفعون أذرعهم تضرُّعًا أو هكذا ظننت، وينضغط الناس على جانبي الباب وليس لهم من الأمر من شيء، يُصرعون من شدَّة الضغط ومن وطأة الهول. ثمّ التفتُ ناحية اليمين، وعلى مدٍّ بصري رأيت جبل المقطم، والناس وقد أفلتوا من قبضة الزحام يقبلون عليه مهرولين، غير عابئين بمَن وقع أرضًا، يدهسونه وكأنّه تراب. وعلمت أنّ الآلاف قد ماتوا اليوم، وغيرهم آلاف سيموتون، وأنّي سأعيش لأرى وأعلم، وعلمت أنّ الموت خير من العلم.

***

وصلتُ إلى حيث جثمان صخر، كان ممدّدًا على منصّة حجرية، نتوء في حجر هائل من أحجار المقطّم، يرتفع فوق رؤوسنا بمقدار أربع أذرع أو خمس، وقد غطّوه بقماشٍ سميكٍ أبيض، ولمّا كان الهواء يتحرَّك بفعل ريح غاضبة، حرصوا على تثبيت طرف القماش تحت جثمانه.

ترك الناس قوسًا فارغًا حول الجثمان، كأنَّهم خافوا الاقتراب منه، وعلى أطراف القوس وقف أعمامه وأخواله، وصلتُ بعدما اتّفقوا على تغسيله معًا، علمتُ ممَّن حولي أنّ كثيرًا منهم قد سقطوا صرعى في أثناء النقاش حول الغُسل، كان الفزع يصيب كلَّ مَن يدّعي الجَلَد والقدرة على تحمُّل وطأته، وكلّما اقترب أحدهم من المنصّة سقط من فوره. وامتنع مَن اشتهروا بالتبرُّع بغسل الموتى عن لمس الجثمان، ثم سمعت أنَّ أخواله وأعمامه حضروا قبل أن أحضر، واختلفوا طويلًا على مَن يقوم بتغسيله منهم، كلٌّ يصرُّ على أنّه الأولى بتغسيله. وبعد نقاشٍ طويل، اتّفقوا أن يغسل الأعمام نصفه الأيسر ويغسل الأخوال نصفه الأيمن.

ثم اشتدّت الريح تحمل الغبار الأصفر، واختفتِ الشمس تمامًا خلفه وقد كانت نصف غائبة. وصار الناس يصرخون: «يا ربّ» طلبًا للنجاة.

وتقدَّمت محتكًّا بكلّ كَتِفٍ، ومُمسِكًا بكلّ ذراع، ووجدت كلّ مَن مررت بجانبه يلمس كتفي أو يقبض عليه أو يربِّت على ظهري. حتّى وصلت إلى القوس الفارغ حول جثمان صخر. وشاهدته عن قرب، يرتفع بارتفاع منصّته، والجثمان أمام عينيّ مباشرة، وشاهدتُ الواقفين حوله.

وحدَّقت في الجمع الواقف على الناحية الأخرى فوجدت ظلال الناس غائبة، الشمس خلفهم تميل نحو المغيب، تختفي خلف ستار من الغبار المعلَّق، ودعوت الله أن تغيب بسرعة.

وتحامل الأعمام فتقدَّموا نحو الجثمان، وتبعهم الأخوال، واختفى الجميع تحت ستار الغبار، ونادى منادٍ: «غسِّلوه، يحجب الغبار عورته». ورفع الجميع رؤوسهم نحو الجثمان والمغسِّلين. ورأينا خيالهم يرفعون

الغطاء عنه، وبان الجسد المسجوَّ مستسلمًا، فبدأ الناس في التساقط صرعى.

ورأينا واحدًا من المغسِّلين يبتعد في وَجَل، خائفٌ من الجثمان الذي أقبل عليه منذ قليل واستعدّ لتغسيله. ورأيناه يسقط من شدَّة الفزع، ثم أخذ يحبو وكأنّه طفل، واختفى وسط الناس. ورأينا الباقين يستندون بأيديهم إلى المِنصّة طلبًا للثبات. وسمعنا أصواتَ الباكين تحيطنا وتعلو فوق كلّ صوت. ثم تحامل الأعمام والأخوال، ومسَّ أوّلهم جثمان صخر فتشجَّع الباقون.

ورأينا واحدًا منهم يمسك ذراع صخر اليمنى ليفردها بعيدة عن جثمانه، فسمعنا طقطقة مفاصله، فأخذ كلّ واحد من الجمع يضرب وجهه وهو يبكي ويصرخ. وجرى بعضهم بين الصفوف مصطدمًا بكلّ مَن يقابله.

ولا بُدَّ أنّ صفعة فزع جديدة أصابت الناس، لطمة لم يتوقّعها أحد؛ فقد سمعت صراخهم خلفي، صراخ مُعذَّبين يأتيني من بعيد، ثمّ ازدادت حدَّة الصراخ، واقترب الصارخ المُعذَّب منِّي. حتّى أوشك على أن يقف خلفي. لم يلتفت واحدٌ خلفه ممّن حولي، كلّنا حدَّقنا في جثمان صخر، كلّنا كنّا نخشى الالتفات.

وعلمتُ أنّي فقدت النطق للتوِّ، والتفتُ إلى مَن يقف بجانبي وحاولت أن أسأله: «ما أنت؟». لكنّي لم أنطق إلا بأصوات مبهمة، وأخذت أصرخ كمن قُطع لسانه وأضرب وجهي بقضبتيّ.

حلّ الفزعُ محلّ البشر.

***

تعجَّل المُغسِّلون، أنهى كلّ منهم عمله بسرعة. وظلُّوا واقفين في انتظار تكفين الجثمان، في انتظار محفَّة تحمله صخر. ولم أعد أرى إلّا كتلةً من السواد المُصفَرّ تحيط الجثمان. ثم خفّ الغبار وتساقط على الأرض تاركًا الهواء محمّلًا بذرّات دقيقة معلَّقة. فظهرت الأجساد المحيطة بالجثمان

واضحة. وغابت ظلالهم، لكنّ ظلّ المِنصّة كان واضحًا يكاد سواده يصبغ الأرض.

ورأيناهم يبتعدون عن الجثمان، يتراجع بعضهم ليهرول فزعًا، ويسقط أحدهم بلا حركة، ويتسمَّر الباقون وكأنّهم ماتوا واقفين.

***

وصلتُ إلى سفح المقطم، وسمعت الجمع يردِّد الشهادتين، ترديد المُحتضر في انتظار ملك الموت. كالمنادي يناديه ليخلِّصَه من عذاب أليم.

وفي غمرة كلّ ما يحدث، هدأ الصراخ رويدًا رويدًا، ونظرت في الوجوه كان كلّ منهم يترك مُديَته وسيفه، ويكفّ عن ضرب وجهه بالحجارة وبالقبضة. ويشخّصون نحو الأمام، نحو الجثمان المسجوّ على المِنصة، يعلو فوق رؤوس الناس.

ونظرت إلى حيث ينظر الناس، ورفعتُ رأسي، وتعلّقتُ بكتف الواقف أمامي.

كان صخر الخزرجي جالسًا على المِنصّة، تتدلّى قدماه ولا تلمسان الأرض، مستندًا بذراعيه على طرفها، ورأسه مُنكسٌ على صدره، الذي يعلو ويهبط بأنفاس عميقة. وماءٌ يغمره وينحدر على جسده. ثم أدركتُ أنّ هذا ليس ماء الغسل. بل عرقه يخرج من جلده ليغمرَه ويتساقط من أصابع قدميه.

كان الناس من حولي يتمتمون وكلّهم ذاهلون: بُعثَ صخر.

***

كنت قد وصلت أخيرًا إلى سفح المقطّم، بعد مسيرة ساعات، عندما وجدت الناس وقوفًا لا ينطقون، والصمت يخيِّم على المكان.

ورأيت صخرًا جالسًا على مِنصّة مرتفعة، ألم يمت؟ ألم نتجمّع هنا لنغسّله ونكفّنه؟ وردّ عليَّ أحد الواقفين: بُعث للتوّ.

ولم أفهم ما يحدث في البداية، كيف يُبعث أحدهم، وإن كان صخرًا،

بعد موته. أحياةٌ بعد الموت؟ وما لكلّ هؤلاء تحت التراب لم يُبعثوا اليوم؟ وما لليوم الغريب، هل أتت الساعة بلا علامات؟

وفكّرت أنّ كلّ هؤلاء سكارى، لا يمكن أن يكون هذا صخر الذي مات، أو أنّه لم يمت قطّ والسكارى ظنّوه ميتًا. وعزمتُ على العودة من حيث أتيت.

ونادى واحدٌ من الجمع: «إنّي أموت»، ورقد على الأرض، فأخذ أصحابه يلقِّنُونه الشهادتين، وهو يكرِّرها وسكرات الموت ترتسم على وجهه، إلى أنّ توقّف عن الترديد واتّسعت عيناه فزعًا. وظلّ يرتجف وهو يقلِّب وجهه ناظرًا إلى أصحابه، ولا موت. ثم صرخ: «اللّهم اقبضني»، وأخذ يردِّدها وهو يرتجف، وتسارع نفسه حتّى قلنا ها هو يُقبض، لكنّ تسارعَه ازداد وهو لا يزال يطلب القبض. حتّى صرخ أحدهم وهو يلطم صدغَيه: «مُت!». هؤلاء سكارى بخمر الفزع، يطلبون الموت ولا يأتيهم. ولم أفهم كيف يطلب الرجل الموت ولا يأتيه، وقد كان الناس يتساقطون موتى قبل لحظات.

وعلمت أنّنا نُعذَّب.

***

ثم قام صخر، وقف على المنصة وأشرف علينا، وامتدّ ظلّه أمامه، ووجهه غير واضح مع أنّ الشمس تغيب خلفنا وتنيره، ورأينا عينَيه تدوران باحثتين عن شيء في الجمع، ورأينا ذراعه اليمنى ترتفع أعلى من رأسه، مائلةً كأنّه يريد تظليل الناس بظلّ ذراعه.

صُعق الناس ولم ينطقوا، ومن نطق قال ما لا يُفهم. كان البعث قد أفنى العقول.

***

ثم أَوْمَأَ الجُثْمَانُ، لا أَهْذِي. أَوْمَأَ الجُثْمَانُ بالوَهْمِ.

***

وكنّا نقف موقفَ المذهولين، حينما نطقَ صخر الخزرجي.

قال: «لا كنتم ولا عشتم، أنتم أبناء المكر، أنتم مَن عاشوا على الأمل ولا أمل».

***

ثم قال صخر وهو يرتعد «ما كنتم؟ ما عشتم؟ أنتم أبنائي البكر، أنتم مَن عاثوا على الأمل ولا أمل». ثم صمت طويلًا، فأخذنا نتدبَّر ما قال، وبكى أحدهم بكاء النساء، وقال في همهمة وسط حشرجات ودموع: «يلومُنا لأنّنا عثنا في الأرض فسادًا، متشبّثين بالأمل في عفو الله، ولا أمل في عفوه عمَّا أجرمنا». ثم قال آخر: «يعايرنا بأبنائنا الأبكار، كأنّنا لم ننجب من الأصل، مثله تمامًا». وأخذ الناس يتجادلون، كلّ يقول إنّه سمعه يقول كذا، وهو يقصد كذا وكذا.

***

وفي سطوة الصمت الغامر، رأيت صوت صخر ينفذ إلى صدري، كنت قريبًا منه، فرفعت وجهي إليه، ووجدت شفتَيه ثابتتانِ بلا حركة، ووجهه جامد كاسمه، لكنّ صوته وصلني بوضوح كأنّي مَن يتحدَّث، قال: «ما أنتم؟ ما كنتم؟ أنتم الأبناء البكر، أنتم مَن عانوا على أمل ولا أمل». وتأمَّلت كلماته، فوجدت أنّي لا شيء، عشت ولم أعش، وكنتُ ولا أعلم كيف كنتُ، وأنا ابن أبي البكر، وأنّي عانيت كثيرًا، بل لم يمرّ يومٌ عليَّ بلا معاناة، والحقّ أنّي طالما ظننتُ أنّ هناك أملًا في حياة أفضل، في يوم رائق، أو حتّى في ساعة فرح في العمر كلّه. وإن لم يكن، فحياة أخرى للصابرين، وعد الله الحق. لكنّي في هذه اللحظة، ومع نفي صخر لوجود أيّ أمل، رأيت الوعيد الحق، وعلمتُ أنّنا نُعذَّب.

***

ثم رفع صخر ذراعيه وهزّ قبضتيه في الهواء، وصرخ في الناس: «لستُ ما ظننتم». ولا بدّ أنّ الناس طلبوا الموت، ولا بدّ أنّ الموت تخلّى عنهم في تلك اللحظة، فتعالى الدعاء من كلّ جانبٍ: «اللّهم اقبضني».

***

شقَّت صرخة صخر الهواء: «لستُ ما ظننتم». وتمنّى الواقفون الموت، قال كلُّ واحد: «اللّهم اقبضني»، ثم تعالى صراخ أحد الواقفين: «إنّي ألد». وقلنا إنّ امرأة تصرخ بصوت رجل، ثم اقتربتُ من الصارخ، واقترب الناس معي، يتدافعون بلهفة كلهفتي، وصلت إلى حيث تجمَّع بضعة رجال يحدّقون أسفل أقدامهم، وعلى الأرض بينهم وجدت رجلًا وقد رقد وعورته مكشوفة، وجنين كلب يخرج من إسته، جامدٌ لا يتحرَّك، وصرخ الناس بكلام غير مفهوم، ثم صاح أحدهم مشيرًا إلى الجنين: «كلب!». وردّدها مرّتين أو ثلاثة، وحدّقت في الوليد فرأيته يشبه مولودًا ذكرًا كأيّ مولود لابن آدم، فقلت: «ما لهذا الرجل يقول إنّه كلب؟ ها هو طفلٌ وليد أمامنا ولا عجب». ثم أخذ الرجل يعوي: «كلب.. هذا كلب!». وأدركنا أنّه صار أبكمًا، ثم ظلّ يعوي وهو لا يعلم بأنّه صار هكذا، والناس من حوله يقولون: «سبحان الله». ثم تحوَّل بعضهم للعواء، وزاد عددهم، حتّى صار الجميع يعوي كالكلاب، كأنّهم كلابٌ يعوون: «سبحان الله». وهم لا يدركون أنّهم يعوون. ثم فكَّرت أنّي قد أفقد النطق مثلهم، فصرت أختبر لساني؛ أتحدّث وأسمع صوتي ينطق بكلام البشر، لكنّي كنت أعلم أنّي أعوي مثلهم تمامًا، وأعلم أنّي لا أسمع عوائي.



وكان الناس يطلبون الموت، يقولون: «اللّهم اقبضني». أو: «اللّهم أمتني». أو: «اللّهم خذني». ثم توحَّد دعاؤهم في قول واحد، هتفوا معًا في يأسٍ بالغ: «اللّهم اقبضني... اللّهم اقبضني».

ثم قال صخر: «اصمتوا.. لا موت الساعة.. وإنّما خلود ساعة».

كان عاريًا، يرتعد جسده كأنّه محموم، ثم سمعته يقول: «أنتم ميّتون.. كلّنا ميّتون». ثم سأله أحد الواقفين: «كيف متنا ونحن نقف الآن أمامك؟». فردّ صخر: «كلّنا نقف في الجحيم..». وتعالى صياح الناس، وتزايد الجدل بينهم، وارتفعت الأصوات بكلام كثير، وارتعد الرجال. وقلنا إنّ النهار طال ساعات عدَّة فمتى يأتي الليل؟ وكأنّ الليل سيخلّصنا ممّا يحدث.

ثم صاح صخر: «لا مُخلِّص اليوم... نحن في الجحيم».

***

أفقت من غشيتي، واستندت إلى أجساد القوم، وقفت وأنا لا أقوى على الوقوف، ورأيت صخرًا الذي كان ميتًا منذ قليل حيًا. والناس يبكون حولي ويخفون أعينهم ووجوههم، وكأنّهم لا يجرؤون على رؤية صخر، ثم صاح صخر: «قامتِ القيامة.. وحوسب الناس.. وبقينا نحن هنا.. هذا جحيم الظالمين..». وسكت، فقلنا يا ليته ظلّ ميتًا.

***

وعلمتُ أنّي خالدٌ هنا.

***

ثم أشار صخر للموتى أمامه: «قوموا»، فقام كلّ مَن رقدوا على الأرض، وكأنّهم ما سقطوا أبدًا، وهكذا وجدت مَن كان مصروعًا وقد أفاق، ومَن كان ميتًا وقد بُعث، وكان بعضهم قد نحروا رقابهم، فوجدتهم واقفين بلا دم نازف، وحناجرهم مفتوحة للريح، يتكلّمون فيبقبقون. وقال صخر للجميع:

«متّم فحوسبتم فسقطتم ها هنا في الجحيم.. ولا أعلم مكانكم غدًا.. إلى جحيم آخر أو فردوس».

ثم قال:

«انتهت الدنيا منذ مدّة.. ثم قامتِ القيامة وبُعث الناس».

ثم قال:

«ومن يعش اليوم فإمّا في جحيم أو في نعيم.. إمّا خالدٌ فيه أو مارٌّ عليه.. فلا أملَ.. لكنّ الصبرَ أملكم الوحيد».

وصاح الناس خائفين، وبكوا حتّى بلّلوا صدورهم.

صمت صخر، فقلنا إنّه أنهى كلامه، وسرحت عينه فوق رؤوسنا، بلا هدف أخذت تتنقّل فوق الجمع.

ثم امتدّ ظلّ صخر فوق الناس، ظلٌّ طويل في اتجاه الشمس الغاربة،

وكأنّ الشمس تغرب أمامنا لا خلفنا، وأمامه لا خلفه، ولم ينتبه واحدٌ إلى ظلّ صخر المعكوس، فالهولُ الذي نراه ونسمعه أعظم من ظلِّه.

ثم تحرَّكَ الظلّ ببطء، وأخذ يدور على الجمع، كأنّه شعاعِ ظلام مصدره صخر. وسمعنا آهات الراحة من أفواه الواقفين كلّما مرَّ الظلُّ فوق رؤوسهم. كان الظلّ يمرّ على الناس فينتشون، ثم يتجاوزهم ليجلس كل واحدٍ منهم علي الأرض. مطرقًا رأسه مهمهمًا.

ورأيت الظلّ يقترب من مكان وقوفي.

***

غمرني الظلّ فرأيتُ السواد.

لا نور حولي، ولا انعكاسٌ لنور، ولا موجودٌ سوى الظلمة، وتذكّرت قولًا شهيرًا يربط بين الظلم والظلمة، وعلمت أنّي ظالمٌ، وأنّي سأرى اليوم من ظلمت، وفيم ظلمته.

***

ولم يحتويني الظلّ إلّا لحظات قليلة، ومرَّت حياتي السابقة عليَّ خطفًا، فرأيت أنّي كنت طاغيةً في الدنيا، وأُحصي من قتلت ظلمًا، فجاوزوا ألف ألف نفس، ولم تُحصَ صلاتي وصيامي، وكأنّها لم تكن، وعلمت أنّي خالدٌ في النار.

***

ورأيتُ أنّي قتلت امرأة في الدنيا، ثم رأيتها تأتي فتقف أمامي وتضربني بحديدة حتّى أسقط ميّتًا، وحاولت تذكُّرها فلم أستطع، ثمّ رأيتني بجسدٍ آخرَ ولسان مختلفٍ، ورأيتها تضربني بحديدة حتّى تقتلني، ثم رأيتني في جسد ثالث ورابعٍ وخامس، ورأيتها تضربني في كلّ مرّة حتّى أقعَ ميّتًا، وعلمتُ أنّي خالدٌ في النّار.

***

ورأيت أنّي عشت ثمانين حياة في الحجيم، أتنقّل بين أنواع العذاب ولا أعلم أنّي أتعذّب، وعلمت أنّي خالدٌ في النار.

***

ورأيتُ أنّي وُلّيتُ بلادًا واسعة، ورأيتُ أنّي كنتُ وسطًا في كلّ الأمور، وأنّي قتلت أنفسًا لأنّي لم أظلم ولم أعدل، بل تركت كلّ واحدٍ وما يفعل. ورأيتُ أنّي أحسنت الظنّ وارتكنت إلى الكسل وتطيرتُ وتركت المفاتيح للّصوص، ورأيتُ أنّ رجلًا وُلد في عهدي وأمّه خائفة، ولمّا وعى صار خائفًا، ولما مات مات خائفًا، ورأيتني وقد عشت في الجحيم عدد حيواتٍ لا يمكن إحصاؤه، ورأيتني أُعذَّبُ بالخوف، أعيشُ فزِعًا من كل شيء، وعلمتُ أنّي خالدٌ في النار.

***

وعلمتُ أنّي كنت قاضيًا في الدنيا، وعلمتُ أنّي عشت ألفَيْ حياة في الجحيم، كنتُ فيهم حطبًا يوقد ليتدفّأ به الناس، ثم يصير رمادًا، ثم يُبعث فيصير حطبًا يُوقد ليتدفّأ به الناس مرَّة أخرى. وعلمت أنّ العذاب تغيَّر، فصرت حجرًا يوقد الناس عليه النار.

وعلمتُ أنّي خالد في النار.

***

كاد الظلّ أن يختفي من فوق رأسي، عندما سمعت صراخ عامر الجوهريّ، الذي قتلته في الدنيا، يصرخ صراخه يوم قتلته، الصرخات نفسُها التي ظللت أسمعها هنا في كلّ يوم. وعلمتُ أنّي خالدٌ في النار.

***

ثم غاب الظلّ عنّي، وغابت الرؤى. وبدا الناس عن يساري وكأنّهم قد استسلموا بعدما جاوزهم الظلّ، واستسلم من على يميني للظلّ.

***

ثمّ شخص الناس أبصارهم نحو صخر، حتّى لم نعد نرى غيره.

قال صخر: «وصلنا للتمام... والقصاص لا بدّ منه..».

***

وسمعتُ صخرًا يقول: «هذا جحيمكم.. لا يزال طويلًا.. سنوات كثيرة قادمة أكثر هولًا ممّا رأيتم.. وينتهي ليتلوه جحيم كما سبقه جحيم..».

ثم قال: «وتمرُّ عليكم بعدي سبع سنواتٍ مظلمات.. يموت فيها كلّ شيء وأنتم تنظرون.. ثم تجوعون فتأكلون جيف الكلاب.. ثم تموتون فتأكلون جثامينكم.. ثم تيأسون فتأكلون أبناءكم..».

ثم قال: «ثم يفنى ثلثيكم.. وهؤلاء يعيشون آخر حيواتهم في الجحيم.. فمن مات في تلك السبع أفلت... ومن عاش فهو خالدٌ هنا..».

ثم قال: «ويُوضع الأمل في قلوبكم.. ولا أمل.. فالأمل عذابكم..».

ثم قال: «والنابه مَن أدرك أنّ أملكم زائفٌ..».

ثم قال: «الآن وقد قام كلّ من مات اليوم.. وقد علم الجميع باطن ما يحدث.. وما سيحدث.. أغيبُ عنكم إلى الأبد.. وأطلب الرحمة لكم.. فالقادم لا حدّ له..».

ثم قال: «تجرَّدوا من كلّ أمل.. واعلموا أنّ القاع وهم..».

***

ثم رأيتُ صخرًا وهو يتهاوى مستلقيًا على مِنصّته، ورأينا آخر شعاع شمس يغيب خلف ظهورنا، وانتظرت تحرّك الأعمام والأخوال وأنا راضٍ بما علمتُ للتوّ، وقد زال الفزع وحلّ محلّه اليقين.

***

وفكّرتُ أنّي قد عشت حياة عادلة في الجحيم. وتأمّلت ما أسعدني فوجدته سببًا لشقائي. وتذكّرت أيّام لهوي فوجدتها طريق بؤسي. وأدركتُ أنّ كلّ ساعة فرح قادتني لأيّام من الأسى.

***

ونظرتُ إلى صلاتي وصيامي وضحكتُ، فلا صلاة هنا ولا صيام. ولا تخفيف للعذاب أبدًا أبدًا. وكلّ ما أملك الصبر، وكلّ ما أخشى الأمل.

2011

6

تقلّبت مصائب كثيرة على ظهر رجل الزبالة، فقد عينُه منذ ثلاثين عامًا، وظلّ طوال عمره يذكر ذلك اليوم؛ كان جالسًا على قهوة في الضاهر، حينما بدأت مشاجرة بجانبه، فقام من مكانه كي يسرق حافظة أوراق جلدية تركها أحد المتشاجرين على كرسيّه، انتبه واحدٌ إليه وهو يمسكها ويهمّ بالهرب فصاح مناديًا الناس. قاتل رجل الزبالة بشراسة، حتّى عندما سالت عينه وأيقن أنّها راحت إلى الأبد استمرّ في القتال، لم يشهد الناس لصًّا يقاتل مثله أبدًا، لهذا استقرّ الجميع على أن يتركوه ليذهب دون تسليمه للشرطة.

أصيب بانزلاق غضروفيّ أبقاه راقدًا على الأرض مدَّة طويلة، عندما عمل في مصنع للبلاستيك. ولصلة البلاستيك بالزبالة، استطاع ترك المصنع والذهاب إلى معمل زبالة، هكذا كان يسمّيه: «معمل». حيث يتمّ فرز زبالة البيوت وتصنيفها إلى بلاستيك، وورق، ونفايات عضوية. وعمل لا يتطلّب سوى عين واحدة، وملابس مهترئة، فلا أهمّية لمَن يعمل في فرز الزبالة.

هناك، في الأكوام العديدة التي كانت تصله يوميًّا، وجد رجل الزبالة طعامًا كثيرًا، وقتها كان يأنف من تناوله، كان يكسب جيّدًا، ويأكل جيّدًا، ويعيش جيّدًا، وضاجع مَن عملن معه كثيرًا، وضاجع جاراته أكثر. كان ثورًا بحقّ، جسدًا ضخمًا ووجهًا مشوّهًا من جرَّاء المعارك العديدة، وعين بيضاء. كان الظلام خير ستر لوجهه في أثناء المضاجعة.

لكنّ طعام الناس الملقَى في الزبالة كان يؤرِّقه دومًا؛ فاكهة طازجة وأجزاء من دجاجات لا زالت بلحمها وجلدها وأرغفة خبز يابسة، رأى الملايين من من بقايا أرغفة الخبز، طعامٌ يعافه المرء لكنّه طعام حقيقي. كان يرميه للخنازير وهو يتمزَّق. كانت هذه أفضل طريقة للتخلّص من النفايات العضوية؛ الخنازير تأكل كلّ شيء.

ثم قالوا إنّ الخنازير ستقتل الناس، ستنقل إليهم مرضًا خطيرًا، وحفر رجل الزبالة حفرة ضخمة، كان صاحب المعمل يحفر معه وهو يبكي بحرقة، ولمّا حان الوقت، طلب من رجل الزبالة أن يكمل المهمة منفردًا فهو لن يستطيع مساعدته. حطّم رجل الزبالة جماجم الخنازير السوداء الصغيرة بعصا حديد، واحدًا تلو الآخر، ولمّا هرب واحدٌ منها تركه، كان يعلم أنّ الخنزير سيقتله أحد العاملين خلال دقائق، هذه جثّة لن يدفنها. رمى رجل الزبالة جثث الخنازير في الحفرة، ثمّ أهال عليها التراب. بعد ذلك بأيّام قليلة، سرَّحه صاحب المعمل. قال إنّه سيبحث عن مهنة أخرى، لا مجال للعمل في الزبالة بلا خنازير، ونصح رجل الزبالة بالبحث عن عمل آخر، قال إنّ العمل في الزبالة انتهى إلى الأبد.



مرّ إنسال وزهرة معًا على ثلّاجتَين اليوم، شاهدا مئات الجثث، ومع كلّ جثّة تشيح زهرة بوجهها بعيدًا، ترى وجه الميِّت وتدير وجهها لتنظر فوق كتف إنسال، أو تخبِّئ وجهها في عنقه، هذه طريقتها في الرفض والاعتراض. ثم يمشي إنسال إلى ثلاجة أخرى، أو طاولة معدِنية في ركن القاعة أو سرير بسيط، ويقف أمام الجثمان ليسألها للمرَّة الألف: «أهذا بابا؟.. هل هذا بابا؟.. يا زهرة بابا هنا؟.. هذا بابا يا زهرة؟». وزهرة لا تنطق، فقط تدير رأسها بعيدًا عن الجثمان.

هذه هي الزيارة الأخيرة لهذا اليوم، لكن على إنسال أن يذهب إلى قصر العيني، فقد قيل له إنّ جثامين جديدة وصلت إلى هناك، ربّما تجد

زهرة شيئًا. أرهقت زهرة كثيرًا، يوم طويل وثلّاجتين، وثلّاجة قصر العيني ستكون الثالثة، هذا كثير وقد تنام زهرة في الطريق من شدّة الإرهاق، لكن يجب المرور على قصر العيني، لا مفرّ.

كانت زهرة مستسلمة على كتفه، وقف إنسال وهلة أمام الباب، ينظر إلى خازن الثلاجة.

كانت مواعيد الزيارة قد انتهت، وتوقّف الكثيرون أمام بوّابة الثلّاجة يستعطفون الخازن، وهو يردّ رافضًا دخولهم بوجه جامد، كانوا على استعداد لدفع رشًى صغيرة كي يسمح لهم الخازن بالدخول، لكنّه رفض أيضًا، لم يشعر بالإهانة بل كان قد ملّ ردود أفعال الناس حوله وتهافتهم على الدخول. كانت الجثث تتراكم عنده، وعشرات الأشخاص يدخلون كلّ يوم يحدّقون في الجثث كلّها، لكنّ عددَ الجثث كان في ازدياد، لم يجد الباحثون إلّا عددًا قليلًا من الجثامين الضائعة، ربّما جثمان أو اثنين كلّ يوم. لم تفرغ الثلاجة قطّ بل ازداد عدد الجثامين القادمة من الخارج.

كانت زهرة قد انتعشت قليلًا، أنزلها إنسال إلى الأرض، وسارا معًا ببطء يناسب ساقيها الصغيرتين، اقتربا من باب الثلّاجة، تابعهما الخازن، وحالما اقتربا فتح لهما الباب.

في الداخل، أخذ إنسال يهيّئ زهرة كعادته: «يا زهرة سنبحث عن بابا، ها؟ حسنًا؟ هل هذا بابا؟ أهذا بابا؟..». وزهرة تشيح بوجهها مع كلّ جثمان، لا وجود لرائحة أبيها هنا، في ما عدا تلك الذكرى شديدة البُعد، كأنّه كان هنا منذ أيّام طويلة.

قرب النهاية، وبعد أن مشى إنسال حتّى قارب الثلّاجة الأخيرة، وفتح الخازن الباب المعدِن الأخير، وسأل إنسال: «يا زهرة، أهذا بابا؟..». تجمّدت البنت قليلًا أمام الوجه الميّت منذ أيّام، لم تبدُ عليه أيّ إصابات، لم تكن هناك بقايا لدم متخثر. لم تحرِّك زهرة عينيها بعيدًا كما اعتادت، سألها إنسال مرّة أخرى: «هل هذا بابا يا زهرة؟.». ردّت: بابا.

وقّع إنسال أوراق عديدة، لم يقرأ منها شيئًا، كان يريد أن ينتهيَ من الأمر برمّته، فوقَّع تاركًا كلّ الحمل على كاهل المستشفى، هم مَن سيغسلونه وسيرتّبون الصلاة عليه ثم سيدفنونه في مقابر الصدقة، كلّ ما يعرفه أنّه سيُدفنُ في مقابر الإمام الشافعي. كانت زهرة مستندة إلى الحائط برأسها عندما انشغل إنسال بتوقيع الأوراق. وعندما انتهى حمل زهرة ومشى خارجًا.

رأى الخازن قتلى كُثُر، يذكرهم كلّهم، ذاكرته لا تتجاهل ما تراه عيناه وتحتفظ بكلّ شيء، تستطيع استرجاع ما احتفظت به خلال السنوات السابقة. يقوم هو بخلق صورة في رأسه لوجوه القتلى، يجمع الصور معًا، يرسم الصور بخطوط باهتة شبه شفّافة، مرسومة في الهواء والخلفية بيضاء، ثم يضع الصورة فوق الأخرى، في طبقات بعدد الصور المخزَّنة في رأسه، تنطبق العين اليمنى على العين اليمنى، ينطبق الأنف على الأنف، والشفاة على الشفاة، وقد تنحرف الشفاة قليلًا إذا كان الوجه ممزّقًا. قد تغيب أجزاء من الرأس عن باقي الوجه، وقد يكون الوجه كاملًا ومثاليًا. يجمع الخازن في ذاكرته آلاف الصور، صورة فوق الأخرى وطبقة على طبقة، لا يعرف إلى ماذا سيصل في النهاية، لا يعرف إن كانت هناك نهاية، في ذاكرته الآن صورة واحدة كبيرة مكوّنة من عدّة صور، آلاف الصور، لوجه محايد بلا ملامح محدَّدة، فقط عينان وأنف وشفتان، وكلّهم مرسوم بخطوط مائعة غير محدَّدة، والآن عندما يضع صورة وجه جديد لا تتغيَّر الصورة الكبيرة، أصبحت ثابتة أخيرًا تحمل وجهًا واحدًا، لكنّ الخازن لا يعلم مَن صاحبه.

تابع شبابًا وهم يدخلون فرحين إلى المستشفى، يضحكون وهم يسترجعون صائحين ما حدث بالأمس، ما حدث عندما أطلق واحدٌ الغاز عليهم، عندما جرى أحدهم هربًا، أو جرى ليهجم على البلطجية، يتابع سعادتهم وهم يتحدَّثون عن تقدّم أحرزوه في الشارع، يحكون بحماس وهم يمشون في الرواق المؤدِّي إلى الثلّاجة، ينفعل أحدهم فيقفز في

الهواء وهو يصف كيف أمسك القنبلة، هؤلاء يمسكون قنابل الغاز في الهواء، قال الخازن إنّ العذاب بشعٌ حقًّا.

الشباب يتجهَّمون حالما يقتربون من باب الثلّاجة، يبطئون الخُطى وينظرون بين أقدامهم، تخفت أصواتهم، ويسأل واحد منهم عن الرفيق الغائب، ثم يدخلون ويبحثون عنه بسرعة، نظرات قصيرة على الجثامين، ثم يرحلون وهم يستعيدون ما قام به الرفيق المفقود من أفعال شجاعة، يقولون لا بدّ أنّه ينام عند صديقته، يستمتع بالعسل، وهم هنا يبحثون عنه وكلّهم قلق، يتابعهم الخازن وهم يمشون في الرواق، يغيبون عن عينيه ببطء، تتحوَّل أجسادهم إلى علامات صغيرة متشابهة، إلى بقع متحرِّكة معذَّبة، هؤلاء يحرِّكهم الأمل، هؤلاء يُعذَّبون كما لم يعذَّب أحدٌ من قبل. هذه أكبر جَرعة أمل رآها الخازن في حياته.

7

تعامل رجل الزبالة بلطف مع الفتاتين، كانتا طوع أمره طوال اليوم ولم يتخيَّل أن تستجيب الكبيرة بهذه السرعة، لم يستمتع بالصغيرة قطّ، كانت الكبيرة هي التي تتفاعل معه وكأنّها امرأة بالغة؛ تُمسك قضيبه، تضغطه، تداعبه. حاول رجل الزبالة أن يمسك بيد الصغيرة ويعلِّمها كيف تداعبه، لكنّها لم تكن تجتهد مثل الكبيرة، لم تكن محترفة، وغالبًا ما أخذت الكبيرة مكانها وأوصلته إلى ما يريد. لكنّ هناك شيئًا ناقصًا، لا تكتمل متعته، جسد الفتاة صغير ولا يفي بالغرض، وهو يتعامل معه على أنّه جسد حقيقي خير من صورة يتخيّلها، خير من أوهامه السابقة، ويمنّي نفسه؛ بعد سنوات قليلة ستصبح ذات جسد حقيقي، امرأة حقيقية يمتلكها.

لكنّ رجل الزبالة فكَّر في المستقبل؛ ربَّما يتغيّر الحال، قد تجد شابًّا وسيمًا قويَّ البنية، بوجه كامل غير مشوّه، وعينين سليمتين، يمشي منتصبًا ولا يهتزّ في مشيته، ربّما يأتي مثل هذا فيتحابّان وتتركه. لكنّ الصغيرة هنا

لتقيّدَ الكبيرة، لن تتركاه معًا، إلّا إذا وجدتا شابّين في توقيت واحد. هنا انفعل رجل الزبالة حقًّا. حتّى مع كلّ ما فقده سابقًا انفعل لما رأى مستقبله بائسًا مَن دون الطفلتين. الآن، لا يملك إلّا هاتين، حتّى الزبالة التي يأكل منها يوميًّا لا يملكها. تلك المكوّمة في أهرامات عديدة في منتصف الطريق.

مل رجل الزبالة بيته تحت الكوبري، هذا ليس بيتًا حقيقيًّا وإنّما مجرّد مكان للنوم، لكنّه كان يحلم ببيت في أحد أهرامات الزبالة الكثيرة هنا، سيقوم بالحفر في جدار أحدها، سيحفر نفقًا يصل إلى قلب الهرم، لا مشكلة، لن تتداعى الكومة على رأسه، أمّا الرائحة فقد اعتادها منذ مدّة. هو حريص على وضع القليل من الطعام المتعفِّن إلى جانبه، حينما ينام وحينما يقعد على الرصيف وحينما تداعب الكبيرة قضيبه، في كلّ وقت. حرصًا منه على عدم نسيان الرائحة. أو حرصًا على عدم شمّ أيّ روائح أخرى غير رائحة الزبالة. كان أيضًا حريصًا على زرع الرائحة في ذاكرتي الطفلتين، كيف ستعيشان معه إذا لم تعتادا رائحة العفن؟ وعندما يصل إلى قلب الهرم، سيبدأ في توسيع النفق، لن يصبح نفقًا، بل سينحت قلب الهرم ليخلق غرفتين مربّعتين وصالة كبيرة، سيحتاج حتمًا إلى أخشاب لتدعيم السقف والحوائط، سيسرقها من موقع البناء المجاور للأهرامات، أو من دكان بيع الأخشاب القريب.

سيحفر النفق في مدّة وجيزة، أربعة أشهر أو خمسة، وربّما يستمرّ الحفر حتّى يكمل العام. وسينحتُ الغرفتَين والصالة في عام آخر، وقد يعيش في بيته هذا بعد عامين من بدء العمل، وقد تكون الفتاة الكبيرة قد اكتملت، سيجلس هو في الصالة، على الأرض، يتكئ على صندوق فارغ وينتظرها ريثما تأتيه بالطعام. عامين مدّة طويلة حقًّا، لكن رجل الزبالة غير متعجِّل، أهمّ ما في الحكاية ألا يعرف أحد ما يفعل. إذا عرف الناس ما يفعل سيقومون بالحفر في باقي أهرامات الزبالة، هناك أهرامات عديدة

لكنّها ستُشغل كلّها في النهاية، وسيتحوَّل المكان المنفِّر بسبب الرائحة والمنظر إلى حيّ مزدحم كالأحياء المُحيطة به، ومَن يدري فقد يقوم أحدهم بتوسيع غرفته كثيرًا، فينهار الهرم فوق رأسه ورأس مرافقيه. رجل الزبالة أتى هنا ليبتعدَ عن الناس ومبانيهم التي يحتقرها، يودُّ أن يسكن في أحدها لكنّه أيضًا يحتقرها. والحياة هنا فكرته وحدَه، ولن يستولي عليها أحدٌ أبدًا. قد يقتلُ إذا ما هدَّدَ أحدهم نجاح فكرته.

حلم رجل الزبالة بزيارته الوحيدة لأهرامات الجيزة، تكرَّر المشهد كما رآه منذ سنواتٍ طويلة، لم يدرك أنّه قد زار أهرام الجيزة عندما كان طفلًا إلّا عندما استيقظ، وأخذ يميِّز الواقع عن الحلم، تذكَّر أنّه قد زارها مع زملائه في المدرسة، سار في طابور مزدوج من الطلبة، ومدرِّس يسير بجوار رأس الطابور، وآخر يسير بجوار ذيله، لكنّ الحلم الضبابيّ أغفل سبب الزيارة ووجوه المرافقين، واكتفى بإظهار كلمة المرشد السياحي؛ «الهرم قبرٌ كبير، وقد يكون بيتًا أيضًا، الهرم قد يكون كلّ الأماكن» قال المرشد هذه الكلمات ولم ينسها رجل الزبالة قطّ. وعندما استيقظ وخرج من غرفته تحت الكوبري شاهد أهرامات الزبالة ترتصّ في صفّ واحد بأناقة واتّساق، وطيور عديدة تحلِّق فوقها وتحط عليها. وقال في نفسه: هذا حقًّا هرمٌ ملوَّن صالح للعيش فيه.

انتهى من جولته اليومية، جمع طعام الغداء وأعطاه أحدهم سيجارة، وجمع ثمانية جنيهات، ثم أعطاه واحد سيجارة أخرى. تخيَّل الفتاة الكبيرة وهي تمسك السيجارة وتمجُّ دخانها، ابتسم وجرى الدم في عروقه، هاج وانتصب قضيبه، وانتظر ليلة حافلة.

تحت الكوبري جلس رجل الزبالة على الأرض، استلقت الفتاتان بجانبه، وأصوات السيّارات المارّة على بعد أمتار قليلة فوق رأسه تأتيه واضحة، غطّى نور الشمس الغاربة جسم الكوبري الحديد، الذي أخذ يختزن حرارتها استعدادًا لتفريغها في الهواء بعد الغروب. عطشان للغاية،

رفع زجاجة ماء إلى فمه وشرب، ثم خرج ليتبوَّل على عمود الكوبري المجاور. وعندما استدار ليعود إلى مخبئة الصغير، لاحظ أنّ مجموعة من الشباب تقترب من الكوبري، وقفوا بالقرب من بيته الصغير، أخذوا يتلصَّصون على الفتاتين من خلال ألواح الخشب والورق المقوّى، ومجموعة أخرى تقدّمت نحوه، ينظرون إليه بتحفُّز بالغ، تركوا ضحكاتهم ورفاقهم الذين يحاولون فتح الباب الصغير، وقفوا حاجزًا بين رجل الزبالة وبين بيته، كانوا يمسكون عصيًّا خشبية، وقطعًا قصيرة من الحديد وحبالًا.

أقعدوه على الأرض، كانت الشمس قد غربت وسيّارات قليلة تمرّ، وخلا الشارع من الناس. كلّ واحد منهم يدخل البيت الصغير، يفعل ما يريد، يغتصب الكبيرة المستسلمة للجميع، والصغيرة في الركن تنظر قليلًا وتخبِّئ عينيها معظم الوقت. ورجل الزبالة خائف في الخارج. هو يريد أن ينتهي الأمر بسلام، أن يملّوا أو ينتهي كلّ منهم من مضاجعة الفتاة، كان يسمع صرخاتها الخافتة، كان قد أصبح يعلم متى تصرخ، ولم يشعر بأيّ أسى نحوها.

الآن يلجّها أحدهم فتصرخ، سمع رجل الزبالة الصرخة وقال إنّ تلك صرخة ألم بالتأكيد، لكنّه لن يقوم من مكانه ليطردهم، سيزداد غضبهم وربّما يتغلّبون عليه، يودُّ أن ينتهيَ كلّ منهم بسرعة، والفتاة تودُّ أن ينتهيَ من يعتليها الآن بسرعة. هم أنفسهم يودّون ذلك، الفتاة كيس استمناء لا أكثر.

تلقى رجل الزبالة الضربات صامتًا، كان يعلم أنّ المقاومة لن تزيدهم إلّا جنونًا، هؤلاء غمرتهم النشوة وقرّروا أن يضربوه حتّى يهدّهم التعب. وهو قال إنّه سيتحمَّل، الزبالة التي يأكلها يوميًّا تزيد من قوّته ومن قدرته على التحمُّل. كانت الضربات الموجَّهة إلى رأسه مؤلمة جدًّا، وبعد عدّة ضربات لم يعد يشعر بالألم ولا بالدم المنساب على وجهه.

ظلّ رجل الزبالة قاعدًا حتّى بعدما انتهوا وغادروا، لم يقوَ على الوقوف. كان يسمع بكاء الفتاة الخافت من الداخل.

مرّ قطّ مشوَّه من جانبه، هَرِمٌ ذو وجه لا مبالٍ، وذيل متَّسخ، يمشي ببطء بالغ، وآثار دمٍ متجلِّط على فرائه، مدَّ رجل الزبالة ذراعه وضرب القطّ بقبضته، لم يجْفل كما تفعل القطط، بل حرَّكته الضربة بعيدًا عن مساره، ثم أكمل طريقه دون أن يلتفت للرجل. سار تاركًا الرجل والبيت والبكاء الخافت، نزل من الرصيف ليعبرَ الشارع. لا يهتمُّ للسيّارات المارقة أمامه، لا يهتمّ للسيّارة التي حاولت أن تقف قبل أن تصدمَه، ضغط قائدها على المكابح وتعالى صوت الإطارات، كاد أن يتوقّف فعلًا، لكنّ سيّارة أخرى اصطدمت به من الخلف، ودفعته ليمرَّ فوق القطّ.

تناثر حطام بسيط من السيّارتين، نزل السائقان وأخذ كلّ منهما يلوم الآخر، الأضرار ليست كبيرة، انبعاجات طفيفة في كلتا السيَّارتين، واختفى القطّ تمامًا، نظر رجل الزبالة وبحث عنه لكنّه لم يجده. ثم أخذ يزحف متّجهًا نحو بيته الصغير، ودمه ينزلق على رأسع ليدخلَ عينيه.



في الليل، أخذت زهرة تحادث إنسال، تكلَّمت بلهجتها الطفولية، وهو حاول الردّ على أسئلتها، ركَّبت الجمل بصعوبة، ورفعت نبرتها في أواخرها لتضيف على الجملة طابع السؤال، تعلَّمت زهرة كيف تسأل، وفي الوقت الذي يسأل فيه الأطفال آباءهم، سألت هي الرجل الغريب.

رحلت ليلى إذن، والجنين آمن تمامًا الآن، ومات والد زهرة، ولا يوجد في البيت إلّا هي وإنسال، الذي فكَّر وهو ممدّدٌ على السرير؛ سأتبنّى زهرة، ستصير ابنتي وحدي.

نام إنسال وهو يحدِّق في وجه زهرة النائمة إلى جانبه، يرسم مستقبلًا سعيدًا لكليهما، أب وابنته، وربّما تعود ليلى، أو يقنعها هو بالعودة لتربّي زهرة معه. لمستْ زهرةَ رائحةُ العائلة.

في الصباح، أستيقظ إنسال على أنين زهرة، كان راقدًا فجلس، وفي نور الشمس الخفيف النافذ من خصاص الشباك، وجد أنّ جرحًا أصاب فمها.

كانت قد غرقت في بكاء مرير، عندما قام وأضاء نور الغرفة، ثم عاد

إلى السرير ليجد أنَّ جلد وجهها قد امتدَّ ليغطّي شفتَيها، جلدٌ متغضّنٌ غيرُ معتاد، هذا ليس جسمًا غريبًا، رأى جلد زهرة يمتدُّ على جانبي الفم ويغطِّيه من الطرفين، يمتدُّ فيغلق الشفتَين ويسدُّ الفم. كيف تبكي زهرة وهي لا تستطيع فتح فمها بالكامل؟ لكن ما حدث لم يؤلمها، بل كان فقط يقيِّد فمها، تشعر أصابعها بتكلُّس غريب كلَّما حاولت لمس شفتَيها. أخذ إنسال يضغط على الجلد الرقيق، محاولًا فهم ما يحدث، لم يكن الجلد يمتدُّ فوق الشفتَين كما ظنّ، بل كان اللحم يلتئم، الشفتان تلتحمان ببطء، عضلات الفم وغشاؤه الداخلي يلتحمان ببطء، حتّى بينما كان إنسال يرتدي ملابسه، ويحصي جنيهاته، ويستعدُّ للنزول واصطحاب زهرة للطبيب، كان الفم يلتحم والمسافة المفتوحة من الفم تتقلَّص، بدا لإنسال أنَّ الفم سيُغلق بالكامل خلال ساعات.

حمل زهرة وجسدها يختلج وهو ساخن من الانفعال، وجهها مبلّل بالدموع، راحت أحلام إنسال، ربّما لن تُشفى زهرة، ربّما لن يعرف الطبيب ما أصابها، حاول إنسال تذكُّر إن كان هناك مرضٌ مماثل قد يصيب الإنسان، مرض قد سمع عنه أو علم أنّه أصاب واحدًا من معارفه، حاول أن يتذكَّر إن رأى هذه الحالة قبل اليوم، لم يتذكَّر شيئًا.

أشار إنسال إلى تاكسي واتّجه إلى أقرب مستشفى.

ظلّ إنسال يتجوَّل داخل المستشفى طوال اليوم وهو يحمل زهرة، من يد ممرِّض إلى يد طبيب ومن سرير إلى آخر. قطعوا عَيّنة صغيرة من الجلد المتخلِّق فوق الشفتَين، وسحبوا عيّنة من دم زهرة، وفحص وجهَها عشرُ أطبّاء على الأقلّ. كلّهم صامتون، كلّهم لا يظهر التأثُّر على وجوههم، ظنّ إنسال أنّ ما يحدث طبيعي، فكّر؛ إذا ما كان ما يحدث حولنا هذه الأيّام طبيعيًّا، فما يحدث لزهرة طبيعيٌّ أيضًا، هذا ليس بمرض.

في نهاية اليوم، عند المساء، طلبوا منه أن يرافقَ زهرة في غرفة، سيبيتان هنا حتّى الصباح.

كانوا قد أطعموا زهرة طعامًا مهروسًا، تناولته وهي تكاد ترفضه، وما

دفعها إلى ذلك إلّا الجوعُ، كرهت الطعام، خاصّة أنّها تتناوله بالملعقَة من فتحة صغيرة باقية في فمها، تمضغه قليلًا ثم تبلعه، أعطوها مهدِّئًا وبعد دقائقَ من تناوُله استسلمت للنوم.

نام إنسال نومًا متقطِّعًا، كلّ عدّة دقائق يفتح عينيه ليُحدِّق في وجه زهرة، يجدها نائمةً فيعود لإغلاق عينيه وينام، وعندما فتحهما فوجدها تقلَّبت واتّخذت وضع النائم اللامبالي اطمأنّ، على الأقلِّ هي لا تشعر بألم الآن، تنام بعمق.

في الصباح رأى أنَّ فمها قد أُغلق تمامًا، راحت الفتحة الصغيرة في المنتصف، راحت الشفتانِ إلى الأبد، ومع نور الشمس المتسلِّل عبر النافذة، أخذت زهرة تموء، صوتٌ خرج من أنفها، الفم الآنَ كأن لَّم يكن، وظنّ إنسال أنّه يحلم، لا بدّ أنّه يحلم، فهرع خارجًا من الغرفة وهو يصرخ.

اعتذر الأطبّاء، قالوا له إنّ ما يحدث غريب لم يروه من قبل، يعرفون أنّ الأعضاء البشرية إذا ما سكنت ماتت بالتدريج، تضمر العضلات حتّى تختفي، وقبل ذلك يكون العضو قد انتهى إلى الأبد، وأصبح عاجزًا عن القيام بوظيفته. لكنّ ما حدث لزهرة غيرِ هذا، نمت طبقة من اللحم لتسدَّ الفراغ بين الشفتَين، التأمتا، اختفت فتحة الفمِّ بلا سبب أو مبرّر، تحاليل الدم ووظائف الغدد تؤكِّد أنّ زهرة على ما يرام، لا ضرر سيلحق بها.

قال أحدهم إنّ هناك حلًّا أخيرًا، لكنّه غيرُ معتاد، مثل مرض زهرة بالضبط، سيفتح جرّاحٌ شفتَيها، سيمرُّ بمِبضعه فوق الفتحة القديمة للفم، سيفتحها عنوة ويخيط طرفي الفتحة حتّى تتوقَّف عن النزيف، هذا حلٌّ جراحيٌّ سريعٌ وفعّال، أفضل كثيرًا من البحث في المراجع ومحاولات العلاج بالأدوية.

لكنّ زهرة ليست ابنته وسيردُّها لأهلها يومًا، نسى كلَّ أحلامه فهي لن تعيش معه إلى الأبد ولن تصبح ابنته أبدًا، كان إنسال يريد ذلك حقًّا لكنّه يستبدلها بوليده الميّت مهما فعل. وعندما يجد واحدًا من أهلها فإنّهم

لن يسامحوه على ما يطلبه الطبيب. والدها القتيل الذي قُتل ظلمًا والذي دُفن في مقابر الصدقة، هو أيضًا لن يسامحه، سيقابله يومًا وهما عاريان وسيلومه على فعله هذا؛ كيف واتتك الجرأة؟ كيف تشوِّه وجه زهرة؟ لن يسامحه أبدًا وقد يطلب القصاص منه. وتمسَّك إنسال بالأمل، فكّر أنّها ستعود يومًا إلى طبيعتها، ستستيقظ يومًا وفمُها مفتوحٌ بابتسامة جميلة، وشفتاها كاملتان بلا ندبات أو علامات خيط الجرّاح.

كانت زهرة قد استسلمت لكلّ مَن حولها. أتى الأطبّاء بأنبوب سيليكون دقيق، أدخلوا طرفه بحرصٍ في أنفها، أدخلوه سنتيمترات قليلة، ولمّا توقّف الأنبوب كأنّه لاقى حاجزًا داخل رأسها، أمالوا رأسها إلى الخلف، وأعادوا المحاولة بلطف، حتّى مرّروه عبر الأنف ثم البلعوم ثم المريء حتّى وصل إلى المعِدة، هذا فمُ زهرة الجديد. أتَوا بطعام مهروس في طبق، بلا لونٍ محدَّد، وبوساطة مِحقن أخذوا يحقنون الطعاَم في طرف الأنبوب ببطء، استسلمت زهرة تمامًا، توقّفت عن البكاء، هناك شيءٌ ما غريب داخلها الآن، جسم غريب يخيفها ترغب في الخلاص منه، وطعام يمرُّ من خلاله إلى جوفها، كثيرون يقفون حولها ورائحة مرض تلمسها، رائحة مرضٍ في كلّ مكان هنا، ورائحة موت شابّ راح منذ دقيقة واحدة، ورائحة اثنين ماتا محترقين. ورائحة دماء كالتي عرفتها منذ أيّام تأتيها من ممرضة تقف بجوارها، ورائحة عرق الطبيب المُرهَق، يتحرَّك أمامها وجسده مخدَّرٌ بما يتعاطاه يوميًّا من مسكنٍ قويّ، لا يمكنه متابعة العمل من دونه.

ثم انتشرت رائحة مؤقّتة هي ما هدأت من روع زهرة، عندما انساب الطعام المهروس عبر الأنبوب إلى معدِتها، شعور لطيف غمرها ومعدِتها تمتلئ، غاب عنها طعمُ ما أكلته لكنَّ رائحته كانت حاضرة.

خَرج الأطبّاء والممرضة وإنسال من الغرفة وبقيت زهرة على السرير. تدلَّى طرف الأنبوب خارجًا من أنفها، أغلقته الممرضة بغطاء مرن شفّاف، كي لا يسرِّب ما في جوفها، وسيطرت رائحة المرض على الحجرة.

انهار إنسال أمام الطبيب، قال له إنّه لا يريد أن يراها تأكل هكذا طوال حياتها، قال له إنّه يفضّل أن تموت على أن تعيش هكذا، هذا عذابٌ مستمرٌّ لها وله، ما يحدث ظلمٌ بالتأكيد، هي لم تفعل ما يستحقّ كلّ هذا العقاب.

المسكّن الساري في دم الطبيب يشعره دومًا بالخفّة، يجعله واثقًا من نفسه، واثقًا في أدائه لمهمّاته. وكلمات إنسال معتادة تمامًا، سمعها عدّة مرّات من أهالي المرضى العالقين في وحلّ الانهيار العصبي، هذه المرّة لا تختلف كثيرًا. الكلمات نفسها والألم نفسه، ومع المسكّن المعتاد بدا الموقف سخيفًا ومكرّرًا، كان الطبيبُ يردّ في عقله عند سماع كلّ جملة: «طيّب.. جميل.. جيّد.. رائع.. خلّصنا لو سمحت.. لا شفاء.. لا أكل إلّا بالقسطرة.. نعم اسمها قسطرة.. انسَ الشفاء الكامل.. المرض ابتلاء.. أعرفُ.. أعرفُ.. أعرفُ.. ألن تصمتَ يا بابا؟.. البنت ستموت خلال أيّام.. ارحمني!..».

كان الطبيب قد وصل إلى قناعة بعد شهور قليلة من العمل؛ كلّ ما يحدث حوله هراءٌ كامل، وعليه ألّا يتأثّر بوفاة أيّ مريض، وربّما استمتع بموت أحد المرضى الدائمين؛ سيستريح المريض وسيستريح ذووه وسيستريح الطبيب، بعض الأمراض مزمنة وهو يبذل مجهودًا خارقًا لعلاج المصابين بها. هذه الطفلة مثلًا حالتُها غيرُ معتادة، يبدو وكأنّها أوّل حالة في التاريخ البشريّ، وعلى الرغم من ذلك عليه علاجها، الناس تُقتل في الخارج يسمع عن عشرات القتلى يوميًّا، هؤلاء يرتاحون حقًّا فلا عذاب لهم بعد اليوم، يفكّرُ الطبيب أنّهم لن يرَوا في الجحيم أكثر ممّا رأَوا في الدنيا. ثم بعد كلّ هذا يأتي الرجل وابنته كي يضيّعان وقته ووقت المستشفى. بحسابٍ بسيط، تأكّد أنّ الطفلة ستموت بعد أيّامٍ قليلة، لن تعيش طويلًا وهي تتغذّى بوساطة الأنبوب السيليكون. ستحتاجُ طعامًا صُلبًا بعد مدَّة، ستؤثّر حالتها النفسية السيئة في جسدها، وربّما أصابتها عدوى أو مرض بسبب الأنبوب الذي يشغل جزءًا من جوفها. ثم فكّر في حلّ آخرَ لا كي ترتاح البنت

الصغيرة، لكن كي يرتاح هو منها ومن أبيها. سيُفتح الفم بيد جرَّاح، هذا تشويهٌ كاملٌ لكنّها ستأكل بشكل طبيعي وشفتاها لن تعودا كما كانتا أبدًا، ربّما تحوَّلت أنسجة الشفتَين إلى نسيج آخر.

في نهاية اليوم، قرَّر أحد الأطباء بعد فحص مكثَّف أن يقوم بالعملية غدًا، قال إنّ تكاليف العملية لا تهمّ، سيقوم بها مجّانًا لأنّ الحالة غيرُ معتادة ولن يدفع إنسال قرشًا واحدًا. وافق إنسال.

استلقيا على السرير في انتظار الغد، مرَّرت زهرة كفّها على وجهه في الظلام، تحسَّست فمه وأنفه، ولمست عيناه المغمضتَين وتحسّست حاجبيه، ثم مدّت كفّها وأخذت تقرص صوان أذنه اليسرى، ثم عادت لتتحسّس فمه وأنفه. كانت رائحة أبيها قد تراجعت إلى مكان بعيد في ذاكرتها، وأخذت رائحة إنسال تنحتُ جزءًا جديدًا من منها.

هذا رجل خائفٌ دومًا، هذا رجل يتألّم، هذا رجلٌ يحبّني ولا يعرفني، ألمس رائحة حبّه، لكنّ خوفه يضايقني، لا تخف، يجب أن تدرك أن لا خوف للكبار، الخوف لنا نحن الصغار فقط، وعندما أكبر لن أخاف، لن تلمسني رائحة خوفي مطلقًا.

في أثناء نومه رأى إنسال أنّه صار بركانًا شهيرًا واسمه كراكتوا، كان يمشي في مكان بالغ الاتساع، أرضيته من بلاط أبيض ناصع، وأعمدة حديد رفيعة تنتصب في كلّ مكان، كان كراكتوا يمشي بين الأعمدة الرفيعة ولا يفهم ما هي. ثم بعد مدَّة وجد زهرة وقد تحوَّلت إلى دمية خشب عارية، تبدو مفاصلُها من خشب رخيص، وشعرها صناعيّ، لكنّ ملامح وجهها كانت حقيقية، ولها ذيلٌ معدِن يصدرُ أصواتَ آلات ضخمة في مصنع مزدحم كلّما تحرَّكت. كانت الدمية تتحرَّك في كلّ مكان بين الأعمدة الرفيعة، تنظر إلى كَراكتوا للحظات، ثم تشيح بوجهها بعيدًا وتتجوَّل بين الأعمدة مرَّة أخرى، وكلّما تحرَّكت فرقع ذيلها المعدِن بصوت الآلات الضخمة.

رأى كراكتوا سوطًا رفيعًا في يد الدمية، ثم رآها تضرب بالسوط ما فوق

رأسها، تسوط شيئًا فوق الأعمدة الرفيعة دون أن يراه. قرّر أن يعرف ما بالأعلى، فارتفع بهدوء وببطء، طار حتّى لاحظ أنّ الأعمدة الرفيعة ما هي إلّا قوائم أسرَّة عديدة، ورأى حشيات وشراشف بيضاء موضوعة عليها، لاحظ أنّ الأسرَّة ترتّص بطريقة عشوائية تمامًا، لذا بدت قوائمُها كغابةٍ من الأعمدة الرفيعة.

على الأسرَّة وجد رجالًا راقدين على ظهورهم، وسوط الدمية يطير فوقهم، ثم يهبط ليسوطهم سوطاتٍ سريعةً قصيرة، وارتفعت أسواط أخرى تضرب رجالًا آخرين، وعندما اقترب كراكتوا من أحدهم وحدَّق في رأسه، وجد أنّه دون وجه، دون جلد الوجه، وعلم أنّ أحدهم قد قشَّر جلود كلّ الوجوه بدقَّة جرَّاح ماهر، قطع الوجه من منبت الشعر وحتّى الذقن، ومن الأذن إلى الأذن، ثم رفع الجلد ليبقى الرأس بلا وجه، ظهرت العضلات الدقيقة دموية، والأسنان بيضاء بلا شفتَين، والعينان تنظران إلى أعلى بلا جفنين، ثابتتان على الرغم من السوط المؤلم.

أخذ كراكتوا يصرخ مخاطبًا الدمية الخشب: كفى يا ليلى، كفى يا زهرة، ولم يفهم كراكتوا كيف يناديها ليلى وهو يعلم أنّها زهرة.

ثم علم أنّ كلّ الممدّدين ميّتون، وأنّ الدمية الخشبية تعذّبهم على الرغم من موتهم. كانت الدمية تعذّب جثامين الناس.

وأراد كراكتوا أن يعرف ما هو، كان يعلم أنّه بركان شهير، انفجر منذ عشرات السنين انفجارًا هائلًا سُمع صوته من بعيد، لكنّه ظنّ أنّ هناك خطأً ما، وأنّه ليس كراكتوا، بل هو شيء آخر. ثم لاحظ أنّ هناك مرآة بعيدة في أقصى المكان، فطار إليها كي ينظر فيها ويعرف ما هو.

تصاعدت أصوات الآلات الضخمة، وازدادت ضربات السياط، بينما ظلّ الراقدون على ظهورهم على حالهم، وعندما اقترب إنسال من المرآة تصاعدت أصوات الآلات كثيرًا، حتّى استيقظ.

استيقظ إنسال عند الفجر. في الظلام، لفّ جسد زهرة بملاءة وخرج

بها، كان يعلم أنّ أمن المستشفى سيمنعه، وعندما اقترب من البوّابة ركض هاربًا من رجل الأمن، الذي ركض خلفه لأمتارٍ قليلة ثم تراجع.

لن يترك زهرة للأطبّاء كي يفتحوا جلدها بالمشارط، ركض وهو يتخيَّل المشرط يمرُّ بنعومة على جلدها ليفتح فتحة صغيرة، تنزف قليلًا من الدم، ليلتئمَ الجرح بعد ثانية رغمًا عن الطبيب، الذي يفتحه مرَّة أخرى متعجّبًا، فيلتحم رافضًا أن يلين، ستظلّ زهرة بكماء إلى الأبد، لن تتكلّم أو تأكل، وستتناول الطعام عبر الأنبوب المارّ بأنفها.

هرول إنسال وهو يحمل زهرة ولمَّا تعب مشى، كانت الشوارع خالية، ملّ الناس من ملاحقة البلطجية والوقوف لحراسة البيوت، وتركوا الشوارع خالية إلا من القليل؛ العائدين من الميادين يختلط أملهم بقلقهم، ورجل الكلاب الذي كان يسعى في مكان غير بعيد، يجمع الجثامين في عربته كما يفعل كلّ يوم، بينما كانت الكلاب تمشِّط المنطقة بحثًا عن جثامين جديدة.

8

اغتصب رجلُ الزبالة الفتاةَ بكلّ عنف. تألّمت، زاد الألم وتوغّل كثيرًا، ورافقه تمزقٌ ودمٌ يسيل، على الرغم من كثرة المغتصبين قبل رجل الزبالة إلّا أنّهم لم يكونوا مثله، حاولَت أن تفلت، لكنّه ثبَّت جسدها على الأرض وتابع ما يفعله، دمه يغطي وجهه ويغطّيها، والنزيف يوشك على التوقُّف.

كانت الكلاب قد تجمَّعت حول بيته الصغير، تتابع من خلال الفتحات الفاصلة بين ألواح الخشب ما يحدث بأعين جامدة وبأفواه مغلقة وبصمت لا يخدشه إلّا همهمات رجل الزبالة وحشرجاته، وصُراخ الفتاة المتكرِّر المتصاعد. ولمّا ظهرت رائحة الدم والخراء واضحة جليّة، انتصبت آذان الكلاب وأخذ التوتّر يسري بينهم، وانتقل التوتّر إلى رجل الكلاب الواقف خلف كلابه، وقف على بعد مترين من بيت رجل الزبالة، لم يكن ليرى شيئًا من خلال الفتحات الضيّقة بين الألواح، لكنّه علم ما يحدث الآن، علمه

قبل أن يحدث بزمن طويل، وعلم الآن أنّ أنسجة بشرية تمزَّقت للتوّ، وأنّ قلبًا ينبض بعنف يوشك على التوقّف، وأنّ طفلة أخرى ترقد إلى جانب الجسدين الملتحمين قد ماتت رعبًا منذ لحظات، وكعادته وقف منتظرًا.

كان كلّ ما يراه الألواح المرصوصة بلا اكتراث تحت مطلع الكوبري، والضوء الشحيح الآتي من خلفها عبر الفواصل. ولمّا انتهى رجل الزبالة، واستسلم جسده فوق جسد الطفلة تمامًا، وأخذت أعضاؤه ترتخي استعدادًا للقادم، اقترب رجل الكلاب من الباب الخفيف في طرف البيت الصغير، وفتحه ليرى رجل الزبالة مستلقيًا مستسلمًا، رفع رأسه نحوه وحدّق في وجهه بعينين تائهتَين، وأشار له برأسه أن يقترب.

لم يقوَ رجل الزبالة على الحركة، كانت الفتاة تنتفض من تحته وجسده الضخم يكاد يحطّم ضلوعها، وقف رجل الكلاب إلى جانبه وحاول أن يبعده عن الفتاة، لكنّ رجل الزبالة ضربه ضربة خفيفة. قال له وكلماته لا تكاد تبين: «هناك سكّين في الركن.. هاتها..». بحث رجل الكلاب عن السكّين ووجدها بسرعة، ناولها لرجل الزبالة. ذراعه لا تتحرَّكُ إلا ببطء، حتّى السكين لم يقبض عليها بقوّة. أمسك مقبضها وقرَّب نصلها من فمه الدامي، ثم عضّ بشفتَيه عليه، أغمض عينيه وهو يداعب النصل بلسانه، ثم ترك النصل وقال: «ما أبرد الحديد».

حاول أن يذبح نفسَه، لكنّ النصل المنثلم وقبضته الضعيفة لم يتمكّنا من شقّ جلد رقبته. بمجهود كبير وضع السكين بشكل رأسي على الأرض بالقرب من عنق الفتاة، وأسند طرفها المدبّب إلى رقبته، نظر نظرة أخيرة إلى عيني الفتاة ثم اتّكأ برقبته على النصل. انبثق الدم غزيرًا.

أحاطت الكلاب بالأجساد الثلاثة، انتشرت روائح عديدة حادة، لم تكنِ الكلاب في حاجة لتشمُّم الأجساد الملقاة على الأرض، أثارت الرائحة الكلاب فأخذت تدور في الكشك الضيّق هائجة متحيِّرة؛ رائحة غضب، رائحة دم كثيف، رائحة منيّ رجل يخطو نحو الموت، ورائحة بالغة القوّة

لخراء فتاة تُغتصب، تبرَّزت عمدًا كي تُفلت. ورائحة شعور شمَّتها الكلاب لأوّل مرَّة، هذا شعور أقوى من الفزع، هذا شعور يوقف القلوب ويشلّها. نبحت الكلاب: «هذا ميِّت... هذا ميِّت... هناك طفلة... ميِّتة أيضًا... طفلة ماتت... يجب دفنهما...». كان جثمان رجل الزبالة ضخمًا للغاية، ولا يزال ساخنًا طريًّا، مبلّلًا بالعرق واللعاب والمنيّ، ممدَّدًا فوق جسد الفتاة التي لا يظهر منها إلا ذراع نحيل ممدد على الأرض بالقرب من رأس الرجل. غاصت السكين في رقبته ولم تخترق عظم الفقرات، لكنّ مِقبضها بدا واضحًا وعينا الفتاة خلفه تنظران برعب إلى الكلاب. في ركن البيت، كانت جثّة الطفلة باردة في وضع جنيني، جالسة ورأسها مدفون بين ركبتيها، منكمشة وكأنّها تهرب ممّا حولها. تأوّهت الفتاة الكبيرة بصوت خفيض وسعلت، وحاولت بكلّ جهدها طرح جثّة الرجل من فوقها، ساعدها رجل الكلاب، قلب الجثّة على الأرض تتمدّد إلى جانبها، وظهر الجسد المحطّم بجروح عديدة لا تزال دامية، وعلامات زرقاء وحمراء وشفة ممزّقة وحلمة مفقودة، حلَّت محلَّها بقعة حمراء من اللحم الدامي، ودم متجمعٌ حول الأذن، يختلط بالشعر ويتجلَّط فوقه. وفوضى من الدم والمنيّ والخراء تنبع من بين فخذيها، وتنتشر في بقعة ضخمة لتلطّخ الأرضية وبقيَّة جسدها. رفع رجل الكلاب الجثّتَين ووضعهما في عربته، ثم دفعها إلى خارج الكشك. كانت الكلاب تنبح: «لن تموت... هذه ستعيش... اثنان ماتا... كفى الآن... يجب دفنهما...».

علم رجل الكلاب أنّ الفتاة ستحيا لسنوات طويلة، وأنّها سترى الكثير والكثير، وأنّ ما حدث جزءٌ صغير ممّا سيحدث لها لاحقًا، وأنّ العدل الساطع لا يخطئ وإن بدا كذلك. حينها أغلق باب الكشك المتداعي، واختبر عربته وعجلتيها متأكّدًا من متانتهما، فالطريقُ طويلة.

سار على الرصيف حاملًا الجثمانَين في عربته، وقطيع الكلاب يهرول حوله.



في البيت، وسَّد إنسال زهرة النائمة السرير، رأى وجهها منيرًا من بين أطراف الغطاء، كانت ملفوفة به كأنها يرقة لا تزال في شرنقتها، تنتظر أن تصبح فراشة عمّا قريب، لكنّها على العكس من اليرقة كانت تنغلق على نفسها، فكَّر إنسال أن عينيَها ستغلقان كما أغلق فمها، ربّما هذا مرض جديد لا يعرفه أحد. بدت زهرة أيضًا وكأنّها قد تحمَّمت للتوّ، يلفّها رداء كي يحميَها من ضربات الهواء البارد، ثم رأى أنّ هذا فأل سيء، هذا كفنٌ وليس شرنقة ولا رداء استحمام. بسرعة فتح الملاءة ليظهر جسدها كاملًا، وليبدوَ وجهها وقد تغيَّر كثيرًا، لا يعلم إنسال ما الذي تغيَّر، هناك ملمحٌ ناقص، تبدلٌ غير ملحوظ أصابها، ثم انتبه أخيرًا.

وجد إنسال شعيرات قصيرة رفيعة على خدّها، وشعيرات أخرى على الغطاء، ولمّا أزاح جسد زهرة ليبحث عن المزيد، وجد دودةً بنّية اللون بين جسد زهرة والغطاء، محشورة هناك قرب رأسها. أهذه من المستشفى؟ أم أنّها سقطت هنا من شجرة وهو يركض حاملًا زهرة؟ ثم تأمّل وجه زهرة ليفهم ما يحدث. لم تكن هذه دودة بل كانت أذن زهرة التي اختفت.

أمسك بصيوان الأذن الصغير بين أصابعه، لونه بنيّ يختلف عن لون بشرة زهرة الفاتح، منكمش وجافّ قليلًا وخفيف كأنّه بلا وزن، يشبه الدودة فعلًا، دودة صغيرة في كفّ إنسال. وعندما نظر إلى موضع الأذن في رأسها وجد ثقبًا دقيقًا، أذن بلا صيوان، مجرَّد فتحة كي يدخل الصوت إليها، على الجانب الآخر كان الصيوان قد سقط أيضًا، أمّا الثقب فقد رُتق، غطاه الجلد كما غطّى الفم من قبل.

لاحظ أخيرًا سبب تبدّل الوجه، تساقطت شعيرات من حاجبيّ زهرة، كان حاجباها رقيقينِ جدًّا، وبدا الآنَ أنّ الشعيراتِ ستسقط كلّها عمَّا قريب، لكن في النهاية هذا غيرُ مهمّ، فقدت زهرة فمها وأذنيها وهم أهمّ من الحاجبين بالتأكيد.

دون شفتيَن وأذنين، وبحاجبيَن في طور التلاشي، كانت زهرة تفقد

معالم وجهها رويدًا رويدًا، لم يتبقَّ إلّا الأنف والعينان، وهو الآن يعلم أنّها ستفقدهما قريبًا، لا يدركُ إنسال كيف علم ذلك، لا يدركُ أيضًا لم يحدث هذا من الأصل. وعندما حدَّق في عينيها للحظة رأى كرتي عينيها تدوران تحت الجَفنَين، هذه علامة النوم الخفيف، حركة العينين الحثيثة، ستصحو زهرة الآن.

لو كانت زهرة تستطيع الكلام لقالت: «لا أسمع، لا أسمع». لكنّ نظرة الهلع التي ارتسمت على عينيها كانت حاسمة، فهم إنسال أنّها أدركت غياب السمع، وغياب الأذنين.

أخذت زهرة تموء، كانت صامتة تمامًا في الأمس، على الرغم من اليوم الطويل الذي انقضى بين أروقة المستشفى، لكن يبدو أنّ المهدئاتِ التي تناولتها قد أثّرت عليها فلم تبكِ طول اليوم. الآن بكت، لكن الصوت خرج من وجهها خفيضًا، يسري عبر الحنجرة والجمجمة واللحم والجلد، حاولت فتح فمها على اتّساعه لتصرخ، لكن تكوُّن اللحم والجلد منعها، كانت ترى إنسال يحرِّك فمه ليحدِّثَها، لكنّها لم تسمع صوته قطّ. لم تسمع سوى صوتها؛ ذبذبات مكتوبة تأتي من الداخل.

صوت زهرة كان مواءً، لم يكن صراخًا ولا أنينًا؛ موجات من الصوت تعلو وتنخفض مع كلّ نفس، تشهق عبر أنفها لتخرج زفيرًا مصحوبًا بالمواء.

قشَّر إنسال حبّة موز وهرسها بالملعقة، ثم أضاف إليها قليلًا من الحليب، ثم وضع الخليط في المحقن الضخم.

حاولت زهرة إخراج الأنبوب من أنفها فوجدته عالقًا لا يتحرَّك، وعندما نهاها إنسال عن هذا بكت، ماءت. وعندما رأت المِحقن في يد إنسال خافت وماءت أكثر وأكثر، وعندما حاول إنسال أخذ الأنبوب اختطفته من يده بعنف غير معتاد، لم تكن تفهم ما يحدث حولها الآن، هي لا تتألّم، ربّما كان الصمت المحيط بها ممتعًا، لكنّها كانت خائفة.

أمسك إنسال الأنبوب بهدوء، خلَّصه من قبضتها المتشنِّجة، وأخذ يربِّت على ظهرها ويحتضنها، ثم أخذ يرسم انفعالات مبالغ فيها على وجهه، رفع حاجبيه وفتح فمه مندهشًا، نظر إلى المِحقن المملوء بالطعام ومرّر لسانه على شفتَيه، وضع طرفه في الأنبوب واستعدّ للضغط، ثم أخذ يحقن الطعام فيه ببطء. استمتعت زهرة بالطعام الهابط إلى معدِتها، كانت تشعر بالأنبوب يمرِّر الطعام عبر جسدها، كانت ترى يد إنسال تضغط المحقن بهدوء، وترى الطعام الكثيف القوام يتسرَّب إلى الأنبوب. أدركت أنّها تأكل بطريقة ما.

عندما امتلأت بطنها استراحت، ثم هدأت وشبعت. ابتسمت زهرة، ابتسامة بلا شفاهٍ أو أسنان.

ثم أشار إنسال إليها كي تعيد الكرَّة، تركها تقشِّر الموزة الأخرى، ساعدها على هرسها بالملعقة، وأخطأت زهرة فرفعت الملعقة إلى ما كان فمها، لكنّها اصطدمت بالجلد، فابتسمت عيناها وأراحت رأسها إلى الوراء. ثم أخذت زهرة تضغط بالملعقة على ما تبقّى من الموزة، وتتعمَّد أن تُفلت القطعة منطلقة كأنّها تنزلق داخل الطبق، ضغطة وراء أخرى حتّى طارت القطعة خارج الطبق فعلًا، فازدادت ابتسامة العينين. ملأ إنسال المحقن بالطعام ثم وأوصله بالأنبوب، وساعد يد زهرة الصغيرة على ضغط المِحقن. أمسكت هي بالمِحقن وبدأت تُطعِم نفسها. بخرق مبتدئ يتعلَّم الأكل.

لزهرة الآن أداة إطعام بديلة عن الفم والأسنان واللسان، لن تشعر بطعم الطعام أبدًا، بل سينتقل من المِحقن إلى معدِتها فورًا، بالتأكيد ستشمّ رائحته، سيصلها عبق الطعام كما تصلها كلّ الروائح. و قريبًا سيعلِّمها إنسال كيف تمرِّر الأنبوب الدقيق من أنفها، ثمّ كيف تمرِّره عبر فتحة الأنف الصغيرة، ثم كيف ترجع رأسها إلى الوراء حتّى يمرّ الأنبوب عبر منحنى الأنف الداخلي، ثم كيف تدفعه بلطف فيكمل طريقه دون أن

تجرح المنحنى الرخو، ثم كيف يصبح تمريره سهلًا بعد ذلك، بلا عوائق أو منحنيات أخرى، حتّى تصل العلامة الحمراء في منتصف الأنبوب إلى فتحة أنفها، وقتها فقط يكون طرف الأنبوب قد وصل إلى المعِدة. كان إنسال على يقين من أنّ زهرة ستتعلَّم كيف تأكل بمفردها، هذا أوّل يوم، وأوّل خطوة، في طريق التعلُّم.



عند الظهر كانت زهرة قد استيقظت أخيرًا، إنسال نائم إلى جانبها بعد ساعات طويلة من الإرهاق، وهي تركته وأخذت تتجوّل في الغرفة المغلقة.

أمسكت زهرة بمرآة ليلى الصغيرة، حدَّقت في وجهها، تأمَّلت فمها المغلق، أدارت رأسها كي ترى ما كان أذنان جيّدًا، غياب الأذنين يربكها كثيرًا، ربّما أكثر من غياب الفم، هي لم تكن تتكلّم كثيرًا، لم تكن تعرف الكثير من الكلمات، وكانت تفكِّر ثواني قبل تكوين جملة واحدة. لكنّها كانت تسمع دون مجهود. اليوم غابت الأصوات ولم يتبقَّ إلّا الرائحة المحيطة.

كانت عينا زهرة على وشك الانغلاق، سقطت أهدابها بالكامل، صار جفناها العلويان مرتخيين، لا تستطيع رفعهما، لم تتمكّن من فتح عينيها على اتساعهما اليوم. وضعت سبّابتها على المرآة، تتحسَّس أنفها وعيناها، تشير إلى الفم محاولة التكلّم، لكن لا كلام، فقط غنّة تخرج من أنفها وخرير يشير إلى هدوئها.

استيقظ إنسال وجلس في السرير، تابع زهرة دون أن يتحرَّك كي لا تعلم باستيقاظه، ولاحظ أهدابها الساقطة على الوسادة. حملها وحدَّق في عينيها، ولاحظ الأجفان ترتخي استعدادًا للالتحام ببطء.

ستصاب زهرة بالعمى، يدرك إنسال الآن ذلك تمامًا، مع ذلك سيستمرّ في تعليمها كيف تأكل بلا مساعدة، ثم سيعلمها كيف تقرأ، سيحتاج إلى معلمٍ خاصٍّ هذه المرّة ليعلّم زهرة طريقة برايل، ورقٌ مُثقَّبٌ ستلمسه زهرة

بأناملها لتقرأ، لكن هل من حلٍّ في ما يخصّ الكتابة؟ هل يمكن للأعمى أن يُثقِّب ورقة بيضاء؟ أن يكتب؟

التأم جَفناها ببطء أمام عينيه، ضاق مجال رؤيتها رويدًا رويدًا خلال ساعتين، وفي النهاية أخذت تبكي بصوت مكتوم، هذه آخر فرصة لانسياب الدموع على الخدَّين، ستصير الأجفان قِرَبًا للدموع بعد ذلك.

تحسَّست زهرة وجه إنسال طوال اليوم، عندما كان يطعمها، وعندما خلع ملابسها وحمَّمها، وعندما أنامها إلى جانبه في الليل.

أقنع إنسال نفسه أنّ هناك حكمة في ما يحدث لزهرة، هذا ليس عذابًا كما كان يظنّ، ورويدًا رويدًا، وصل إلى يقين خاصّ به، هذه عزلة عمَّا يحدث، ستنمو زهرة وتكبر بعيدًا عن كلّ ما يحيطها، لن ترى أو تسمع شيئًا، لن تتورَّط في علاقات مع بشر من الأصل، ستبقى هكذا وهو سيرعاها.

***

في الصباح الباكر، استقلّ الاثنان المترو متجهَين إلى مستشفى قصر العيني، هاتفٌ دعا إنسال إلى الذهاب هناك، كان يعلم أنّ لا أحد سيتمكّن من مساعدتها، حتّى أطبّاء قصر العيني سيعجزون عن علاجها، سيفحصونها ويعيدون الفحص بلا أدنى أمل في العلاج. هذا ليس مرضًا لتبرأ منه، مع ذلك أحاط جسدها ببطانية ليحميَها من البرد، واحتضنها جالسًا على مقعد المترو.

اختلطت رائحة الأمل برائحة الخوف، هما يُخلقان معًا. زهرة تعرف رائحة الخوف جيدًا، كان أبوها خائفًا معظم الوقت، لا يطمئنّ إلّا إذا حملها، لكنّ رائحة الأمل جديدة، وهي الآن قوية في عربة المترو، آملون كُثُر دخلوا العربة وخرجوا تاركين رائحتهم معلَّقة في الهواء، أثر الأمل لا يُمحى بسهولة، بل يشغل الفراغ متنقلًا لركاب آخرين، يرسمون في خيالهم مستقبلًا مشرقًا، يأملون في حياةٍ أفضل؛ في زواج قريب سعيد، أو في ولدٍ جميل يكبر ليصير رجلًا ناجحًا. يريدون قتل الخوف النابش

في أرواحهم في أثناء مشيهم في الشوارع. سيستبدلون به دولة ناجحة تُبهر العالم. فكّر الآملون في سطور التاريخ التي يكتبونها، هوس التاريخ سيطر عليهم أيضًا كما سيطر على المجنون، أخيرًا سيزاحمون المجنون في كتاب التاريخ، سيُدرَّس ما فعلوه لأبنائهم وأحفادهم. بينما زاد الخوف عند آخرين، يظنّون أنّ لا مفرّ، فلا سبيل للمشي إلّا بانتظار الفزع عند كلّ منحنى، لهذا لا يمشون إلا قليلًا، يهربون من كلّ مسار طويل إلى مسارات أقصر وأخف وطأة، علّمهم آباؤهم أنّ المساواة في توزيع الظلم هو قمّة جبل العدل، هذا الذي لن يتسلقوه أبدًا، لن يصلوا إليه ولو ساروا قاصديه طوال حياتهم. ومن لم يعلّمه أبوه الانحناء تعلّمه من ضربات العواصف، كانوا يتحاشونها ما استطاعوا، لكنّها كانت تأتيهم عنوة، بالقوّة، تتغلّب على فرارهم بسرعتها وفخاخها محكمة الإغلاق، لا مفرّ من الانحناء إذا أتت العاصفة، لا مفرّ من الاستسلام لها إذا أدركت الواحد. وقد يخرج منها بعد دقائق أو بعد سنوات، لا يعلم الخائفون أيّ مستقبل ينتظرهم، لا يرسمون الطريق لأنّهم لم يروا طريقًا من قبل، يُولد الناس هنا خائفين، ويعيشون خائفين، ويموتون في فزع. ولا يظهر الأمل إلّا قرب النهاية، نعم، المساواة في الظلم قمّة جبل العدل، لكنّ هناك نوعًا آخرَ من العدالة الإلهية؛ لا ظلم على الإطلاق، والأكثر أنّ هناك رحمة. حتّى من ضلّ الطريق ومن أخطأ عن عمد وغرق في الظلام يظنّ أنّ الرحمة ستنصفه، لكن ليس في هذه الدنيا، ليس في زمننا هذا بل في الآخرة.

«ظنٌّ أحمقُ» فكّر أحد العالمين، كان قاعدًا في طرف العربة يتأمّل النقاشات الفرحة بين الناس، كاد يبكي من فرط حماقتهم، كيف لم ينتبه هؤلاء إلى ما يحدث؟ كيف لم يتأمّل واحدٌ منهم ما حدث منذ سنوات وقرون؟ هؤلاء لم يدركوا أنّهم في الجحيم بعد، هؤلاء يعذّبهم الأمل، ويراهم العالمون ويتعذّبون أيضًا، يتألّمون وهم يرونهم غارقين في الوهم. وكما يشعر العالمون من وقت إلى آخر، غمره الأسى عندما رأى زهرة

وإنسال، زهرة ملفوفة بالبطّانية جالسة على جحر إنسال، لا يظهر من وجهها شيء، وتحرَّك إنسال ليوسِّع مكانًا لرجل كي يجلس بجانبه، فانزاحت البطّانية عن وجه زهرة وظهر غياب ملامحها. قال العالِم في نفسه إنّ هذا أكثر ما يؤلمه، المعذَّبين من الأطفال، هو يعلم أنّهم لا يدركون ما يحدث، وأنّ عذابَهم هو أيضًا عذابٌ للمحيطين بهم، قد يشتدُّ العذاب على الأطفال حتّى يكرههم ذووهم، لكنّ الفزع يمنعهم من رؤية ما يحدث حقًّا؛ العذاب قد يُخفَّف عن بعض الناس، عن الأطفال مثلًا، يُصمُّون فلا يتعذّبون بما يسمعه الناس، أو يُعمون فلا يتعذَّبون بما قد يرونه حولهم، وقد يصيبهم شلل فلا يعودون يشعرون بأيّ شيء، كلّ هذا تخفيفٌ للعذاب، أمّا الجنون فهو رفع كامل، خروج من الجحيم وإن لم يخرج الواحد حقًّا، يبقون كي يصيروا أداة عذابٍ لمن حولهم.

قال العالم في نفسه إنّ التخفيف عن المعذَّبين عذاب آخر للمحيطين بهم، ألمٌ لا حدّ له يعتصرهم. ألا تقتلني هذه الطفلة المشوَّهة ووالدها الذي يكاد يموت حزنًا؟ وقرب النهاية يدرك الكبار أنّ الطفل لا يعي ما يحدث، لا يُعذَّب أبدًا، يتضرَّعون ويطلبون أن يُخفَّفَ عذابهم، يدركون في النهاية أنَّهم يُعذَّبون. لكنّهم، يتأسّى العالِم، لا يدركون جحيمهم هذا، ولا يدركون أنّ سنوات قليلة تفصل بينهم وبين نهاية هذا الجحيم، فقط كي يبدأ جحيم جديد.



ظنّ الخازن أنّه لن يعذَّب بعدما علم أنّه في الجحيم، قال إنّ العذاب أن يبقى المرء في الجحيم دون أن يعلم معلّقًا بأمل الحياة الرغدة قريبًا، أو متمسّكًا بأمل دخول الجنّة في الآخرة، وحالما يعلم الواحد مكانه فإنّ العذاب يتوقّفُ، مهما عُذِّب فلن يكون العذاب ذو تأثير. لكنّه الآن عالقٌ في حلقة العذاب مثل الجَهَلة تمامًا، كان جالسًا أمام باب الثلّاجة يفكّر أنّ الجاهل ربّما لا يُعذَّبُ مثله، ربّما عذابه أخف.

أتاه صوت الخطوات من بعيد، ترقَّب القادم ووجَّه بصره إلى أوّل الممرّ، حيث يتقاطع ممرّ المستشفى الكبير مع الممرّ المفضي إلى الثلّاجة، هذا طبيبٌ قادم إليه، أو ممرِّضة قادمة لتطلب منه خدمة. وعندما أوشك إنسال على الانعطاف والدخول في الممرّ المفضي إلى الثلاجة ارتجف الخازن من فرط توتّره، القادم يحمل خيرًا بالتأكيد، لكنّه ليس خيرًا للخازن، هو خير لآخرين، هذا خير لإنسان آخر. اقترب إنسال وهو يحمل زهرة، لا يكاد طرف من أطرافها يظهر من تحت البطانية، واختفى صوت قدميه بغتة، غطَّت هيئته المترنِّحة على كلِّ صوت.

حكى إنسال ما حدث وزهرة قاعدة على حجره، رأسها قريب من صدره، يشعر بأنفاسها تخرج هادئة منتظمة. والخازن سمع ولم يعلِّق، تحيَّر عندما استرسل إنسال، تعجَّب كيف حدث كلُّ هذا، وما الخير الذي قد يقوم به الآن وكيف له أن يساعد إنسال. الخير الذي يمكن لخازن الثلّاجة أن يقوم به هو أن يدلّ الباحث عمّا يبحث عنه، هو وسيط بين الجثامين والأجساد، الخازن أمينٌ على من مات أمّا الأحياءُ، فلا عَلاقة له بهم.

اضطرب تنفّس زهرة، أهذا سعال؟ حكَّت وجهها، ثم انكشف الغطاء عنه أخيرًا مبديًا ملامحَها، جلد مشوَّهٌ مكان الشفتَين، وعينان تنغلقان ببطء، لا تزالان نصف مفتوحتين، وإفرازات كثيرة تحيط بهما، كأنّها دموع كثيفة، وجَفنان لم يتبقَّ فيهما أيُّ أهداب، لاحظ الخازن أهدابًا رقيقة فوق البطّانية، لا تزال زهرة تفقد أهدابها ببطء، وعيناها تغلقان رغمًا عنها.

كان الخازن قد رأى الكثير خلال عمره، كان قد استطاع أن يفهم كلّ ما يحدث حوله. كان يستمتعُ كثيرًا عندما يدرك سرّ العذاب الكامن وراء الضحكات العالية والابتسامات والنظرات الخجلى. أبهره تنوُّع ما يحدثَ للناس. وتعجَّب كثيرًا حينما رأى ما يحدث لزهرة، كان هذا عذابًا صافيًا مباشرًا دون مناورات. وطلب أخيرًا الحكمة والعلم كي يفعل ما هو مطلوب منه.

مرَّر الخازن إبهامه على ما كان شفتي زهرة، قوَّم الجلد المجعَّد، سوَّاه بإبهامه كما يسوّي الخبّازُ العجين، لان جلدُ أذنيها تحت أصابعه، سدَّ الفتحة الباقية للأذن اليمنى، وسوّى الجلد مكان الأذن الأخرى، ثم أغلق جفنَي العين اليمنى بسبّابته وإبهامه، ومرَّر إبهامه فوق موضع الأهداب، فالتحم الجفنان الحتامًا كاملًا، لا ثغرات ولا مواضع مفتوحة قد يظهر البؤبؤ من خلالها، أصبح الجلد بلا خطٍّ فاصلٍ بين الجفنين، لم يعودا جفنين، صارا جزءًا من جلد الوجه، جلد رقيق مغضَّن، تظهر تحته شعيرات دموية رفيعة، وتتحرَّك كرة العين أسفل منه، كان البؤبؤ يبحث عن النور.

كان الخازن يرتعد وهو يكمل ما حدث لزهرة، علم أن هذا أجلّ ما فعل في حياته، علم أنه ساهم في عمل عظيم وإن لم يعلم ما فائدته، لم يعلم إن كان يخفِّفُ عنها أم أنه يعذِّبها، وعلم أيضًا أن عِلمه ناقص، وأن كل عالِم علمه ناقص مثله. وأنه لن يفهم الجحيم فهمًا كاملًا أبدًا.

9

اكتملت عزلة زهرة، أغلقت حواسها بالكامل، وظلَّت فتحتا الأنف صغيرتين دقيقتين، تسمحان بتمرير الأنبوب الرفيع بصعوبة. وتسمحان بمرور هواء الشهيق والزفير.

أعدَّ لها أنوعًا عديدة من الطعام؛ خضراوات وحساء لحم ودجاج وفواكه مسلوقة كثيرة. ومع الوقت أدرك أنّها ما زالت تميِّز الروائح، فأخذ يقرِّب الأشياء من فتحتي أنفها، منتظرًا تغضُّن جلد بشرتها مستحسنةً روائحها، ابتاع لها وردًا ووضعه أمام ما كان فمها، قطف ريحانًا وياسمينَ من حديقة الجيران الصغيرة. كان يفرك الريحان بأصابعه، ثم يفرك موضع الفم الغائب لينقل الرائحة إليها. لم يكن ليرى ابتسامتها، لم ير سوى التغضُّن البسيط على الخدّين، لكنّه كان يعلم أنّها سعيدة.

وفي يوم صحو علم إنسال أنّه في الجحيم، كان يقطِّعُ تفاحة حينما رأى

ما فعل في دنياه وارتعد للحظة، ثم علم أنّ هذه آخر حياة له في الجحيم، وأنّه سيروح إلى الجنّة حالما يموت. لكن عليه البقاء هنا سنواتٍ قليلة، فاطمأنّ كثيرًا وتابع تقطيع التفاحة.

علم أيضًا أنّ ما يحدث الآن أكبر من أن يفهمه البشر، أكبر من قدرتهم على الاستيعاب. وأنّ القادم ليس أخفَّ ممّا سبق، بل هو أشدُّ عنفًا، وأنّ الفالح من سيموت قبل أن ينتهيَ هذا الجحيم. ثم علم أنّ الخازن رحم زهرة عندما أطفأ حواسّها، وعلم أنّها ستحيا ليراها الآخرون لا كي تُعذَّب معهم.

كان قد أطعم زهرة إفطارها أخيرًا، وكان يفكّر في تدريبها على المشي وحيدة هذا اليوم، تذكَّر الأيّام السابقة؛ كان يساعدها على المشي في الممر المفضي إلى الصالة، يحذِّرها بالكلام كلّما أوشكت على التعثّر، ويبتسم لردِّ فعله التلقائي، كيف نَسِيَ أنّها لا تسمعه؟ سمع صوت خطواتها خارجة من غرفة النوم، كما علَّمها، تمسك إطار الباب بيسراها، وتتحسَّس بقدمها الطريق، حينما رنَّ جرسُ الباب.

فتح إنسال باب الشقّة ليجد امرأتين، واحدةً منقّبةً وأخرى حاسرةَ الرأس. قالت الحاسرة إنّها تريد محادثته، أخبرته أنّ المنقّبة هي عمّة زهرة، أختُ أبيها.

جلست عمّة زهرة ومرافقتها على الأريكة. حالما جلستا، أمسكت المنقَّبة بكفّ المرافقة وضغطت أصابعها بترتيبٍ معيَّن، قالت الأخرى إنّها تريد أن ترى زهرة. تحيَّر إنسال، كيف سيخبرهما بما حدث؟ خاصّة وأنّ أوّل طلب كان رؤية زهرة، كيف له أن يُهيِّئهما للصدمة الكبيرة؟ أخبرها بأنّ زهرة مريضة، تعاني من مرض غريب. ضغطت الأخرى كفّ المنقّبة لحظات، ضغطت باطن الكفّ وباطن الأصابع بأناملها، وكأنّها تكتب على لوحة مفاتيح كمبيوتر صغير، بدا أنّ المنقّبة توتَّرت، وأخذت تضغط كفّ الأخرى بسرعة هذه المرَّة، التي قالت لإنسال: «لا بأس، أحضرها إلى هنا».

ظنَّ إنسال أنّهما تعرفان مرض زهرة، لكن كيف لهما أن تعرفا ما حدث؟ وأين كانت العمَّة طوال هذا الوقت؟ أيّامٌ كثيرة مضت منذ أن اختفى والد زهرة، ومن غير المنطقيّ أن تظهر امرأة غريبة فجأةً وتطلب رؤية زهرةٍ، إذا كانت هذه عمّتها فحتمًا سوف تأخذها، لكن ما أدراه أنّها عمّتها حقًّا؟ توقَّعتِ المنقّبة ما يفكّر فيه إنسال. صمته الذي نقلته مرافقتها وسكونه أوحيا بذلك، هي تعلم أنّ مرض زهرة وارد ومتوقّع، لكنّ التوقيت غريب ومؤلم. بهدوء أخذت تفكُّ ما على وجهها، رفعتِ النقاب أخيرًا، كان وجهها أبلغَ تأكيد على قرابتها لزهرة.

كان رأسها خاليًا من أيّ معالم، فقط ثقبان مكان الأنف، ولا شيء آخر، حتّى كرتا العينينِ تسطّحتا تمامًا، وزالت أيّ آثار تدلّ على وجود الأنف أو الحاجبين، كان وجهها قطعة متصلة من الجلد البشري، بلا تضاريس أو تفاصيل.

قالت الأخرى إنّها تتكلّم بلمس الأصابع، تلمس عمّة زهرة أصابعها لتخبرها ما تريد، ثم تعيد الكلام على سمع إنسال. وتنقل كلام إنسال لها بالطريقة نفسها، ولا مفرّ من ذلك، فالسيّدة لم تتحدّث ولم ترَ ولم تسمع شيئًا منذ سنوات طويلة.

سأل إنسال عن اسمها، فقالت الأخرى: «زهرة. لقد سمّى والد زهرة ابنته على اسم أخته».

دخلت زهرة إلى الصالة، تمشي ببطء وتتلمّس الحائط، صمت إنسال والسيّدة الأخرى التي حدَّقت بوجه جامد في زهرة، تقدَّمت ببطء شديد في المنطقة الخالية من أيّ أثاث، حتّى وصلت إلى الكرسيّ المجاور للأريكة وأستندت بكفّها إليه. وهناك توقَّفت أمام الثلاثة، إنسال المشدوه، والمرأة الغريبة، ورائحة عمّتها التي لم تلمسها منذ زمن.

أتت الرائحة هكذا: في البداية، كانت رائحة عمتها قد تغيَّرت قليلًا، ولمس الوجل أنف زهرة، هذا قلق مصحوب بخوف، عمَّة زهرة قلقة ولا

تعرفُ زهرة لماذا، لكنّها لم تهتمّ ووجَّهت جسدها نحو مصدر الرائحة ومشت في خطّ مستقيم، إلى أن لمست ركبة عمَّتها. وظنَّت زهرة أنَّ أنفها يخدعها، وأنّ هذه واحدة مثلُ عمّتها، أرادت أن تتأكَّد، أن تتيقّن من وجود عمّتها أمامها.

حالما لمست ركبتها، ضربت رائحة الفزع والارتباك زهرة الصغيرة.

رفعتها زهرة الكبيرة، وأجلستها على حجرها، صارت زهرة الصغيرة في مواجهتها أخيرًا، تشابكت أنفاسهما لحظة، تسرَّب شعورٌ من زهرة الكبيرة إلى زهرة الطفلة. ثم جاءت دفعة قوية، رغبة جامحة رفعت كفَّ الطفلة الى وجه العمة. برفقٍ، تحسّست زهرة موضع العين اليمنى الغائبة، توقَّفت الكفُّ برقّة فوق موضع العينِ، وكأنّها لا تصدّق ما يحدث، هذه عين غائبة بالفعل، هذه عين العمّة حقًّا، ثمّ تسلَّلت الأصابع نحو الحاجب، لتتيقّنَ أنّه غائب، ثمّ انحدرت مع انحدار الصدغ نحو الأذن، ولتقوم بذلك اقتربت زهرة كثيرًا من العمّة، وعندما لمس كفّ زهرة موضع الفم الغائب، أحاط اطمئنان كامل بزهرة وعمّتها في تلك اللحظة، وربّما ولأوّل مرَّة منذ مدَّة طويلة، ارتاحت زهرة وسكنت.

ظلَّت زهرة تمرّر كفّها على خدّ عمّتها، تمريرات بطيئة رتيبة، تختبر حاستها الأثيرة؛ اللَّمس. ثم توقّفت عند فتحتي الأنف، ورفعت رأسها، ثم حشرت أنملي سبّابتها ووسطاها فيهما. توقّفت برهة، ثمّ انطلقت زفرة مفاجئة من أنف العمّة، فسحبت زهرة كفّها بسرعة مفتعلة الفزع. وأرجعت العمّة رأسها إلى الخلف، وكذلك رأس زهرة، ثم عادت الجبهتان للتّلاقي، كانتا تضحكان.

علا نشيج إنسال، ولم تتحمّل المرافقة للعمَّة كلّ هذا؛ التحسّس والضحكات المكبوتة ونشيج إنسال المكتوم، فمضت إلى داخل الشقّة الغريبة باحثة عن مبكى، ووقفت في الممرّ تنتحب. كان على إنسال أن يبكيَ كي يتخلَّصَ من كلّ هذا.

عادتِ المرافقة وهي أكثر تماسكًا، قعدت إلى جانب العمّة وسلّمتها كفّها، سألتِ الفتاة إنسال، إن كانوا قد وجدوا والد زهرة. أخبرها بأنّه مات، أخبرها بأنّ زهرة تعرَّفت عليه قبل أن تروح عيناها. سألته مرّة أخرى ألم يتعرَّف هو على الأب، ألم يكن يعرف وجهه؟ أخبرها إنسال أنّهما بحثا عن جثّته كثيرًا، هو وزهرة، رافقته في كلّ زياراته للثلّاجات والمشارح، قال إنّهما وجدا الجثّة أخيرًا في ثلّاجة مستشفى قصر العيني، كانت الجثّة تتنقّل بين المشارح والثلّاجات، حتّى وصلت إلى قصر العيني. ووجداها مصادفةً، تعرَّفت زهرة على الوجه من أوّل نظرة. قال إنسال إنّه مات في المظاهرات، هو شهيد لا شكَّ، وهو آسفٌ؛ لأنّه عرَّض زهرة لكلّ هذه المعاناة، فلم يكن ليتعرَّف عليه قطّ، لكنّ زهرة تعرَّفت عليه في النهاية.

سألته الفتاة إن كانت هناك علامة مميّزة في وجه والد زهرة، فكّر إنسال قليلًا، ثم نفي أن يكون قد لاحظ أيّ شيء غير عادي، كان للرجل شاربٌ أسودُ متوسّط الكثافة، وأسنانه الأمامية بارزة قليلًا.

رفعتِ العمّة ذراعيها في الهواء، ثم ضربت فخذيها بعنف. قالت المرافقة إنّ هذا لم يكن والد زهرة، زهرة لا يمكنها أن تخطئ والدها، هذا رجل غريب. والد زهرة مثل عمّتها تمامًا، ومثلها الآن بلا وجه أو حواسّ.

قالت إنّ معالم والد زهرة راحت منذ مدّة طويلة، كان شابًّا حينما أغلقت عيناه وفمه وسقطت أذناه، وعاش بعدها بلا حواسّ، حتّى اختفى منذ أيّام. والد زهرة كان يحبّ الناس، صادق الكثيرين، وعلمت السيّدة زهرة أنّه شارك في المظاهرات بالفعل، واختفى يوم الجمعة.

سكنت العمّة قليلًا، وانشغلت بالتربيت على زهرة الصغيرة، والعبث بشعرها، ثم أمسكت بيد مرافقتها وتكلَّمت. قالت الفتاة إنّ العمَّة تعيش خارج البلاد، وأتت إلى مصر عندما اختفت زهرة ووالدها، قالت إنّهما سألا كثيرًا حتّى وصلا إلى إنسال. طلبت الفتاة ألا يشغل إنسال باله بزهرة بعد اليوم، ولا حتّى بوالدها، العمّة لا تستطيع البحث عنه، والحيّ أبقى من الميت.

وقفتِ العمّة وهي تحمل زهرة، رفعت ذراعها الأيمن وخطّت نحو إنسال، وقف إنسال ومدّ كفّه ليلامس كفّها المفرودة، أمسكتِ العمّة كفّه ثمّ ساعده، شدّت على ذراعه بقوّة وقرّبت ما كان فمًا حتّى ألصقته بجبينه.

في الخارج، كانت الآمال محلّقة فوق رؤوس أصحابها، كانت زهرة الكبيرة قد أرخت نقابها على وجهها مرّة أخرى، ولفّت وجه ورأس زهرة الصغيرة كي تخبّئها عن العيون، مشت ومرافقتها خطوات قليلة حتّى وصلتا إلى السيّارة التي كانت في انتظارهما، وانطلقوا.

2025 م

11

كنتُ مصدومًا غير قادر على الحركة، وبدا لي أنّ كلّ شيء انهار فجأة فوق رأسي؛ الناس والمباني والدنيا كلّها. تحت الكرة الحديد أتاني يقينٌ لا يقبل اللبس، بينما كان برهان مستقرًّا على صدري بالقرب من وجهي علمتُ أنّنا في الجحيم.

ونسيتُ الثورة المرتقبة والناس المتجمّعين في الشارع، وأكوام الجثث، والصراخ الباكي يطالبني بالعودة إلى القنص. تركتُ السطح وأنا أتحسّس خطواتي في الظلام وأسرعتُ بالنزول، الشارع مظلم وجثث كثيرة مبعثرة على الأرض، يبدون الآنَ حقيقيين أكثر من كونهم صورًا في منظار البندقية، بينما وقف الكثيرون يبكون وينوحون حزانى، يرفعون وجوههم نحو الكرة الحديد ويصرخون بكلمات لا أفهم أغلبها، كانوا يطالبونني بمتابعة إطلاق النار، كلّهم لا يزالون يأملون في رصاصة تأتيهم من السماء.

ولم أعلم إلى أين أذهب، لكني مشيتُ نحو ميدان الأوبرا هاربًا من الصارخين خلفي، الشارع بين الميدانين خالٍ من أي إنسان، وكلابٌ كثيرةٌ في ثلاث مجموعات تمشي وتتشمّم الأرض والهواء باحثةً عن شيء ما، لمّا مررتُ بجانبهم توقّفوا ونظروا نحوي كأنّي شبح، كأنّهم علموا أنّي

أعلم ما نحن فيه. ورأيتُ رجلًا يقف على الرصيف وقد رصَّ أمامه كومةً من مواسير الحديد القصيرة، مئة ماسورة أو أكثر، طول كلّ منها يقترب من المتر، مررت عليه وسألني: «ماسورة؟». ولمّا نظرت إليه وإلى ما يبيع قال: «ماسورة؟ الماسورة بجنيه». تابعتُ السير وأنا أتساءل عمَّا أنا فيه حقًّا، وحاولتُ أن أفكِّرَ بشكل منطقي؛ كيف صرنا في الجحيم ونحن لا نعلم، هل قامتِ القيامة وحوسبنا ثم وصلنا إلى هنا، هل القاهرة جحيمنا أم أنّ مصر هي الجحيم أم العالم كلّه جحيم؟ وفكّرتُ أنّي أهذي أو أنّ هذا من أثر الكربون الذي تعاطيته في اليومين الأخيرَين، وتذكّرتُ البرج حيث القاهرة مفرودة أمامي أقنص فيها من أشاء، لكنّ اليقين كان أقوى من كلّ الأسئلة والإجابات. نعم، نحن في الجحيم على الرغم من كلّ شيء، وكلّ ما حولنا من مظاهر دنيوية وهم لا ريب.

مشيتُ حتّى وصلتُ إلى ميدان الأوبرا الواسع لأسمع أصوات تأوّهات وضرباتٍ مكتومة متقطّعة، شاهدتُ المئات متجمّعين حول قاعدة تمثال إبراهيم باشا المحطّم، كان الميدان مزدحمًا ولا مكان لقدم، تدافع الواقفون بالمرافق يحاول كلّ واحد منهم الحصول على مساحة أكبر للوقوف والحركة، كان أنوار الميدان مطفأة، ولم يأتِ إلا نور خفيف جدًّا من بعيد، ولم أفهم لمَ تجمَّع الناس هكذا إلّا عندما اقتربتُ وصرت واقفًا على طرف الميدان، بيني وبينهم أقلّ من مترين.

كان كلّ واحد منهم يمسك ماسورة حديد قصيرة، يوسِّع بيسراه مكانًا لذراعه، ثم يضرب بقوّة أقرب واحدٍ إليه، كان الضرب عشوائيًّا دون تصويب، قد تأتي الضربة في الرأس أو في الذراع أو في الصدر، ثم يتابع صاحب الماسورة الضرباتِ ينهال بها على شخصٍ واحد، وقد يتلقّى ضرباتٍ منه أو من آخرَ دون أن يحميَ نفسَه. اشتركوا جميعًا في الضرب بلا استثناء، في معاركَ جماعيةٍ فردية، كلّهم يضرب مَن حوله ولا فِرق تتعارك بل كلّ واحد فرقة. وبدا لي أنّ الانتصار ليس هدفًا، والدفاع عن

النفس ليس غاية، وكلّ ما يهمُّهم هو قتل أكبر عدد ممكن. لم يكن هؤلاء جنودنا على الأرض الذين حدَّثوني عنهم، الذين سيكملون عملي، هؤلاء أشخاص عاديّون يقتل بعضهم بعضًا.

في العتمة غابت ملامحهم، كان الواحد منهم يسقط على الأرض فيترك الباقون المعركة وينهالون عليه بضربات قاتلة، يجهزون عليه ثم يستمرّون في الضرب فيحطّمون جمجمتَه تمامًا، ويمزّقون جسدَه، كنتُ أسمع صوت الضربات مكتومًا، ثم يتحوَّل الصوتُ رويدًا رويدًا ليصبح أكثر حدة ويصاحبه رنينٌ معدِنيٌّ، حينها أدركُ أنّ الجسد المضروب قد تمزَّق تمامًا ولم يبقَ منه إلّا أشلاء، وأنّ أطراف المواسير قد أخذت ترتطم برخام الأرضية العاري محدثة ذلك الرنين. كانت الأجساد غائبة عنّي وسط الزحام الكثيف لكنّي تخيّلتُ المشهد وسطهم؛ لحومًا مهترئة وعظامًا محطَّمة وبقعَ دم داكنةَ الحمرة. ولمَّا سقط الكثيرون وازدادت مساحات الفراغ في الميدان وانكشفت أرضيّته، لم أرَ بقعًا حمراء على الأرض، وإنّما كتلٌ كثيفةٌ سوداء دون شكل محدَّد.

لم أرحل، كنتُ مشلولًا لا أقوى على الحركة، عاجزًا حتّى عن اتخاذ قرار بمغادرة المكان، وحيدًا أشاهدهم وهم يسقطون واحدًا تلوَ الآخر، كانت الأنوار الآتية من بعيد تُظهر الأجساد كأنّها كتلة واحدة من اللحم، وما واضحٌ إلا المواسير السوداء القاتمة ترتفع ثم تهبط بسرعة لترتفع مرّة أخرى، ومع سقوط الأجساد انتشرت رائحة اللحم الممزّق، هذه التي تُشتمُّ قرب دكان الجزّار مختلطة برائحة الدم. بعد دقائق أخذ عددهم يقلّ وأذرعهم تصبح أكثر ثقلًا، حتّى تبقّى خمسة يقفون مترنّحين، تجمّعوا ببطء قرب قاعدة التمثال وأخذ كلّ واحد يضرب واحدًا دون همّة، كانوا قد أرهقوا ونزفوا كثيرًا، لكنّ اقترابَهم من الموت كان يحثّهم ويدفعهم للاستمرار حتّى ينتهيَ كلُّ شيء.

بقيَ واحدٌ يُمسك ماسورة بيسراه، كانت ذراعه اليمنى قد قُطعت وتبقّت

أشلاؤها متدليّةً تظهر تحت كمّ قميصه الطويل الدامي. ثم قعد على الأرض وسط الأجساد يلهث، يرفع الماسورة بضعف بالغ فوق رأسه، لكنّه لم يقوَ على الاستمرار فترك ذراعه لتسقط إلى جانبه، وحاول رفعها مرّة أخرى لكنّه فشل. رآني أخيرًا، فرفع الماسورة بلهفة مرتجفة في وجهي، ولم ينطق بشيء لكنه تأوّه وكأنّه يكلّمني، فهمتُ أنّه يريدني أن أقترب. زُلّت قدمي فوق الدماء التي غمرت رخام الأرضية الأبيض، ثم تعثرتُ في بقايا الأجساد والعظام المكوَّمة على الأرض، لكنّي تابعتُ السير حتّى وصلتُ إلى الرجل، كنتُ قريبًا منه جدًّا لكنّ ملامحَه غابت بسبب الظلام. ووسط كلّ هذا اشتعلت أنوار الميدان فجأة.

رأيته واضحًا دون ظلال؛ الدماء تغمر وجهه، ما تبقّى من أسنانه ظهر لامعًا وسط وجهه المحطَّم، رأيتُ كسورًا عديدة في جمجمته، فوضى تحت فروة رأسه، ثم رفع عينيه المتورّمتين إليَّ يرجوني. كانت الجثامين تملأ الميدان، لم أتمكّن من تمييز هذا الكيان الهائل الملقَى أمامي، كان كيانًا واحدًا لا جثامين متلاصقة، ولولا أنّي رأيتُ ما حدث قبل دقائق لما عرفتُ أنّ هؤلاء قتلى. أخذت الماسورة تغطّيها طبقاتٍ عديدة من الدم اللزج والمتخثر، كانت ساخنة جدًّا فسقطت رغمًا عنّي، بحثتُ عن قطعة قماش بين الأشلاء، وانحنيتُ لآخذَ قطعةً ممزّقةً من قميص أحد القتلى ولففت الماسورة بها، وتوقّفتُ طويلًا أمام الرجل غير مصدّق ما يحدث. كان يتنفّسُ ببطء ولا يقوى على رفع عينيه في وجهي، رفع رأسه لحظات ثم استسلم تمامًا وسقط رأسه ناظرًا إلى حِجره. أتت أوّل ضربة أفقية قوية فأزالت جزءًا من جمجمته، سقط جسده على الأرض وتابعتُ ضربه بعدما تأكّدتُ أنّه مات، ولم أعلم سبب استمراري لكنّي تابعتُ الضرب حتّى اختفت معالم جسده تمامًا.

ساد الصمتُ الميدان كلّه، كان كلّ شيء هادئًا، دون سيّارات أو مشاة، كلّ الشبابيك مغلقة ولا أنوار تنبعث منها، على قاعدة التمثال كتب أحدهم

«البشرية فشلت» وفكّرتُ أنّ هذا واحدٌ يعلم ما نحن فيه، و ربّما هناك الكثيرون يعلمون ذلك. وتساءلتُ إلى أينَ ذهب كلّ القتلى، أين يذهب الواحد إن مات في الجحيم؟

كانت كفّاي وذراعاي وقميصي قد تلطّخوا بالدم جميعًا، وخِفتُ أن ألمسَ قناعي لأتأكّدَ من خلوّه من الدم فألطّخه أيضًا. وكعادته ظهر برهان متأخِّرًا يدور حولي ثمّ يستقرّ على كتفي. لم أعد بحاجة إليه كما أخبرني القدِّيس، أمسكتُ به فوجدته خفيفًا ساكنًا في راحتي، مستسلمًا تمامًا لحرارة يدي. ولم أبذل مجهودًا يُذكر، كانت الحركة بعد الضربات العنيفة فعلًا هيّنًا. مستخدمًا إبهامي ثقبتُ ثقبين في باطن برهان، لم يقاوم ولم يحاول الطيران قطّ، تحطّم بطنه وسيقانه الدقيقة تحت ضغطي، وتوغّلتُ في جسده حتّى قسّمته إلى قسمين طوليًّا، كان خفيفًا خفّة فراشة.

رفعتُ عيني إلى قاعدة التمثال الرخامية البيضاء العالية، لم يتبقَّ من التمثال إلّا قوائم ثلاثة للجواد الذي حمل يومًا إبراهيم باشا.

في ذلك اليوم مشيتُ إلى البيت وأنا أخلع ملابسي قطعة وراء قطعة، لم أتحمَّل قطّ الدماء التي غمرتني، ووجدت أشلاء ونتفًا من عظام تحت أظافري وفي شعري، بحثتُ عن أيّ مصدر للماء فلم أجد إلا قُلّة ماء على إطار نافذة في الطريق، صببتُ الماء القليل على رأسي فأذهلتني برودته، هذه لحظة من الدنيا السابقة ولا شكّ. كنتُ حافيًا أدوس الزجاج المتكسِّر والحصى المتناثر والزبالة التي تملأ الشارع، وأتفادى الجثامين الملقاة في كلّ مكان بعشوائية، لا أعلم إن قتلَهم قنّاصٌ زميل أم أنّهم قتلوا بعضهم بعضًا.

أمام باب البيت تذكّرتُ أنّي خلعت ملابسي وتركتُ فيها المفتاح والنقود وهُويّتي، طرقتُ الباب كثيرًا حتّى صَحَت فريدة وسألت من خلف الباب المغلق: «مَن؟»، ولمّا فتحته فزعت من عريي وصرخَت، سألتني ملتاعةً عمّا أصابني وعمّا يحدث في الخارج: «أيقتلون الناس حقًّا؟». دخلتُ من فوري إلى الحمام محاولًا إزالة الدماء العالقة بجسدي.

حاولت فريدة مساعدتي؛ خلعَت قناعي ولمَّا أدركَتُ أنَّ وجهي أصبح مكشوفًا كدتُ أبكيَ، أخذَت تفركُ جلدي بيدها العارية دون أن تسألني عمَّا حدث، لمَّا نظرتُ في عينيها لم أجدها هلعة كما كانت عند الباب، كانت في سكينة من تحمِّم زوجها أو طفلها، وخلعت البيجاما التي ارتدتها على اللحم لكنّها لم تبدُ مثيرة لي كما اعتدتُ، في تلك اللحظة تحت الضوء القويّ وقطرات الماء على عينيّ تكرِّرُ صورتها عشرات المرّات، ترفع ذراعي وتحني رأسها كي تغسل إبطي، علمتُ أنّ فريدة قد رأت خراءً أكثرَ ممّا أتخيّل، وأنّها عاشت في رعبٍ لأيّام كثيرة، وأنّ آخرين قد رأَوا ما رأت ولم يتعرَّضوا لهُ ففقدوا عقولهم، وأنّها سترى الكثير والكثير من الخراء قريبًا جدًّا، وارتعدتُ لأنّ الستار أُسدل فجأة فلم أعلم ما فعلت فريدة في الدنيا لأجل كلّ هذا العذاب.

تحت الماء الساقط علينا قلتُ لها باكيًا: «نحن في الجحيم يا فريدة... نحن نُعذَّب».

12

ذاب مكعب الجليد بسرعة.

كيف لا تذوب كلّ هذه الثلوج في أوربّا؟ هناك جبالٌ من الجليد وأطنان من الماء البارد تحت أسطح جليدية مستوية. هناك ثلج أيضًا في كندا، ولا بدّ أنّ هناك ثلجًا في أمريكا في أوقات كثيرة من العام، وهناك قارّة بالكامل متجمِّدة في الجنوب. كيف لا يذوب كلّ هذا ونحن في الجحيم؟

وأنا الذي ظننتُ أنّ الجحيم حار إلى درجة احتراق الجلود، يبدو أنّ بعض الناس جحيمهم بارد ثلجي. عالم آخر لا حدود له من البياض. لكنّنا هنا في جحيم آخر.

قمت من على السرير وفتحتُ الثلّاجة، تناولتُ مكعبَ جليدٍ آخر، احتويته في كفّي، أحاول في كلّ مرّة الهرب من فكرة الجحيم هذه، أمسك

بالمكعب كي أتيقّن من أنّ هناك برودةً حادّةً على عكس ما أعرفه عن الجحيم، لكنّ المكعّب يذوب في النهاية ويؤكّد أنّنا هنا حقًا.

كيف لم يلحظ الناس ما نحنُ فيه، كيف لم ألحظ هذا من قبل؟

يبدو أنّنا انشغلنا بإيجاد طرق والقيام بأفعال والابتعاد عن أخرى كي نهرب من الجحيم بعد الموت، ولم ندرك أنّنا هنا نعذّب حقًّا.

فريدة ستصل خلال دقائق، عملها في المستشفى انتهى منذ ساعة، وهي مدّة كافية كي تصل من العبّاسية حتّى شارع الأزهر، فكّرنا كثيرًا في الانتقال إلى شقّة في العباسية كي تختصر هي المسافة من المستشفى إلى البيت، أو حتّى شقّة صغيرة في مصر الجديدة، الساعة في مواصلات القاهرة مدَّة طويلة، يتضاعف فيها الإرهاق ليساويَ في النهاية إرهاق يوم العمل كلّه. لكنّ فريدة أخذت نفسًا من السيجارة في النهاية وقالت إنّها تحبّ المكان هنا. في تلك اللحظة تساءلتُ إن كانت فريدة تعلم أنّنا في الجحيم، إن كانت تعلم بأنّها تعذَّبُ كلّ يوم بألف طريقة، فريدة لم تعد ترتدي ما تريد من ملابس، وما ادّخرته من مال في شهور الدعارة سينفد قريبًا، مرتّب المستشفى لا يكفي وتضطر إلى سحب مبلغ من المال من حسابها البنكي كلّ عدّة أيّام. قالت لي إنّها لم تسحب منه جنيهًا في أثناء عملها في الدعارة، كان ما يأتيها يكفي وزيادة. وحسبتُ ما كانت تحصل عليه بسرعة؛ خمسون جنيهًا لكلّ زبون، وإذا كانت له طلبات مخصوصة، فكلّ طلب بخمسين أضافية، وهكذا في الأيّام المزدحمة كانت تحصل على خمسمئة جنيه. ولا حاجة للمقارنة، مرتّبها الشهري كلّه لا يتعدّى هذا الرقم. صحيح أنّها تركت عذاب الأجساد الثقيلة وعرق الغرباء وروائحهم، لكنّها الآن في عذاب من نوع آخر.

تركت فريدة الطبّ مبكّرًا، كان ذلك قبل أن ألتقيَها بأيّام قليلة، أتمَّت سنة تدريبها بعد التخرُّج واتّجهت من فورها إلى أحد البيوت في شارع شريف، كان قانون الدعارة قد تمَّت الموافقة عليه للتوّ، ودخلت فريدة

إلى مكتب صاحب البيت وهي محمَّلة بكراهية لا نهائية للأجساد، لكلّ الأجساد. أخبرتني لاحقًا أنّها اتّخذت هذا القرار قبل دخولها المكتب بعدّة شهور، بالتحديد بعد مئة يوم من العمل في المستشفى، زميلها في الطوارئ كان أكبر منها بقليل وبالتالي أكثر خبرة، ومات تحت يده في ذلك اليوم ستّة عشر إنسانًا، كان الواحدُ منهم يدخل إلى الطوارئ وهو على شفا الموت، ثم يتوقَّف قلبه فيحاول زميلها إنعاشه، لكنّه كان يفشل في كلّ مرَّة، لم يُصب أحد المحتضرين برصاص أو شظايا جرَّاء تفجيرات المقاومة، كانوا يأتون وقد سقط بعضهم من فوق مبنى تحت التأسيس أو مصابًا في حادث سيارة أو حتّى بأزمة قلبية غير متوقَّعة. الفتاة الأخيرة كانت كذلك، قالت فريدة إنّها كانت شابّة وجميلة جدًّا، جلدها أبيض يشفّ عن أوردتها الدقيقة، كانت ميّتة بالفعل، لكنّ الزميل طلب من فريدة أن تقوم بتدليك قلبها على كلّ حال، قال لفريدة إنّ الفتاة شابّة وقد يعود القلب للعمل، لكنّها لم تتجرَّأ على ذلك، فقام الطبيب بمحاولة إنعاشها دون أن يوجِّه اللوم لفريدة.

قالت فريدة إنّ الرجل كان قد اكتفى بخمسةَ عشرَ ميّتًا هذا اليوم، وقرَّر أنّه سوف يعيد تلك الفتاة من الموت، وعندما فقد عقله وأخذ يضغط بكلّ قوّته على صدرها محاولًا تنشيط القلب، تحطّمت عدّة ضلوع من جرَّاء الضغط الشديد، سمعت فريدة صوت تكسُّر العظام ولم تعد قادرة على الوقوف، ولا بدّ أنّ الطبيب سمعها أيضًا لكنّه تابع الضغط ليحطِّم المزيد، ثم اندفع طرف أحد الضلوع مكسورًا ليخرق جلد الصدر، وظهر منتصبًا أبيض اللون ملوّثًا بدم قليل. قال فريدة إنّ الفتاة كانت تبدو نائمة، لا أثر للموت على وجهها على الإطلاق، لكنّ الضلع الثاقب وتعرّجات الضلوع المحطَّمة تحت الجلد أوحيا بعكس ذلك.

أخبرتني فريدة أنّها أدركت فجأة أنّ الجسد البشري ضعيف للغاية، آلة هشّة بشكل لا يصدّق، واستعادت جلّ ما تعلّمته في كلّية الطبّ. كانت كلّ

معلومة تأتيها لتؤكّد ما أدركته حينها؛ الجلد سهل القطع، آلة القلب التي تشغِّل كلّ شيء دون أيّ بديل، فقرات الرقبة السريعة التحطّم، العين التي قد تروح لأدنى إصابة، المخّ الذي إذا أصابه أدنى عطب أدّى إلى توقُّف أحد الأعضاء أو إحدى الحواسّ، الخلايا العصبية التي لا تتجدَّد، وآلاف الفيروسات التي قد تنهي حركة الجسد في ساعات. لكن كان على فريدة أن ترى طرف الضلع المكسور حتّى تصل إلى هذا الاستنتاج البسيط. حينها رأت أنّ جسدها هذا يمكنُ أن تربح منه أموالًا طائلة، دون حاجة إلى مجهود عقلي، أو محاولات مستميتة لمساعدة المرضى على التشبُّث بالحياة، أو سعي محموم لكسب رضا هؤلاء المتشبّثين، أو أيّ شيء آخر قد يذكِّرها بضعف الأجساد الشديد. ويبدو أنّها لم تهرب تمامًا من كلّ هذا حينما قبلها صاحب البيت.

قالت إنّ الرجل كان عمليًّا للغاية، ولم يبدُ أنّه صاحب بيت دعارة على الإطلاق بل مدير أنيق لشركة خاصّة، كان يقرأ أوراقًا كثيرة حينما دخلت عليه، ولمحَت بين يديه أوراقًا تحوي جداولَ وأرقامًا ورسومات إحصائية ربّما تشير إلى شيء ما يتعلَّق بالدعارة في مصر ومقدار تطوّرها المتوقَّع. سألها عن تاريخ ميلادها وقدرتها على العمل ساعاتٍ طويلة وخبراتها السابقة، ولمّا قالت، وهي خجلة، إنّها تركت المستشفى للتوّ، ردَّ أنّ هذا يحدث كثيرًا، وهو يرحِّب بالطبيبات والممرضات لأنّهنّ قادرات على تحمّل ضغوط العمل، ويقبلن ما يبدو للأخريات إهانة، ولا يتعاملنَ مع أجسامهنّ على أنّها أشياء ذات قيمة، وبالطبع، وهو أهمّ شيء، أنّهنّ يعلمن جيّدًا كيف تنتقل الأمراض الجنسية وكيف يحمين أنفسهنّ منها. سألها إن كانت قد جرَّبت مع زبون، إن كانت قد نامت مع أحدهم مقابل المال من قبل، وسألها إن كانت تتحمَّل طلبات غير معتادة، ولمَّا قالت إنّها تقبل بأي شيء أخبرها بأنّ هذا جيّد، المعتاد أصبح نادرًا هذه الأيّام إلى درجة أنّه أصبح غير معتاد. سألها إن كانت تفهم ما يقصد، وأجابت أنّها تفهم

ذلك تمامًا. طلب منها أن تخلع ملابسها ليتفحَّص جسدها فقامت من على الكرسي وخلعت كلّ شيء.

لم يحدِّق فيها كثيرًا، لكنّه قال إنّ عليها تجربة الأمر مع واحد من المحترفين، كنوع من الاختبار لا أكثر، كان مُهذّبًا جدًّا فقال إنّ الأمر قد لا يعجبها مع الغرباء، وقد لا يعجبها الفيتيش المنتشر الآن. ثم حدَّدا موعدًا للتجربة.

فريدة كانت تتعذَّب في المستشفى، ويتعذَّب معها زميلها، وهما يعذِّبان من يأتونهم على شفا الموت، كلّهم كانوا تروسًا في آلة بالغة التعقيد، عالية الكفاءة، دقيقة إلى درجة الدهشة، آلة تعذيب أعظم كثيرًا من الجسد البشري. ويبدو أنّ الترس الذي كانته فريدة لم يعد يدور جيّدًا، فانتقل ليكون ترسًا في الآلة نفسِها لكن في مكان آخر. يدور هناك ليحقّق أعلى كفاءة ممكنة، فالآلة لا يمكن أن تتوقّف عن العمل.

ذاب مكعّب الجليد، أهذا هو المكعب العاشر؟ راح الوخز ولم تعد كفي تشعر بأيّ ألم. اليوم تمرّ ثلاثة شهور على يوم الجلاء، انتهى كلّ شيء ورحل جنود جيشي فرسان مالطة الرابع والخامس عن البلاد، واستعدنا كلّ شبر من مصر، وبعد الفرحة الكبيرة القصيرة استعدنا كلّ الشقاء وكلّ العذاب.



دخلت فريدة، كانت مرهقة مثل كلّ يوم، خلعت حجابها الخفيف واحتضنتني طويلًا دون أن تنطق، ثم تركتني واتّجهت نحو السرير وقالت إنّها ستنام قليلًا.

هل لا يزال هناك أمل في الشوارع يا فريدة؟

رنّ تليفوني، وقال الضابط إنّ هناك حملةً صغيرةً غدًا على معمل الكربون في شارع بورسعيد، ستقتحم قوّة من الشرطة المكان وسيقبضون على خمسة أفراد أو ستّة، وسيصادرون كل ما يجدونه. أسرعت بالاتصال

بصاحب المعمل وأبلغته بكل شيء، ونصحته بترك برميل جعارين كامل، وبرميلي نمل وصراصير. قلتُ له إنّ إخلاء المعمل بالكامل قد يكشفني ويكشف مصدر معلوماتي في الداخلية، وطلبت سبعة آلاف جنيه ثمنًا للمعلومة، بالطبع لم يملك الرجل إلّا الطاعة، والسبعة آلاف ليست لي وحدي، بل سيأخذ مصدري ثلاثة وربّما قام بمنح ألف منهم لمَن أتاه بالمعلومة. قال لي صاحب المعمل إنّه سيترك ثلاثة أشخاص يرغب في التخلّص منهم، وسألني إن استطاع أن يرشو الضبّاط بعد ذلك ليأخذ جزءًا من الكربون المصادر. لم تعد تعنيني التفاصيل فقلت له إنّ هذا لن يحدث فالكمّية صغيرة جدًّا. وأنهيتُ الاتصال وأنا أتساءل إن كان علينا أن نسعى للرزق في الجحيم. إن كان سعينا هذا عذابٌ آخر.

لم أدخن سيجارة كربون واحدة منذ ثلاثة شهور، لم أكن في حاجة لذلك الآن، أو أنّي لم أعد أشعر بلذّة الهروب للعدم كما كنت أفعل سابقًا. توقّف الناس عن ضرب الكربون عدّة أسابيع ثم عادوا ليستهلكوا كمّيات أكبر بكثير ممّا سبق، وقامتِ الشرطة في البداية بحملات مفاجئة وحقيقية لمصادرة ما يجدونه، ومع مرور الوقت تسرَّبت معلومات عن كلّ حملة للتجّار وأصحاب المعامل. كنتُ وآخرون وسطاء في عملية التسريب، وببساطة عاد كلّ شيء كما كان. وفكّرتُ أنّي قد أعود للكربون يومًا، لكنّي لن أعود أبدًا للحشيش.

صارحتني فريدة بأنّ الكربون أنقذها من الانتحار عدّة مرّات، كانت تكربن قبل أن تصل إلى العمل، وربّما كربنت في التاكسي دون أن تأبَهَ للسائق الذي يوصِّلها إلى شارع شريف وما يظنّ. قالت إنّ شهور الدعارة مرَّت دون أن تشعر والفضل يعود للكربون، وإنّ الكربون عوَّض غيابي عنها طوال السنتين اللتين قضيتهما في البرج. أخبرتني أنّ الحياة مع الكربون كانت ألطف كثيرًا ممّا تخيَّلَت، فلم تعد تشعر بجسدها إلّا عدّة ساعات كلّ يوم، وكان غيابها في ما تسمّيه «الليل» هروب من كلّ ما يحدث

في غرفتها في أثناء العمل. هي الآن لا تذكر شيئًا عن أيّام الدعارة، وربّما أتاها في المستشفى مريضٌ كان زبونًا في ما سبق، تعرفهم من نظرة الدهشة على وجوههم حينما يرونها. دهشة تتحوَّل لابتسامة خجولة وقد تتطوَّر لابتسامة صفراء، لكنّ المحيطين بها وصرامتها وحجابها يمنعون أيَّ تطوُّر بعد ذلك. يتوقَّف المريض الذي كان زبونًا عن التفكير بها ويرحل.

سيأتي اليوم الذي ستعود فيه فريدة إلى ضرب الكربون في أثناء العمل، ستتحوَّل إلى آلة تعمل دون كَلَلٍ وعقلها هاربٌ في ليلها، ستعود إلى البيت لتنام طويلًا حتّى يزول مفعول الكربون، ستهرب من المرضى الذين يموتون رويدًا رويدًا، مع أنّ الموت أجمل صور الرحمة في جحيمنا هذا، لكنّ فريدة ستفضِّل الكربون، أسهلها.

غدًا ستقوم حملة من الوزارة باقتحام معمل الكربون، أعرف مكانه جيّدًا فقد زرته عدّة مرّات، سيصادرون ما يجدونه من بضاعة ويقبضون على من يجدونه هناك، وربّما أرادوا أن يتقنوا المسرحية فيقتلون واحدًا من الموجودين، وسيشهد الضبّاط في الحملة أنّه رفع عليهم سلاحه وأطلق طلقتين لكنّه أخطأهم، وربّما سيغضب صاحب المعمل ويتطوّر الأمر فيردّ الضربة ويقتل ضابطًا أو اثنين، وقد تدور العجلة ويخرج الأمر عن السيطرة تمامًا فيتبادل رجال الشرطة وأصحاب معامل الكربون الضربات حتّى تقارب تجارة الكربون على الفناء. وقد يتدخَّل أحد الكبار فيطلب تخفيف الضغط على المعامل لأهمّيّتها وقد ينتهي هذا الجيل من التجار ليحلّ محلّه جيل آخر أكثر ذكاءً وتنظيمًا، وقد يتطوَّر الأمر فيقوم أعضاء مجلس الشعب بتقنين الكربون كما قنّنوا الدعارة من قبل، فعلى كلّ حال هذه حشراتٌ تُدخَّن وليست مخدّرات، لا يصاب من يدخِّنها بالفتور أو الكسل ولا يرى هلاوس بصرية، بل ربّما يرتاح قليلًا من العذاب المستمرّ دون أدنى أمل في الخلاص.

13

ما حدث بعد ذلك كان مثالًا للسلاسة الفائقة.

بعد أربع وعشرين ساعة من يوم الشهداء، رأينا الفيلدمارشال بول-بيير جينفيف في التلفزيون يرتدي بذلته العسكرية المزيّنة بنياشين عديدة، يتحدَّث إلى الشعب بفرنسية أنيقة، وسطور بالعربية على الشاشة تترجم ما يقول للمصريين.

أثنى كثيرًا على الشعب المصري، الذي استضاف جيشيَ فرسان مالطا الرابع والخامس طوال المدّة الماضية، وأعلن انتصار الجيشَين في معركة التحرير الوطني المصري، وتخليصه من الطغمة الفاسدة التي كانت تحكمه من قبل، وحيًّا مشاركة الشعب المصري الواعي فرسان مالطا هذا الكفاح العظيم. وخاطب الشعب المصري المضطهد مذكِّرًا إياهم بأنّ فرسان مالطا هم أوّل مَن ترفَّقوا على الشعب المصري وربَّتوا على كتفه العريضة، وأخذوا بيده إلى طريق الحضارة في خطوات كان أوّلها القوانين الجديدة المحرِّرة لهم من جهل القرن العشرين وتخبّطاته ويأسه، وأكّد تمسُّكَ الشعب المصري بالأمل في التطوُّر والتقدُّم إلى مصافّ الدول الغربية المتحضِّرة، واعتبر أنّ مصر من الآنَ فصاعدًا لن تكون شرقًا، وإنّما غربًا يحترمها ويُقدِّرُها العالمُ كلُّه.

استمرّتِ الخطبة ساعتين كاملتين، لم يفهم مستمعو الإذاعة حديثَه، وبالطبع غابت سطور الترجمة عن أعين الجالسين في المقاهي يشاهدون التلفزيون، وبعد مرور ساعة من الخطاب تطوَّع بعضهم بترديد السطور بصوتٍ عالٍ كي يسمعها البعيدون عن شاشات التلفزيون في الشوارع، واستخدموا ميكرفونات تصاعدت أصواتهم عبرها تدريجيًّا تلهبها حماسة المديح الذي أنعم الفيلدمارشال به على الشعب المصري. وقرب نهاية الساعة الأخرى كان الجميع قد ملَّ ما يحدث، فترك المردِّدون الميكرفونات وأغلق المشاهدون التلفزيونات أو شغَّلوا قنوات أخرى. تبعوا المستمعين إلى الراديو الذين قاموا بذلك بعد دقائق فقط من بَدء الخطبة.

في النهاية وبعد 119 دقيقة من الفرنسية المترجمة إلى العربية أعلن الفيلدمارشال بول-بيير جينفيف بَدء عمليات الانتشار خارج الأراضي المصرية، وأصدر أمرًا بلمّ شمل القوّات المسلّحة المصرية، وترقية اللّواء نيازي عرابي الجمَّالي إلى رتبة فريق، وأمرًا بترقية الفريق نيازي عرابي الجمَّالي إلى رتبة فريق أوّل، وأمرًا بترقية الفريق أوّل نيازي عرابي الجمَّالي إلى رتبة مشير، وأمرًا بتسليم إدارة البلاد إلى المجلس الأعلى للقوّات المسلّحة المصرية بقيادة المشير نيازي عرابي الجمَّالي.

أتتني ضوضاء الشارع المعتادة من النافذة، كنت راقدًا على السرير أتابع ما يحدث عبر شاشة التليفون الصغيرة، أقرأ بصعوبة السطور النحيلة وأحاول فهم ما يحدث، وبعد ربع الساعة بدأت الضوضاء في التصاعد رويدًا رويدًا. وتحوَّلت إلى احتفال سعيد غيرِ منظَّم، فوضى مبتهِجَة وصيحات وأغانٍ وطنية تردَّدت في الأجواء، وأكَّدت الكلمات أنّ الشعب لا يعرف المستحيلَ، وأنّ شمس مصر الذهب عادت، وأنّها أقوى من الزمن، وأنّ الخلق توقَّفوا عن الحياة والتنفّس والعمل وكلّ شيء كي ينظروا كيف تُبنى قواعد المجد دون مساعدة من أحد، ثم استسلم الجميع للركاكة فأكّدوا أنّهم يحبّون بلادهم، وأنّ لها فوق الحبِ الأفئدةَ.

وعلى الرغم من أنّ أحدًا لم يعلم مَن هو المشير الجمَّالي إلّا أنّ الجميع فرح لمجرَّد أنّ مصريًّا سوف يعود ليحكم البلاد. ولمَّا رأيناه قصيرَ القامة يرفع رأسه لتحية الفيلدمارشال الطويل ابتسمنا ابتسامة مَن يرى طفلَه الضعيف لكنّه يحبّه، وقلنا إنّ في قصره مكرًا ودهاءً، كان الرجل أقلَّ ما نملك، ويبدو أنّنا كنّا في انتظار أيّ إنسان ليقود البلد، وفكّرتُ أنّ رجلًا قصيرًا وطنيًّا في الجحيم أفضل من محتلّ أجنبي في الجحيم نفسه.

وتغاضى الناس عن عبثية كلّ ما حدث؛ عن خطبة الفيلدمارشال الهزلية، وعن ترقيته الاستثنائية للمشير الجمَّالي، لكنّهم فرحوا كثيرًا بعودة الجيش المصري للواجهة مرّة أخرى، وأصبح الجميع على يقين من

اشتراك الجيش في عمليّات المقاومة. كنتُ أقرأ تعليقات الناس على مواقع الصحف الإلكترونية وأسترجع ما قمتُ به خلال سنوات المقاومة، وما عرفته من غياب شبه تامّ للجيش وسيطرة كاملة للشرطة. وكلَّما تساءلتُ عن تأخّر رسالة من قيادة المقاومة تهنّئني بالنصر وتبشِّرني بالعودة إلى الداخلية أتذكّر فورًا أن لا شيء يهمّ الآن، الجحيم يأكلنا ونحن لا ندري.

ما تلا خطبة الفيلدمارشال كان سريعًا، فكما احتلّ فرسان مالطا البلد بسرعة رحلوا عنها بسرعة؛ نقلوا أسلحتهم ومعدّاتهم من القاهرة والدلتا إلى البحر المتوسّط، عبر النيل وفرعَيه وعبر الطرق الضيّقة الرابطة بين القلب والشمال، تخلّوا عن منشآتهم ومنشآتنا التي احتلّوها، وتخلّوا عن معدّاتهم المعطوبة والكثير من السلاح الخفيف قصير المدى، سلَّموا كلّ ذلك إلى القوّات المسلّحة المصرية ليكون نواة تسليح الجيش المصري الجديد. لم تكن هناك مقاومة تُذكر وإنّما ترحيب مستمرّ، ولم يستغرق كلّ هذا أكثر من أسبوع واحد.

في ذلك الأسبوع كان الناس يسيرون في الشوارع وكلّهم أمل، عادتِ البسمات للوجوه، وكنتُ أمشي بينهم مصعوقًا من عظمة التدبير، كنتُ أعلم أنّ كلّ هؤلاء سيعذَّبون قريبًا، لم أعلم كيف سيحدث ذلك لكنّي كنتُ أعلم أنّه سيحدث، وقضيتُ أطول وقتٍ في البيت ولم أعد أنزل إلا قليلًا، لم أكن قادرًا على رؤية الوجوه ولم تعد لديَّ القدرة على الهرب من تخيّل مصائر كلّ هؤلاء وما سيحدث لهم قريبًا. لكنّي رفضتُ النزول في يوم الجلاء، يوم رحيل آخر جندي من ميناء الدخيلة في الإسكندرية. نزلت فريدة وحدها وكلّها سعادة إلى الشارع بعدما ألحّت عليَّ كي أرافقها، لكنّي تحججتُ بالإرهاق، وكنت مستلقيًا على السرير حينما سمعت صوت مسيرة في الشارع، وهو ما كان معتادًا في تلك الأيّام، كان الناس يهتفون هتافات وطنية بإيقاع حماسي، يطردون آخر محتلّ ويحتفلون بالجلاء ويرحّبون بالوطنيّين ويشكرون المقاومة والجيش والمجلس الأعلى

للقوّات المسلّحة المصرية ويقدِّرون أفعال الجميع، بدا الأمر وكأنّي غادرتُ الجحيم وعدتُ للدنيا، لا عذاب ولا هوان، والناس متفائلين إلى درجة المشي والهتاف بسعادة حقيقية. تحرَّكتُ نحو النافذة لأرى الشارع الصغير وقد تجمَّع فيه عشرون فردًا، يمشون ويهتفون ويحملون الأعلام وأحدهم يقرع طبلًا ليضبط إيقاع الهتافات، وعلى أطراف المسيرة كان الناس يلوِّحون للواقفين في الشرفات والنوافذ كي ينزلوا ليسيروا معهم، ولاحظتُ أنّ العدد في ازدياد، انضمّ الكثيرون للمسيرة، وسمعتُ هتافًا آخر يأتي من قريب ويتقاطع مع الهتاف الأوّل، ثم فوجئتُ بمسيرة أخرى أكثر ضخامة تخرج من شارع جانبي لتلتحم بالأولى، فيذوبان معًا ويتوحَّدان في هتاف واحد ذي لحن لن أنساه مطلقًا، وفكّرتُ كثيرًا أنّهم تدرَّبوا ساعات قبل أن يتقنوا هتافهم بهذا اللحن، كانوا يهتفون: «يا مصري.. يا سيّد... وأبوك درويش.. النيل بيجري.. ولّا ما بيجريش..». وبكيتُ.

لا، لم نعد إلى الدنيا، لا نزال في الجحيم ولم نعد إلى مصر، وجيشان القلوب هذا ما هو إلّا تحضيرٌ لعذابٍ أسودَ قادمٍ، آمالهم هذه ستسلخ جلودهم بعد شهور أو أيّام، سيُحرقون حتّى الموتَ، سيعذَّبون وسيكفرون بما هتفوا به للتوّ. لا سادة هنا ولا دراويش، والنيل لم يجرِ إلّا في الجحيم، أحمر وأسود وأزرق بألوان الدم والخراء والجثث. بكيتُ لأنّي أشفقتُ على الناس لأوَّل مرّة في حياتي هذه، يظنون أنّهم يبنون قواعد الصرح الهائل، لكنّ الحقيقة أن لا بلد ولا دولة ولا قانون ولا شيء حقيقي، كلّ هذا وهم يعيشه الجميع كي يستمرّ العذاب أنيقًا بليغًا قادرًا على إحداث أشدّ الضرر في النفوس، بكيتُ لأنّي رأيتُ وعلمتُ أنّنا نعذَّبُ ولا نعلم، وأنّنا نعذِّب بعضنا بعضًا ولا نعلم، وأن لا أمل في يوم واحد قادم أفضل ممّا نحن فيه. كنتُ أمسك بإطار النافذة وأنا أبكي، ولاحظ واحدٌ من المشاركين في المسيرة بكائي فلوَّح لي وبكى، ولاحظ من حوله ما يحدث فلوَّحوا لي وتوقفوا عن الهتاف وابتسم بعضهم وبكى بعضهم وغطّى

بعضهم أعينهم بأكفّهم، ظنّوا أنّي أبكي فرحًا بما قمنا به، ولم أعلم لحظتها ما فعل هؤلاء كي يستحقّوا كلّ هذا، ماذا فعلنا في الدنيا كي نعيش أيّامًا زائفة متوَهَّمة كهذه؟ أمَا كان من الأفضل أن تُشوى جلودنا كما قيل لنا، أن نعلم أنّنا نعذَّب فنندم على ما قمنا به في الدنيا الفانية؟ لكنّ ما يحدث الآن أكثر عبقرية من كلّ ما تخيّلناه، هذا عقاب إلهيّ حقًّا.

كيف للواحد أن يعيش في الجحيم بعدما علم بذلك، كيف أعذَّبُ ولا أمل لي في الغد؟

وتساءلتُ للمرّة الألف؛ هل تعلم فريدة أنّنا في الجحيم؟ ألا يشعر كلّ هؤلاء أن لا ظلم ولا عدل ولا رحمة؟ ألم يدرك هؤلاء أن كلَّ أمل زائف، وكلّ توقّع لخير قادم كان خاطئًا، وأنّ الأمور إلى تدهور لا إلى تحسّن أبدًا أبدًا؟

وفي يوم الجلاء كلَّف المشيرُ الجمَّالي الدكتور خليفة صدقي بتشكيل الحكومة الجديدة، وجاء مانشيت الأهرام كعادته في أوقات التقلُّبات والتبدُّلات العظيمة رزينًا متفائلًا مكتوبًا بخطّ اليد: «الدكتور صدقي رئيسًا للوزراء للمرّة الحادية والعشرين وأنباء عن إلغاء وزارة الإعلام».

وخلال ثلاثة شهور اجترّ الإعلام والناس والطيور وكلاب الشوارع والحجارة المبعثرة في الطرقات والأشجار وعصافيرها كلّ خراء ممكن عن الدستور الجديد، والوزارة الجديدة، والتقسيم الجديد للمحافظات، والنظام البرلماني الجديد أم الرئاسي الجديد، والجيش الجديد، ومدى اطّلاع الشعب على الميزانية الجديدة الخاصّة بالجيش الجديد، وعن القوانين الجديدة، والقضاة الجُدد، والمحاكم السريعة الجديدة التي ستعاقب كلّ مجرم جديد يخلّ بالأمن الجديد، وعن الطابور الخامس الجديد، والخونةِ الجُدد، والأحزاب الجديدة، وأخيرًا عن الإخوان المسلمين الجُدد.

بالتأكيد هناك فكاهة في الجحيم؛ تأكّدتُ من ذلك في شارع طلعت

حرب، كان البائع يمشي ينادي على بضاعته برتابة وصوت مرتفع ونبرة هزلية، حمل صندوقًا من الورق المقوّى تحت ذراعه مليء بملاعق لامعة بلون الذهب، وربط على جبهته رباطًا قماشيًّا نحيلًا بألوان العلم المصري، وملاعق من النوع نفسه منتصبة محشورة بين الرباط وجبهته، كأنّها تاجٌ غير متماسك على رأسه، كان ينادي على بضاعته بجمل قصيرة ذات لحن واحد، يكرِّر الكلام ولا يملّ، وسعادة غامرة تشع وتغمر كلّ مَن حوله فيبتسمون وربّما ضحكوا، لا لطريقته الفريدة في النداء، لكن لدلالة النداء نفسه. كنَّا على أعتاب استفتاء الدستور الجديد، والجدل محتدم بين الناس حتّى وصل إلى مرحلة الشجار والاحتكاك وربّما كال أحدهم بعض الضربات لمَن خالفه الرأي. وأمام لافتة عُلِّقت أمام دكان كُتب عليها: «نعم للدستور الجديد من أجل مصر جديدة» توقَّف بائع الملاعق ونظر إلى المارة نظرة مَن سيعلن سرًّا مُهمًّا، كان أسمر البشرة معروقًا نحيلًا، شاربُه هائل لا يتناسب مع وجهه الصغير ورأسه الأصلع، وقلتُ إنّه سيحدِّثُ المارة بالتأكيد عن الدستور الجديد وسنعرف الآن إن كان يؤيده أم يرفضه، لكنّه فاجأني حقًّا واستطرد مضيفًا على جمله القصيرة ذات اللحن الواحد ما يلي: «ملاعق الخرا... اشتَرِي ملاعق الخرا... هديّة لبابا وماما وحمادة وميّادة... ملاعق الخرا للكلّ...»

بالطبع تمَّت الموافقة على الدستور الجديد بأغلبية ساحقة وسط فرحة جديدة أقلّ قليلًا من فرحة الجلاء، واقترب موعد الانتخابات البرلمانية، ومن ثَمَّ الانتخابات الرئاسية والتي يبدو أنّ المشير الجمَّالي سوف يفوز بها مكتسحًا كلّ المُرشّحين.

استيقظتُ يومًا من نومي لأدرك أنّ الناس قد تخلُّوا عن أملهم بسرعة كبيرة هذه المرّة.

تبدَّل كلّ شيء رويدًا رويدًا خلال ثلاثة شهور فقط، غابتِ البسمات وعاد العنف ليشغل حياة الناس، عادوا للانتحار قفزًا من فوق الأسطح،

ورجموا بعضهم بعضًا في الشوارع حتّى الموت، ولم تبالِ الأغلبية بكلّ ما يحدث، فتقبّلوا كلّ شيء كما كانوا يتقبّلونه سابقًا؛ دون أيّ اعتراض. ثلاثة شهور من الآمال الزائفة والكلام الناعم كانوا بمثابة استراحة خفيفة استعدادًا لعذاب أكبر، لكنّه هذه المرّة دون احتلال.

وفي أحد الأيّام أتت فريدة وهي حزينة لأنّ الكوليرا وإنفلونزا الحمير عادا للتفشّي وسط الناس، ولأنّها قرأت تقرير وزارة الصحّة الذي أكّد أنّ معدل الأعمار قد زاد خلال سنواتِ الاحتلال، بينما زاد معدّل وفاة الأطفال، ولأنّ مرضًا قديمًا قد عاد للظهور ليضرب مَن هم دون العاشرة بضراوة، ليفقدهم البصر والسمع والقدرة على الكلام. في ذلك اليوم فكّرتُ أنّ الكثيرين يعلمون ما نحنُ فيه حتمًا، لكنّهم صامتون لا يودّون الحديث عن الأمر، علموا مثلما علمتُ عن طريق وحي لا أعرف مصدره ولم يخبرهم إنسان، والكلّ يودّ لو أنّه صرخ معلنًا للجميع المصيبة التي نعيش فيها، لكنّهم يخشون أن يُتهموا بالجنون أو الكفر. ثم يعاودون التفكير في الأمر برويّة، فلا شيء يمكن عمله حقًا عندما يعلم الواحد أنّه محبوس في الجحيم سوى محاولة الهرب، أمّا محاولة إخبار الناس فلا جدوى منها على الإطلاق، ما الفائدة إن علم الناس أنّهم يعذّبون؟ الحقيقة الآنَ ليست مهمّة، ويبدو أنّ من الأفضل ترك الناس في وهمهم إلى أن يدركوا بأنفسهم أنّه وَهمٌ، وأدركتُ أنّ الانتحار المتكرّر ما هو إلّا محاولات هرب بائسة، أظنّ أنّها بائسة لأنّ الانتحار ليس هروبًا من الجحيم أبدًا، فلن يهرب الواحد بتلك السهولة، بضربة موسى، أو بقفزة ورقبته معلّقة بأنشوطة، أو بقفزة من سطح مبنى مرتفع. هذا غشّ كما قال لي القدّيس، لكنّي كنتُ لا أزال أتساءل أين يذهب الناس بعد موتهم أو بعد انتحارهم.

في ذلك اليوم قالت فريدة إنّها ستعود للدعارة، كان هذا قرارًا. وبدا لي أنّها تنتظر موافقتي، أو حتّى تعليقًا بسيطًا منّي. وقلت لها بعد صمت قصير إنّني أؤيّد ما ستفعل. ارتاحت فريدة كثيرًا وكأنّها كانت تنتظر رأيي حقًّا.

أين ذهب القدّيس، أين ذهب كلّ الزملاء؟

كنتُ أنام كلَّ يوم وأنا أرتعد من الخوف، وأنا أعلم أنّي أعذَّبُ بخوفي هذا لكنّي لا أجد منه مفرًّا، وتنام فريدة إلى جانبي وأنتظرُ إلى أن تنام وينتظم تنفُّسها لأبكي بدموع لكن دون صوت أو وجه متغضّن، أبكي لما ستلاقيه قريبًا، هذا الذي لا أعلمه ولا أراه لكنّي أعلم أنّها ستُعذَّب بطريقة ما وأنّها ستعذّبني معها، قدرنا القاتم الذي يسجن حياتينا معًا وسينهيهما معًا.

لا بدّ أن أحاول الاتصال بالقدِّيس مرَّة أخرى، لم أتمكّن من الوصول إليه عن طريق رقم التليفون المسجَّل لديّ، هل سيغضبُ لأنّي حطَّمتُ برهان؟

14

كانت أيّامًا جميلة حقًّا، فريدة فرحة تكاد تطير في فراغ الشقّة معظم الوقت، كانت قبل ذلك تدخل الشقّة كلّ يوم وهي مكتئبة، وتمرّ ساعة قبل أن تبدأ في التجاوب معي، إلى أن تعود إنسانة عادية تمزح وتبتسم وترغب في النزول إلى الشارع والمشي بين الناس، كانت تقول لي إنّهم حمقى جميعًا ونحن حمقى مثلهم. ثم تبدأ الرقص في فراغ الصالة، تدور حول نفسها مرّات عديدة مقلّدة راقصات الباليه، أو تهزّ بطنها في رقصة شرقيّة مغوية، أو ترقص كالراقصات في أفلام ديسكو السبعينات دون نمطٍ واضح. كلّ هذا دون موسيقى، وعندما أقترح عليها تشغيل الموسيقى تقول لي إنّ ذلك أفضل، هي تسمع الموسيقى في أذنيها وتتنقل بين الأنواع حينما تملّ، لتغيّر رقصتها حسب ما تحبّ. كان منظرها غريبًا، تدور ولا أسمع سوى صوت احتكاك قدميها بالبلاط العاري، وقد تتحمَّس فتصفّق أو تتأوّه دون أن تشعر. وقد تبتسم لي. لكن رقصتها في معظم الوقت كانت خاصّة بها فقط، تغمض عينيها ولا تنظر إليَّ، كأنّها وحدَها تستمتع بموسيقاها التي تُعزف في رأسها فقط.

هل تعلم فريدة؟ أظلّ أسأل هذا السؤال ولا إجابة، وأحاول إقناع نفسي

بأنّها تعلم كلّ شيء لأبرّر ما تفعله، وبينما أهرب أنا بالغرق في اليأس تحاول هي خلق دنيا أخرى بديلة عن جحيمنا هذا. ترقص وتخرج لتمشيَ في الشوارع بلا هدف، تترك الطب وتعود للدعارة دون مقدّمات أو تفكير طويل، كنتُ أبحث عن طريق الهرب الوحيد؛ الموت، لكنّي لم أجده مطلقًا. وهي تعرف أنّه مهرب مثالي لكنّها تتجنّبه طوال الوقت، وتتعمَّق كثيرًا في وهم الدنيا الذي خلقته لنفسها، تكثّفه وتجعل منه حائطًا يحيط بها.

قبل أن تترك المستشفى حكت لي مطوّلًا عن الولد المريض لديهم في المستشفى. حكت كثيرًا وأدركتُ كم نُعذَّب دون أن نُمسّ، فقط بمجرَّد السمع، هذا أقسى كثيرًا من عذاب الجلد بسياط من نار، وحرق الجلود واستبدالها، استبدال جلود جديدة بالمحترقة مجاز بالتأكيد، الذاكرة تقوم بتلك المَهمّة بكفاءة لا تُصدّق، لم تمسّني النار طوال حياتي، لكنّي كنتُ أسمع كلام فريدة عن الولد وأستعيده مرارًا، وأحلم به في أثناء نومي. أستعيد مشاهد سرقة الجثث التي رأيتها عبر منظاري، ولحظات الاحتضار قبل السكون الكامل. وأغمض عينيّ طمعًا في الهروب من المشاهد لكنّها كانت تأتيني أظهر وأبصر.

ترك أحدهم الولد أمام بوّابة المستشفى، كان جالسًا على الأرض يرتدي جلبابًا فقط، أدخله رجال الأمن وهم مرتعبون، كان تنفُّسه منتظمًا وكذلك نبضه. وتحليل الدم أظهر أنّه بخير حال. لكنّ الولد كان بلا عينين أو فم أو أذنين، كان وجهه أملس دون معالم سوى الأنف، وبعد عدّة أيّام تغيَّر لون أنفه إلى البنّي الداكن وسقط على الفراش. تعلّق في أنبوب التغذية الداخل حتّى معِدته واضطرّوا لقصّ جزء من الأنبوب حتّى يفصلوا الأنف الساقط عنه. وعلى الرغم من كلّ هذا كان الولد يحيا حياة طبيعية، وعندما خرج إلى الحديقة في أحد الأيّام أخذ يجري بلا وجهة وسط الأشجار، قالت فريدة إنّه كان يخطو عدّة خطوات ركضًا، ثم يغيّر اتجاهه ويركض خطوات أخرى وهكذا، كان يتلافى الاصطدام بشيء ممّا حوله من أشجار وغيرها.

لم يعرفوا اسم الولد وسمّوه سمير على اسم الطبيب الذي كشف عليه أوّل مرّة، وأصرّ أن يبقى في المستشفى ليلقى الرعاية اللازمة. اختاروا له سريرًا شاغرًا في أحد العنابر، وعندما اضطرّوا لاستخدام السرير لمريض آخر نقلوه إلى مخزن الأدوية وأرقدوه على حشية وضعوها على الأرض مباشرة. مع الوقت لاحظوا أنّ سمير قد فقد كلّ حواسّه حتّى حاسّة اللمس، لم يعد يرتجف عندما تمسّ الإبرة جلده، لم يعد يحرِّك رأسَه حينما يقرّبون قطعة قطن مشبّعة بالكحول من أنفه. أخبرتني فريدة أنّها دخلت عليه يومًا، لتجدَه وقد خلع جلبابه الصغير ورقد عاريًا، ذكره منكمش أزرق اللون بلا حياة وساقط بين فخذَيه، وفي موضعه ثقب دقيق وردي اللون. كان سمير يثني ركبته، ويحكّ كعبَه في فراشه ببطء جيئة وذهابًا، يستشعر القماش للمرّة الأخيرة.

لكنّ فريدة لم تبكِ، قالت إنّ سمير قد مات أخيرًا وأتى بعده كثيرون مثله، كلهم أطفال، سمير كان في العاشرة تقريبًا، لكن الجدد كانوا في الثالثة والرابعة والخامسة، أتَوا برفقة الأهل الباكين في هلع، بينما كان المُصاب هادئًا طوال الوقت، لا يرتبك إلّا حينما تقترب الأنابيب والإبر منه. كانوا يأتون بهمّ وقد راحت إحدى الحواسّ، بلا عينين، أو بلا أنف، أو بلا أذنين. يغيب البصر والشمّ والسمع مع غياب العضو. ثم تُغلق الأعضاء الأخرى أو تسقط واحدًا تلوَ الآخر، دون ترتيبٍ مُعيّن ودون توقيت ثابت. ولم يعد هناك مفرٌّ من تخصيص عنبر كامل لحالات الأطفال الذي فقدوا حواسّهم.

رغبت فريدة في إيصال المرضى إلى الموت سريعًا، أدركت أنّ المرضى لا يعذَّبون ولا يتألّمون، لكنّ الأهل يواجهون ألمًا لا يمكن وصفه، قالت إنّها رأت أمًّا تمنّت أن تُرمى في النار كثمنٍ لشفاء ابنها، لأوّل وَهلة فهمت فريدة أنّ الأمَّ تقصد أن تموت محروقة بالنار. لكنّها بعد ذلك أدركت أنّها تبيع مصيرها في الآخرة مقابل حياة ابنها في الدنيا، أو ما ظنّته دنيا.

لكنّ ما حدث لم يكن له أيّ صدًى، لم يُكتب عنه في الجرائد ولم يتحرَّك واحد من وزارة الصحّة لبحث الموضوع، كانت الأعداد تتزايد كلّ يوم، وتصل أنباء تفيد انتشار الحالة في محافظات عديدة بين الأطفال، وأخذ الأطباء يتَّصلون بزملائهم ويسألون عن حالاتٍ مشابهة قديمة، فاكتشفوا أنّ هناك حالاتٍ ظهرت منذ خمسةَ عشرَ عامًا، ومنذ أكثر من ثلاثين عامًا. وأنّ مريضة توفَّت منذ شهور قليلة بعدما ظلّت بلا حواسّ لأربعين عامًا تقريبًا. واكتشفوا أنّ هناك حالاتٍ عديدةً تتعايش مع المرض دونَ أن يدخلوا مستشفى قطّ.

وفي أحد الأيّام فوجئت فريدة بزحام بالغ في ميدان العبّاسية، وبعدما انتظرت عشرَ دقائقَ نزلت من الأتوبيس لتتّجه مشيًا إلى المستشفى، كان ذلك أفضل حلّ. تحت الكوبري وقبل أن تنعطف يسارًا نحو المستشفى وجدت سمير يقف عاريًا تمامًا، كان غياب أعضائه قد اكتمل منذ أيّام، وصار مجرَّد كائن مغطّى بجلد دون معالم تُذكر، وظهرت الأنبوبتان الحديد الدقيقتان اللّتان تمنعان فتحتَي أنفه من الانغلاق، ولو دقَّق أحد الواقفين النظر لرأي أيضًا أنبوبتين دقيقتين في موضع استه وما تبقّى من ذكره، تمنعان فتحتَي الإخراج من الانغلاق تمامًا. وقف سمير وهو لا يشعر بما حوله، ولم تدرك فريدة كيف وصل إلى هذا المكان، ولم تعلم كيف ستأخذه معها إلى المستشفى وسط هذا الزحام.

حاولت فريدة دفع من أمامها حتّى تصل إلى سمير، بعد شتائم ولكزات وتحرّش كثير وصلت إلى الصفّ الأوّل حيث وقف سمير هادئًا، أمسك بأنبوب التغذية السيليكون الدقيق المتدلّي من فتحة أنفه وأخذ يسحبه بجذبات سريعة لكن متعقلّة، ولا بدّ أنّ الأنبوب كان عالقًا بطريقة ما فازدادت جذبات سمير حدة، وأخذ الناس يهمهمون غير فاهمين ما يقوم به سمير، يبدون استغرابهم من هيئته وعريه، وبدا أنّه ملَّ هذا التعقّل فجذب الأنبوب جذبة واحدة قوّية.

انبثق الدمُ غزيرًا من فتحة الأنف، ونزل جزء منه نصف متخثر في صورة كتلٍ وشرائط طويلة قاتمة الحمرة، ووضع سمير كفّيه تحت أنفه ليملأهما بالدم، ثم أخذ يهيل دمه على رأسه وصدره، حينما بدأ الناس في رجمه بكلّ ما طالته أيديهم.

لم أفهم قطّ إن كان هذا انتحارًا أم لا.

لكنّ فريدة لم يؤلمها إلّا ما حدث له في النهاية، قالت إنّ من مثله لا يستحقّ أن يموت تحت الحجارة والزجاجات الفارغة والأحذية المهترئة. أصيبت فريدة إصابات كثيرة وهي تحاول إنقاذه، كانت تحمله وتمشي لدقيقة ثم تتعب فتنزل جسده وتسحبه على الأرض، والناس يغيبون ليجمعوا أيّ شيء قابل للقذف ثم يعودون ليرجموهما به. لم تستغرق الرحلة من ميدان العباسية وحتّى المستشفى سوى دقائق، لكنّها كانت كافية لوضع الولد على شفا الموت تحت وطأة الضربات العديدة.

لم تعلن فريدة عن رغبتها في ترك المستشفى إلا بعد تلك الحادثة بمدّة طويلة، وأنا لم أتوقّع منها ذلك قطّ، كانت تخدعني برقصها المستمرّ على موسيقى في أذنيها فقط. وكنتُ هائمًا في كلّ ما حولي أحاول فهم ما يحدث حقًّا، وأجرِّدُ تصرّفات الآخرين من إنسانيّتها فلا يبقى إلا نوعٌ خاصّ ومميّز من العذاب لكلّ إنسان.

وعندما أخبرتني فريدة أنّها تودّ العودة للدعارة فكَّرت أنا في العودة إلى الداخلية، كمال الأسيوطي أصبح مساعدًا لوزير الداخلية لشؤون الأمن العام، الرجل الثاني في الوزارة، ولا بدّ أنّه سيذكرني وسيشغِّلني في موقع مريح، ربّما سيمنحني بندقية لأقنص الناس مرّة أخرى من فوق المباني العالية. أنا ضابط سابق وأذهب كلّ شهر إلى البنك لأسحب معاشي من حسابي الشخصي. والمال الذي يأتيني من المعلومات المتسرِّبة يفيض عن حاجتي. لأوّل مرّة أفهم كيف أنّ بعض الناس يستغنون عن كلّ شيء، ولا يسعون إلا لما يسدّ جوعهم في ما يظنّونه دنيا فانية، ترفّعًا منهم عن

مطامعها راغبين في خلود أخروي، هل يعلم هؤلاء؟ عودتي للداخلية ستكون مفيدة؛ سأضمن روتينًا يوميًّا سينسيني ما يحدث، سيبعدني عن مكعّبات الجليد التي تذوب بين أصابعي كلّ يوم. مزيد من الإثارة بالتأكيد، وربّما مزيد من القتل الذي اشتقت له كثيرًا. أودّ أن أخلق وهمًا أعيش فيه كما تفعل فريدة وكما يفعل الناس.

لكنّ الأطباء أظهروا غباءً مطلق عندما دخلت فريدة مصابة والدماء تغطّيها وهي تسحب الولد من ذراعيه عبر بوّابة المستشفى. نقلوه فورًا إلى غرفة الطوارئ، وفعلوا كلّ ما بوسعهم كي يحافظوا عليه حيًّا، أوقفوا النزيف ووضعوا إبرًا في ذراعه ومجسّات على صدره، يضخّون في عروقه محاليل وأدوية ويحصون ضربات قلبه. تركت فريدة كلّ شيء ورفضت مساعدة الزملاء لها، وقعدت في غرفة الطوارئ إلى جانب سمير تنتظر ما سيحدث. قالت لي إنّها كانت تشعر بخطأ ما يفعلونه، الولد أراد أن يموت وهم يريدونه أن يبقى بأيّ ثمن، وفكّرت في خطئها عندما دافعت عنه وأعادته إلى المستشفى. تابعت بأسى توقف نبضه وضخ عقاقير في جسده، تابعت توقف مخّه وتوصيل جسد الولد بجهاز التنفّس الصناعي. تابعت المحاولات الصارمة من أطبّاء بوجوه حجرية خشنة لإبقاء القلب في حالة طبيعية. كان جسدُ سمير قد تضاءل كثيرًا، وبدا وسط الأجهزة والأنابيب وأصوات الرنين وكأنّه ليس من هذا العالم. قالت لي إنّه بدا كائنًا آخر وليس إنسانًا وتمنّت لو أنّ أحد الأطباء يرى ذلك مثلها ويرفع الأجهزة عنه ويتركه ميّتًا دون أن يحطّم ما تبقى منه، قالت إنّ وجوههم كانت حجرية وكانوا لا يفكّرون.

مرَّ الولد دون سلام، عانى كثيرًا جرَّاء إصرار الأطباء على إبقائه معهم، وقالت فريدة إنّها تذكّرت لهوه في الحديقة وخطواته القليلة في كلّ اتجاه، بدا لها أنّه يحاول إيجاد مخرج من دنيانا ولم يجده، لكنّه مرَّ أخيرًا وترك لهم جسده ليعبثوا به وليفتحوا صدره وجمجمته، وليفحصوا قلبه الساكن ومخّه الذي قالوا إنّه سبب العلّة. هل توصّلوا إلى شيء؟

قالت إنّهم فشلوا في إيجاد سبب للمرض، وبالغوا في السخافة فأعلنوا أنّ ما يحدث ليس مرضًا، فقط لمجرَّد أنّهم لم يجدوا له سببًا. ومع ذلك استمرّوا في متابعة الحالات الموجودة داخل المستشفى، وتوصّلوا لأماكن فيها عدّة حالات خارجها، وعندما لم يجدوا استجابة من وزارة الصحّة طلبوا من أطبّاء المستشفى زيارة الحالات تلك وتسجيل كلّ ما يتعلّق بها من ملاحظات؛ طريقة التعايش مع الحالة، وإن كانت قد انتقلت لشخصٍ آخر أم لا، ومدّة الإصابة بها. كانت هذه آخر مهمّة لفريدة في المستشفى؛ زيارة لإحدى الحالات في البيت. هل هذا عذاب آخر لها؟

كيف حالكِ يا فريدة؟ نحن في الجحيم نعذَّبُ وسؤالي ليس استهزاءً بكِ، لكنّي أعلم أنّ القادم أسوأ وأنّ عذابكِ لم ينتهِ. أه لو تعلمين أنّنا نعذَّب فتطمئنّين قليلًا.

15

في البداية رفضتُ الدخول إلى الفيلا، لكن فريدة أصرَّت أن أرافقها، قالت إنّني أتيت حتّى البوّابة ولا معنى لبقائي في الشارع.

كانت فريدة قلِقَة جدًّا، لم تذهب قطّ إلى بيت أحد المرضى من قبل، وقالت إنّ لقاء حالة تعايشت مع المرض خمسةَ عشرَ عامًا سيكون أمرًا ثقيلًا عليها.

كنت أظنّ أنّ فريدة أقوى من كلّ مَن عرفتهم، لكنّها ضعفت فجأة، كانت قد انتهت من ترتيب كلّ شيء، ستطلب إجازة دون مرتّب من وزارة الصحّة، وقيل لها إنّ الإجازة سيُوافَق عليها دون أيّ اعتراضات. كان الأمرُ سهلًا، لكنّ آخر مهمّة لم تكن سهلة. قلت لها إنّها تستطيع الاعتذار عنها، وخلال الشهر الأخير ستروح للعمل كالمعتاد من دون أيّ زيارات خارجية. لكنّها قالت إنّها لا تودّ الاعتذار، هي تريد الذهاب إلى الحالة، ستزورها مرّة أو مرّتين لكنّ الزيارة ثقيلة.

قلتُ لها إنّي سآتي معها، فلتقل إنّي زوجها أو رفيقها، أو طبيب زميل أو حتّى ممرّض، لن أخفّف من وطأة الزيارة بالطبع، لكنّي سأكون موجودًا وربّما ساعدها هذا. لم تتردَّد ووافقت فورًا، وبدا لي أنّها كانت ستطلب منّي المجيء إن لم أعرضه عليها.

الشارع ضيقٌ لا تمرُّ السيّارات فيه إلّا نادرًا على الرغم من السيّارات المصطفّة على الجانبين، هناك فيلات صغيرة جدًّا متلاصقة، وحديقة صغيرة أمام كلّ فيلا، وصلنا إلى الفيلا بعدما سألتُ المارّة عن الشارع، وتردّدت فريدة لحظةً قبل أن تضغط زرّ الجرس قرب البوّابة الحديد. أمسكتُ أحد أسياخ البوّابة فوجدته ساخنًا بفعل الشمس، وشعرت فجأةً بالعرق المتجمّع على جبيني وحاجبَي، رأيتُ فريدة تخطو خطوتين نحو الشارع ثم تدور وتخطو خطوتين نحو البوّابة، قدمها السمراء حافية في الحذاء المسطّح، وتخيّلتُ لو أنّها خطت حافية على الأسفلت الساخن، كانت ستتقافز وهي تنفخ كأنّ الأرض تحرق باطن قدميها. لكنّها الآنَ متوتّرة وهي على البوّابة تنتظر القادم ليفتح. رأيتُ ظلّ القادم، ورأيتُ الذراع يمتدّ من خلف البوّابة ليفتحَ مصراعًا بسيطًا، ثم رأينا وجه امرأة عجوز، تدور في حلقتها السابعة. ابتسمت ورحّبت وطلبت منّا الدخول، مشينا في الحديقة المهملة، تظلّلنا شجرات عالية تبدو وكأنّها أقدم من المبنى نفسه.

للفيلا مدخلان، واحد في الأعلى يرتقي المرء بضع درجات حتّى يصل إليه، وآخر في الأسفل نزلنا درجتين حجريتين حتّى وصلنا إليه، ودلفنا إلى قاعة فسيحة منخفضة السقف، أليفة كأنّها بيت جد. وأوّل ما لفت نظري كان الجسد القاعد صغيرًا أبيض البشرة في الركن البعيد.

حكت لي فريدة كثيرًا عمّن أصابهم المرض، كيف أُغلقت عيونهم وأفواههم، ورأيت عدّة صور في الصحف، لكنّي لم أرَ قطّ واحدًا منهم قاعدًا أمامي. كانت بشرة الفتاة تغطّي جمجمتها الصلعاء بالكامل، لا

معالم على الإطلاق. وكلّ ما يمكن أن يُميَّز من وجهها فتحتا أنف صغيرتان وداكنتان قليلًا، كانت توجّه وجهها بعيدًا عنًّا حينما دخلنا إلى القاعة، توقّفنا قليلًا ربّما من فرط الرهبة واحترامًا للصمت الذي عمَّ المكان. لكنّ التفاتة الفتاة إلينا أرعبتنا. كلّ ما رأيناه رأسها وهو يدور ببطء وكأنّها تمسح القاعة بعينيها الغائبتين، إلى أن استقرّ مواجِهًا لنا بهدوء.

دعتنا السيّدة للتقدّم نحو الفتاة، جلسَت هي إلى جانبها وجلستُ وفريدة أمامها، تعلَّقت عيناي بوجهها المحايد، تمثال أو مانيكان في فاترينة محلّ ملابس، وعندما كان رأسها يتحرَّك ببطء كنت أتوقّف عن التنفّس، وسألتُ نفسي مرارًا كيف تعيش، وما سبب وجودها في الجحيم معنا؟

قالت السيّدة إنّها ستنقل كلام زهرة إلينا، هي تعيش معها منذ سنوات طويلة، وتستطيع نقل الكلام منها وإليها بسهولة، وما علينا إلا سؤالها وانتظار الإجابة. ثم مدَّت كفّها نحو حجر الفتاة وأراحتها عليه، أمسكت الفتاة بالكفّ وبخفَّة وضعت أناملها في راحتها، وأخذت تحرك أناملها في باطن الكفّ وكأنّها تدغدها.

قالتِ السيّدة: «زهرة ترحب بكما، تقول إنّ هذه الطريقة في الكلام قد تبدو غريبة، لكنّها لا تتكلّم منذ سنوات طويلة، وأنا أساعدها منذ أن صمتت. زهرة تقول إنّها على استعداد لتلقّي الأسئلة كافة، ربّما تستطيعان من خلال الإجابات والفحص الوصول إلى علاج لحالتها».

كانتِ الفتاة تضغط برقّة على راحة السيّدة، بأربعة أصابع ترسم الحروف، أو ربّما ترسم المشاعر والإيماءات والآراء والتعبيرات.

قالتِ السيّدة: «تودّ زهرة أن تتعرَّف إليكما».

لم أجد ما أقوله، أتيت مرافقًا فريدةَ ولم أظنّ أنّي سأتورّط في موقف كهذا، وصدمة لقاء الفتاة أكثر من أيّ كلمات. لكنّ فريدة قالت: «أنا الدكتورة فريدة، اتصلتُ بكِ منذ يومين كي نحدِّد ميعادًا للقاء، وهذا أحمد صديقي».

بدلتا الوضع، أصبحت راحة الفتاة مفتوحة، وأنامل السيّدة تضغط برفق عليها، ثم عادتا إلى الوضع الأوّل، كتبتِ الفتاة كلامًا كثيرًا، وفي لحظة ما بدأت السيّدة في الكلام دون أن تتوقّف الفتاة عن الكتابة: «بدأت الأعراض منذ خمسةَ عشرَ عامًا، لا أذكر إلّا جولاتٍ عديدةً على المستشفيات في محاولة للعلاج، لكنّها لم تؤدِّ إلى شيء، أبي وعمتي كانا كذلك أيضًا، أصيبا بالأعراض نفسها عندما كانا في العشرينات من عمريهما، أنا الآن في الحاديةَ والعشرين، أبي مات قبل إصابتي بالأعراض مباشرة، وعمّتي ماتت منذ أربع سنوات، والآن أعيش مع طنط فوزية ولا أعرف أحدًا غيرها».

كانت تبدو في العاشرة، ضئيلة جدًّا وشاحبة، كما يليق بطفلة نحيلة وليس بفتاة بالغة. لا أكاد أرى تفاصيل جسدها المختبئ داخل ملابس فضفاضة، وللحظة نسيت الجحيم وعذابه، كانت زهرة خلاصة الأسى في هذا الجحيم.

سألتها فريدة عن أشياء كثيرة، ولم أسمع أيًّا من الأسئلة، كنتُ أحدّق في الجسد الرهيف والكفّ فراشية الخفّة، وأحاول أن أفهم نظام اللمسات الرقيقة التي تتابعها على راحة السيّدة. كانت اللمسات تزداد سرعة أحيانًا، أو تعود لتصبح بطيئة حانية، قد تبتعد أناملها عن راحة السيّدة لتلمس أطراف أصابعها، تلاقت الأنامل كثيرًا ولم تتعانق، ثم ابتعدت إلى باطن الكفّ وهي لا تزال تخفق، ثم تراجعت حتّى الرسغ، ومسَّت الساعد بنعومة حريرية، انزلقت ثانية واحدة وتركته لتستقرَّ في حجر الفتاة، كانت كفُّها وأناملها كائنًا آخر يتبعها، له روح مستقلّة لكنّه لا يستطيع تركها وحيدة. من يتجرَّأ ويتركها دون رفقة؟ وكلّما مرَّت دقيقة عليَّ وأنا أمامها ازداد قربها منّي، كانت تأسرني ببطء لا يمكن مقاومته، لا يمكن الفكاك منه، لا لأنّي لا أستطيع، بل لأنّي لا أريد أن أتركها. إذا كان هناك مَن هو أقرب من فريدة إليَّ فهي بالتأكيد زهرة القاعدة أمامي. ورغبت فجأة في أن تمسح أناملَها وجهي.

تناولت السيّدة حقيبة تحوي أوراقًا كثيرة، أعطتها لفريدة وقالت إنّها تحوي نتائج التحاليل وأسماء الأدوية والأطباء وصورًا من كلّ مسح لجسد زهرة خلال السنوات السابقة، قالت إنّها أعدَّت هذه النسخة خصّيصًا لفريدة، وإنّ عليها أن تجد علاجًا لحالتها. قالت إنّ زهرة فقدتِ الأمل منذ مدّة، لكنّها تأمل في ألّا ينتشر المرض وسط الناس، وهي على استعداد لاستقبال فريدة في أيّ وقت.

كنت أشعر بها، كانت جسدًا بلا روح، تسأل ولا تستمع للإجابات، على حافّة بكاء مرير كالذي رأيته منذ شهور في شارع شريف. لم تكن مرتبكة لكنّها مستسلمة تمامًا، تقول: «نعم» و «حاضر» بآليّة دون أن تفكّر. أين الفراشة التي قابلتها تصعد السلم في بيت الدعارة؟.

استمرّ الحديث بين الثلاثة، وتوقّعت أن تستأذنني فريدة كي تجسّ نبض زهرة أو تضع السمّاعة على صدرها. لكنّ العكس حدث؛ طلبت منها السيّدة أن تكشف عليها، تعرَّضت لآلام في الخصر اليوم صباحًا ولا تعلم ما سببها. قامت السيّدة واستأذنتني، وقامت فريدة مشدوهة لا تفكّر، اتجهتا نحو باب في جانب القاعة ودلفتا عبره ليظهر درج يصعد إلى الطابق الأوّل. قالت فريدة إنّها لن تغيب كثيرًا وطلبت السيّدة أن أنتظر مع الفتاة فلا يمكن أن تُترك وحيدة. وفكّرتُ أنّي متورِّطٌ معها دون فائدة، فلن أساعدها إذا ما أصابها مكروه، لكن ماذا قد يصيبها أكثر من كلّ هذا؟

تضاءلَت جدًّا، وكأنّ غياب السيّدة أظهر حجمها الحقيقي، رأسها بحجم حبّة جوز الهند لكنّها ملساء متّصلة برقبتها النحيلة. صامتة لكنّي أعلم أنّ الأفكار تتصارع في رأسها.

بهدوءٍ مدَّت كفّها نحوي، راحتها نحو السماء وأصابعها نحيلة جدًّا وأظافرها شفّافة وردية، انتظرتُ ولا أعلم ما عليَّ فعله، لكنّ المطلوب كان واضحًا، مددتُ كفّي نحوها واحتويتها بالكامل، عصفور صغير هادئ في راحة يدي. هل ستقول شيئًا بأصابعها، ستتكلّم باللغة التي لا أفهمها؟

لكنّ ما جاء لم يكن كلامًا، لم تقل زهرة شيئًا، لم أسمعها تنطق. لكنّها تحدثَت معي دون كلام. تحدّثت بكلام خفيّ لا يُسمع لكنّي فهمته تمامًا، كان واضحًا في رأسي لا في أذني. لو أنّ البشر يتبادلون الوحي لكان هذا وحيًا:

«أعلم أنّ هذا صعب...».

سحبت يدي بغتة ووقفتُ فزعًا، كهرباء أصابتني دون أن أتوّقع، لم يكن صوتًا ما جاء في عقلي، بل كلمات أوضح من أيّ صوت، حتّى ما أتاني تحت الكرة الحديد لم يكن بهذا الوضوح. وظننتُ أنّ الحديث يأتي من داخلي، لكنّه أتى منها دون شكّ. هذه المرّة، وحينما كنتُ واقفًا أمامها أقاوم الارتجاف، تحدّثت دون أن تلمسني:

«هذه أوّل مرّة يحدِّثك أحدهم بهذه الطريقة، والأمر مفزع بالتأكيد، لكنّك رأيت فزعًا كثيرًا يا أحمد، أنت لم تكن لتعلم أنّنا في الجحيم لولا الفزع الذي أصابك. هذا أصل الجحيم وأوّله وآخره، فزع يعلو فوق فزع».

تجمَّدتُ تمامًا، كنتُ تمثالًا من حجر في تلك اللحظة.

«أنت تكتمُ العلم لأنّ عليك أن تكتمَه، لا يعلم أحد ما يحدث ويقوله أبدًا، لكنّك توقَّفت عن أداء مهمَّتك ويجب عليك أن تعود، لا تتألّم لما يصيب الناس فهو عدل، وأنت أداة الرحمة. لِمَ تركتَ سلاحك وكففتَ عن القتل؟».

ماذا أفعل، هل أصرخ لأتخلّص ممّا يأكل عقلي؟ هل أهرب إلى خارج الفيلا؟

«أنت اخترقت الستار وعلمت أنّنا في الجحيم. ويبدو أنّك لم تعلم كلّ شيء، انقطع الوحي ولهذا سبب وحكمة لا أعلمهما الآن، لكن عليك أن تعود لتقتل الناس. أنت لا تعلم بعدُ مقدار أهمّيّتك، لا يستقيم هذا الجحيم دون وجودك».

كنتُ لا أزال واقفًا أحاول الخلاص ممّا يحدث، لكنّي انهرتُ قاعدًا على الكرسي مستسلمًا تمامًا.

«يظنّ الناس أنّ الجحيم مكان، لكنّهم مخطئون، نحن في زمان طويل متّصل، مضى منه الكثير ولم يتبقَّ إلا القليل جدًّا، القليل إلى درجة أنّني سأراه وستراه ينتهي. وبعد ذلك سيبدأ جحيم آخر ليُعذَّب الناس فيه، هؤلاء الخالدون هنا لن يخرجوا أبدًا، هؤلاء لن تقتلهم أنت ولن يحترقوا بالنار ولن يموتوا غرقًا، لن يخرجوا من جحيمنا هذا إلّا إلى جحيم آخر».

وبعد التجمُّد ارتخت عضلاتي تمامًا، كنت شبه نائم، كتفاي متهدلتان ويداي في حجري لا أستطيع تحريكهما. كنت أعي حديثها تمامًا وأرتعد فزعًا.

«لكنّ مَن تقتلهم أنت يذهبون دون طريق أو رحلة، ولا عوائق من أيّ نوع، فقط يختفي جحيمنا هذا ليجدَ كلّ واحد نفسه في الجنّة. أنت ترسل الناس إلى الجنّة».

كما قالت، فزع يعلو فوق فزع.

«لكنّك توقَّفت وهذا لا يجوز، انقطعت وأنت تعلم أنّنا في الجحيم، بينما زملاؤك لا يزالون نشيطين وأكثرهم لا يعلمون. أنا انقطعت عن جحيمكم هذا منذ سنوات طويلة، ولم أتعلم قطّ كلماتكم، ولا أعلم كيف تصفون أنفسكم. لكنّك الرحمة لكلّ من تقتله، زملاؤك رحمة لكلّ مَن قتلوهم وسيقتلونهم قريبًا».

ازداد ارتخائي، وأسندت رأسي على ظهر الكرسي مستسلمًا تمامًا، وسال لعابي دون أن أعيَ، شعرت به دافئًا على جلد وجهي البارد.

«أنا هنا لأعلمك وأعلم آخرين بما يحدث، أنا معكم في الجحيم، واحدة منكم، رأيتُ عذابي حاضرًا أكادُ ألمسه، تخيّل ألا أذكر إلا عذابي، لا صور ولا أصوات إلا ما رأيته وسمعته وأنا أُعذَّب. كلّ هذا يشغل عقلي ولا شيء غيره. لكنّي أعلم أنّ ما يحدث الآن مفزع كما يليق بجحيم يوشك على الانتهاء، أشمّ رائحته في يأس الناس الكامل، تمامًا كما شممتُ رائحتك عندما دخلت المكان، أنت يائسٌ تمامًا وهذا جيّد، تخيّل أنّي لم

أعد أشمّ رائحة الرجاء منذ مدّة طويلة، وأقول أكلُّ هؤلاء يعلمون أنّنا في الجحيم؟».

مالت رأسي إلى الجانب، كان جسدي ثقيلًا وكأني ميت، وببطء أخذتُ أفقد الوعي.

«أعلمُ أنّك تتألم لعلمك هذا، تكتمه وتخاف أن تنقله إلى أحد، لكنّ علمك خاصّ بك ولا يمكن أن تنقله إلى أحد حتّى فريدة، ما تعلمه يعلمه الكثيرون مثلك، علموه بالطريقة نفسها ولأسباب مختلفة، لكن لا أحد ينطق به أبدًا، حتى أنا لن أنطق به إن استطعت. فاطمئن وارضَ بما يحدث».



صحوتُ على كفّ فريدة تهزّ كتفي، واستعدت فورًا كلّ ما حدثتني به زهرة، لكنّ فريدة كانت تنظر إليَّ نظرة لائمة، سألتني كيف نمتُ وهي لم تغب أكثر من عشر دقائق، كيف نمتُ في بيت غرباء على كرسي؟ ووهلةً بدا كلّ ما أتاني من حديث زهرة خيالًا، كانت فريدة تؤنّبني لأنّني لم ألتزم بالأصول وآداب الضيف. قمت من مكاني صامتًا أفكّر في حديث زهرة، راضٍ بكلّ شيء.

في الخارج بدت فريدة وكأنّها ودَّعت الطبّ إلى الأبد، قالت إنّها ستعود إلى المستشفى غدًا لتترك لزملائها الملفَّ الطبِّي الخاصّ بزهرة، وتذهب لتبتاعَ ملابس جديدة من أجلِ العودة إلى الدعارة.

في آخر الشارع الضيّق رأيت رجلًا أسمر اللون يتحدَّث بحماسة مع بائعة خضار، كان يرفع ما تبقّى من ذراعه الأيمن المقطوع عند المرفق، يسنده إلى كفّه الأيسر، ويقول للبائعة إنّها ظلمت البنت عندما وافقت على تلك الزيجة.

وقفنا معًا في انتظار تاكسي. كان الشارع خاليًا إلّا قليلًا من المارّة والسيّارات العابرة، وفي الفراغ بين السيّارتين المصطَّفتَين أمامنا رأيتُ ثلاث قططٍ. قطّة صغيرة لا تعي ما يحدث أمامها، وأخرى كبيرة تتحرَّك

حركة محمومة، والثالثة بينهما بفم مفتوح على آخره وتشنّجات تصيب جسدها كلّ ثوانٍ، كانت تحتضر.

أخذت القطة الصغيرة تلعق فروها وهي لا تلتفت للمحتضرة، بينما كانت الكبيرة تلعق رأس المحتضرة بسرعة بالغة لا تتناسب مع جلال الموت، بحثتُ عن آثار إصابة أو دماء على جسد القطّة المحتضرة لكنّي لم أرَ شيئًا، ونظرتُ بطرف عيني إلى فريدة، لم أودّ أن ترى ما أراه الآن، لكنّها كانت تنظر في اتجاه السيّارات القادمة في انتظار التاكسي. ولمّا عاودت النظر إلى القطط كانت الكبيرة تدور حول المحتضرة، تعبر فوق جسدها ثم تعاود لعقَه، وعندما انتفضَت بشدّة فتحت الكبيرة فمها وعضّت على رأسها بالكامل، وأخذت تُدخل الرأس في فمها أكثر وأكثر. كانت المحتضرة ترتجف وعنقها ينحني ورأسها يغيب في فم القطّة الكبيرة، لكنّها اختنقت وأخرجت الرأس من فمها وهي تسعل. سكنت المحتضرة قليلًا ثم عادت للارتجاف مرَّة أخرى. توقّف التاكسي أمامي ليحجب القطط الثلاث.

كنتُ جالسًا في المقعد الخلفي أحاول النظر إلى القطّة الكبيرة وهي تحاول وضع رأس المحتضرة مرّة أخرى في فمها، هذه المرّة دخل بالكامل في تجويف الفم، وبدا أنّها تختنق لكنّها لم تفلته، كانت المحتضرة ترتجف رجفة الخلاص، والكبيرة جامدة كتمثال، والصغيرة لا زالت تلعق جسدها.

16

هناك شعورٌ بالحياد يشغلني، ربّما أبالغ في وصفه، فهو ليس شعورًا، لكنّي أذكر أنّي كنتُ يائسًا ثم أقلعتُ عن اليأس ذاته.

اتصلتُ بكلّ مَن أعرفهم باحثًا عن مسدس، كلّهم أبلغني استحالة العثور على سلاح الآن، الشرطة نفسُها تعاني من قلّة السلاح والذخيرة، ما تركه فرسان مالطا استولى عليه الجيش بالكامل ولم يتركوا طلقة أو قطعة

سلاح لغيرهم، وقيل لي إنّ ضبّاط الداخلية يحملون مقاريط بلدية الصنع بدلًا من المسدّسات. طيّب، فلأبحث عن مقروطة إذن.

لو أنّي أجيد استخدام المُدى والسكاكين لما تردَّدت، الحصول عليها أسهلُ كثيرًا من الأسلحة النارية وتعقيداتها. لا ذخيرة ولا تنظيف ولا رصاصة عالقة في الماسورة ولا خشية من انفلات رصاصة دون قصد أو انفجار في حجيرة الضغط. كل ما يلزمني ذراع قوية ومعرفة بأماكن الأعضاء الحيوية داخل الجسم.

تتأخَّر فريدة كلّ يومٍ فلا تعود قبل الثانية صباحًا، تعود متعبة جدًّا وما تلبث أن تنام نومًا عميقًا، لا أكلّمها قبل أن تنام على الرغم من ملاطفتها لي، بل ربّما نهرتها على غير عادتي إذا ما كرَّرت محاولات التقرُّب منّي، لا أستطيع أن ألمسها وهي مكربنة، ما الفائدة في دقائق من المتعة لن تتذكّرها؟

لذلك صرت أنزل لأمشيَ في الشوارع ليلًا قبل أن تعود ولا أرجع إلى البيت إلا إذا تأكّدتُ أنّها نائمة.

منذ عدّة أيّام مررتُ على أحد كنَّاسي الشوارع، كان يعمل ببطء بالغ، لا يكنس شيئًا وإنّما يمرّر مكنستَه على الأرض الخالية من أيّ تراب. بدا وكأنّه ينتظر أحدًا أو يستمرّ في علمه ليرضيَ واحدًا يراقبه. صرخت فيه بعنف لكنّه لم يتحرّك، وعندما لكمت ظهره التفت لي بوجه محايد بارد، ثم عاد إلى كنس الأرض وأدار لي ظهره. وعندما أخذت مِكنسته الضخمة ورميتها بعيدًا ذهب واستردّها، ثم عاد إلى المكان نفسه، أمامي، يكنس الأرض وكأنّه يتحدّاني.

العصا الخشبية كانت رفيقة به كثيرًا، كانت ترتدّ بشدّة كلّما ضربت رأسه بها، الحديد أثقل وأصلب وبالتالي أكثر فعّالية، اضطررتُ لضربه مرّات كثيرة حتّى تسطّحت جمجمته تمامًا، كان هذا مرهقًا جدًّا، مئة ضربة أو أكثر، وما آلم يدي كانت الضربات الطائشة حيث ترتطم العصا بالأسفلت، ارتدادها آلمني جدًّا. حينها فكّرتُ أنّ ثلاث رصاصات أو أربع، أو حتّى

رصاصة واحدة في الرأس، أفضل كثيرًا من مئة ضربة بالعصا، أسرع.

وتذكّرتُ البندقية التي خبّأتها قرب البرج، لكنّ هذه لن تنفع، الماسورة الطويلة جدًّا لن تكون مفيدة أبدًا، ولا أودّ أن أعود فأقنص الناس، الأمر ليس عشوائيًّا كما كان من قبل، اليوم عليَّ أن أختار مَن أرسلهم إلى الجنّة، لكن كيف أختار؟ هل هناك قائمةٌ ما أو معرفة حدسيّة بمَن يستحقّ الرحمة؟ عليَّ ألا أعقّد الأمور أكثر ممّا يجب.

اليوم اضطررتُ لأخذ كيس بلاستيك من يد سيّدة خمسينية، كان كيسًا كبيرًا يحوي طماطم وخيارًا، أفرغت محتوياتِه على الأرض، في البداية صرخَت عندما أخذتُ الكيس منها، صرخة صغيرة تلاشت على الفور. أحطت رأسها بالكيس محاولًا خنقها، كان الوضع صعبًا جدًّا، وعلى الرغم من هدوئي ومطالبتي إيّاها بالهدوء إلّا إنّها لم تهدأ قطّ، حتّى حينما قلت لها إنّنا في الجحيم، وإنّي أعلم أنّها تعلم. هدأت للحظة ثم ثارت، وأخذت تثرثر بكلام لم أفهم منه الكثير، كانت تطلب منّي الانتظار ساعة. ماذا؟ ساعة! أقول ستذهبين إلى الجنّة وتقولين انتظر ساعة؟!، تجاهلت طلبها تمامًا، ورفعتُ الكيس عن رأسها ولم أجد بديلًا من وضع أصابعي في فمها ونزع فكها السفلي. نزع الفكّ ليس صعبًا كما يبدو، القليل من الخلخلة يمينًا ويسارًا، ثم عدّة جذبات عنيفة إلى الأسفل، ثم خلخلة مرّة أخرى أعنف من المرّة الأولى، سينهار العظم تمامًا ولن تتبقى إلا الأربطة والجلد واللحم، وتمزيق كلّ هذا سهل. انفصل فكّها تمامًا حينما سقطت هي إلى الأمام. وحاولتُ التخلّص من فكّها الدامي لكن أسنانها كانت قد انغرست عميقة في باطن كفي.

أخيرًا وبعد محاولات عديدة اتصل بي القدِّيس. حدّثته بشوق واضح، كنتُ سعيدًا حقًّا وتذكّرتُ أنّي لم أر إنسانًا أعرفه سوى فريدة منذ شهور طويلة، صحيح أنّي لا أعرف القدِّيس جيّدًا، لكنّ ما بيننا كبير على الرغم من ذلك. علم القدِّيس أنّي أبحث عن سلاح من صديق مشترك، أحد الضبّاط في الداخلية، قال إنّه استطاع الحصول على مسدس بيريتا جديدة تمامًا،

وعلبتي ذخيرة 9 ملم. وربّما كان هذا أسعد خبر أسمعه في الجحيم على الإطلاق، حتّى عندما كنتُ ضابطًا كان من الصعب أن أحصل على بيريتا، يا قدّيس أنت قدّيس حقًّا، ولأنّه كذلك طلب منّي مقايضة البيريتا والذخيرة بكيلو كربون. أنت يا قدّيس؟ أنت لا تستطيع الحصول على كربون؟

والتقينا عند تقاطع شارعي الجلاء و 26 يوليو، كنت واقفًا على الرصيف أنتظره، وهو مرّ بسيّارة قديمة وناولني لفافة المسدّس وعلبتَي الذخيرة، وناولته لفافة الكربون دون كلام. ونظر إلى وجهي ثانية قبل أن نضحك معًا. ثم نزل من سيّارته واحتضنني. يا قدّيس أين نحنُ من أيّام الجهل الجميل.

قال لي إنّ المقايضة أفضل شيء الآن، البلد في انهيار مستمرّ لكن لا تضخُّم ولا قيمة للشرموط، ولمَّا سألته مَن يعني بالشرموط ردّ: «الجنيه!». وضحكت على تشبيهه.

لكنّ المقابلة لم تكن لتنتهيَ ببساطة هكذا، القدِّيس لم يسألني لمَ أردتُ المسدّس، والمقايضة ظالمة له جدّا، كيلو الكربون أرخص بكثير من بيريتا جديدة كهذه.

كنتُ جالسًا في سيّارته أختبر البيريتا وأحشو مخزنها بالرصاص حينما سألته: «متى قامت القيامة يا قدّيس؟».

لم يدُر في ذهني أنّي سأسأله سؤالًا كهذا، لم أتخيّل أنّني سأتجرّأ وأعلن عن علمي أمام أيّ شخص. كان القدِّيس يعبث بكيس الكربون فتوقّف عن الحركة ثوانٍ، ثم أغلق الكيس ومدّ يده فوضعه تحت كرسيِّ السيارة. وقال: «سأحصل على مسدّس آخرَ بعد يومين، هذه المرّة سيكون هديّة منّي، اقتصد في الرصاصات ولا تطلقها عشوائيًّا أبدًا، واعذرني لأنّي يجب أن أتحرَّك الآن».

نزلتُ من السيّارة وقد ملأت مخزنين بالرصاص، كانت البيريتا في خاصرتي بين البنطال وملابسي الداخلية، وضعي المفضّل الذي يوحي بإهمال شديد. أدار القدِّيس مُحرِّك السيّارة واستند إلى الكرسيِّ المجاور

له ومدَّ رأسه حتّى يراني، ثم قال: «ولا أحد يعلم متى قامت القيامة».



كانت البيريتا قطعة جميلة حقًّا، أمريكية وليست إيطالية كما أخبرني القدِّيس. كان قد رحل بعيدًا عنّي في سيارته قديمة، ودون أن أتحرّك من مكاني أنزلت زر الأمان وأطلقت الرصاصات كلّها على المارّة. صرخوا قليلًا وبكى بعضُهم وهرول آخرون، لكن الباقين استمرّوا في مشيهم الكئيب، بينما سقط الكثيرون يتقلّبون ويئنّون، قتلت القليل فقط لأنّي لم أصوّب نحو الصدور والرؤوس. استبدلت المخزن المليء بالفارغ وهذه المرّة مشيت حتّى شارع رمسيس وأطلقتُ رصاصتين أو ثلاث على كلّ مَن قابلته، هذه المرّة كنت أصوّب على الناس لكنّي كنتُ متسرعًا فأخطأت كثيرًا. لكنّي بعد ذلك تعقّلتُ وأخذت أصوّب على الأعين من مسافة قريبة.

كنتُ أسير دون وجهة محدَّدة، لا أخفي المسدّس وأمشي مشهرًا إيّاه في وجوه الجميع، حتّى إذا ما رأيتُ مَن أودّ قتله اعترضت طريقه وأنا أهدِّده كي يتوقّف عن المشي، ثم أرفع البيريتا وأطلق النار على عينه مباشرة. لا مجال للخطأ في هذه الحالة، الطلقة لن تنحرف مطلقًا كما قد يحدث عندما تصطدم بالجمجمة من الخارج، بل ستخترق كرة العين والعظم النحيل خلفها، وستستمرّ منطلقة لتخترقَ المخَّ وعظم الجمجمة الخلفي. وبالطبع ستكون فتحة خروج الرصاصة كبيرة فيتناثر منها المخّ، وبعد كلّ ذلك فاحتمالات بقاء المصاب على قيد الحياة معدومة تمامًا. لكنّ كلّ هذا له ثمن، يجب عليَّ أن أقف في وضع مستقيم أمام الهدف، أن أجعله يخافني ويتسمَّر مكانه ثانية واحدة.

أنهيتُ علبتَي الرصاص قبل أن أصل إلى البيت، مئة رصاصة ولم أقتل إلا أقلّ من أربعين واحدًا، ليست هذه كفاءتي المعتادة وعليَّ أن أكون أكثر حرصًا بعد ذلك، كنتُ أسير في شارع الأزهر وأنا أعلم أنّ عليَّ قتل هذا وهذه، لكنّي كنت أترك الجميع ليمضيَ في طريقه دون اعتراض، وقبل البيت بمئة متر لم أتمكّن من المقاومة، قتلت اثنين ضربًا بالبيريتا، ثقبتُ

جمجمة الأوّل بفوّهة البيريتا، وفقأتُ عين الثاني بالطريقة نفسها، خفت أن تتعطَّل البيريتا بسبب الصدمات الكثيرة، لكنّي كنت في حاجة إلى قتلهما.

عدتُ وفريدة نائمة، وألحّت عليَّ أعظم فكرة على الإطلاق، أن أقتل زهرة الآن، حالًا دون إبطاء. لكنّها بدت فكرة شيطانية تمامًا، لا تتوافق مع واحد يرسل الناس إلى الجنّة مثلي. أنا لا أرسلهم إلى الجنّة لأنّي أودّ ذلك، بل لأنّ ميعادهم قد حان.

لكنّي لم أنم، كنت قلقاً من نفاد الذخيرة، عدتُ فاتّصلتُ القدّيس طالبًا منه أيّ كمّية من الذخيرة هذه المرّة، سمعت ضحكته عالية وهو يسألني إن كنتُ قد أطلقت المئة رصاصة حقًّا أم أنّي أضعتُ بعضها، وقال لي ألّا أخشى قلّة الذخيرة، وألا أخشى شيئًا على الإطلاق، لكنّه طلب منّي أن أنتظرَ يومين فقط، سيقابلني ومعه مسدّس آخر وكمّية كبيرة من الذخيرة. هذه المرّة شيء أفضل من البيريتا، جلوك بحالة ممتازة.

كلمات القدِّيس رنَّت في أذني، هو لا يعلم متى قامت القيامة لكنّ طريقته هذه توحي بأنّها قامت منذ مدّة، وماذا إن كانت القيامة قد قامت قبل آلاف السنين؟ هذه مصيبة فعلًا! تاريخنا كلّه وهمٌ مختلق، كلّ هؤلاء الأنبياء والرسل، كلّ الحروب والدول والثقافات، كلّ هذه اللأفكار وكلّ الكلمات، كلّ الكائنات نشأت في الجحيم!

وربّما كانت الدنيا مختلفة تمامًا عمّا نعيشه اليوم؛ هل عشنا على كوكب آخر وفي عوالم أخرى؟ هل كنّا بشرًا أم أنّ أجسامنا هي الأخرى عذاب لا ندركه؟

17

اكتشفتُ أنّ السكين تحتفظ بالبرودة عدّة دقائق، أطول بقليل من فترة ذوبان مكعب الجليد. صرت أضع عدّة سكاكين في الثلاجة، وأخرجها لأضغط بها راحتي حتّى تحرقني برودتها، ثم أنقل السكّين إلى وجنتِي وخدِّي، وإلى جبهتي ورقبتي. ثم أدور بها على كلّ جسدي، الصدر

والذراع والإبط والبطن والفخذ. وأضعها تحت خصيتي لأشعر ببرودتها وقد شارفت على الزوال، ولأشعر بنصلها يكاد يشقّ اللحم الحسّاس. بعد عدّة مرّات جرحتُ قدمي عن عمد، لم يسل أيّ دم، ولمّا عمَّقت الجرح أكثر لم أرَ دمًا أيضًا، وظهر اللحم أزرق داكنًا.

تركتُ السكين والجرح، وأرسلتُ رسالة إلى فريدة «هل اللحم البشري أزرق؟ كنتُ أظنّه ورديًا أو أحمر». وتركت التليفون لأتأمّلَ الجرح مرّة أخرى. بعد ثوانٍ قليلة جاءني ردها: «بالطبع هو أزرق وداكن أيضًا، مَن قال لك إنّه أحمر؟». يبدو أنّ فريدة غيرُ مشغولة الآن.

أرسلتُ لها: «هل أنتِ فاضية؟ هل عندك زبائن اليوم؟».

«زبونان لطيفان، أحدهما قذف قبل أن يمسَّني».

هناك تنوّعٌ في الجحيم حقًّا! لا يزال هناك مبتدؤون، أرسلتُ: «زبائن آخر زمن!».

أرسلت: «ربّما سأتأخّر اليوم، سأسهر مع البنات».

بنات؟ «بنات يا وسخة؟».

«هاهاها هذه ليست طريقة كلام ضابط محترم!».

كنتُ قد نسيتُ أنّي ضابط منذ مدّة. كلّ سنوات العمل أصبحت بلا معنى، وشهور البرج كذلك سقطت من الذاكرة، كلّ ما فعلته صار بلا أهمّية وكأنّه لم يكن، وحاولتُ تذكُّر آخرَ مرّة شغلت نفسي بما يخصّ الشأن العامّ لكنّي كنت قد نسيت كلّ هذا. انتخب الناسُ الكثير من العسكريين وضبّاط الشرطة في البرلمان والبرلمان الآخر، والآنَ يفكّرون في تكوين برلمان ثالث، لا لشيء سوى ضمّ المزيد من الضبّاط إليه، الأكيد أنّ هناك الكثير من الناس يتصارعون على كومة الخراء في الخارج. كلّ يمسكُ ملعقة من ذهب ويزاحم الآخرين راغبًا في قطعة صغيرة.

كنتُ قد مللتُ عمل الشرطة سريعًا، سنتان فقط وذهب كلّ الحماس، والعمل في المقاومة انتهى عندما نزلتُ من البرج، وما تلا ذلك لم يكن إلا أداءً للواجب، أمّا ما أفعلُه الآن فهو ما أنا هنا من أجله. الآن أودُّ لو لا

أنام في الأيّام المقبلة أبدًا، أودُّ لو أنّي امتلكت ذخيرة لا تنتهي وأسلحة لا حصر لها، لهذا أنا هنا في الجحيم، مهمّتي الأولى إخراج الناس من الجحيم بقتلهم. قمتُ بذلك عندما كنتُ شرطيًّا، وقمت به عندما كنتُ في المقاومة، والآن أقوم به بكلّ حماسة، ويبدو أنّ هذه الحماسة ستستمرُّ مدّة طويلة، إن استمرَّ الجحيم.

لكنّ الجحيم خالد، أعلم هذا تمامًا، وسينتهي هذا الجحيم ليبدأ جحيم آخر. ربّما كان سابقًا على هذا وقد يكون تاليًا له وقد يكون هو ذاته، قد نعيش الأحداث ذاتها مرّة ثانية وثالثة ورابعة، هكذا تُحرق جلودنا ثم تُبدَّل بجلود أخرى، والآن يخرج بعضهم إلى الجنّة وآخرون لن يخرجوا من الأصل بل سيعودون من فورهم إلى الجحيم. مَن سيخرجني من هنا؟

كيف أعلمُ كلّ هذا؟

هل كنتُ نخّاسًا في الدنيا، مدير أحد بيوت الدعارة، قاضيًا، قاتلًا مأجورًا، إرهابيًّا متطرِّفًا؟

ولم أشمُت إلا في هؤلاء الذين يفجِّرون أنفسَهم طمعًا في الجنّة! هؤلاء الذين زايدوا على الناس كلّهم وادَّعوا أنّهم يعملون من أجل حياة أفضل وعالم أكثر عدلًا. وفكّرتُ أنّهم قد يكونون على حقّ، فلا أحد يعلم ما يحدث حتمًا، قد يكونون في طريقهم للجنَّة بالفعل وأنا لا أعلم.

القدِّيس يعلم الكثير، سأقابله بعد يومين وعليَّ أن أسأله عن كلّ شيء.

فريدة تحمل الجلوك الآن كلّما ذهبت إلى العمل، تعلَّمت بسرعة وأصبح المسدّس مطمئنًا لها، والحق أني أيضًا كنتُ مطمئنًا، لم أدرِّبها إلّا على إطلاق النار في الهواء خوفًا من أن تقتل أحدًا. صوت الرصاص كفيل بإبعاد الناس. وقُلت لها إن رأيتِ واحدًا من ذوي الصدور العارية فلتطلِقي النار عليه فورًا، هؤلاء سيُقتلون وسيعودون للجحيم مرَّة أخرى بالتأكيد. فريدة لا يمكنها المقاومة، وحمايتها، وإن كنّا في الجحيم، أهمّ عندي من حياتهم. لكنّي لن أقتل واحدًا منهم أبدًا، هؤلاء إمّا زبانية أو مثلي يرسلون الناس إلى الجنّة، هؤلاء أهمّ من أن يُقتلوا.

منذ أيّام قليلة كنتُ في باب اللوق، مشيتُ قرابة الفجر دون هدف، لم أرغب في قتل أحد في ذلك اليوم لكنّي حملتُ البيريتا معي، بعض الناس نزلوا مبكِّرًا إلى أعمالهم، هؤلاء أراهم بشعور مصفَّفة وملابس مكوية ونظيفة، وآخرون مشَوا بتثاقل عائدين إلى بيوتهم، بوجوه مرهقة ناظرين إلى الأرض أو مستريحين على مقاعد المقاهي الساهرة يشربون آخر مشروبات اليوم. أو يهرولون بتعب ليلحقوا بآخر ميكروباص. تشعّبتِ الشوارع تحت قدمي حتّى وصلتُ إلى عابدين، وحاولتُ العودة إلى ذلك الشارع حيثُ اجتمعت بقادة المقاومة للمرّة الأولى والأخيرة. لكنّي لم أصل قطّ.

فكَّرتُ أنّ سيري لا يجب أن يكون بلا هدف، وتذكَّرتُ أنّ هناك معملَ كربون في آخر شارع عبد العزيز فوق سطح أحد العمارات، أعرف المكان منذ مدّة وأعرف صاحبه، لم أتقاضَ منه إلّا القليل مقابل ما أسديته من خِدمات، ولم آخذ منه أيَّ كربون دون أن أدفع ثمنه. وسيعطيني ما تحتاجه فريدة من كربون دون أن أدفعه ثمنه فورًا، سيقبل تأخير عدَّة أيام وربما عدة أسابيع، سأقول له إنّي سأدفع لاحقًا ولن يعترض. لكن لا لاحقَ الآن، أعرف أن النهاية اقتربت جدًّا.

على إحدى النواصي استقرَّت عربة فول مبكّرة جدًّا، ارتدى صاحب العربة ملابس العمل واستعدّ للزبائن الذين لن يأتوا قبل ساعة من الآن، كان يتمتم بما لا أسمع، ربّما بأدعية أو ابتهالات، متفائل كما يجدر بأيّ أحمق، يحصِّن نفسَه بالتضرّع وسط كلّ ما يحدث، يقلِّب الفول في القدر بالمغرفة الطويلة اليد، وينظر إلى أطباق الطعمية والبطاطس والطرشي المرصوصة على العربة، يتأكّد من امتلائها وحسن هيئتها، ينظر إلى الأطباق الصغيرة الفارغة إلى جانبه متفحِّصًا مقدار نظافتها، ثم يتّصل بعجلة بمورِّد الخبز ليطلب منه ألّا يتأخَّر كالبارحة، ويلمس زجاجات الزيت لمسات خفيفة رشيقة، يطمئنّ على امتلائها ويتأكّد من وضعها الصحيح، ثم يترك كلّ هذا ليعود فيتمتمُ وهو خاشع. هذا واحد جدير بالحياة في الجحيم حقًّا، إذا

كنتُ أقتل من يعلمون ما نحن فيه كي يذهبوا للجنّة، إذا كنتُ رحمة حقًّا ولستُ عذابًا، إذا كنتُ مهِمًّا إلى هذه الدرجة، فعليَّ أن أتركه ليحيا.

كنتُ أمشي نحو معمل الكربون عندما سمعتُ ضوضاء تأتي من خلفي، التفتُّ فرأيتُ مجموعةً من الصراصير. كالمعتاد يرتدي كلّ منهم بنطالًا فقط ويغطّون رؤوسهم بأوراق الجرائد. بسرعة وصلوا إلى الرجل وعربته وصخبهم يزداد ويعلو في صمت الفجر.

لم يعابثوه بل حطّموا الأطباق وقذفوا محتوياتِها في الهواء من فورهم، أخرجوا قِدرَ الفول الضخم وأراقوا ما في دخله على الأرض، لم يضربوا الرجل الذي صرخ فيهم كثيرًا، لكنّه عندما أمسك سكينه الكبيرة بيد مرتشعة تحلّقوا حوله وأخذوا يتحرَّشون به. لم يكن اعتداؤهم صريحًا بل مجرَّد قرصات وغمزات في كلّ أنحاء جسده، ثم تطوَّر الأمر فضربوه بقوّة على قفاه، كان يدور في الدائرة التي كوَّنوها حوله محاولًا ردّ الاعتداءات أو الهرب من أسرهم، وعندما بدأ ينزف تحرَّكتُ نحوهم، لم أكن لأترك هذا الرجل يموت أبدًا.

صحت فيهم وشتمتهم، رافعًا البيريتا في وجوههم أهدّدهم بإطلاق النار، وعندما اقتربتُ ذخَّرتُ المسدس فأثارهم صوت المعدِن يصطدم بالمعدِن، فتركوا الرجل واتّجهوا نحوي وأجسادهم توحي بالشرِّ، كانت هذه أوّل مواجهة مع أشخاص منذ مدّة طويلة، وأوّل مواجهة مع مقنَّعين على الإطلاق، عرفت حينها معنى ألا ترى انفعالات مهاجمك. أطلقت النار عليهم واحدًا تلوَ الآخر، كان كلّما سقط واحد منهم، استمرّ الباقون في المشي بخطوات واثقة مسرعة، وتركتُ رصاصة للخامس الذي استمرّ ماشيًا بثقة لا تصدَّق حتّى أصبح على بعد متر واحد منّي، استلّ مدية من جيبه ورفع ذراعه ليضربَني بها، لكنّي أطلقت النار على رأسه.

كان رجل الفول غاضبًا جدًّا، يصيح ويسألني لم فعلت ذلك. مشي منفعلًا ووصل إليَّ وهو يؤنّبني ويشتمُني، ثم أمسك بالمسدّس وهو لا يزال في يدي وألصق فُوّهته في جبهته وقال: «اضربني». راح يشتمني

وانفعاله يزداد وهو يكرِّر: «اضربني!». ثم ترك المسدّس وبكى بمرارة لم أتوقّعها، لم أفهم كلماتِه المتلعثمة وهو يبكي ويتحشرج، تحوّل وجهه من الغضب إلى الحزن في لحظة واحدة. ووسط بكائه فهمت أنّه كان يريد أن يموت لينتهيَ كلُّ شيء.

تركته يبكي ومشيتُ في طريقي، كان من الممكن أن أقتله وينتهي كلّ شيء فعلًا، لكنّي عدلتُ عن الفكرة فورًا، هذا واحدٌ يحاول التأقلم مع ما حوله، الرجل يعلم أنّنا في الجحيم بالتأكيد لكن لا يزال عنده بقيّة من أمل، يهتمّ بعمله ويحاول أن يتقنَه حتّى وإن كان يبيع الفول، يدافع عن عربته وفوله ويرفع السكين ليمثّل دور المتشبِّث بالحياة، هذا ما يسمّونه فصامًا؟ بل وفوق كلّ هذا يخرج مبكّرًا طلبًا للرزق! لقد أدهشت الزبانية يا معلّم! وعليك أن تحيا في الوهم إلى أن تموت ميتة طبيعية، لن يقتلك أحد لتغادرَ وهمَك الجميل. أكثر ما أحزنني هو قتلي الخمسة ذوي الجرائد، هؤلاء مجموعة من زبانية هذا العالم، أحد أسباب الفزع الذي يعلو فوق الفزع، وقتلهم خسارة بالتأكيد.

كنتُ نادمًا حقًّا، لم تكن رصاصاتي نيرانًا صديقة وإنّما تعمَّدتُ قتلهم، وفكَّرتُ في المكسب الهائل الذي حصل عليه الجحيم عندما أنقذتُ رجل الفول، وقارنتُ المكسب هذا بخسارة الشباب فوجدتُ الموقف كلَّه رابحًا.

ربّما عليَّ أن أتخيَّر أهدافي بدقّة بعد ذلك، لا يقودني سوى الحدس واستسلام القتلى، وربّما كان استسلامهم هذا سببًا في تخليصهم ممّا نحن فيه.

18

فريدة نزلَت منذ ساعة، وعليَّ أن أنزل الآنَ لأعمل أنا أيضًا، أعددتُ البيريتا وملأتُ مشطين بالذخيرة، وأخذت علبتَي ذخيرة استعدادًا لحماس مفاجئ قد ينتابني هذه الليلة. حينما رنَّ تليفوني.

سمعت صوتًا لم أميِّزه: «عطارد؟». لكنّه بدا مألوفًا كثيرًا، ولمَّا أجبته بنعم لم يضيع وقتًا في المناورات، قال حازمًا: «أنا كمال الأسيوطي».



بدا أنّ وجه السيّد اللواء قد أصبح أقلَّ إرهاقًا، صارت بشرته أنعم وزال الشحوب عنها، بل وزاد وزنه قليلًا، مساعد الوزير لشؤون الأمن العام منصبٌ مريحٌ ومهمٌّ أيضًا. لا يخرج صاحبه من الوزارة إلّا نادرًا، لا يحمل سلاحًا وإنّما يحمل الآخرون سلاحًا لحمايته، يستطيع الوصول إلى تفاصيل أيّة قضية في دقائق بفضل فريق من المساعدين والتابعين، ودائمًا هناك ملفّاتٌ تخصّ القضايا الساخنة على مكتبه.

تمّ تعيين كمال الأسيوطي مساعدًا لوزير الداخلية في حكومة خليفة صدقي الأولى بعد الجلاء، ثم تمَّ تغيير وزير الداخلية في حكومة صدقي الثانية وبقيَ الأسيوطي في منصبه، ثم تمّ انتخاب المشير رئيسًا، وتمّ تغيير الوزير ومعظم الوزارة في حكومة صدقي الثالثة، وأيضًا بقيَ الأسيوطي في منصبه. لا يحتاج الأمرُ لعبقري أو خبير بما يحدث خلف ستائر الحكومة؛ الأسيوطي هو الوزير الحقيقي والجالس في مكتب الوزير ما هو إلّا واجهة. الاثنان مستريحان لهذا الوضع، سيادة الوزير يفضِّل المرتّب الضخم والمعاش المتماسك والحراسة الحريصة والموكب الفخم والبريق الإعلامي. بينما يكتفي المساعد بما هو أقلّ ممّا سبق قليلًا لكن مع سلطات لا حدّ لها. إن أصاب، فالمجدُ كلُّه للوزير، وإن أخطأ، فالوزيرُ هو مَن سيتهمُّ بالتقصير. وهو ما أظنُّ أنّه لا يزعج الأسيوطي.

لم يكفّ الرجل عن الابتسام منذ أن دخلت غرفته، رحَّب بي كثيرًا وترك مكتبه ليجلس بجانبي في أريحيّة لم أتوقّعها، لم أرَ الرجل إلّا مرّة واحدة عندما كلَّفني بمهمّة القتل الأخيرة، ومع ذلك كان ودودًا جدًّا.

بالطبع كنت أتوقّع سؤاله.

قال: «أين أنت الآن يا صاحبي، ماذا تفعل؟». بدا وكأنّه لا يعرف بالفعل ما أفعل، لم تكن صيغة السؤال تحمل لومًا على الإطلاق.

قلت: «لا شيء، أعيش مع صديقة والبركة في معاش الداخلية».
وبدا أنّ الإجابة لم ترضِه، قال: «هل أنت مرتاح؟ هذه ليست حياة مناسبة لرجل خدم الوطن واشترك في مقاومة المحتلّ، أنت تستحقّ أكثر من ذلك كثيرًا».
بمنطقه الدنيوي الوطني هذا أكيد، لكن ما الداعي لكلّ هذا وأنا أعلم؟
تابع وهو يبتسم: «أنا أريدك أن تعود للداخلية، أريد واحدًا يعتمد عليه مثلك، كلّ فرد يحترم الأوامر وينفّذها بدقّة ضروري لعودة الأمن للبلد. وحتّى إن كنت تريد عملًا خفيفًا دون مشاكل أو واجبات كثيرة فهذا متوفّر، إذا تعبت أو مللت أو لم تكن لديك الرغبة في العمل فدعنا على الأقلّ نوفّر لك مكانًا محترمًا ومرتبًا كبيرًا».
لم أجد ردًّا مناسبًا، كنتُ صامتًا ولمّا وجدني هكذا تضايق. الرجل حقًّا يهتمّ لأمري ويودّ إرضائي بأيّ شكل.
قال: «أعرف أنّ وضعك معقّد، صديقتك تعمل في مهنة مشروعة لكنّها ليست مفضّلة لدى الكثيرات، أعرف أيضًا أنّك تتوسَّط في صفقات كثيرة تتعلّق بتجارة الكربون، والحقيقة أنّي لن أستطيع أن أغضّ الطرف عن الموضوع الثاني طويلًا، قد تتورَّط في قضية ولا أستطيع مساعدتك وهذا ما لا أحبّه. بالطبع لن نتعمّد ذلك، لن يقوم ضابط بسجن زميل أبدًا وأنت تعلم هذا حتمًا، لكن ألا تظنّ أنّ هذه نهاية سيّئة لضابط ممتاز؟».
سؤال، يجب أن أردّ عليه حتّى لو لم تكن هناك إجابة ذات قيمة. لكن كيف أجيب مَن يحدِّثني عن الدنيا ووهمها؟
لمّا وجدني صامتًا أكمل: «لا أعرف ما الذي ضايقك حقًّا، أظنّ أنّك قد تجاوزت حكاية الصدمة، أنت قتلت الكثيرين من أجل مصر، وكنتُ أظنّ أنّ مَن قتلتهم في العتبة قد أثّروا فيك كثيرًا، قلتُ لنفسي إنّ الرجل قد خرج إلى الأبد ولن يعود إلينا. أنا أتفهّم تمامًا أن يحدث لك هذا، قد ينظر أيّ منّا للقتل على أنّه عمل إجرامي، حتّى أنا قد أتبدَّل غدًا وأترك منصبي هذا وأعود إلى البيت. لهذا لم أطلب الحديث إليك ولم ألمكَ على رحيلك.

لكنّ ما أثار تعجّبي ما فعلته خلال الأسابيع السابقة».

وأخيرًا وصلنا إلى الموضوع المهمّ.

استمرَّ: «كنّا نقتل الناس قبل الجلاء تنفيذًا لخطّة كبيرة، ولا بدّ أنّك رأيت أنّها نجحت بالفعل. لكنّ قتلك للناس مؤخّرًا لا معنى له، لا سبب له، ولا أفهم أبدًا لم تقوم بهذا».

هذه ورطة حقيقية! لم أتيتُ إلى هنا؟ كان بإمكاني تجاهل دعوته والهرب إلى مكان آخر.

تابع وهو يتساءل بصدق: «هل فقدت عقلك يا صاحبي؟ الاحتلال انتهى وأنت تقتل أشخاصًا من دون أيّ هدف، وأصبحت تقتل الناس عشوائيًّا دون نظام، والأدهى أنّك تفعل ذلك في الشارع لا متخفّيًا كما يجدر بقنّاص محترف. هل أفقدتك شهوة القتل عقلك؟ أخبرني يا عطارد ماذا حدث؟».

عطارد. لم أسمع الاسم من مدّة طويلة. طال صمتي، سيقتنع سيادة اللواء بجنوني فلا تفسير آخر لما أفعل، ولا سبب عنده لصمتي هذا. مهمَّتي ستصبح أكثر صعوبة وربّما مستحيلة بعد هذه المقابلة، أنا أمثّل سرطانًا في الشارع ينتشر ليقتل الكثيرين دون رحمة، ويجب على الداخلية استئصال هذا السرطان بأسرع طريقة.

لم يكن هناك معنى للإنكار، إن أنكرتُ، فسيغضب اللواء حتمًا وسيتّهمني بالغباء. لكن هل من مفرٍّ أمام أسئلته؟ هل أقول له إنّني في مهمّة كما كنت في مهمّات سابقة؟

حينها فقط، عندما كنتُ جالسًا في مكتب اللّواء كمال الأسيوطي المكيَّف الهواء، بدا كلُّ شيء مفهومًا.

كلام زهرة الذي لم أفهمه بالكامل صار واضحًا، كلّنا في مهمّة لإرسال الناس إلى الجنّة، أنا والقدّيس والأسيوطي وباقي الزملاء في الداخلية. كلّنا رحمة لمَن يعذّبون هنا. والمأساة أنّهم لا يعلمون، والمأساة الأكبر أنّي أعلم كلّ هذا.

تذكّرت الرسالة التي وصلتني يوم الشهداء، وسألته: «من الذي كتب الأمر الذي أتاني في يوم الشهداء؟».

انزعج الرجل كثيرًا، كان هذا تغييرًا المسار الحديث يوحي بعدم اهتمامي بما يقوله، سؤال عن تفصيل صغير لا أهمّية له بالنسبة لسيادة اللواء. لكنّ مَن أرسل هذه الصيغة إليَّ كان يعلم حتمًا.

ردّ وهو متغضِّن الجبهة: «ما هذا السؤال؟ أنت تعلم أنّنا لم نكن ضبّاطًا حينها، وكنّا نتبع طرقًا معقّدة لإرسال الأوامر إلى أعضاء المقاومة، هل تذكر أصلًا كيف جاءك الأمر؟».

قلت: «أكيد، جاءني رجل يلبس قناعًا على شكل رأس حصان، وأعطاني ورقةً مكتوبٌ فيها «في الساعة السابعة أرسِلوا الناس إلى الجنّة» ولا شيء آخر سوى كلمتَي تيرينج والعتبة».

قال: «هذه ليست صيغة الأوامر وأنت تعرف ذلك، لكنّ التوقيت والمكان صحيحان تمامًا، أنتَ وجدت السلاح والذخيرة هناك وأتممت المهمّة بنجاح».

صمت قليلًا، ثم قال: «القدِّيس كان المسؤول عن نشر الأوامر، وما قلته يتماشى مع خفّة دمه، ربّما أيضًا قصد ألّا يقع في مشكلة إن قُبض عليه فاستخدم شفرة لإيصال المعلومة... لكنّ الجملة مفهومة والشفرة فاشلة...».

القدِّيس! وهذا ما يفسِّر الأمر برمّته!

تابع: «لا أفهم كيف حدث ذلك، لكنّه حدث وانتهى الأمر، والنتيجة تراها الآن يا عزيزي، لقد استعدنا البلد وتمّ طرد المحتلّ».

انفعل وتقدّم إلى طرف الكرسي، أمال جذعه نحوي وهو يرفع حاجبيه وقال: «نحن نحاول إعادة بناء مصر، نصلح أعطال الدولة المصرية خلال السنوات السابقة، هذه الأعطال ليست وليدة سنوات الاحتلال فقط، بل وليدة عقود من الارتجال وقلّة التخطيط والفشل المتكرِّر وتصحيح الأخطاء بأخطاء أعنف. لا حلّ إلا بتشديد العقوبات وتسريع زمن التقاضي

للحفاظ على أمن الدولة، وهذا ما قمنا به خلال الشهور الأخيرة، العدالة البطيئة مميتة والدولة أشرفت على الموت لأسباب كثيرة. نحن نضغط على كلّ الأفراد هنا كي نؤمِّن الدولة بالكامل، سنكفّ قريبًا عن تعليق المجرمين في الأقسام لأنّنا لا نرى القانون رادعًا لهم، لأنّنا نعرف أنّ هناك العديدَ من الثغرات تمكّنهم من الإفلات دائمًا، ولأنّنا نعرف نزق القضاة وجهلهم وغباءهم المطلق، سننسى كلّ هذا لأنّ المشرِّعين والقضاة أدركوا أخيرًا أن لّا حلَّ لإحياء مصر سوى بتشديد القبضة وتسريع المحاكمات وفرض أحكام قاسية وتطبيقها بقسوة أشدّ. سنحافظ على علنية أحكام الإعدام كي نردع الناس، سنبتكر طرقًا أخرى للإعدام كي يرتعب كلّ مَن يفكّر في القيام بجريمة، لو كان لفرسان مالطا فعل خيِّر لهذه الدولة فهو جعل الإعدامات علنية. هل تريدنا دولة عشوائية كالدول الإفريقية يا عطارد؟ ألا تريد أن تسود مصر ونصبح أمّ الدنيا بل وأكبر من الدنيا؟ إذا كنت تريد ذلك فكفّ عمّا تفعل وعد إلينا».

راودتني رغبةٌ عارمةٌ في التصفيق لخطبة الباشا، كنتُ على الحافّة ولا أعلم كيف لم أسخر من كلّ الخراء الذي قاله للتوّ. دولة يا عبيط؟

تابع بهدوء: «كما قلتُ لك، استعدنا البلد ولا وقت للاسترخاء، بل الآن وقت العمل يا عطارد، ولا معنى لما تفعله الآن بعدما قمت بواجبك يوم الشهداء على أكمل وجه».

قلت: «لكنّ الناس لم يثوروا، المحتلّ رحل دون ثورة...».

قاطعني بحدّة: «كفى! فرسان مالطا خافوا حمّام الدم، لم يتخيّلوا أنّنا قد نفعل ذلك أبدًا، الجنود والضبّاط قدّموا طلبات لقادتهم يعلنون فيها أنّهم يطلبون الرحيل عن البلد المجنون هذا، في النهاية كان لعملك أكبر تأثير على فرسان مالطا».

قلت له بحرص وقد تبقّى له مقدار صغير من الاحترام في نفسي: «أنت لم تسمعني يا باشا، أقول لك إنّ الناس لم يهربوا من رصاصاتي، بل تقبّلوا القتل بصدر رَحبٍ، كنتُ أطلق النار على المارّة فلا يهربون يا فندم،

وأدركتُ بعد ذلك أنّهم كانوا يتعمَّدون الوقوف في مرمى النار كي أقتلهم».

أشاح بكفّه وقال: «هذه تهيُّؤات، أنت تتوهَّم ذلك، كيف لواحد أن يرغب في الموت بهذه الطريقة؟ أو أن يرغب في الموت أصلًا؟». صمت ثانية، ثم رفع عينيه إلى النافذة حيث أتى النور قويًّا «إلّا إذا كان يهرب من عذاب ما؟».

وذُهلتُ لحظةً، لا بدّ أنّه يعلم أيضًا لكنّه لا يستطيع البوح. كمال الأسيوطي يعلم! وهذه فرصتي للردِّ عليه.

قلتُ: «ربّما كانوا يهربون من عذاب لا نعلمه، من غلاء الأسعار أو الحياة المقرفة أو الاحتلال ذاته، أو ربّما يهربون من عذاب أكبر من كلّ هذا. ربّما أنا وأنت نهرب من هذا العذاب أيضًا ونحن لا ندري، نهرب منه عن طريق البقاء في غرفة مكيّفة الهواء، أو عن طريق الإمساك بمكعّبات الثلج».

هل كانت كلماتي حمقاء أم أنّه يعلم حقًّا، أظهر وجهه الخشبي، دون تعابير أو انفعالات، فوجئ بكلامي وتلميحي، والآن عليَّ أن أضرب الضربة الأخيرة وأنهي الحوار تمامًا.

«يا سيادة اللّواء، نحن في الجحيم وأنت تعلم ذلك، وما أفعله حاليًا ليس إلا جزءًا من مهمّتنا جميعًا، من مهمّتك ومهمّة كلّ مَن يعمل في هذا المبنى، نحن نرسل الناس للجنّة حقًا، ولا معنى لتقيدي أو إيقافي عن العمل. كلّ ما هنالك أنّي أعمل بعيدًا عن الملابس الرسمية والأوامر، والحقيقة أنّي أؤدّي عملي هذا بكفاءة تامّة، ربّما أكثر كفاءة ممّا سبق».

قضي الأمر.

كان من الممكن أن يقول أشياء كثيرة، أن يردّ ردودًا كاذبة عديدة وأن يتلوَّى وأن يناور، لكنّه لم يفعل كلّ هذا. صمت طويلًا، لم يكن لديّ شيء لأقوله، لم يكن لديه شيء ليقولَه، انتهى الكلام حقًّا. ولم يعد هناك معنى للاعتذار عن حدَّتي أو للاستئذان أو حتّى لإكمال الاجتماع.

قمت من مكاني ومشيتُ نحو الباب. ولحظة توقّفت أمامه ممسكًا

بالمِقبض في انتظار أيّ كلمة منه، ونظرت خلفي لأجده جالسًا في مكانه، مطرق الرأس يسند مرفقَيه إلى ركبته ويشبِّك أصابعه.

فتحتُ الباب وخرجت.



مشيت في تلك الردهات كثيرًا قبل سنوات، هناك رهبة تسيطر على كلّ ضابط شابّ يدخل مبنى الوزارة. مشيتُ الآن والرهبة لا تزال حاضرة، لكنّها لم تكن رهبة المكان العظيم الحافظ لهيبة الداخلية ونفوذها، لم يكنِ المزيج من الفخر بالانتماء إلى هذا المكان الشجاع والخوف من المسؤولية الضخمة الملقاة على الظهر، هذا المزيج يتضاءل إلى أن يتلاشى في منتصف العمر، أو في منتصف سلّم الترقيّات، ويكادُ يكون هزليًّا في نهايته. لكنّها كانت رهبة الجهل على الرغم من كلّ ما علمته.

كنتُ أتساءلُ إن كان الماشون معي وحولي وعساكر الحراسة والضبّاط معذَّبين أم جلّادين، هل هؤلاء زبانية جهنمّ أم أنّهم ملائكة الرحمة، هل هم خليطٌ من كلّ هذا، أم أنّ تلك المسمّيات والألقاب والوظائف خيالية لا وجود لها، ربّما فهمنا للجحيم محدود للغاية، هل هؤلاء خالدون هنا أم أنّهم سينتقلون إلى الجنّة في وقتٍ ما، والسؤال الذي كان يطلّ ليحيّرني، ثم أخذ يطلّ ليسخر منّي؛ هل هؤلاء يعلمون؟ لكنّ الأسئلة لا تنتهي أبدًا وإن أجبتُ عنها. كلّ إجابة خاطئة وإن بدت صحيحة، وبدا لي أنّ كلّ ما يشغلني جزء من عذابي لا أستطيع الفرار منه.

كان المكان مكيّفًا جيّدًا، باردًا جدًّا. ونزلت الدرج مع أنّي أستطيع استخدام أحدَ المصاعد. كنتُ أحاول البقاء هنا لأطول فترة ممكنة لكن دونَ أيّ سبب واضح. كان من المستحيل أن أقابل واحدًا ممّن أعرفهم هنا، المكان أوسع من أن يسمح بتلك المصادفة، لكنّي كنتُ قلقًا، لا من أسئلتهم وإلحاحهم المتوقَّع كي أعود، بل من رؤية الوهم في أعينهم، والأسوأ كما حدث مع الأسيوطي، رؤيتهم وهم يؤدّون أدوارهم في الجحيم بإخلاص.

بالتأكيد كان ما يحدث في الأقسام عذابًا بطريقة ما، كذلك حياة السجون

الكئيبة، وغرف أمن الدولة التي مات فيها الكثيرون وألقينا جثامينهم في المزابل، والآخرون الذين ضاعوا في أثناء الترحيل ولم نعرف إن كانوا قد تاهوا في ظلام أحد السجون أم أنّهم هربوا إلى النور، النور؟ لا نور في الخارج بل وهم النور. حتّى مَن غابوا عن الدفاتر والأبصار كانوا في العذاب. كيف إذن يمكن لي ولغيري أن نكون الرحمة التي تنقل الناس إلى الجنّة؟ نعذِّب الناس ثمّ نرحمهم.

استلمتُ سلاحي من على الباب، كنت أعلّقه في حزامي كما اعتدتُ عندما أشار إليَّ الصول بإبهامه وقال: «طبنجة عشرة على عشرة يا باشا».

للبيريتا سحر لا يقاوَم على كلّ مَن رآها أو أطلق النار منها.

مشيت في شارع الشيخ ريحان مبتعدًا عن الوزارة، ثم انعطفت ومشيت في شارع محمّد فريد متّجِهًا نحو شارع شريف، بعد كلامي الصريح مع الأسيوطي كنت أرى وهم الدنيا واضحًا، والجحيم قد تراجع إلى طرف الصورة. كأنّي حرَّرت نفسي من قيود الواقع بإخباري إيّاه أنّني لن أعود. ما يحدث هزلي إلى أبعد مدى؛ كيف يحرِّرنا الوهم ونحن نعيش هذه الحياة الفادحة، ألا يجدرُ بنا أن نحاول الهروب من الجحيم إلى واقع أفضل بدلًا من الهروب إلى الدنيا المتوهَّمة؟ وأحيانًا أفكّر أن ما أتاني من علم كان نقمة حقيقية، حتّى الآن لا أعلم إن كان وحيًا أم لا، كنت راقدًا على ظهري وألم خفيف يسري في أعضائي وسبابتي منمَّلة قليلًا، عندما رأيتُ وعلمتُ. ولم تمرّ عليَّ دقيقة راحة بعد ذلك، وأنا الذي ظننتُ في البداية أن هذا العلم سيخفّف عنّي العذاب، لكنّي يبدو أنّ مَن يعلمون يُعذَّبون أكثر من الآخرين، هذا العلم الحبيس في رأسي ورأس الأسيوطي، وذكريات زهرة القليلة التي تعود لتنكأ جراحًا قديمة، ورغبتنا جميعًا في الهروب من كلّ هذا، وهَوَسي بقتل الناس طوال الوقت، الذي ازداد بعد لقائي بزهرة. كلّ هذا ولا لحظة راحة. وسألتُ نفسي؛ من سينقلني إلى الجنّة؟

شارع شريف متوترٌ جدًّا، سيّارات شرطة عديدة وضبّاط كثيرون يرتدون أغطية الرأس القماشية السوداء ويحملون أسلحة آليّة، مجموعات

من ثلاثة أفراد تتجوَّل في الشارع وتبدو في حالة من التوتّر الشديد وانتظار أيّ نشاز كي يطلقون النار على الجميع. قرب بيت الدعارة الذي تعمل فيه فريدة ازدادت كثافة السلاح والأفراد، هناك جريمة حدثت للتوّ هناك بالتأكيد وهم هنا ليلقوا بالقبض على المجرم. وعلى الرغم من احتمال تعرُّض فريدة للخطر إلا أنّي كنت هادئًا جدًّا، وكأنّ لا شيء يمكن أن يحدث لها، أو كأنّ أقصى ما ستلاقيه سيكون فيه الخلاص.

حاولتُ الاتصال بها لكن تليفونها كان مغلقًا. حاولتُ الاقتراب من المبنى لكنّ أفراد الشرطة كانوا حازمين ومنعوني من التقدُّم، وكالعادة سمعتُ كلامًا متناثرًا عن جريمة قتل، وعن العاهرة التي أطلقت النار على أحد الضبّاط فقتلته فورًا، وعن آخرين قُتلوا بالطريقة نفسها في المكان نفسه. وبدا لي أنّ فريدة هي التي فعلت ذلك، ورأيتُ شخصًا يخرج من بوّابة العمارة مع عدد هائل من الضبّاط والعساكر يحيطون به من كلّ الاتجاهات إلى عربة الشرطة، لم أرَ الشخص لكنّها كانت فريدة بالتأكيد. انطلقت السيارة مسرعة ومرَّت من أمامي زرقاء تومض أضواؤها في الظلام. لكنّي لم أتوتّر ولم أهتزّ قطّ، كنتُ قد مللتُ الجحيم ومللتُ ما أفعله وربّما سعدتُ لقرب النهاية.



القضية محكمة تمامًا.

أطلقت فريدة النار على زبونين داخل غرفتها، تبيَّن بعد ذلك أنّهما ضابطي شرطة. ولسبب ما قرَّرت أن تخرج وتطلق النار على آخرين، أطلقت خمس عشرة رصاصة على ستة أشخاص فأردتهم جميعًا. ولا بدّ أنّ خفّة الجلوك وسرعته عاوناها كثيرًا في أثناء إطلاق النار. القضية محكمَة لأنّ الضابطَين كانا زبونَين دائمين، ولأنّها تشاجرت مع أحدهما منذ مدّة، ولأنّها اصطحبت الجلوك معها من البيت. لكلّ هذا اعتبرت النيابة أنّ ما حدث قتلٌ مع سبق الإصرار والترصُّد، وسجَّل السادة الضبّاط في المحضر أنّ الضابطين قُتلا في أثناء عملهما، وهذا بالتأكيد ليس صحيحًا، فأضافت النيابة إلى القضية ما يسمّونه ظرفًا مشدَّدًا.

حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة، محاضر الشرطة والتحويل للنيابة والتحويل لمحكمة الجنايات وبدء إجراءات المحاكمة، رافق كلّ هذا حملة إعلامية محمومة تطالب بمنع الدعارة وتسليح الضبّاط تسليحًا إضافيًّا. كنتُ أقابل ضبّاطًا وزملاء سابقين لأسأل عن أيّ مخرج، فيبتسمون في وجهي ويقولون إنّ القضية تضخَّمت جدًّا وتحوَّلت إلى قضية رأي عام، وربّنا يسهّل. لكن القدِّيس قال إنّ حكم الإعدام أكيد ولا مفرّ منه، وإنّه سيكون علنيًّا على مرأى ومسمع من المصريين كلّهم. تأكيدًا على سلطة القضاء وعلى قوّة قبضة الداخلية ولإثارة الفزع بين الناس. قال إنّ القضية كبيرة حقًّا ولا مهرب هذه المرَّة.

كان أغرب ما سمعت هو انعدام أيّ تعاطف مع المحكوم عليهم بالإعدام، الذين يُنفّذ فيهم الحكم في الميادين العامّة، وسمعتُ حكايات عديدة عن رجم جماعي للجثث المخوزقة والمشنوقة، وسرقات عديدة للجثث من حبال المشانق، وسحل في الشوارع وتقطيع للأعضاء يليق بجماعات همجية لا بمواطنين في دولة. لكن الدولة دعّمت كلّ ذلك، وربّما قام بالسحل والتقطيع ضبَّاط في ملابس مدنية.

قيل إنّ فريدة أطلقت الخمس عشرة رصاصة على الناس، ثم استمرَّت تضغط على الزناد وهي توجّه الجلوك نحو الموجودين في المبنى، خرجت وهي لا تزال تضغط الزناد في وجه كلّ مَن كان على الدرج، خرجت إلى الشارع وهي مستمرّة في الضغط عليه، ولمَّا أخذوا منها الجلوك عَنوةً وأسقطوها أرضًا وكسروا لها ضلعين من شدّة الضرب، كانت ترفع يمناها مستمرَّة في ثني سبّابتها وكأنّها تطلق النار من مسدّس وهمي، تمامًا كما يفعل الأطفال.

ثم ضغطت الزناد الوهمي أمام ضبّاط الشرطة في قسم قصر النيل، وأمام وكيل النيابة، وأمام السجّانين، وأمام القاضي في أوّل جلسة، وأخذت تضغطه في وجه كلّ من رآته.

وعندما حضرت الجلسة الثالثة واقتربتُ من القفص، رأيتها ترفع

قبضتها وسبّابتها متأهّبة على الزناد الوهمي، تنتظر أن تلتقيَ عيناها بعيني أيّ من الحضور. ثم أخذت تضغط زنادها في وجه الجميع. لم أكن قد رأيتها منذ أن أطلقت النار أوّل مرة على الرغم من كلّ محاولاتي. كانت نحيلة كعادتها، وجهها خالٍ من كلّ سوء، أخذت تعبث وتطلق النار عشوائيًّا على كلّ الحاضرين الذين انتبهوا للقاضي والواقفين أمامه وتجاهلوها تمامًا، إلى أن أدارت رأسها تمسح الجالسين ووصل نظرها إليَّ. ارتجفتُ لأوّل مرّة منذ مدّة طويلة، وكفَّت عن إطلاق النار وأطالت التحديق في وجهي.

كانت تبكي برقَّة، تدمع وهي تعلم أنّي لا أستطيع مساعدتها الآن. هذه المرّة لن أحملها وأخبئ وجهها بقناعي ونهرب معًا. لن يحدث هذا. ولم تطلق عليَّ النار بل ظلَّت محدّقة. خرجتُ من قاعة المحكمة ولم أكن في حاجة إلى سماع ما سيقال لاحقًا في الجلسة. كنتُ أعلم أنّ حكمًا بالإعدام سيصدر وسيُنفَّذ.

كنتُ أمشي ساعات طويلة، مرتديًا قناعي ضاربًا بمسدّسي كلّ مَن أشعر أنّه يستحقّ الذهاب للجنّة، كنتُ أؤدّي عملي بإخلاص لا مثيل له، وأنا أفكّر في مصير فريدة وما سيحدث لها قريبًا، ولم أشعر لحظة أنّها قد ظُلمت في يومٍ ما، وغمرني يقين بعدالة أبدية توجِّه مصير فريدة، وترفع عنها آثامًا لوّثتها في وقت ما، في جحيم غير جحيمنا هذا. كنتُ أودّ أن أكون قارئًا للكفّ، عالمًا بما غاب عنّي وعنها من حيوات سابقة، كيف عُذِّبت من قبل، وكم جحيمًا عاشت قبل جحيمنا هذا، وكم مرَّة اغتُصبت وكم مرَّة قُتلت وكم مرّة أهين جسدها بعد الموت، لا كي تُعذَّب بل كي تعذِّب آخرين. كنتُ أودّ أن أرى حقًّا ما فعلت في الدنيا، لا بدَّ أنّ ما فعلته أكثر رعبًا من أيّ خيال، بعدما كنتُ أراها مظلومة حتمًا وأنّ ما فعلته في الدنيا لا يستحقّ كلّ ما يحدث لها. وازداد يقيني بتلك العدالة على الرغم من كلّ ما حدث وكلّ ما سيحدث.

هل سيرى من ظلمتهم فريدة في الدنيا ما سيحدث لها، هل سينتقمون دون أن يشعرون؟ لا بدّ أنّ بعضهم هنا في الجحيم معنا، يعذّبون مثلنا

تمامًا، وربّما يقف المظلوم قاضيًا ينظر في أوراق قضيّتها ويقرأ بتمعُّن باحثًا عن القرائن والأدلّة، ربّما هو يتعذَّبُ أيضًا لأنّه يتحرَّى الدقّة ويخاف الظلم. ربّما من ظلمتهم يعذِّبونها الآن في السجن وينتقمون، أو ربّما جلّادها الذي سيقتلها كذلك. بل ربّما أكون أنا واحدًا ممّن ظلمتهم فريدة في الدنيا، أعذِّبها ولا أدري.

النسمات تمرّ باردة خفيفة، تذكّرني بحر النهار المجهد للجسد. لو أنّي أمسك مكعّب جليد الآن.

نفدت رصاصاتي كالعادة، لم أعد أحصي ما أحمله أو ما أطلقه، وودت أن أنتهيَ من مهمّتي تمامًا وأستريح، أستريح بأيّ طريقة حتّى الانتحار، فأذهب إلى جحيم آخرَ غير هذا، لألعب الدور نفسه، جلادٌ ورحمة للناس. لكنّ الجلّادين لا ينتحرون.

19

أنا على موعد مع القدِّيس، اتصل بي وطلب أن نتقابل عند قصر البارون في مصر الجديدة. اعترضتُ وقلتُ إنّ المكان بعيدٌ جدًّا ولا أجد نفعًا في اللقاء هناك، لكنّه أصرّ على ذلك وقال إنّني سأرى ما سيعجبني حتمًا.

أخبرني سائق التاكسي أنّ طريق صلاح سالم متوقّف لسببٍ ما، والسيّارات كلّها تحوّل طريقها إلى داخل مصر الجديدة. قال إنّه سيوصّلني إلى أقرب مكان من القصر وعليَّ أن أكمل الرحلة مشيًا. لم أجد ما أعترض عليه. هذه فرصة جيّدة لإطلاق بعض الرصاصات.

وصلنا إلى مشارف مصر الجديدة، هذه شوارعٍ لا أعرفها ولم أمشِ فيها إلّا قليلًا. أنا الآن خارج حدود أماكني المفضّلة والمعروفة. كأنّي عدت إلى أيّام المقاومة على الأرض حيث المهمّات غامضة وفي أماكن لا أعرفها. وعلى الرغم من كلّ شيء تذكَّرتُ كيف كنّا ننظّم اجتماعات ومقابلات للتباحُث في ما سنفعل في الأيّام التالية، وتذكَّرتُ الأسيوطي والقدِّيس وزملاء كثيرون والأسلحة وإطلاق النار الذي لا حدَّ له.

ربّما كان القدّيس هو مَن أخبر الأسيوطي بما أفعل، والرجل تحيّزًا للزمالة السابقة ولما فعلته في أثناء الاحتلال فضَّل أن يقابلني بعيدًا عن الرسميّات وأن يحافظ عليَّ بعيدًا عن الاعتقال، لكنّه بالتأكيد لم يعلم أنّي أعلم. كان صمتُه في نهاية اللقاء علامة الرضا، موافقة على الاستمرار على ما أفعل بلا قيود، لكنّي كنتُ أعرف أنّي في العراء الآن، وأنّهم إذا قبضوا عليَّ فلن يتمكّن الأسيوطي أو أيّ مخلوق من حمايتي، بل ربّما تظهر روابط بيني وبين فريدة الملقاة الآن في السجن وحكاياتها التي تملأ الجرائد. الصحفيّون لم يجدوا لها صورة قبيحة فأضافوا بقعًا داكنة إلى وجهها في صورة قديمة جميلة، وضيّقوا عينيها الواسعتين ونشروا الصورة المفبركة في كلّ الصحف وفي كلّ مواقع الأخبار على الانترنت. قد يقبضون عليَّ ويقولون إنّني أنتقم لما يحدث لها، لكن مَن يهتمّ؟ لا يعنيني شيء الآن سوى المشي في الشوارع والقتل العشوائي. والقدّيس أعرب عن قلقه عندما قال لي إنّ الداخلية متوتّرة بسبب ما أفعل، أنا أهدِّدُ السلم العامّ وأهدم منظومة الأمن. لكنّه لم يكن قلقًا لأنّي أفعل ذلك، كان يريدني حرًّا كي أقوم بمهمّتي دون عوائق.

أطلقت كلّ رصاصاتي في الكوربة، قريبًا جدًّا من قصر البارون، ودخلتُ إلى دكّان مجوهرات في الشارع العتيق وقتلت كلّ مَن في داخله. اختلط الزجاج المحطّم بالألماس ولم أعد أميِّز أيًّا منهما. وكالعادة سرتُ في عتمة الليل نحو القصر وأنا أفكّر في قتل الناس بيدي العاريتين.

كان هناك تجمهرٌ ضخمٌ أمام المكان، مئات الأشخاص مُقنَّعين بما يغطّي وجوههم بالكامل، وآخرون يغطّون أفواههم وأنوفهم بأقنعة طبية، وقلّة يرتدون أقنعة تحمي من الغاز. هل سنواجه الشرطة اليوم؟ القدّيس سيورِّطني في مصيبة في يومٍ ما. لكنّ هؤلاء ليسوا مجتمِعين كي يشتبكوا مع الشرطة، هؤلاء ارتدوا ملابس مزيحة أنيقة، ذلك النوع من الملابس الذي يرتديه المرء وهو ذاهب إلى حديقة كي يستمتع بالاستلقاء على الأعشاب. كان الجوُّ السائد احتفاليًّا، لم أكن قد عبرت شارع صلاح سالم

حينما سمعت غناء مجموعات على أنغام أعواد وجيتارات، كنتُ أمشي بين الناس ولمَّا أبلغ سور القصر والموسيقى تأتيني من كلّ اتّجاه، والغناء الجماعي يعلو مليئًا بالنشاز والحماس والضحكات.

وسعمتُ نداء القدِّيس قريبًا، ولمَّا التفتُّ رأيته مقبلًا مبتسمًا كعادته، صافحني واحتضنني دون أن أعرف سببًا لكلّ هذا، كان ودودًا جدًّا هذه المرّة، أكثر ممّا اعتدته، أتى دون قناع على وجهه لكنّه حمل قناعي غاز من المطّاط في كيس بلاستيك أسود، كانا واضحَين بسبب الحاجز البلاستيك الصُّلب الشفّاف في موضع العينَين. يظهر ناعمًا منحنيًا داخل الكيس.

كان حديثنا لاهيًا، يتكلّم هو في مواضيع عديدة غير ذات أهمّية، يتهرَّبُ من الحديث عن الجحيم كما كان يفعل طوال الأسابيع الماضية. إلى درجة أنّي ظننتُ أنّ الكلام عن الجحيم محرّمٌ وسط مَن يعلمون.

أخذ الجمع يقترب من القصر، كانوا ينضمُّون في تجمّعات صغيرة ملاصقين للسور الحديد، وظهرت، من حيثُ لا أعلم، ألواحٌ من الخشب والصاج المعرَّج وسطهم، دقُّوا عليها بحماسة وهم مستمرِّون في غنائهم المبتهج. لكن القدِّيس أخذني بعيدًا.

سرنا معًا وتركنا القصر خلفنا، سار وهو صامت ينظر إلى الأفق ويفكّر في ما أجهله. على اليمين امتدّ نفق سيّارات عريض، وفيلات كلاسيكية قد توحي بالفخامة في الدنيا، لكنّي كنتُ أراها هياكل خاوية تنظر إلينا بأعينٍ غاضبة. كنتُ قد قابلت القدِّيس عدَّة مرّات خلال الأسابيع الأخيرة وتحدّثنا كثيرًا، لكنّه لم يرد على سؤالي إلّا ونحن سائران في هذا الشارع.

قال دونَ مُقدِّمات: «لا أحدَ يعلم متى قامتِ القيامة، لكنّ الكثيرين الآن يؤمنون أنّ تاريخ البشر كلّه مكتوبٌ في الجحيم».

ربّما كانت تلك أسوأ إجابة عن ذلك السؤال، ما فكَّرتُ به من قبل كأسوأ حلّ للمشكلة، لا رجاء في الجحيم. ولم أحاول حتّى منع نفسي من الكلام، سألته: «كلّ هذا حدث في الجحيم؟ كل هذه الحيوات عاشت في الجحيم؟ كنتُ أظنّ أنّ القيامة قامت لكنّنا نسيناها من شدَّة العذاب، أو أنّنا نسيناها كي نعذَّب بوهم الدنيا».

صمت قليلًا ثم قال: «هذا صحيح، ذاكرتنا ميّتة الآن، لكن قرب النهاية سنتذكَّرُ كلّ ما عشناه من عذاب، الذاكرة هي ما يعذِّبنا حقًّا وليس ما يحدث لنا اليوم».

لم أنطق، هكذا تستقيم الأمور كلّها إذن. وفكَّرتُ مرّة أخرى أنّنا لا بدّ كنًّا في دنيا لا تشبه جحيمنا هذا، تختلفُ عن وهمنا هذا تمامًا، لا شوارع ولا مباني ولا أسوار ولا أشجار. لكنّنا لا نذكر منها مقدار لحظة، وكلّ ما نعيشه الآن جحيم تمّ تحذيرنا منه في دنيانا السابقة.

قال القدِّيس: «الحكاية كلّها مؤلمة جدًّا، لا بدّ أنّك تساءلت إن كنًّا نستحقّ هذا، وتساءلت عمًّا فعلنا في الدنيا حتّى نستحقّ أن نعيش في هذا الجحيم، ولا أعلم إن كنت قد وصلت إلى اليقين بأنّ ما يحدث عدل، إن وصلت فأحبّ أن أطمئنَك، أنت على وشك الخروج».

سأخرج! أخيرًا!

تابع القدِّيس: «لكن لا تفرح كثيرًا، ستخرج قريبًا لكن لا أحد يعلم إن كنت ستخرج إلى الجنّة أم أنّك ستعيش حياة أخرى هنا».

قلت: «هذا غيرُ مهمّ على الإطلاق، العيش في جحيم وأنا جاهل أفضل ألف مرّة من جحيم العالمين هذا، أتفهَّم الآنَ تمامًا لم ينتحر الناس..».

هذه المرّة بدا تحذيره جادًّا: «هذا أكبر خطأ قد يقع فيه المعذَّب، مَن ينتحر هنا، فلن يخرج إلى الجنّة أبدًا، سيظلّ يدور في الجُحُم ولن يخرج، المنتحر خالدٌ هنا».

قلت: «هذا أفضل يا قدّيس، ما يحدث أكثر ممّا يحتمل إنسان».

ضحك القدِّيس بصوتٍ عالٍ وقال: «أكنت تظنّ أنّ الحياة هنا ستكون سهلة؟ على الناس أن يصبروا ربّما خرجوا من هنا إلى الجنّة هذه المرَّة».

صمت قليلًا وراحت ابتسامته ثم قال: «أظنّ أنّ الناس وصلوا إلى مرحلة متقدِّمة كثيرًا».

قلت: «ماذا تقصد؟».

قال: «أقصد أنّ الضرر الذي حصل في النفوس هنا لن يزول بدخول

الجنّة، ستبقى الأرواح سقيمة إلى الأبد، لا أعلم بالضبط ما سيحدث حينها، ربّما سنتذكّر كلّ هذا وتستمرّ الذاكرة في تعذيبنا، وربّما سننساه. لكن إن نسيناه، فما جدوى كلّ ما يحدث الآن؟».

لم أجد ما أقوله، توقّف وتوقّفتُ وأتى من بعيد صوت دقّات معدِنية كثيرة، لا، لم تكن تلك دقّات معدِنية وإنّما أصوات احتكاك أقدام حافية بالأرض.

قال القدّيس: «كن حريصًا على قتل أكبر عدد ممكن يا عطارد، النهاية أصبحت قريبة جدًّا، لا تتخيّل كم هي قريبة، لا تضيّع أيَّ فرصة لقتل إنسان فالقادم أسوأ ممّا تتخيّل».

سألته: «كيف هي النهاية؟».

ازدادتِ الأصوات المقبلة نحونا، رفع رأسه محاولًا النظر بعيدًا ليرى أيّ جسم عابر، وفعلت مثله لكنّنا لم نرَ شيئًا.

قال بسرعة وهو ينظر على امتداد الشارع: «لا أعلم بالطبع، ربّما سيرى شهود النهاية ما لم يره إنسان من قبل، ربّما ستكون النهاية رفيقةً بي وبك، وربّما سنبقى في الجحيم إلى الأبد، الأكيد أنّك ترسل الناس إلى الجنّة مباشرة».

سألته: «هل سنشهد النهاية معًا؟».

قال متعجّلًا: «نعم، أنا متأكّد من أنّنا سنرى كلّ شيء حتّى اللحظة الأخيرة، ربّما لن نراه معًا لكنّنا سنراه حتمًا».

اقتربت الأصوات جدًّا، وتوتّر جسدُ القدّيس وأخذ يقفز في مكانه قفزات قصيرة متتالية، كان ينظر إلى التقاطع القريب على يسارنا، ثم نظر إليَّ وقال: «هل تستطيع الجري؟».

ظهرتِ مجموعة من الكلاب تجري بسرعة هائلة، خرجوا من التقاطع أمامنا يتّجهون إلى الأمام بفعل القصور الذاتي، لكنّهم سرعان ما انحرفوا ناحيتنا واتّجهوا إلينا بكلّ سرعة، ستّة كلاب أو سبعة، وما إن فعلوا ذلك حتّى ظهرت مجموعة أكثر عددًا خارجة من التقاطع نفسِه، بدتِ المجموعة

هذه المرّة أكبر كثيرًا وكأنّها لن تنتهيَ، كلّ كلاب القاهرة تجري معًا في ماراثون واحد.

أمسك القدِّيس بساعدي وقال: «اجرِ الآن! اجرِ معي نحو القصر!».

وجرينا معًا والكلاب تقترب منًّا بسرعة هائلة، لم نكن قد قطعنا مسافة كبيرة في أثناء مشينا مبتعدين عن القصر، كنتُ أسمع خطواتِ الكلاب تقترب منًّا بسرعة في أثناء الجري، وأدركت لحظة أنّي لم أسمع أيّ نباح يصدر منهم.

أمامنا تجمّع الناس داخل سور صنعوه من ألواح الخشب والصاج القصيرة، يسمح بالاختباء خلفه لكنّه لا يحجب الرؤية من فوقه، وفتحوا ممرّات عديدة تقود إلى القصر بطنوها بتلك الألواح، كانت المجموعات تبدو وكأنّها ألسنةٌ من البشر في بحرٍ أسودَ من الأسفلت. عندما اقتربنا أزاحت مجموعة من المحتمين لوحين من ألواح المقدّمة، ولوَّحوا بأذرعهم يدعوننا للدخول، اتجهنا معًا نحو المدخل واصطدمنا بالمجموعة من فرط سرعتنا، ثم أعادوا الألواح كما كانت، سورًا يمنع الكلاب من لمسنا.

في البداية اصطدمت كلاب عديدة بالسور الخشب، ارتجّتِ الألواح في أيدي الواقفين وكادت تنشطر، وبعد أقلَّ من دقيقة انتبهت الكلاب إلى أماكن الألواح وجرت في الممرّات نحو القصر، كان تيّار الكلاب هائل الحجم، أجساد آلاف الكلاب مرَّت عليَّ وأنا واقف خلف اللوح الخشب، تأتي من مصر الجديدة ومن شارع صلاح سالم، تمضي بسرعة لا تهتمّ لشيء، لا تتوقّف أو تلتفت، لا تنبح أو تصدر أيّ صوت سوى صوت احتكاك أقدامها بالأسفلت.

مضى التيار في طريقه ليعبر سور القصر ويدخل القصر نفسه، كان نهر الكلاب لا يزال يجري في الممرّات بين الناس متّجهًا نحو القصر، يهرول عبر بوّابته ويدخله بالمئات حينما ظهرتِ الكلاب من النوافذ والشرفات، ذيول ورؤوس متراكمة بعضها فوق بعض، امتلأت حجرات الطابق الأوّل والكلاب ما زالت تتوالى علينا وتجري عبر الممرّات.

مرَّ وقت طويل، ربّما نصف ساعة قبل أن يخفّ تيّار الكلاب الهائل، وظهر عددٌ متأخّر يهرول نحو القصر الذي كان قد امتلأ بالكامل، وتجمَّع ما تبقّى من كلاب حوله.

عمَّنا الصمتُ، وارتدى الكثيرون أقنعتَهم مستعدِّين لحدث ما، كان كلّ ما يحدث غيرُ متوقّع، وتلفَّتُّ حولي باحثًا عن القدِّيس ووجدتُه بعيدًا عنّي بمقدار عدّة أمتار، ناديته واقترب واقتربتُ منه، وعندما التقينا سألته: «ماذا الآن؟».

قال: «هذا ما حدَّثتُك عنه، سينهار القصر الآن».

رفعتُ عيني إلى القصر المزخرف العتيق، وفكّرتُ أنّ بناءً كهذا خالدٌ ولن ينهار أبدًا.

تابع القدِّيس: «كلّ المحيطين بنا يعلمون ذلك، كلّهم أتَوا ليشهدوا الانهيار الكبير».

بدا كلامه غريبًا لكنّي كنتُ قد اعتدتُ على كلّ غرابة تحدث حولي. قال لي وهو يربِّتُ على كتفي: «اطمئن، كلّ هؤلاء يعلمون، أنت بين أهلك يا عطارد».

وبالفعل اطمأننتُ كثيرًا. أنا بين العالِمين، واحدٌ منهم وأقف بينهم. وكدتُ أسأل القدِّيس إن كانت هذه هي النهاية، إن كان سينتهي هذا الجحيم بعد انهيار القصر؟

لكنّ ضوضاء الانهيار منعتني من الكلام، انهارتِ الحوائط والأسقف الداخلية أوّلًا، ثم انهارتِ القبّة والحوائط الخارجية على باقي الكلاب المتحلِّقة حول القصر، وارتفعت سحابة الغبار عشرات الأمتار ترافق اهتزاز الأرض تحت أقدامنا، وتلحق الصوت الهائل الذي صَمَّ كلّ الآذان. ثم بلغتنا السحابة التي حملت رائحة المطر وغمرتنا تمامًا.

لم أهتمّ قطّ لمصير الكلاب، لا ريب أنّ كلّهم قد نفق تحت أنقاض القصر.

بهدوء أخذ الجمع يتفرّق، ساروا مبتعدين دون كلام كثير، مصافحات

وتحيات صغيرة ورحلوا. والقدِّيس أشعل سيجارة وقال: «الكلاب ماتت يا باشا، النهاية غدًا».

وعلى الرغم من انتظاري للنهاية إلا أنّي جزعت حينما سمعت كلام القدِّيس، كنتُ كمريض السرطان الذي يتمنّى الموت، فلمّا رأى عزرائيل فزع.

قال القدِّيس: «سلام يا صاحبي.. ربّما سنلتقي في جحيم آخر دون ذاكراتنا الحالية».



مشيتُ متّجهًا نحو مصر الجديدة، سرتُ كثيرًا وتهتُ في الشوارع المتشابهة وبين العمارات القديمة، وصلتُ إلى حديقة كبيرة وعمارات عالية، مشيت بمحاذاة المترو وقررتُ أن أغامر فانحرفت في شوارع جانبية عديدة، كنتُ أتيه عن عمد.

لكنّ هذه الشوارعَ ليست غريبة عليَّ، رأيتها من قبل، أو رأيتُ ما يشبهها لكنّي لا أتذكّر الأسماء. هذا شارع مظلّم على جانبيه أشجارٌ صغيرة نحيلة تطلّ من خلف أسوار المنازل. أعمدة الإنارة مطفأة، ونور دكّان بعيد يأتيني قويًّا أبيض على غير العادة، لا مارّة هناك ولا سيّارات. فكّرتُ أنّي قد أنام هنا، على هذا الرصيف دون أن يزعجني أحد، سأنام نومًا عميقًا ولن أستيقظ إلا غدًا صباحًا لأشهدَ النهاية. هناك رجلٌ يجلس على كرسيّ خشب أمام الدكّان، كان بعيدًا جدًّا، وعلى الرغم من ذلك فقد بدا مسترخيًا تمامًا وذراعه معلّقة على ظهر الكرسي في كسل أحببته كثيرًا.

كنتُ أمشي على الرصيف متّجهًا نحو النور، عندما لمحتُ نافذة في السور الطويل على الناحية الأخرى، لا تنقل إلا الظلام عبر قضبانها الحديد الرأسية، وشمعات بيضاء مطفأة وذائبة مثبتة على إطارها. بياض الشمعات الناصع ينير المكان حولها دون نور. إن كان لهذا الجحيم من مخرج فهو هذه النافذة.

جلس الرجل هادئًا ينتظر، غمره الضوء القويّ الخارج من الدكّان

خلفه، ونظرتُ إلى واجهة الدكان الزجاج فلم أجد إلا رفوفًا من خشب لا تحمل سوى ساعات قليلة، ولا أحد داخل الدكان على الرغم من الضوء المبهر. حالما رآني ابتسم ابتسامة فرحة، لكنّه لم يتحرَّك من مكانه وأشار بذراعه يحييني، اقتربتُ منه وأنا أحاول أن أتذكَّر إن كنتُ قد رأيته من قبل، لكنّه لم يكن مألوفًا كالشارع قطّ، وغلبني الفضول فتقدَّمتُ منه وحييته.

قال إنّه ينتظرني منذ مدّة طويلة، مرَّت سنوات كثيرة وهو يجلس هنا كلّ يوم في الساعة نفسها، كان يعلم أنّي سآتي يومًا ما، في هذه الساعة بالضبط، نظر إلى ساعة يده وهو يقول إنّي لم أتأخّر وأتيت في موعدي بالدقيقة، وقال لي كيف يُضرب له موعدٌ يُذكر فيه الساعة ولا يُذكر اليوم، كان يلومني برفق لكنّه قال إنّه لم يمل قطّ، وإنّه كان لينتظر لسنوات طويلة قادمة دون أن يفقد إيمانه بمجيئي.

سألته إن كان يفضِّل أن ندخل إلى الدكّان، لكنّه قال إنّ الأمر لن يستغرق سوى دقيقتين على الأكثر، هو لن يقوم من مكانه وعليَّ أن أنهيَ كلّ شيء الآن.

على الرصيف المقابل رأيتُ شبح امرأة تضع بحرص شمعةً بيضاءَ منيرةً على إطار النافذة، ثم تمسك أحد القضبان الرأسية النحيلة، وتُتمتِم والنور يُظهر وجهها متغضِّنًا.

لم يتعجّلني قطّ بالكلام، لكنّ نظرته وابتسامته بدتا كذلك؛ دعوة إلى الاقتراب أكثر وأكثر. اقتربتُ من الكرسي وأحطتُ عنقه براحتيّ وأخذتُ أضغط، وقبل أن أزيد الضغط مدَّ يده وأمسك معصمي وتحشرج بكلام لم أفهمه، تركتُه فسعل قليلًا وفرك عنقه، ثم سألني إن كان يجب عليه أن يقاومني حتّى لا تُحسب الميتة انتحارًا. لم أجد إجابة صريحة، لكنّي قلتُ له بعد تردُّد إنّها ستحتسب ميتة عادية. اهتزّ جسده بسعادة وابتسم مرّة أخرى، هذه المرّة أشاح بوجهه ناظرًا نحو النافذة القريبة ووضع يديه في حجره مستسلمًا تمامًا، كانت الشمعة مطفأة والمرأة غائبة. أعدتُ الإمساك بعنقه وأخذت أضغط بكلّ قوّة.

20

لم يكن هناك الكثيرون في ميدان العتبة، ربّما لم يتعدّوا المئة فرد، يتابعون بملَلٍ وتراخٍ شنق عدّة أشخاص فوق المنصّة العالية. كانت العملية روتينيّة جدًّا؛ يقف المذنب تحت المِشنقة ويضع الجلّاد رقبته في الأنشوطة، ثم يبتعد لتُفتح الكوّة ويسقط الجسد معلَّقًا بالحبل. دقائق قليلة ويرتفع الجثمان ببطء، ينحني قليلًا لكنّه يترك الحبل مرخيًا بما يسمح بحلّ العُقدة، يقترب الجلّاد ويخرج الرأس من الأنشوطة، فيهبط الجسد ببطء داخل المِنصّة وتُغلق الكوّة، ليقف المذنب التالي في الموضع نفسِه.

مشيتُ في شارع عدلي، كانوا قد خوزقوا عددًا كبيرًا من الرجال أمام المعبد اليهودي وتركوهم، دماؤهم تلطّخ الخوازيق، كان المشهد أكثر دموية لكنّ الناس كانوا يعبرون أمام الجثامين دون أدنى التفاتة نحوهم. وجلس ضبّاطٌ عديدون، أكتافهم أدنى من أقدام الجثامين، يعبثون في هواتفهم ويقرؤون الجرائد.

في شارع طلعت حرب عُلِّق اثنان من عمودي إنارة، قدما كلّ منهما رُبطت بحبلٍ، وتدلّى جسده حرًّا، ذراعاه مفرودتان تتّجهان إلى الأرض، أحدهما عُلِّق في رأسه لافتة صغيرة كُتب عليها كلمات لم أتمكّن من قراءتها، اقتربت كثيرًا وأمعنت النظر، وبدتِ الحروف واضحة للغاية لكنّي لم أتمكّن من قراءة أيّ شيء.

قرب ميدان طلعت حرب كان العساكر قد رصُّوا العديد من الجثامين على هيئة تلّة صغيرة، مررت مع الناس على التلّة ولم يحدِّق فيها إلا اثنان أو ثلاثة.

تحيَّرتُ، هل أدخل إلى التحرير من شارع قصر النيل أم من طلعت حرب؟ لا أريد الالتفاف ودخول الميدان من طرفه البعيد، وبدا مجمّع التحرير واضحًا وأنا واقف في ركن شارع طلعت حرب، مشيتُ في الشارع الذي قد بدأ يزدحم بالناس. على ناصية شارع هدى شعراوي براميل زرقاء تحوى رؤوسًا مقطوعة، وصندوق زبالة أخضر كبير يمتلئ بجثامين بلا

رؤوس. كان الدم كثيرًا على الأرض، زلقًا في بعض المواضع متخثرًا في أغلبها، ولمّا حككت المواضع الصُّلبة بقدمي تقشّرت وأظهرت طبقات داكنة الحمرة زلقة من الدم. اتّسخ حذائي، وتوقّفتُ لحظة أفكّرُ كيف أنّني لم أمشِ يومًا بحذاء متّسخ.

عند مدخل الميدان التفتُّ دون وعي إلى مكان البرج، وتخيّلتُ قنّاصًا يقف هناك يرى الميدان ويراني، يتابعني بمنظاره وأنا أمشي متّجهًا نحو المركز. لوّحتُ مبتسمًا وأنا أنظر نحو الشرفة التي اعتدتُ الوقوف فيها. كان العدد في الميدان كبيرًا، وأنذر حجم المِنصّة الهائل بأعداد ضخمة ستأتي بعد دقائق. في مركز الميدان ارتفعت المِنصّة بمقدار ثلاثة أمتار تقريبًا، واتّسعت على الجلّاد الذي ارتدى سوادًا كاملًا، كان يرفع صناديقه من الفراغ تحت المِنصّة عبر كوّة لا نراها، ثم فتح الصناديق وأخرج أدواته منها، كان مشغولًا برصّ الأدوات ببطء على طاولة استقرّت قرب منتصف المِنصّة، لم يكسر سواد زيّه إلا ثلاث نجمات لامعات على كلّ كتف.

تخطّيتُ الواقفين حتّى صرتُ أقرب ما يكون من المِنصّة، منعني الزحام الكثيف بالقرب منها من التقدّم، لا نساء حولي، قليلون فقط مَن ارتدوا أقنعة بينما ترك الباقون وجوههم مكشوفة.

كنّا صامتين ننتظر ما سيحدث، انبعثت رائحة العرق خانقة من الواقفين، وجوههم مرهقة ولحاهم نابتة، الكثيرون منهم حفاة ملابسهم مهلهلة غير متناسقة، كنتُ غريبًا وسطهم.

انتشرت مجموعات عديدة من الصراصير حولنا، كانت عضلاتهم ترتجف، الصدور والسواعد والأكتاف، ظننتُ في البداية أنّهم يستعرضون قوّتهم، لكنّ كلّ هذا كان لا إراديًا، كانتِ الأجساد الفَتِيّة تنتفض دون وعي أو تحكُّم.

صعد طبيب إلى ظهر المِنصّة، بدا أنيقًا في ردائه الأبيض ونظّارته الطبّية، أخرج من حقيبة كبيرة أنابيب مرنة وأجهزة قياس ومحاقنَ وأكياسًا تحوى محاليل شفّافة. رصَّ كلّ هذا على الطاولة إلى جانب أدوات الجلاد.

كنت أشعر بارتجافات في ذراعي وتحت إبطي، وثقل هائل على كتفيّ، تنفَّست بصعوبة.

ثم ضرب الألم ظهري، وتقلَّصت عضلاتي.

فُتح باب في أرضية المِنصّة، وأخرج الجلّاد فريدة من الأسفل. عرفت جسدها فورًا ولم أكن بحاجة إلى انتظار الجلّاد وهو يرفع غطاء الرأس الأسود عنها.

كانت ترتدي ملابس حمراء، رأسها مرفوع تنظر إلى وجه الجلّاد وتتأمّله، حلقوا شعرها، وبدت رقبتها التي أحبّها نحيلة جدًّا.

أمسك الجلّاد بذراعها ومشى بها إلى صدر المِنصّة قرب المتجمهرين، ثم جعلها تدور ليعرضها عليهم فهاجوا؛ صياح وصفير وصرخات كثيرة، ورفع الكثيرون أذرعهم فرحين. بينما كانت السماء تنطبق عليَّ.

جرَّدها الجلّاد من ملابسها الحمراء تمامًا، لم تكن ترتدي أيّ شيء سواها. ثم أخذ يشير إلى ثدييها، وينظر إلى الناس وهو يرفع كفّه إلى ذقنه متعجّبًا، أشار لهم بسبّابته، كان ينبّههم إلى حلمتها الغائبة.

ثم أخذ مِبضعًا من الطاولة إلى جانبه، وقطع حلمتها الثانية ورمى بها إلى الناس.

هجم الناس من خلفي في عنف، وجوههم مشدوهة جامدة. كانوا يريدون التقاط الحلمة بأيّ ثمن. لكنّها كانت قد ضاعت بين الأقدام. غطتنا رائحة العرق زنخةً قويّة.

أعادها الجلّاد إلى منتصف المِنصّة وثديها ينزف، ألصقها بعمود من الخشب غليظ برز من منتصف المِنصّة، وقيّد رقبتَها بقَيد حديد مثبّتٍ به.

وضع الطبيب إبرة في عنقها ووصَّلها بكيس المحلول الشفّاف، ثم أخذ يوصل أجهزة القياس بصدرها. ثم ربط ذراعيها فوق المرفقين بأشرطة قماش بيضاء.

كان الجلّاد رحيمًا جدًّا، وقرَّر أن يقطع كفّيها بالكامل، لا أن يقطع أصابعها واحدًا تلو الآخر، قطعهما سريعًا دون دم كثير، ثم رمى الكفّين

إلى الناس. ازداد هيجان الناس وتزاحموا على الكفّين.

وبالمِبضع نفسِه قطع الجلّاد الجلد واللحم عند مِرفقها الأيمن، ثم أخذ يقطع المفصل بمنشار. ثم رمى الساعد إلى الناس. ثم قطع الآخر ورماه.

وصعد آخرُ من قلب المِنصّة بناءً على طلب الجلّاد، وقف خلف فريدة وأمسك بثديَيها وألصقها بالعمود. الخشب. وعمل الجلّاد بسرعة فقطع ساقيها عند الركبتين.

أصبتُ إصابات عديدة، كان الناس يتشاجرون بكلّ عنف على الأعضاء الملقاة إليهم، ترك الجلّاد الآخر فريدة لتتخبّطَ معلّقة من عنقها تحاول الإفلات من المِشنقة الحديد. ووقف كثيرون حولي ثابتين يرفعون رؤوسهم نحو فريدة المعلّقة، كانوا قد أنزلوا ما يرتدونه وأخذوا يستمنون.

عدَّل الجلّادان وضع فريدة، أسندوا ما تبقّى منها إلى كرسي مرتفع، ثم قطع الجلّاد دائرة الجلد حول ثديَيها، وأخذ يعمّق القطع حتّى استأصلهما تمامًا. ورماهما إلى الناس. اختلطت رائحة المَنيّ بالغة القوّة برائحة العرق. ولم أعد أشعر بالألم أو بالثقل على جسدي. كان قد تحرَّر أخيرًا.

وقف الكثيرون حولي عرايا تمامًا، والمنيُّ يقطر من ذكورهم، وراح واحدٌ يضرب رؤوس من حوله بماسورة قصيرة من حديد رنَّت مع كلّ ضربة، لكنّ أحدًا لم يلتفت له ولا لضرباته، حتّى من كان يضربهم لم يتحرَّكوا.

ثم سمعتُ صوت إطلاق نار، وسقط كثير من الواقفين إلى جانب المِنصّة، أطلقوا النار من تحت المِنصّة كي يوسِّعوا مكانًا لأنفسهم، خرجت مجموعة من المقنّعين يرتدون ملابسَ سوداءَ وقمصانًا واقيةً من الرَّصاص، شهروا أسلحتَهم في وجوه الواقفين، وأخرج ثلاثة منهم المرآة الصقيلةِ الضخمة، تلمع تحت الشمس وتظهر قاعدتها بعجلات كبيرة، وضعوها رأسيةً على الأرض، وحرّكوها على الجثث تهتزّ وتكاد تسقط، إلى أن عبروا فوق كلّ الساقطين.

داروا ربع دورة حول المِنصّة، كانتِ المرآة تدور وأرى صورة العمارات

والسماء خلفها زرقاء تنعكس على الجانب المواجه لي. بدا كأنّي أنظر إلى جحيم آخر.

ثم توقّفوا أمام فريدة، ورفع الجلّاد رأسها نحو المرآة، تعلّقت عيناها بها، كانت فريدة لا تزال حيّة وابتسمت.

ثم فكَّ الجلّاد القيدَ من رقبتها، وحملها بمعاونة زميله ورمياها إلى الناس.

هجم المئات على فريدة، سقطتُ وكانت الأقدام تدهس كلّ جزء في جسدي، وتعلّقت بساق هاربة فسقط صاحبها وسقط من خلفه الكثيرون، ولمّا توقّف هجوم الناس تمكّنت من الوقوف بصعوبة.

بحثت عن فريدة لكنّها كانت أهمّ من أن يتركوها، ركض الناس نحو طرف الميدان فركضتُ معهم، ولمحتُ جسد فريدة يطير بين أكفّ الناس، يتقاذفونه والدم يلطّخه، يظهر لحظة ثمّ يختفي ثوانيَ، ثم يظهر والدماء تلوِّثُه أكثر وأكثر.

وأخيرًا رفعوها إلى أعلى، وركضوا بها نحو شارع محمّد محمود، كنتُ أرى وجهها فزعًا، فزع فوق فزع كما أخبرتني زهرة.

وعلمتُ أنّ زهرة رُحمت رحمة واسعة.

أما من لحظة إغماء؟ ألا أفقدُ الوعي ليُخفّف عذابي؟

وفريدة، ألا تموت؟

ضربتنا ريح باردة قادمة من ناحية فريدة، وعلمتُ أنّ هذه رحمة الموت تأتينا أخيرًا أخيرًا. وبكيتُ لأنّي كنت قد يئست من قدوم الموت.

ثم سقط مَن يحمل فريدة أخيرًا وسقطت معه.

وسرى الموت بين الناس كأنّه موجة تأخذهم، ترفع الأرواح وتُسقط الأجساد، كانوا يموتون وهم يتحرّكون ثم يسقطون،واقتربت الموجة منّي وتجاوزتني، أخطأني الموتُ وعبر إلى مَن خلفي.

وخلال ثانية واحدة لا أكثر، انقلبت الضوضاء إلى صمت تامّ، حتّى مَن تبقّى واقفًا كان صامتًا ينظر إلى الساقطين حوله بجمود.

التحم الواقفون في عراك مرير، بكَوا بحرقة وهم يلطمون الرؤوس بقبضاتهم، انتزع أحدهم عين الآخر، وحاول خلع فكّه، وأخذ واحد يعضّ رقبة الرابع حتّى انبثق الدم منها. وأخذ اثنان يخنقُ بعضهما بعضًا، كلّ واحد يحيط رقبة الآخر براحتيه ويحاول رفعه إلى أعلى، ثمّ مات أحدهما فأفلت رقبة الآخر، فرفعه من رقبته متابعًا خنقه بعدما مات، كان ينشِجُ ويصرخ بحرقة وأخذ يطوّح الجثمان يمينًا ويسارًا.

مالي لا أموت؟

مشيتُ نحو موضع سقوط فريدة، تتعثّر قدماي بالجثامين الطرية، أتفادَى المتقاتلين حولي، واضطررت إلى السجود والسير على أربع حتّى أصل إليها، أضع كفَّيّ على اللحم والرؤوس. كانت الريح تضرب وجهي حاملة كلّ روائح الجثامين العطِنَة وكلّ صرخات المتصارعين الملتاعة.

سقطت فريدة عند مطلع شارع محمّد محمود، وصلت هناك وبحثت عن جثمانها لكنّي لم أجده، اختفى تحت الجثامين ولم يظهر منه شيئًا. وفكّرتُ أنّ الجحيم سينتهي الآن ولا فائدة من دفنها.

والتفت خلفي نحو مركز الميدان والشمس الغاربة لأجد أنّ كلّ الجثامين اختفت، راحت مع المِنصّة، لا شيء على الأرض، لا شيء خلفي.

كنتُ ساجدًا على الأسفلت مباشرة، دون جثامين تحتي، حتى جثمان فريدة.

تأمّلتُ كلّ الشوارع المحيطة، شارع قصر العيني وشارع محمّد محمود وشارع طلعت حرب، كلّها خالية من كلّ شيء، لا سيّارات ولا بشر. كنتُ وحيدًا هنا.

ورأيتُ الجحيم ينتهي رويدًا رويدًا.

اختفى كلّ صوت من حولي عدا صوت الرياح، كانت تنطلق وتحرّك أطراف ملابسي، ثم هدأت إلى أن انقطعت تمامًا وغاب صوتها عن أذني.

ولم أعد أسمع سوى نبضات قلبي وسط الصمت المحيط بي، لا شيء

حولي الآن إلا مباني الجحيم وشوارعه وطرقه ولافتات دكاكينه، لا أثر للبشر أبدًا. ثم تباطأت نبضات قلبي كثيرًا، وخفَّ صوتُها إلى أن غاب.

ولم أعد أسمع أيّ شيء.

ثم رأيتُ أنّي كنتُ شرطيًّا في الدنيا، ورأيتُ أنّي كنت شرطيًّا في حيوات متعدِّدة في جُحُم كثيرة، ومرَّت ملايين الصور رأيتُ فيها كلّ شيء؛ كيف كنتُ أعذِّبُ الناسَ وأُعذَّبُ معهم.

ورأيتُ أنّ الجحيم دائمٌ لا ينقطع، أزليٌّ أبديّ، وأنّ كلّ شيء سيفنى في النهاية ولن يتبقّى سواه. وعلمتُ أنّي خالدٌ في الجحيم. وأنّني ابنُ الجحيم.

شكرٌ وعرفان

ما كان لهذه الرواية أن تتمَّ دون جهود الأسماء التالية:

فكرة الرواية الأصلية قرأتها على الإنترنت، عند عدَّة أشخاص على مواقع التواصل الاجتماعي، لكنّ الصديق نائل الطوخي طوّرها وحدّثني عنها في يومٍ ما، ولولا أنّه ذكّرني بها، لَمَا كُتِبَت.

الصديقُ مصطفى سلطان، وهو ضابط شرطة سابق، أخبرته أنّ الرواية لن تعجبَه أبدًا، وربّما تكون مخالفه لآرائه، لكنّه مع ذلك لم يبخل بأيّة معلومات تخصّ العمل في الشرطة، وأمدّني بالكثير من المعلومات عن السلاح والذخيرة.

كتاب «مَن عاش بعد الموت» للحافظ ابن أبي الدنيا كان له أثرٌ كبيرٌ في هذا العمل، بخاصَّةٍ الجزءُ الخاصُّ بصخر الخزرَجي.

أشعارُ تشارلز بوكاوسكي وفؤاد حدّاد كان لها أثرٌ رائع.

العديد من الأصدقاء قرؤوا المخطوطة، وأبدَوا ملاحظاتٍ مهمّة ومؤثّرة، منهم: عزّة مغازي، ياسر عبد اللطيف، أحمد وائل، أحمد ناجي، ماهر عبد الرحمن، مروة المليجي، حسن ياغي، فاروق عادل، منتصر القفاش، أشرف فوزي، هيثم الورداني، هيثم يحيى، روبن مودجر، إيمان مرسال.

الذي يخيفك لن يأتي، فقد أتى بالفعل! يكفي أن تخف
طرك قليلا فتراه تحت جلد الحياة اليومية يختبئ بكل ملا
صيلها المبتذلة. تلك التفاصيل التي تذهب في ساقيتها بد
كي تحتمل تلك الرؤيا الأخرى الأبوكاليبتية. كأن الحياة نح
تويين؛ مستوى للوعي الخامل عند معامل انحرافه الصف
آخر تنظر منه من خلال جروح الوعي فترى الجحيم ق
ول لنا عطارد...

هو أقرب الكواكب للشمس، وهو أكثرها حرارةً. هو قطعة
بمعاييرنا الأرضية. وهو أيضا ضابط ممن شهدوا ان
في ٢٨ يناير ٢٠١١. بعد عقد وعدة أعوام من تلك الأح
حت احتلال غامض وفلول الشرطة القديمة تتولى ق
ة الشعبية بين الأطلال المحطمة للقاهرة. جحيم يومي
عشوائي، يكثف ما شاهدناه من مجازر متفرقة تلت أحداث
. هي خيالات وهواجس "الثورة المضادة" وقد صارت واقع
كابوسي.

وكب عنبر" و"عام التنين" يواصل محمد ربيع في "عطارد
روايته الثانية تحديداً من فانتازيا سياسية تقارب اليو
ة "الديستوبيا" هذه المرة، في سرد يكتم الأنفاس يتنقل
مستقبلية شديدة الاعتام، وماض كان مسكونا دائمًا
.

ياسر عبد الل

ربيع كاتب مصري من مواليد ١٩٧٨،